الوسائل الجلية
في
نصرة الدعوة السلفية

تأليف

أبي محمد

عبد الحميد بن يحيى بن زيد الحجوري الزعكري

تقديم فضيلة العلامة

الشيخ أبي عبد الرحمن يحيى بن علي الحجوري

حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم فضيلة العلامة

الشيخ أبي عبد الرحمن يحيى بن علي الحجوري

حفظه الله

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق المبين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصادق الأمين، أما بعد:

فقد تصفحت ما كتبه الشيخ عبد الحميد الزعكري الحجوري حفظه الله في كتابه هذا المسمى (الوسائل الجلية لنصرة الدعوة السلفية) فرأيته جمع فيه عدة مواضيع ونصائح تربوية نافعة أثابه الله على ذلك.

على أن وسائل نصرة الدعوة السلفية أشمل مما ذكر في هذا الكتاب، فكل خير وبر وعبادة خالصة لله عز وجل وإتباع لهدي نبيّه ﷺ هو من وسائل نصرة الدعوة السلفية؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[الحج:٤٠]، ونصرة الله عز وجل بإقامة دينه وتعظيم شعائره وما جمعه الشيخ عبد الحميد حفظه الله هنا إنما هو من باب الدال على الخير له مثل فاعله، وبالله التوفيق.

كتبه

يحيى بن علي الحجوري

١٦/ صفر/ ١٤٢٩هـ

مقدمة المؤلف

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، كما يحب ربنا ويرضى، القائل: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ﴾[آل عمران:١٩]، والقائل: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا﴾[البقرة:١٣٧]، والقائل: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[آل عمران:٨٥]، والقائل: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾[الأنعام:٩٠]، والقائل: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾[الأعراف:٣]، والقائل:﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧]، والقائل: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨]، والقائل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[آل عمران:٣١]، والقائل: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا مزيدًا، القائل: »فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة«، والقائل: »فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم

الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد«.

والقائل: »بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء«، والقائل: »لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله«.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن الله عز وجل بعث محمدًا بالهدى ودينه الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، ثم بين له سبحانه وتعالى هذا الدين غاية البيان وأتمه حق التمام، فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[المائدة:٣]، فمن تمسك بهذا الدين وأخذ بطريقه القويم هدي إلى الصراط المستقيم، وكان ممن قال الله فيهم: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيمًا﴾[النساء: ٦٩-٧٠].

فأتته النبوة أول أمره بالعلمِ دل على ذلك أول خمس آيات أنزلت من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق: ١-٥].

ثم حث ﷺ وأمر بالتبليغ والنذارة، ف**قال تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[المدثر: ١-٥].

فقام رسول الله ﷺ بما أمر به خير قيام، وبينه غاية البيان، بدأ بالتوحيد الذي هو حق الله على العبيد، فكان يسير في الأسواق ويقطع البلدان والآفاق يقول: »قولوا لا إله إلا الله تفلحوا«، وكان ﷺ داعيًا حكيمًا رءوفًا رحيمًا، وبحق الله عز وجل عليمًا، فتم له النصر وحصل له الظفر ولأعدائه الهزيمة والخور، فالحمد لله على ما أنعم.

ولما كانت هذه الدعوة التي نحن عليها هي دعوة الله عز وجل، وهي دين الإسلام الحق الذي أنزل الله به الكتاب وشرع من أجله الجهاد؛ أحببت أن أكتب ما تيسر من وسائل نصرة هذا الدين القويم تكون عونًا بأذن الله عز وجل لمن سلك الطريق وأراد الوصول إلى المأمول يستفيد منها المبتدي، وأرجو أن ينتفع به المهتدي، أسميتها: »الوسائل الجلية لنصرة الدعوة السلفية«، اقتصرت فيها على ذكر خمسين وسيلة هي زمام الوسائل وعليها مدار ما بعدها من الوسائل، وربما استطردت في بعضها حرصًا على الفائدة وربطًا للقارئ بالكتاب والسنة وأخبار السلف السابقين.

فالله أسأل أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن يتوفانا ووالدينا ومشائخنا مسلمين، وأن يلحقنا بالصالحين غير ضالين ولا مضلين والحمد لله رب العالمين.

كتبه أبو محمد الحجوري

عبد الحميد بن يحيى بن زيد الزعكري

دار الحديث السلفية العامرة بدماج الخير حرسها الله

وحفظ الله القائم عليها ورحم بانيها

ضحى الأحد غرة ذي القعدة لعام ثمانية وعشرين وأربع مئة وألف

الأولى: ولينصرنَّ الله من ينصره

وأول هذه الوسائل وأعظمها وأجلها على الإطلاق هو نصر الله عز وجل بامتثال شرعه وأمره.

وقال تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[محمد:٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾[الحج:٤٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١-٥٢].

وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١].

وقال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[لأعراف:١٢٨].

وقال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾[طه:١٣٢].

في آيات كثيرات طيبات مباركات من تدبرها علم أن الله عز وجل وعد بتمكين المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[النور:٥٥].

وقد أنجز الله وعده وصدق عبده، فله الحمد والمنة، فمن أراد النصر والتمكين والعز المبين فما عليه إلا حفظ الله تعالى في أمره ونهيه،ومراقبته جل وعز في السر والعلن، وأحق

الناس بهذه المزية هم حملة السنة النبوية والطريقة المرضية، ودعاة السلفية.

قال ابن رجب : في «نور الاقتباس» (٣٨-٤٠): من حفظ حدود الله وراعى حقوقه تولى الله حفظه في أمور دينه ودنياه، وفي دنياه وآخرته، وقد أخبر الله في كتابه أنه ولي المؤمنين، وأنه يتولى الصالحين، وذلك يتضمن أنه يتولى مصالحهم في الدنيا والآخرة، ولا يكلهم إلى غيره، **قال تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾**[البقرة:٢٥٧].

وقال: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾** [محمد:١١].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق:٣].

وقال: **﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾**[الزمر:٣٦].

فمن قام بحقوق الله عليه فإن الله يتكفل له بالقيام بجميع مصالحه في الدنيا والآخرة، ومن أراد أن يتولى الله حفظه ورعايته في أموره كلها، فليراع حقوق الله عليه، ومن أراد ألا يصيبه مما يكره فلا يأت شيئًا مما يكرهه الله.

كان بعض السلف يدور على المجالس ويقول: من أحب أن تدوم له العافية فليتق الله.

وقال العمري الزاهد لمن طلب منه الوصية: كما تحب أن يكون الله لك فهكذا كن لله عز وجل. أهـ

وأخرج الإمام الترمذي (٢٥١٦) من حديث ابن عباس ت قال: كنت خلف النبي ﷺ يومًا، فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: أحفظ الله يحفظك، أحفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن

ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف«.

هذا حديث حسن صحيح.

قال أبو عبد الرحمن الوادعي : في كتاب «الجامع الصحيح في القدر« (رقم٤٤): قيس بن الحجاج لم أجد فيه توثيقًا معتبرًا إلا قول أبي حاتم صالح كما في الجرح والتعديل لابنه، وهذا لا يرفع الحديث إلى الحسن، لكنه قد جاء من طرق عن ابن عباس كما في «جامع العلوم والحكم« لابن رجب :. أهـ

الحديث في «جامع العلوم والحكم« ترتيبه التاسع عشر.

قال ابن رجب : في شرح الحديث: وهذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهم أمور الدين، حتى قال بعض العلماء: تدبرت هذا الحديث فأدهشني، وكدت أطيش، فوا أسفى من الجهل بهذا الحديث وقلة العلم.

فقوله: «احفظ الله« يعني: احفظ حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه، وحفظ ذلك هو الوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده فلا يتجاوز ما أمر به وأذن فيه، إلى مانهى عنه، فمن فعل ذلك فهو من الحافظين لحدود الله الذين مدحهم الله في كتابه وقال: ﴿**هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ**﴾ [قّ: ٣٢-٣٣].

وفسر الحفيظ هنا بالحافظ لأوامر الله، وبالحافظ لذنوبه ليتوب منها.

قلت: ومن أعظم ما يحافظ عليه السلفي قبل غيره من الناس توحيد الله عز وجل، وإفراده بما ينبغي له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فهذا هو الأصل الأصيل الذي

دعت إليه الرسل وأنزلت به الكتب، وقال تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

ولا تقوم دعوة ويظهر خير إلا بالمحافظة على هذا الجانب العظيم الذي هو أعظم السبل الموصلة إلى الله عز وجل، وسيأتي في بعض الفقرات توضيح لهذا الجانب بتوسع أكثر مما هنا إن شاء الله.

ونعود لكلام ابن رجب رحمه الله تعالى، قال: ومن أعظم ما يجب حفظه من أوامر الله الصلاة، وقد أمر الله بالمحافظة عليها فقال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾[البقرة:٢٣٨].

ومدح المحافظين عليها بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج:٣٤].

وقال النبي ﷺ: «من حافظ عليها كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة».

قلت: الحديث أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧، ٣١١) وغيره من حديث عبادة ابن الصامت وهو في «الصحيح المسند» لشيخنا الوادعي رحمه الله تعالى.

وقال رحمه الله في بيان ما يحافظ عليه: وكذلك الطهارة فإنها مفتاح الصلاة.

ومما يؤمر بحفظه الأيمان، وقال تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾[المائدة:٨٩]، فإن الأيمان يقع الناس فيها كثيرًا، ويهمل كثير منهم ما يجب بها فلا يحفظه ولا يلتزمه.

قلت: حفظ الأيمان يكون تكفيرها وعدم الإكثار منها.

وقال: ومن ذلك حفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى.

وحفظ الرأس وما وعى يدخل فيه حفظ السمع والبصر واللسان من المحرمات، وحفظ البطن وما حوى يدخل فيه حفظ القلب من الإصرار على محرم، قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾[البقرة:٢٣٥].

وقد جمع ذلك كله في قوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[الاسراء:٣٦].

ويتضمن أيضًا حفظ البطن من إدخال الحرام إليه من المآكل والمشارب.

ومن أعظم ما يجب حفظه من نواهي الله عز وجل اللسان والفرج، وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من حفظ ما بين لحييه وما بين رجليه دخل الجنة» رواه الحاكم (٤/ ٣٥٧).

وخرج الإمام أحمد (٤/ ٣٩٨) من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ: «من حفظ ما بين فقميه وفرجه دخل الجنة».

قلت: قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٩٨): رواه أحمد والطبراني وأبو يعلى بنحوه ورجال الطبراني وأبي يعلى ثقات، وفي رجال أحمد راوٍ لم يسم وبقية رجاله ثقات. أهـ

قال رحمه الله: وأمر الله عز وجل بحفظ الفروج ومدح الحافظين لها، فقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ

يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور: ٣٠-٣١].

وقال: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾[الأحزاب:٣٥].

وقوله: «يحفظك» يعني أن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه حفظه الله، فإن الجزاء من جنس العمل كما وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠]. وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[البقرة:١٥٢]، وقال: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ﴾[محمد:٧].

وحفظ الله لعبده يدخل فيه نوعان:

أحدهما: حفظه له في مصالح دنياه كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله، قال الله عز وجل: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾[الرعد:١١].

قال ابن عباس: هم الملائكة يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء القدر خلو عنه.

وأخرج الإمام أحمد (٢/ ٢٥)، وأبو داود (٥٠٧٤)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨/ ٢٨٢) من حديث عبد الله بن عمر قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هذه الدعوات حين يمسي وحين يصبح: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وأمن روعاتي، واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي».

النوع الثاني من الحفظ وهو أشرف النوعين: حفظ الله للعبد في دينه وإيمانه، فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة ومن الشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه عند موته فيتوفاه

على الإيمان.

وفي الجملة فالله عز وجل يحفظ على المؤمن الحافظ لحدوده دينه ويحول بينه وبين ما يفسد عليه دينه بأنواع من الحفظ، وقد لا يشعر العبد ببعضها، وقد يكون كارهًا له كما قال في حق يوسف: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف:٢٤].

قال ابن عباس في قوله: ﴿أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[الأنفال:٢٤].

قال: يحول بين المؤمن وبين المعصية التي تجر إلى النار.أهـ

وشاهدنا من كل ما تقدم أن الله عز وجل إذا حُفظت أوامره ونواهيه ونُصر بتطبيق شرعه ثبَّت هذا الحافظ، واستمر هذا الداعي في نشر الخير، أما إذا كان الداعي إلى الله عز وجل خاربًا في توحيده وعباداته ومعاملاته فلا نصر له ولا تمكين ولنقف مع قصة يوسف وما فيها من العبر، وقد وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾[يوسف:١١١].

وقال تعالى في سورة هود بعد ذكر بعض الأنبياء وصبرهم ومجاهدتهم وحفظهم للأوامر والنواهي: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[هود:١٢٠].

قال الله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ * وَاسْتَبَقَا

الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ * وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * ثُمَّ بَدَا لَهُم مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ * وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ

الْحُكْمُ إِلَّا للهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ * وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ * وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ * وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ للهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا

﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[يوسف: ٢٢-٥٧].

فانظر وفقك الله كيف حفظ الله يوسف عليه السلام الأمر والنهي، وراقب الله عز وجل في موقف عصيب مع امرأة جميلة ذات منصب وجمال، فقال: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[يوسف:٢٣]، فحفظه بعد ذلك ومكنه.

وأخرج الإمام الترمذي (٣١٧٧) من حديث: عَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ مَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ وَكَانَ رَجُلًا يَحْمِلُ الْأَسْرَى مِنْ مَكَّةَ حَتَّى يَأْتِيَ بِهِمْ الْمَدِينَةَ قَالَ: وَكَانَتْ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ بِمَكَّةَ يُقَالُ لَهَا عَنَاقٌ وَكَانَتْ صَدِيقَةً لَهُ وَإِنَّهُ كَانَ وَعَدَ رَجُلًا مِنْ أُسَارَى مَكَّةَ يَحْمِلُهُ قَالَ: فَجِئْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى ظِلِّ حَائِطٍ مِنْ حَوَائِطِ مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ قَالَ: فَجَاءَتْ عَنَاقٌ فَأَبْصَرَتْ سَوَادَ ظِلِّي بِجَنْبِ الْحَائِطِ فَلَمَّا انْتَهَتْ إِلَيَّ عَرَفَتْهُ فَقَالَتْ: مَرْثَدٌ؟ فَقُلْتُ: مَرْثَدٌ، فَقَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا هَلُمَّ فَبِتْ عِنْدَنَا اللَّيْلَةَ قَالَ: قُلْتُ: يَا عَنَاقُ، حَرَّمَ اللهُ الزِّنَا قَالَتْ: يَا أَهْلَ الْخِيَامِ هَذَا الرَّجُلُ يَحْمِلُ أَسْرَاكُمْ قَالَ: فَتَبِعَنِي ثَمَانِيَةٌ وَسَلَكْتُ الْخَنْدَمَةَ فَانْتَهَيْتُ إِلَى كَهْفٍ أَوْ غَارٍ فَدَخَلْتُ فَجَاءُوا حَتَّى قَامُوا عَلَى رَأْسِي فَبَالُوا فَظَلَّ بَوْلُهُمْ عَلَى رَأْسِي وَأَعْمَاهُمْ اللهُ عَنِّي، قَالَ: ثُمَّ رَجَعُوا وَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي فَحَمَلْتُهُ وَكَانَ رَجُلًا ثَقِيلًا حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْإِذْخِرِ فَفَكَكْتُ عَنْهُ كَبْلَهُ، فَجَعَلْتُ أَحْمِلُهُ وَيُعْيِينِي حَتَّى قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَأَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَنْكِحُ عَنَاقًا؟ فَأَمْسَكَ رَسُولُ الله ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ شَيْئًا حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَا مَرْثَدُ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ فَلَا تَنْكِحْهَا».

وهذا الصحابي الجليل راقب ربه عز وجل فأكرمه وأعزه وأنزل فيه قرآناً يتلى إلى ما

شاء الله عز وجل، وأخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل تعلق قلبه بالمساجد، ورجلان تحابا في الله أجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

فهؤلاء الأصناف إنما حصل لهم ذلك لحفظهم للأوامر الله عز وجل ونواهيه ومراقبته له في السر والعلن.

والوسيلة الثانية: كل ما لا يراد به وجه الله يضمحل:

هذه المزية العظيمة والعبادة الجليلة القويمة التي من حققتها كان من الأتقياء السعداء الأصفياء، **وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾**[البينة:٥]، **﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾**[الأعراف:٢٩]، **وقال تعالى: ﴿قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾** [الزمر:١٤].

وقال ﷺ كما في حديث أبي هريرة عند البخاري، حين سئل: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه».

ومن أعظم ثمرات الإخلاص في الدنيا قبل الآخرة أن صاحبه ينجو من مكر ابليس اللعين، ومن جنوده أجمعين، قال الله تعالى مخبرًا عن أبليس: **﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾**[الحجر: ٣٦-٤٠]..

والمخلص ناج من العذاب الأليم وموعود بجنة النعيم، **قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو**

الْعَذَابِ الْأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ * أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[الصافات: ٣٨-٤٣].

والإخلاص من أعظم الأسباب للحيلولة بين العبد والمعصية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

ومن حديث زيد بن ثابت عند أحمد (٥/ ١٨٣): أن النبي ﷺ قال: «ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصح لأئمة المسلمين، ولزوم الجماعة».

الحديث في «الصحيح المسند» للإمام الوادعي رحمه الله.

وللإخلاص آثار عظيمة، فكم من عالم رفعه الله بالإخلاص، وكم من دعوة انتصرت بسبب اخلاص دعاتها.

ولما ذُكر عند الإمام ابن باز انتشار دعوة الشيخ الإمام أبي عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي رحم الله الجميع، فقال ابن باز رحمه الله: هذه ثمرة الإخلاص.

قال مكحول رحمه الله كما في «مدارج السالكين» (٢/ ٩٦): ما أخلص عبد قط أربعين يومًا إلا ظهرت ينابيع الحكمة في قلبه ولسانه.

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[الكهف:١١٠].

وهذان أن ركنا العمل المتقبل لا بد أن يكون خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله ﷺ.

قال الربيع بن خثيم كما في ترجمته في السير (٤/ ٢٥٤٢): (كل ما لا يراد به وجه الله

يضمحل).

وقال ابن القيم في «الفوائد» (١٢٦٧): العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملًا ينقله ولا ينفعه.

وما أجمل قول مالك بن دينار لو عمل به كما في «السير» (٥/ ٣٦٢): (منذ عرفت الناس لم أفرح بمدحهم ولم أكره ذمهم؛ لأن حامدهم مفرط وذامهم مفرط، إذا تعلم العالم العلم للعمل كسره، وإن تعلمه لغير العمل زاده فخرًا).

وذكر الذهبي في «السير» (٨/ ٤٢٧) في ترجمة الفضيل: (ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما).

ومن طلب العلم لله عز وجل وفقه الله عز وجل ورفع قدره ويسر له الدعوة إليه، ومن لا لم يُمَكّن وربما سُلب عنه العلم كما نلاحظ كثرة الساقطين، نسأل الله السلامة.

قال حماد بن سلمة كما في «السير» (٧/ ٤٤٨): من طلب الحديث لغير الله مكر به.

وقال ابن المبارك كما في «السير» (٨/ ٩٧): ما رأيت أحدًا ارتفع مثل مالك؛ ليس له كثير صلاة ولا صيام؛ إلا أن تكون له سريرة.

قال الذهبي معقبًا على هذا الكلام: ما كان عليه من العلم ونشره أفضل من نوافل الصوم والصلاة لمن أراد به الله.

وقال أبو حازم كما في المرجع السابق (٦/ ١٠٠): لا يحسن عبد فيما بينه وبين الله إلا أحسن الله ما بينه وبين العباد. أهـ

قلت: وما أحسن أحدٌ ما بينه وبين العباد إلا انتشرت دعوته وازدهرت.

ورحم الله ابن القيم إذ يقول في «المدارج» (٢/ ٩): إذا غُرست شجرة المحبة في

القلب وسقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها، أصلها ثابت في قرار القلب وفرعها متصل بسدرة المنتهى.أهـ

وقالرحمه الله في "الفوائد" (٢٤٢١): دالاً على طريقة تحصيل الإخلاص، لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار، والضب والحوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولاً فأذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فأزهد فيهما، زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص، فإن قلت: وما الذي يسهل علي ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟ قلت أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقينًا أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره، ولا يؤتى العبد منها شيئًا سواه، وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي: (إن مدحي زين وذمي شين) فقال: «ذلك الله عز وجل»، فازهد في مدح من لا يزينك مدحه، وفي ذم من لا يشنيك ذمه، وارغب في مدح من كل الزين في مدحه، وكل الشين في ذمه، ولن تقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين، فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب **قال تعالى:** ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ**﴾ [الروم:٦٠].

وقال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ [السجدة:٢٤].

فعلى الداعي إلى الله عز وجل أن يصدق مع ربه بالإخلاص والمراقبة، فإذا فعل ذلك

أقبل الله بقلوب العباد عليه وعلى دعوته، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦].

واعلم أن جميع الأعمال عائدة إلى نية العبد في قبولها وجعل البركة فيها، دل على ذلك حديث عمر رضي الله عنه عند الشيخين: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».

قال ابن القيم في الفوائد (٢٣): فصل الإخلاص لله، وقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم:٤٢] متضمن لكنز عظيم، وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به، وإلا فهو مضمحل منقطع، فإنه ليس إليه المنتهى وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه، فهو غاية كل مطلوب وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه.أهـ

وانظر بعين المعتبر ما حصل للثلاثة النفر الذين ذكرا قصتهم عند البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣) قال رسول الله ﷺ: انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى آوَاهُمْ الْمَبِيتُ إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنْ الْجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً للهِ فَادْعُوا اللهَ تَعَالَى بِهَا لَعَلَّ اللهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَامْرَأَتِي وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ

أَحْلُبُ فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ فَفَرَجَ اللهُ مِنْهَا فُرْجَةً فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ، وَقَالَ الْآخَرُ: اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ فَجِئْتُهَا بِهَا فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ، اتَّقِ اللهَ وَلَا تَفْتَحْ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ عَنْهَا فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، فَفَرَجَ لَهُمْ، وَقَالَ الْآخَرُ: اللهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ فَرَغِبَ عَنْهُ فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرِعَاءَهَا فَجَاءَنِي فَقَالَ اتَّقِ اللهَ وَلَا تَظْلِمْنِي حَقِّي قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا فَخُذْهَا فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرِعَاءَهَا فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ فَفَرَجَ اللهُ مَا بَقِيَ«.

وما أنجاهم في ذلك الوقت العصيب إلا توسلهم إلى الله عز وجل بالإخلاص، والمخلص أيضاً همه الله والدار الآخرة، فلا يصده مكر الماكرين ولا كيد الكافرين، ولا سخرية أو استهزاء المستهزئين، **وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾**[الإسراء:١٩].

الثالثة: لا يستقيم قول وعمل إلا بموافقة السنة:

المتابعة للنبي ﷺ في كل ما جل ودق وكبر وصغر، ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، من

أعظم وسائل نصرة الدعوة: **وقال تعالى:** ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[الأحزاب:٣٦].

وقال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء:٦٥].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾[الأحزاب:٢١].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣].

ومن الفتن العظيمة أنهيار الدعوات والرجوع إلى القهقرى.

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٧].

ومن أعظم الفلاح هو انتصار وتمكن الدعوة السلفية، فكن كما أراد الله عز وجل تمكن في الدنيا والآخرة.

قال الجنيد كما قال السيوطي في الأمر بالاتباع (٥٣): الطرق كلها مسدودة إلا على المقتفين آثار رسول الله ﷺ، والمتبعين سنته وطريقته، فإن طرق الخير مفتوحة عليه كما وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب:٢١].

ومن أعظم الأدلة على أن الدعوة تنصر بمتابعة النبي ﷺ: هو ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث المغيرة، ومن حديث جابر ومعاوية وثوبان وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين، بألفاظ متقاربة: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم ومن خالفهم، حتى تقوم الساعة وهم على ذلك».

فأنظر إلى هذا الوعد النبوي الذي هو وعد رباني لقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[النجم: ٣-٤]، كيف جعل من وسائل الاستمرار والظهور لهذه الدعوة الحقة هو سلوك سبيله ﷺ، وهديه وطريقته، هذا السبيل التام الكامل الشامل الذي قال الله تعالى عنه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً﴾[المائدة:٣]. ولقوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[الأنعام:٣٨].

ولقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

ولقول النبي ﷺ: «تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك».

فمن لزم البيضاء وهي طريقة النبي ﷺ نجي من الهلاك، ومن خالفها كان حليفه العطب.

والعطب قد يكون دنيويًا بالخزي والهزيمة والفشل، وإما أن يكون أخرويًا، فعلى الله

التكلان وهو المستعان، والاتباع ما ثبت عليه الحجة وهو اتباع كل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله، فالرسول هو المثل الأعلى في اتباع ما أُمر به. أهـ (أضواء البيان) (٧/ ٥٤٨).

والمتابعة هي قطب رحى الدين، وحبله المتين، وحصنه الحصين، وعروته الوثقى التي لا تنفصم، والطريق اللاحب الوحيد الذي يوصل إلى الله سبحانه وتعالى، والنور المضيء الذي تحيا به القلوب والنفوس، وتستقيم به الحياة كلها، والضرورة اللازمة لاستمرار الحياة، وهو سبب الرسالة التي هي ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة، فإن الإنسان مضطر إلى الشرع، والشرع نور الله في أرضه وعدله بين عباده، وحصنه الذي من دخله كان آمنًا.

وليست حاجة أهل الأرض إلى الرسول كحاجتهم إلى الشمس والقمر والرياح والمطر، ولا كحاجة الإنسان إلى حياته، ولا كحاجة الإنسان إلى ضوئها والجسم إلى الطعام والشراب، بل أعظم من ذلك وأشد حاجة من كل ما يقدر ويخطر بالبال، فالرسل وسائط بين الله وبين خلقه، في أمره ونهيه، وهم السفراء بينه وبين عباده.

وكان خاتمهم وسيدهم وأكرمهم على ربه محمد ﷺ، أرسله الله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة، بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرا، فختم به الرسالة، وهدى به من الضلالة، وعلم به من الجهالة، وفتح برسالته أعينًا عميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفا، فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلمتها، وتألفت به القلوب بعد شتاتها، فأقام بها الملة العوجاء، وأوضح بها المحجة البيضاء، وشرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع

ذكره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره.

فهدى الله به الخلائق، وأوضح به الطريق، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وبصر به من العمى، وأرشد به من الغي، وجعله قسيم الجنة والنار، وفرق ما بين الأبرار والفجار، وجعل الهدى والفلاح في اتباعه وموافقته، والضلال والشقاء في معصيته ومخالفته، إلى آخر ما ذكره شيخ الإسلام من كلامه النفيس كما في «المجموع» (١٩/ ٩٩-١٠٥).

ومن أعظم ما يدل على أن الاتباع سبب للأستمرار في الخير، والابتداع سبب للانحراف والضير: ما أخرجه الإمام مسلم (١٧٥٩) من حديث عائشة قالت: وكانت فاطمة تسأل أبا بكر نصيبها مما ترك رسول الله ﷺ من خيبر وفدك، وصدقته بالمدينة، فأبى أبو بكر عليها ذلك وقال: لست تاركًا شيئًا كان النبي ﷺ يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ.

ونقل الإمام الذهبي في «السير» (٨/ ٩٨) عن الإمام مالك ابن أنس قوله: سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سننًا الأخذ بها اتباع لكتاب الله واستكمال بطاعة الله، وقوة على دين الله ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها من اهتدي بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، واصلاه جهنم وسائت مصيرا.

وكان السلف رضوان الله عليهم يرون الاتباع كالجهاد في سبيل الله، قال أبو عبيد القاسم بن سلام كما في «السير» (١٠/ ٤٩٩): المتبع السنة كالقابض على الجمر، وهو اليوم عندي أفضل من ضرب بالسيف في سبيل الله.

ومعلوم أن الضرب بالسيف في سبيل الله عز وجل من أسباب انتشار الدين واستمرارية عزته، قال ﷺ: «وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري».

وما وصل المسلمون إلى هذا الانحطاط الذي هم فيه إلا بسبب تركهم لهذا الباب العظيم كما سيأتي بيانه، وليس بخاف عند كثير من المسلمين السبب الذي من أجله انتشرت دعوة الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، ومُكِنَ بعد السجن والقهر غير الاتباع حيث كان يقول لهم: أعطوني آية من كتاب الله أو حديث عن النبي ﷺ أقول به.

والاتباع من أسباب نصرة الدين، وقد تقدم معنا بيان نصر الله عز وجل للمؤمنين الناصرين لدينه وشرعه، **قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾** [غافر:٥١]، **﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾**[محمد:٧].

والاتباع والإخلاص كما تقدم هما سبب قبول العمل، وإذا قبل العمل مكن العامل، وإذا مكن استمر خيره وانتشر علمه وقبلت دعوته.

قال أبو ذر رضي الله عنه كما في مسلم (٢٦٤٢): يا رسول الله، أحدنا يعمل الخير يثنى عليه به، قال ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن».

ثم قبل أن نطوي الكلام في هذا الباب علينا أن نعرف أن الله عز وجل الذي أمر نبيه ﷺ الاتباع، قال تعالى بعد ذكر ثمانية عشر نبيًا في سورة الأنعام: **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾**[الأنعام:٩٠].

و**قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾**[الجاثية:١٨].

ومعلوم أن الاتباع من أسباب محبة الله، **قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾**[آل عمران:٣١]، وإذا أحبك الله عز وجل أيدك ونصرك ومكنك،

ومنها استمرارية ونصرة الدعوة، وهو دليل الفلاح، ومن الفلاح الاستمرارية في الدعوة كما تقدم، وبه يحصل الأمن من الخطأ والزلل؛ لأن الشرع معصوم، وإذا قَلَتِ الأخطأ في الدعوة كان هذا من أسباب نصرها.

صاحب الاتباع سالم من الاعتراض والانتقاد؛ لأن الاعتراض عليه اعتراض على الشرع، والاعتراض على الشرع باطل بالإجماع.

ورحم الله ابن القيم إذ يصور اعتراض بعض الأدعياء على العلماء:

يا يقوم والله العظيم اسئتموا بأئمة الإسلام ظن الشأن

ما ذنبهم ونبيهم قد قال ما قالوا كذلك منزل القرآن

والعالم المتبع للنبي ﷺ من أئمة الهدى ومصابيح الدجى، وهذا الصنف هو المنصور والله المستعان وعليه التكلان.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه «الفوائد» (٢١١) ط الجوزي: أقرب الوسائل إلى الله ملازمة السنة والوقوف معها في الظاهر والباطن، ودوام الافتقار إلى الله وإرادة وجهه وحده بالأقوال والأفعال.

وما وصل أحد إلى الله إلا من هذه الثلاثة، وما انقطع عنه أحد إلا بانقطاعه عنها أو عن أحدها. أهـ والمتأمل لسيرة الصحابة رضوان الله عليهم يجد أنهم لازموا هذه العبادة غاية الملازمة، فنصرهم الله عز وجل وأعز قدرهم، وأعلى منزلتهم دنيا وأخرى، أخرج البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، من حديث الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ قَالَا: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ فَخُذُوا ذَاتَ

الْيَمِينِ«، فَوَاللهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتَرَةِ الْجَيْشِ فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ فَأَلَحَّتْ فَقَالُوا خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ«، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا«، ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ قَالَ: فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى ثَمَدٍ قَلِيلِ الْمَاءِ يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا فَلَمْ يُلَبِّثْهُ النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ وَشُكِيَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْعَطَشُ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ فَوَاللهِ مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرِّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ وَكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَةِ وَمَعَهُمْ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنْ الْبَيْتِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمْ الْحَرْبُ وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ« فَقَالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ، قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا قَالَ: إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا: فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا، فَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ: لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ، وَقَالَ ذَوُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ: هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَوَلَسْتُ بِالْوَلَدِ؟ قَالُوا:

بَلَى، قَالَ: فَهَلْ تَتَّهِمُونِي؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظَ فَلَمَّا بَلَّحُوا عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي؟ قَالُوا: بَلَى قَالَ: فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ اقْبَلُوهَا وَدَعُونِي آتِيهِ، قَالُوا: ائْتِهِ فَأَتَاهُ فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَيْ مُحَمَّدُ أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنْ الْعَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَإِنِّي وَاللهِ لَأَرَى وُجُوهًا وَإِنِّي لَأَرَى أَوْشَابًا مِنْ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: امْصُصْ بِبَظْرِ اللَّاتِ، أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ، فَقَالَ: مَنْ ذَا؟ قَالُوا: أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لَأَجَبْتُكَ، قَالَ: وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَكُلَّمَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ السَّيْفُ وَعَلَيْهِ الْمِغْفَرُ، فَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ، وَقَالَ لَهُ: أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، فَقَالَ: أَيْ غُدَرُ أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ؟ وَكَانَ الْمُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا الْإِسْلَامَ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا الْمَالَ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ»، ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ قَالَ: فَوَاللهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ وَاللهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا، وَاللهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ

فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقَالُوا: ائْتِهِ فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذَا فُلَانٌ وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ، فَابْعَثُوهَا لَهُ» فَبُعِثَتْ لَهُ وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ: مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنْ الْبَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ: رَأَيْتُ الْبُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ، فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنْ الْبَيْتِ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ فَقَالَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقَالُوا: ائْتِهِ فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا مِكْرَزٌ وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ مَعْمَرٌ فَأَخْبَرَنِي أَيُّوبُ عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ»، بينما لو نظرنا لما حل بالمسلمين يوم أحد ويوم حنين بسبب المخالفة للأمر النبوي لعلمنا خطر المخالفة وعظم المتابعة، قال الله تعالى في سورة آل عمران في ذكر ما حل بالمؤمنين في غزوة أحد: ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[آل عمران:١٥٢].

وقال تعالى : ﴿ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ**

الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة/ ٢٥، ٢٦]

الرابعة

قيمة الإنسان ما يحسنه** أكثر الإنسان منه أو أقل

اعلم أن أهم أسباب رفعة العبد هو العلم الذي به تسمو النفوس، وتزهو الأخلاق، وتعلو الهمم، وهذا العلم هو الذي جاء به الله عز وجل، ورسوله ﷺ كما قال ابن القيم:

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة ليس بالتمويه

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين الرسول وبين رأي فقيه

كلا ولا جحد الصفات ونفيها ... حذرًا من التمثيل والتشبيه

«الفوائد» (٢٣٨).

ولفضل العلم رغب الله فيه وحث عليه بقوله لنبيه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[طه:١١٤].

قال ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» وكفى بهذا شرفًا للعلم أن أمر نبيه أن يسأله المزيد منه.أهـ

وقال مبينًا رفعة حامليه العاملين به: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[المجادلة:١١]، ولحديث عمر عند مسلم: «إن الله يرفع بهذا القرآن أقوامًا».

قال ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٢٤) ط ابن عفان: وإنه سبحانه أخبر عن رفع درجات أهل العلم والإيمان خاصة، وذكر الآية، قال: وقد أخبر سبحانه في كتابه برفع الدرجات في أربعة مواضع:

أحدها: هذا.

الثاني قوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال:٢-٤].

الثالث: قوله: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ [طه:٧٥].

والرابع قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾[النساء: ٩٥-٩٦].

فهذه أربع مواضع في ثلاثة منها الرفعة بالدرجات لأهل الإيمان الذي هو العلم النافع والعمل الصالح، والرابع الرفعة بالجهاد، فعادت رفعة الدرجات كلها إلى العلم والجهاد الذين بهما قوام الدين. أهـ

وقال رحمه الله في الفوائد (٢٣٥): أفضل ما أكتسبته النفوس وحصلته القلوب ونال به العبد الرفعة في الدنيا والآخرة هو العلم والإيمان، ولهذا قرن بينهما سبحانه في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْأِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٦]، وقوله: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[المجادلة:١١]، وهؤلاء هم خلاصة الوجود ولبه، والمؤهلون للمراتب العالية، ولكن أكثر الناس غالطون فى حقيقة مسمى العلم والإيمان اللذين بهما السعادة والرفعة.أهـ

وقال في بيان خشيتهم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:٢٨].

وقال في فهمهم للأمور: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

وقال في بيان إيمانهم وامتثالهم: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[آل عمران:٧].

ولعظم هذا الباب أشهد الله عز وجل أهله على وحدانيته، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ﴾[آل عمران:١٨].

وهم أدلاء الناس على كل خير في الدنيا والآخرى، قال تعالى: ﴿فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[النحل:٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْأِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾[الروم:٥٦].

ومن آتاه الله العلم فقد آتاه خيرًا كثيرا، وقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[البقرة:٢٦٩].

قال ابن قتيبة والجمهور: الحكمه إصابة الحق والعمل به، وهي العلم النافع والعمل الصالح. أهـ «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٢٧).

قال ﷺ كما في حديث معاوية: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين» متفق عليه.

وهم أهل الفضل قال ﷺ: «أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه» أخرجه البخاري عن عثمان رضي الله عنه، وفي لفظ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

وحملته هم ورثة الأنبياء قال ﷺ: «إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر» حسن بشواهده.

وهم الهداة إلى الصراط المستقيم والطريق القويم الموصل إلى رب العالمين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:٥٢]، وهم أهل الإيمان التام قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

ولا يتحقق هذا إلا لمن كان له علم وألقى السمع وهو شهيد.

قال ابن القيم في «الفوائد» (٢٤٢): ولا يتم الإيمان إلا بتلقي المعرفة من مشكاة النبوة،وتجريد الإرادة عن شوائب الهوى وإرادة الخلق، فيكون علمه مقتبسًا من مشكاة الوحي وإرادته لله والدار الآخرة، فهذا أصح الناس علمًا وعملًا، وهو من الأئمة الذين يهدون بأمر الله، ومن خلفاء رسوله في أمته. أهـ

والعلم هو أعظم ما يفرح به، لما له من البركات على الأفراد والمجتمعات، وعلى الدعاة والدعوات، قال ابن القيم رحمه الله في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٢٧): أمر أهل العلم بالفرح بما آتاهم، وأخبر أنه خبير بما يجمع الناس، ف قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]، وفسر فضل الله بالإيمان ورحمته بالقرآن والإيمان والقرآن هما العلم النافع والعمل الصالح، وهما الهدى ودين الحق، وهما أفضل علم وأفضل عمل.أهـ

ولما كان العلم هو أصل انتشار الدعوات ونصرها آتاه الله الأنبياء، وامتن عليهم به، فها هو عز وجل حين خلق آدم علمه الأسماء كلها، وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:٣١].

وقال عن نوح عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا

تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:٦٢].

وقال عن صالح: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:٧٩]، فالدلالة من الآية أن النصح وتبليغ الدعوة إنما يكون بالعلم.

أما الجاهل فلن ينصر نفسه وينفعها فضلًا عن غيره، وهكذا أخبر عن هود بقوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الأعراف: ٦٨-٦٩].

وهكذا يخبر عن عيسى وموسى عليهما السلام أنه آتاهما الكتاب والحكمة، قال الله عز وجل في شأن عيسى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ٤٨-٤٩].

وقال عن موسى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٤٥].

في أدلة كثيرة، وكان رسولنا ﷺ أعلمهم بربه وبأمره ونهيه، وبذلك ختمت به الرسالة والنبوة، كما قال ﷺ: «فلا رسول بعدي ولا نبي».

وقال الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾[الأحزاب:٤٠]

وأمره الله بسؤاله العلم بقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[طـه:١١٤].

وكان كلما أصبح قال: «اللهم إني اسألك علمًا نافعًا، وعملًا متقبلا، ورزقًا طيبا».

أخرجه البيهقي في (الشعب) وغيره عن أم سلمة، وسنده حسن وفيه اختلاف لا يضر إن شاء الله.

وكان يستعيذ من علم لا ينفع.

وما حفظ الله عز وجل الدين بعد موت النبي ﷺ إلا ببركة علم أبي بكر رضي الله عنه، فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما توفي رسول الله ﷺ، وكفر من كفر من العرب، قال عمر: كيف نقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله»؟ فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، الزكاة حق المال.

فقاتلهم أبو بكر رضي الله عنه ونصر الله الدين واقام الملة بسبب علم ذلك الإمام الجليل، رضي الله عنه، وقبح كل طاعن فيه، وكذا لما مات رسول الله ﷺ ايضًا، وقام عمر رضي الله عنه زاعمًا أن النبي ﷺ لم يمت، فقام أبو بكر رضي الله عنه خطيبًا وقال: **وقال تعالى:** ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِينْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾[آل عمران:١٤٤].

ثم كأن الناس لم يقرؤوها إلا يومئذ، وشاهدنا أن أبا بكر رضي الله عنه وأرضاه كان سببًا في استمرارية دعوة النبي ﷺ، وما ذلك إلا لما يحمل من العلم.

حتى قال علي ابن المديني رحمه الله: حفظ الله الإسلام برجلين: أبي بكر في الردة، وأحمد في المحنة.

ولما كان زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم زمن علم وهدى، بلغت الدعوة في عهدهم كل مبلغ: السند شرقًا، والأندلس غربًا، وما ذلك إلا لأن العلماء كانوا متوافرين، فصلح المجتمع الحاكم والمحكوم فحصل الخير العظيم.

وانظر في دعوة الشيخ الإمام أحمد بن عبد السلام ابن تيمية لما قامت على العلم ما زال خيرها مستمرًا إلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وكذلك دعوة تلميذه ابن القيم، وكذا الذهبي وغيرهم، وكذلك دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب النجدي لما قامت على العلم ومحاربة الجهل بلغت دعوته كل مبلغ، ثم دعوة شيخنا الإمام مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله تعالى لما قامت على العلم ظهر خيرها وعم واستمر، وهذا بفضل الله عز وجل ثم بسبب العلم النافع الذي تميزت به هذه الدعوة على غيرها من الدعوات.

وكم كنا نسمع من شيخنا مقبل رحمه الله الحث على طلب العلم والترغيب فيه، لما في ذلك من البركة واستمرارية الدعوة والخير، بل سمعناه يقول: وضيفتنا العلم والعمل والدعوة.

وما زلنا نسمع مثل هذه النصائح من خليفة شيخنا، الناصح الأمين أبي عبد الرحمن يحيى بن علي الحجوري، فسمعته مرارًا يقول: نصر الله عز وجل هذه الدعوة بالعلم والعمل والصدع بالحق.

وهذا أمر لا ينكر والله المستعان.

وهنا قصة عجيبة أحب أن أذكرها في هذا الموضع، ذكرها الخطيب في «الفقيه والمتفقه» بسند لا بأس به: أن عبد الرحمن الأوقصي كان من غير رقبه، فقالت: امه يا بني

اطلب العلم فإنه على هذه الحال لا يراك أحد إلا ضحك منك، فطلب العلم حتى فتح الله عليه، وأصبح مبجلاً يعود العلماء إليه فيما أشكل عليهم.

والناظر بعين البصيرة يرى أنها لم ترفع دعوة وتنتصر وتزدَّهر ويعلو ذكرها ويهزم أعدائها إلا بالعلم.

فهذا إبراهيم عليه السلام يخبرنا الله عز وجل ما دار بينه وبين قومه، وكيف خصمهم بالعلم، قال تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٣].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٢٦): إنه سبحانه ذكر مناظرة إبراهيم لأبيه وقومه وغلبته لهم بالحجة، وأخبر عن تفضيله بذلك ورفعه درجه بالعلم والحجة، ثم ذكر الآية.

فائدة:

قال ابن القيم رحمه الله في الفوائد (٢٤١): فشرف العلم بحسب شرف معلومه، وشدة الحاجة إليه، وليس ذلك إلا العلم بالله وتوابع ذلك، وأما العلم فآفته عدم مطابقته لمراد الله الدينى الذي يحبه الله ويرضاه، وذلك يكون من فساد العلم تارة ومن فساد الارادة تارة، ففساده من جهة العلم أن يعتقد أن هذا مشروع محبوب لله وليس كذلك، أو يعتقد أنه يُقربه إلي الله وإن لم يكن مشروعًا فيظن أنه يتقرب إلي الله بهذا العمل، وإن لم يعلم أنه

مشروع، وأما فساده من جهة القصد فان لا يقصد به وجه الله والدار الآخرة، بل يقصد به الدنيا والخلق وهاتان الآفتان في العلم والعمل لا سبيل الى السلامة منهما الا بمعرفة ما جاء به الرسول في باب العلم والمعرفة، وأرادة وجه الله والدار الآخرة في باب القصد والإرادة، فمتى خلا من هذه المعرفة وهذه الإرادة فسد علمه وعمله.أهـ

الخامسة: (هتف العلم بالعلم، إن أجابه وإلا أرتحل).

ومن أعظم الوسائل لنشر الدعوة السلفية ونصرتها هي العمل بالعلم، إذ قد ذم الله عز وجل في كتابه من لا يعمل بعلمه، وضرب له أسوء الأمثال، حيث شبهه بالكلب والحمار.

وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾[الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة:٥].

وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أسري بي على أناس تقرض مشافرهم بمقاريض من نار، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء من أمتك». أخرجه أبو يعلى وما كان الله عز وجل ليعذب من يدل على الخير إلا لتقصيره ومخالفة القول العمل.

قال الخطيب البغدادي رحمه الله في «اقتضاء العلم العمل» (١٥٨): ثم أنا موصيك يا طالب العلم بإخلاص النية في طلبه، وأجهاد النفس في العمل بموجبه، فإن العلم شجرة والعمل ثمرة، وليس يعد عالمًا من لم يكن بعلمه عاملًا.

وقيل: العلم والد والعمل مولود، والعلم مع العمل والرواية مع الدراية، فلا تأنس بالعمل ما دمت مستوحشًا من العلم، ولا تأنس بالعلم ما دمت مقصرًا في العمل، ولكن أجمع بينهما وإن قل نصيبك منهما. أهـ

فإن العالم والداعي إلى الله عز وجل إذا عمل بعلمه كان عمله ذلك دعوة في حد ذاته، ومحببًا الداعي إلى الناس، بينما إذا كان الداعي من المقصرين في هذا الجانب فسيكون حال المدعو لو كان خيرًا لسبقونا إليه، وكم من جاهل اتُبع بسبب عبادته في جهله.

وقال الخطيب: وما شيء أضعف من عالم ترك الناس علمه لفساد طريقته، وجاهل أخذ الناس بجهله لنظرهم إلى عبادته. أهـ

ولا وصول إلى الله عز وجل على طريقة مرضية إلا بالعمل بالعلم، يدل على ذلك حديث أسامة بن زيد عند الشيخين، قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع عليه أهل النار فيقولون: يا فلان، أما كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ قال: كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وأئتيه».

قال ابن القيم رحمه الله في «طريق الهجرتين» (١٨٣): السائر إلى الله والدار الآخرة لا يتم سيره ولا يصل مقصوده إلا بقوتين: قوة علمية وقوة عملية، فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك فيقصدها سائرًا فيها، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب، وطريق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل، فقوته العلمية كنور عظيم بيده يمشي في ليلة عظيمة مظلمة، فهو يبصر بذلك النور ما يقع للماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف، ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره، ويبصر بذلك النور أيضًا أعلام الطريق وأدلتها المنصوبه عليها فلا يضل عنها، فيكشف له النور عن الأمرين أعلام الطريق وأدلتها المنصوبه ومعاطبها.

وبالقوة العمليه يسير حقيقة، بل السير هو حقيقة القوة العمليه، فإن السير هو عمل

المسافر. أهـ

ولا فلاح ولا نجاح لأي إنسان عالمًا أو داعيًا إلا بالإيمان والعمل الصالح، والإيمان كما تقدم يكون بالعلم النافع، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْأِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

قال ابن القيم في «المدارج» (١/ ٦): أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتم إلا بالصبر عليهما والتواصي بهما. أهـ

وقد أخبر الله عز وجل، بل وأقسم أن الفلاح يقع لمن زكى نفسه، والتزكية إنما تكون بالعلم والعمل، فإذا فعل ذلك افلح دنيا وأخرى.

قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾[الشمس:١-٩]

قال الخطيب البغدادي رحمه الله في «اقتضاء العلم العمل» (١٥٩): وكما لا تنفع الأموال إلا بأنفاقها، كذلك لا تنفع العلوم إلا لمن عمل بها وراعى واجباتها، فلينظر امرؤ لنفسه، وليغتنم وقته، فإن العمر قليل، والرحيل قريب، والطريق مخوف، والاغترار غالب، والخطر عظيم والناقد بصير، والله تعالى بالمرصاد، وإليه المرجع والمعاد: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾[الزلزلة: ٧-٨]. أهـ

ولو لم يكن من مساوى عدم العمل بالعلم إلا أن شبه صاحبه باليهود، كما قال سفيان: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من

النصارى.

قال ابن القيم رحمه الله في «مدارج السالكين» (١/ ١١): ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به، ومن هنا كان اليهود أحق به وهو متغلظ في حقهم، كقوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ [البقرة:٩٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:٦٠].

والجاهل بالحق أحق باسم الضلالة، ومن هنا وصفت النصارى به في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧]. أهـ

والذي لا يعمل بعلمه قد أقيمت عليه الحجة، فما عذره أمام الله عز وجل كما في الحديث: «والقرآن حجة لك أو عليك».

حجة لك إن عملت به، وحجة عليك إن هجرته ولم تعمل به، والذي لا يعمل بعلمه من أوائل المعذبين، وكما قيل:

وعالم بعلمه لم يعملن ... معذب من قبل عباد الوثن

واستدل على هذا القول بحديث أبي هريرة عند مسلم: «أول ما يقضى يوم القيامة بين العباد ثلاثة»، وفي لفظ النسائي: «أول من تسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة، وذكر منهم: ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، فقال: فما

عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار«.

وقد علم السلف رضوان الله عليهم أن العمل بالعلم من أسباب السيادة والريادة، ومن أسباب النصر والتمكين، فهاك بكر بن حماد كما في «جامع بيان العلم» رقم (١٢١٧) يقول في إمام أهل السنة أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني:

وإذا امـــرؤ عملـــت يـــداه بعلمـــه نـــودي عظـــيمًا في الســـماء مســـودًا

وروي عن عبد الله بن مسعود قوله: إن الناس أحسنوا القول كلهم، فمن وافق قوله فعله فذلك الذي أصاب حظه، ومن اخطأ قوله فعله، فإنما يوبخ نفسه.

أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٢٣٣).

وقد تقدم أن الدعوة بالعمل أبلغ من الدعوة بالقول، قال المأمون: نحن إلى أن نُوعظ بالأعمال أحوج منا إلى ان نوعظ بالأقوال.

وقد تقدم (أن العاقبة للمتقين)، وإنما تكون تقوى العبد بقدر علمه، فكلما زاد علمه زاد تقواه، كما في الحديث: «إني أتقاكم لله»، قال أبو الدرداء: لا تكون تقيًا حتى تكون عالمًا، ولا تكون بالعلم جميلًا حتى تكون به عاملًا.

أخرجه الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (١٦، ١٧).

وذكر ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٢٤٢) عن سفيان الثوري أنه كان يتمثل بقول الشاعر سائق البربري:

إذا العلم لم تعمل به كان حجة عليك ولم تعذر بما أنت جاهله

فإن كنت قد أتيت علمًا فإنما يصدق قول المرء ما هو فاعله

وقال أيضاً رقم (١٢٤٤): وانشد الرياشي رحمه الله:

ما من روى أدبًا فلم يعمل به ويكف عن زيغ الهوى بأديب

حتى يكون بما تعلم عاملاً من صالح فيكون غير معيب

ولقلما تجدي إصابة عالم أعماله أعمال غير مصيب

قال ابن الجوزي رحمه الله في «صيد الخاطر» (٣٨٥): رأيت أكثر العلماء مشتغلين بصورة العلم دون فهم حقيقته ومقصوده.

قال: وليس العلم صورة الألفاظ، إنما المقصود فهم المراد منه، وذلك يورث الخشية والخوف، ويرى المنة لجهلهم بالعلم وقوة الحجة له على التعلم.

نسأل الله تعالى يقضه تفهمنا المقصود وتعرفنا المعبود، ونعوذ بالله من سبيل رعاع يتسمون بالعلماء، لا ينهاهم ما يحملون، ويعملون ولا يعلمون، ويتكبرون على الناس بما لا يعملون، ويأخذون عرض الأدنى وقد نهوا عما يأخذون، غلبتهم طباعهم وما رضتهم علموهم التي يدرسون فهم أخس حالًا من العوام الذين يجهلون: ﴿**يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**﴾[الروم:٧].

وكلما كان الداعي إلى الله عز وجل عاملًا بعلمه انتفع الناس بمواعظه والعكس.

قال مالك بن دينار: إن العالم إذا لم يعمل زالت موعظته من القلوب كما يزل القطر عن الصفاء.

وقال زياد بن أبي سفيان: إذا خرج الكلام من القلب يقرع القلب، وكلام اللسان يمر على القلب صفاحًا.

والداعي الذي لم يعمل بعلمه يزهد الناس في دعوته، ورحم الله ابن القيم إذ يقول في «الفوائد» (٢٤٩): علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقًا كانوا أول المستجيبين، فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع طرق. أهـ

وقد بين هذه الأوصاف رسول الله ﷺ كما في حديث حذيفة عند اشيخين: «دعاة على أبواب جهنم من أطاعهم قذفوه فيها»، قال: يا رسول الله صفهم لنا، قال: «قوم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا».

وما قلناه من أن العمل بالعلم من أسباب نصرة الدعوة الحقة، عليه العلماء سابقًا ولاحقًا كما تقدمت النقولات.

ورحم الله ابن القيم إذ يقول في «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٦): النفوس مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه ولا ينتفع به. أهـ

وقال الزهري: لا يرضين الناس قول عالم لا يعمل ولا عامل لا يعلم. أخرجه الخطيب في (اقتضاء العلم العمل) (١٤).

وقال أيضًا (١/ ٤٤٧): قال بعض السلف: إذا أردت أن يقبل منك الأمر والنهي فإذا أمرت بشيء فكن أول الفاعلين له المؤتمرين به، وإذا نهيت عن شيء فكن أول المنتهين عنه. أهـ

ويدل على كل ما تقدم حديث النواس بن سمعان عند مسلم قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ

عِمْرَانَ»، وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ الله ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ قَالَ: «كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا».

والله المستعان وعليه التكلان، وهي حسبي ونعم الوكيل.

قال ابن الجوزي في صيد الخاطر : (٧٣-٧٤)

فصل خطر العلم مع قلة العمل

لما رأيت نفسي في العلم حسناً، فهي تقدمه على كل شيء وتعتقد الدليل، وتفضل ساعة التشاغل به على ساعات النوافل، وتقول: أقوى دليل لي على فضله على النوافل. أني رأيت كثيراً ممن شغلتهم نوافل الصلاة والصوم عن نوافل العلم، قد عاد ذلك عليهم بالقدح في الأصول، فرأيتها في هذا الاتجاه على الجادة السليمة والرأي الصحيح.

إلا أني رأيتها واقفة مع صورة التشاغل بالعلم، فصحت بها فما الذي أفادك العلم ؟. أين الخوف؟ أين القلق ؟ أين الحذر ؟.

أما سمعت بأخبار أخيار الأحبار في تعبدهم واجتهادهم ؟.

أما كان الرسول ﷺ سيد الكل، ثم إنه قام حتى ورمت قدماه ؟.

أما كان أبو بكر رضي الله عنه شجي النشيج، كثير البكاء ؟.

أما كان في خد عمر رضي الله عنه خطان من آثار الدموع ؟.

أما كان عثمان رضي الله عنه يختم القرآن في ركعة ؟.

أما كان علي رضي الله عنه يبكي بالليل في محرابه حتى تخضل لحيته بالدموع ؟.

ويقول: يا دنيا غري غيري ؟.

أما كان الحسن البصري يحيا على قوة القلق ؟.

أما كان سعيد بن المسيب ملازماً للمسجد فلم تفته صلاة في جماعة أربعين سنة ؟.

أما صام الأسود بن يزيد حتى اخضر واصفر ؟.

أما قالت ابنة الربيع بن خيثم له ؟: ما لي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام ؟. فقال: إن أباك يخاف عذاب البيات.

أما كان أبو مسلم الخولاني يعلق سوطاً في المسجد يؤدب به نفسه إذا فتر ؟.

أما صام يزيد الرقاشي أربعين سنة ؟ وكان يقول: والفاه سبقني العابدون، وقطع بي.

أما صام منصور بن المعتمر أربعين سنة ؟.

أما كان سفيان الثوري يبكي الدم من الخوف ؟.

أما كان إبراهيم بن أدهم يبول الدم من الخوف ؟ أما تعلمين أخبار الأئمة الأربعة في زهدهم وتعبدهم، أو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد.

احذري من الإخلاد إلى صورة العلم، مع ترك العمل به، فإنها حالة الكسالى الزمنى:

وخذ لك منك على مهلة ... ومقبل عيشك لم يدبر

وخف هجمة لا تقبل العذا ... ر وتطوي الورود على المصدر

ومثّل لنفسك أي الرعي ... ل يضمك في حلبة المحشر

قال الخطيب في (اقتضاء العلم العمل) (٢٤٨): أنشد محمد بن أبي علي الأصبهاني لبعضهم:

اعمل بعلمك تغنم أيها الرجل ... لا ينفع العلم إن لم يحسن العمل

والعلم زين وتقوى الله زينته ... والمتقون لهم في علمهم شغل

وحجة الله ياذا العلم بالغة ... لا المكر ينفع فيها لا ولا الحيل

تعلم العلم واعمل ما استطعت به ... لا يلهينك عنه اللهو والجدل

وعلم الناس واقصد نفعهم أبدا ... إياك إياك أن يعتادك الملل
وعظ أخاك برفق عند زلته ... فالعلم يعطف من يعتاده الزلل
وإن تكن بين قوم لا خلاق لهم ... فأمر عليهم بمعروف إذا جهلوا
فإن عصوك فراجعهم بلا ضجر ... واصبر وصابر ولا يحزنك ما فعلوا
فكل شاة برجليها معلقة ... عليك نفسك إن جاروا وإن عدلوا

وقال ابن القيم رحمه الله: فترك العمل بالعلم من أقوى الأسباب في ذهابه ونسيانه.

وقال: إن العامل بلا علم كالسائر بلا دليل، ومعلوم أن عطب هذا أقرب من سلامته، وإن قدر سلامته اتفاقاً نادراً ، فهو غير محمود، بل مذموم عند العقلاء. من فضل العلم والعلماء. لابن القيم (٣١٦).

السادسة: «والصبر ضياء»

صبر في تحصيل العلم، وصبر على العمل بالعلم، وصبر على الدعوة إلى العلم، وصبر على الأذية في التبليغ.

فهذه أربعة أقسام يحتاج إليها الداعي إلى الله عز وجل من أجل نصر دعوته واستمراريتها، فالله اسأل أن يوفق ويعين.

وإليك ذكر الأدلة العامة على فضيلة هذه الشعيرة العظيمة، وما يتحصل عليه الصابرون المصابرون.

وقال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة:٤٥]، فبالاستعانة بالصبر والطاعة يتحصل العبد على مقصوده ومراده.

والصبر سبب لابطال كيد الكائدين ومكر الماكرين.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾[آل عمران:١٢٠]، فكم من دعاة نشر الله خيرهم ومكر بأعدائهم بسبب طاعتهم وصبرهم وخيرهم وبرهم، والصبر من أسباب الفلاح ومن الفلاح نصر دعوة المرء وعلمه وخيره وبره.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠].

وقال تعالى: ﴿ا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[هود:٤٩]، ومن العاقبة الحسنة النصر والتمكين.

والصابرون لا يضيع الله عز وجل عملهم ولا يترهم، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود:١١٥].

والصابر مبشر بخير قال تعالى:﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة:١٥٣].

ومن كان الله عز وجل معه كان من المنصورين الموفقين.

وقال تعالى مبينًا توريث المؤمنين الدنيا والآخرة بسبب صبرهم وبرهم، قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [لأعراف:١٢٨].

والصبر سبب للحصول على المقصود ونيل المحمود قال تعالى مخبرًا عن يعقوب عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾[يوسف:٨٣]، وفعلاً أتى الله عز وجل بهم جميعاً يوسف وبنيامين.

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾[فصلت:٣٥].

فمن أراد كل خير والبعد عن كل شرٍ وضير فعليه بلزوم الصبر.

وكما قيل بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

قال ابن القيم في «عدة الصابرين» (١١٨): إنه سبحانه وعد المؤمنين بالنصر والظفر، وهي كلمته التي سبقت لهم، وهي الكلمة الحسنة، وأخبر أنه إنما أتى لهم ذلك بالصبر فقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾[الأعراف:١٣٧]. أهـ

والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يحتاج إلى الصبر أكثر من غيره، قال تعالى مخبرًا عن لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧].

وقال ابن القيم رحمه الله في المصدر السابق: إنه سبحانه أخبر عن خصال الخير وأنه لا يلقاها إلا الصابرون، في موضعين من كتابه في سورة القصص في قصة قارون وأن الذين أتوا العلم قالوا للذين تمنوا مثلما أوتي، ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾[القصص:٨٠]، وفي سورة حم السجدة: حيث أمر العبد أن يدفع بالتي هي أحسن فإذا فعل ذلك صار الذي بينه وبينه عداوة، كأنه حبيب قريب، ثم قال: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[فصلت:٣٥]. أهـ

ومن السنة قول النبي ﷺ كما في حديث أبي مالك الأشعري عند مسلم (٢٢٤): «والصبر ضياء».

وقال ﷺ في فضله: «وما أعطي أحد عطاء خير وأوسع من الصبر» كما في حديث أبي

سعيد عندهما.

وقال ﷺ: «وأعلم أن النصر مع الصبر» كما في حديث ابن عباس عند الترمذي.

وكما تقدم معنا مرارًا أن الإيمان هو العلم والعمل، فحين سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان فسره "بالصبر والسماحة"، كما في حديث عمر بن عبسه وغيره وهو حسن بشواهده.

ودل حديث أنس عند الشيخين أنه سبب للوصول إلى المقصود حيث قال النبي ﷺ للانصار: «فاصبروا حتى تلقوني على الحوض».

ولا يلقاه على الحوض إلا المنتصرون أصحاب الأعمال الخيره المستمرون عليها حتى الممات.

وما انتصرت واشتهرت دعوات الأنبياء بأعظم من الصبر، ففي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ما عند البخاري (٣٤٠٥)، ومسلم (١٠٦٢) قال: قسم رسول الله ﷺ قسمًا، فقال رجل: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فغضبت حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: «يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

وفي حديث صهيب عند مسلم (٣٠٠٥) بيان عظيم لانتصار الدعوات بالصبر: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ

حَبَسَنِي أَهْلِي وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ، فَقَالَ الْيَوْمَ: أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ: اللهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ، فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ أَيْ: بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ، قَالَ: رَبِّي قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ فَجِيءَ بِالْغُلَامِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ فَرَجَفَ بِهِمْ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللهُ فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ

فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ فَانْكَفَأَتْ بِهِمْ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ثُمَّ ضَعْ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ فَقَالَ النَّاسُ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا أَوْ قِيلَ لَهُ اقْتَحِمْ فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهْ، اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ.

وعن عمر رضي الله عنه: وجدنا خير عشينا بالصبر.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم الله على عبد نعمة، فانتزعها منه، فاعاضه مكانها الصبر إلا كان ما عوضه خيرًا مما نزعه، وقال ميمون بن مهران: ما نال أحد شيئًا من جسيم الخير نبي فمن دونه إلا بالصبر.

وقال سفيان بن عيينة في قوله: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا**﴾[السجدة:٢٤]، قال: لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوسًا، وكما قيل: قصر الصبر الظفر، أي غاية الصبر.

فما تتقدم من الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية والآثار السلفية يظهر جليًا لمن تأمل أن من أعظم أسباب انتصار الدعوة هو الصبر هذا الخلق العظيم الذي من تخلق به ناله الخير والنصر والتمكين، وكما قيل: (من صبر ظفر).

والصبر أقسام:

قال ابن القيم رحمه الله في «عدة الصابرين» (٥٥): الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر على المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها.

وقال كقوله: افعل المأمور واجتنب المحظور، واصبر على المقدور، وهذه الثلاثة التي أوصى بها لقمان ابنه في قوله: ﴿**يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ**﴾[لقمان:١٧]، فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه، وأمر غيره به، وكذلك نهيه عن المنكر، أما من حديث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره فيه، وأما من حيث اللزوم الشرعي، فإن الآمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهي، وذكر الله عز وجل هذه الأصول الثلاثة في قوله: ﴿**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ [الرعد: ١٩-٢٢].

قال: والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام، واشتملت على فعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور، وقد ذكر الله تعالى هذه الأصول في قوله: ﴿**يَا**

﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠].

فكل موضع قرن فيه التقوى بالصبر اشتمل على الأمور الثلاثة، فإنه حقيقة التقوى فعل المأمور وترك المحظور.أهـ

فعلى طالب العلم وجميع المسلمين أن يتحلوا بالصبر في طاعاتهم والبعد عن المعاصي والصبر على المقادير.

وإلا فإن الهزيمة حاصلة، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾[يونس:٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨].

ولنأخذ إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن محمد ابن حنبل مثلًا في هذا الباب.

قال الذهبي في «السير» (١١/ ١٧٧): هو الإمام حقًا، وشيخ الإسلام صدقًا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني.

طلب العلم وهو ابن خمسة عشرة سنة في العام الذي مات فيه مالك وحماد.

من شيوخه سفيان بن عيينة الهلالي، وجرير بن عبد الحميد، وأبي خالد الأحمر، وأبي بكر بكر بن أبي شيبة، ووكيع بن الجراح، وعبد الرحمن بن مهدي، ويحيى بن سعيد القطان، ويزيد بن هارون، وعبد الرزاق بن همام الصنعاني، وجمع من أئمة الدين المشهورين.

قال: فعدة شيوخه الذين روى عنهم في المسند مئتان وثمانون ونيف.

حدث عنه البخاري حديثًا، وحدث عنه مسلم، وأبو داود، وحدث عنه ولده صالح وابن عمه حنبل بن إسحاق، وشيوخه عبد الرزاق والحسن بن موسى الأشيب والشافعي، وحدث عنه علي بن المديني ويحيى بن معين، ومحمد بن يحيى الذهلي وجمع من

أئمة الدين رحمهم الله جميعًا.

رحلته وطلبه للعلم وصبره في ذلك:

قال صالح: سمعت أبي يقول: خرجت الكوفة فكنت في بيت تحت رأس لبنة.

وقال حنبل: قال أحمد: تزوجت وأنا ابن أربعين سنة فرزق الله خيرًا كثيرًا.

قال المروذي: قال أبو عبد الله: اختلفت إلى الكتاب ثم اختلفت إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة، وعن أحمد الدورقي عن أبي عبد الله، قال: نحن كتبنا الحديث من ستة، وجو وسبعة ولم نضبطه فكيف يضبطه من كتب في وجه واحد.

ولنذكر قصة أحمد رحمه الله في المحنة وصبره على الحبس والجلد، وتمكين الله عز وجل بعد ذلك، الطبراني حدثنا عبد الله بن أحمد حدثني أبو معمر القطيعي قال: أُحضرنا إلى دار السلطان أيام المحنة، وكان أحمد بن حنبل قد أُحضر إلى دار السلطان أيام المحنة، فلما رأى الناس يجيبون وكان رجلاً ليناً فانتفخت أوداجه، واحمرت عيناه، وذهب ذلك اللين فقلت: إنه قد غضب لله.

قال محمد بن محمد بن إسماعيل الأديمي: حدثنا الفضل بن زياد قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: أول يوم امتحنه إسحاق لما خرج من عنده وذلك في جماد الآخرة سنة ثمان وعشرة ومئتين فقعد في مسجده فقال له جماعة: أخبرنا بمن أجاب فكأنه ثقل عليه فكلموه أيضاً قال: فلم، يجب أحد من أصحابنا والحمد لله، ثم ذكر من أجاب من واتاهم على أكثر ما أرادوا فقال: هو مجهول محدث وامتحنهم مرة مرة، وامتحنني مرتين مرتين، فقال لي: ما تقول في القرآن؟ قلت: هو كلام الله، فأقامني وأجلسني في ناحية، ثم سألهم، ثم ردني ثانية، فسألني وأخذ في التشبيه، فقلت: ليس كمثله شيء وهو السميع

البصير، فقال لي: وما السميع البصير؟ فقلت: هكذا قال تعالى.

قال محمد بن إبراهيم البوشنجي: جعلوا يذكرون أحمد بالرقة في التَّعمية، وما روي فيها، فقال: كيف نصنعون بحديث خباب: »إن من كان قبلكم كان ينشر أحدهم بالمنشار لا يصده ذلك عن دينه«، فأيسنا منه وقال: لستُ أبالي بالحبس ما هو ومنزلي إلا واحد ولا قتلاً بالسيف إنما أخاف فتنة السوط، فسمعه بعض أهل الحبس فقال: لا عليك، يا أبا عبد الله، فما هو إلا سوطان، ثم لا تدري أين يقع الباقي، فكأنه سُرِّي عنه.

قال صالح بن أحمد: حُمل أبي ومحمد بن نوح من بغداد مقيدين فصرنا معهما إلى الأنبار فسأل أبو بكر الأحول أبي: يا أبا عبد الله، إن عُرضت على السيف تجيب؟ قال: لا، ثم سُيِّرا فسمعت أبي يقول: سرنا إلى الرحبة، ورحلنا منها في جوف الليل فعرضت لنا رجل فقال: أيكم أحمد؟ فقيل له: هذا، فقال: للجّمال على رسلك، ثم قال: هذا ما عليك أن تقتل هاهنا وتدخل الجنة، ثم قال: استودعك الله ومضى فسألت عنه فقيل لي: هذا رجل من العرب من ربيعة يعمل الشعر –أي الصوف– في البادية يقال له جابر بن عامر، يّذكر بخير.

قال صالح بن أحمد: قال أبي: فلما صرنا إلى أذَنَة ورحلنا في جوف الليل وفتح لنا بابُها إذ رجل قد دخل فقال البشري: قد مات الرجل يعني المأمون، قال أبي: وكنت ادعو الله ألا أراه، قال صالح: لما صدر أبي ومحمد بن نوح إلى طرسوس رُدَّا في أقيادهما فلما صار إلى الرقة حُمِلا في سفينة فلما وصلا إلى عانة توفي محمد وفُك قيده وصلى عليه أبي.

قال صالح: وصار أبي إلى بغداد مقيداً فمكث بالياسرَّية أياماً ثم حُبس في دارٍ اكتريت عند دار عمارة، ثم حول إلى حبس العامة في درب الـمَوْصِليَّة، فقال: كنت أصلي

بأهل السجن وأنا مقيد، فلما كان في رمضان سنة تسع عشرة قلت: وذلك بعد موت المأمون بأربعة أشهر حولتُ إلى دار إسحاق بن إبراهيم يعني نائب بغداد.

قال صالح، قال أبي: كان يوجَّه إليّ كل يوم برجلين أحدهما يقال له أحمد بن أحمد بن رباح، والآخر: أبو شعيب الحجام، فلا يزالان يناظراني حتى إذا قاما دعي بقيد فزيد في قيودي فصار في رجليَّ أربعة أقياد، فلما كان في اليوم الثالث دخل عليَّ فناظرني فقلت له: ما تقول في علم الله؟ فقال: مخلوق، قلت: كفرت، فقال لي: الرسول الذي كان يحضر من قبل إسحاق بن إبراهيم إن هذا رسول أمير المؤمنين، فقلت: إن هذا قد كفر.

فلما كان في الليلة الرابعة، وجه، يعني: المعتصم، ببغا الكبير إلى إسحاق، فأمره بحملي إليه، فأدخلت على إسحاق، فقال: يا أحمد إنها والله نفسك، إنه لا يقتلك بالسيف، إنه قد آلى، إن لم تجبه، أن يضربك ضربا بعد ضرب، وأن

يقتلك في موضع لا يرى فيه شمس ولا قمر.

أليس قد **وقال تعالى:** (إنا جعلناه قرآنا عربيا) (الزخرف: ٣) أفيكون مجعولا إلا مخلوقا ؟ فقلت: فقد **قال تعالى:** (فجعلهم كعصف مأكول) (الفيل: ٥) أفخلقهم ؟ قال: فسكت.

فلما صرنا إلى الموضع المعروف بباب البستان، أخرجت، وجئ بدابة فأركبت وعلي الاقياد، ما معي من يمسكني، فكدت غير مرة أن أخر على وجهي لثقل القيود.

فجئ بي إلى دار المعتصم، فأدخلت حجرة، ثم أدخلت بيتا، وأقفل الباب علي في جوف الليل ولا سراج.

فأردت الوضوء، فمددت يدي، فإذا أنا بإناء فيه ماء، وطست موضوع، فتوضأت

وصليت.

فلما كان من الغد، أخرجت تكتي، وشددت بها الاقياد أحملها، وعطفت سراويلي.

فجاء رسول المعتصم، فقال: أجب فأخذ بيدي، وأدخلني عليه، والتكة في يدي، أحمل بها الاقياد، وإذا هو جالس، وأحمد بن أبي دواد حاضر، وقد جمع خلقا كثيرا من أصحابه.

فقال لي المعتصم: ادنه ادنه.

فلم يزل يدنيني حتى قربت منه.

ثم قال: اجلس، فجلست، وقد أثقلتني الاقياد، فمكثت قليلا، ثم قلت: أتأذن في الكلام ؟ قال تكلم، فقلت: إلى ما دعا الله ورسوله ؟ فسكت هنية ، ثم قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، فقلت: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله.

ثم قلت: إن جدك ابن عباس يقول: لما قدم وفد عبدالقيس على رسول الله ﷺ، سألوه عن الايمان، فقال: " أتدرون ما الايمان ؟ " قالوا: اللهورسوله أعلم، قال: " شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن تعطوا الخمس من المغنم ".

قال أبي: فقال، يعني: المعتصم: لو لا أني وجدتك في يد من كان قبلي، ما عرضت لك.

ثم قال: يا عبدالرحمن بن إسحاق، ألم آمرك برفع المحنة ؟ فقلت: الله أكبر ! إن في هذا لفرجا للمسلمين.

ثم قال لهم: ناظروه، وكلموه، يا عبدالرحمن كلمه.

فقال: ما تقول في القرآن ؟ قلت: ما تقول أنت في علم الله ؟ فسكت، فقال لي بعضهم: أليس قال الله تعالى (الله خالق كل شئ) ؟ (الرعد: ١٦) والقرآن أليس شيئا ؟ فقلت: قال الله (تدمر كل شئ) (الاحقاف: ٢٥) فدمرت إلا ما أراد الله..فقال بعضهم: (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) (الانبياء: ٢) أفيكون محدث إلا مخلوقا ؟ فقلت: قال الله: (ص، والقرآن ذي الذكر) (ص: ١) فالذكر هو القرآن، وتلك ليس فيها ألف ولام.

وذكر بعضهم حديث عمران بن حصين " إن الله خلق الذكر "، فقلت: هذا خطأ، حدثنا غير واحد: " إن الله كتب الذكر " واحتجوا بحديثابن مسعود: " ما خلق الله من جنة ولا نار ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسي ".

فقلت: إنما وقع الخلق على الجنة والنار والسماء والارض، ولم يقع على القرآن.

فقال بعضهم: حديث خباب: " يا هنتاه، تقرب إلى الله بما استطعت، فإنك لن تتقرب إليه بشئ أحب إليه من كلامه " ، فقلت: هكذا هو.

قال صالح: وجعل ابن أبي دواد ينظر إلي أبي كالمغضب.

قال أبي: وكان يتكلم هذا، فأرد عليه.

ويتكلم هذا، فأرد عليه، فإذا انقطع الرجل منهم، اعترض ابن أبي دواد، فيقول: يا أمير المؤمنين، هو،

والله، ضال مضل مبتدع ! فيقول: كلموه، ناظروه، فيكلمني هذا، فأرد عليه، ويكلمني هذا، فأرد عليه، فإذا انقطعوا، يقول المعتصم: ويحك يا أحمد، ما تقول ؟ فأقول: يا أمير المؤمنين، أعطوني شيئا من كتاب اللهأو سنة رسول الله، ﷺ، حتى أقول به.

فيقول أحمد بن أبي دواد: أنت لا تقول إلا ما في الكتاب أو السنة ؟ فقلت له: تأولت تأويلا،

فأنت أعلم، وما تأولت ما يحبس عليه، ولا يقيد عليه.

قال حنبل: قال أبو عبد الله: لقد احتجوا علي بشئ ما يقوى قلبي، ولا ينطلق لساني أن أحكيه.

أنكروا الآثار، وما ظننتهم على هذا حتى سمعته، وجعلوا يرغون، يقول الخصم كذا وكذا ، فاحتججت عليهم بالقرآن بقوله (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر) (مريم: ٤٢) أفهذا منكر عندكم ؟ فقالوا: شبه، يا أمير المؤمنين، شبه.

قال محمد بن إبراهيم البوشنجي: حدثني بعض أصحابنا أن أحمد ابن أبي دواد أقبل على أحمد يكلمه، فلم يلتفت إليه، حتي قال المعتصم: يا أحمد ألا تكلم أبا عبد الله ؟ فقلت: لست أعرفه من أهل العلم فأكلمه ! ! قال صالح: وجعل ابن أبي دواد، يقول: يا أمير المؤمنين، والله لئن أجابك لهو أحب إلي من مئة ألف دينار، ومئة ألف دينار، فيعد من ذلك ما شاء الله أن يعد.

فقال: لئن أجابني لاطلقكن عنه بيدي، ولا ركبن إليه بجندي، ولاطأن عقبه.

ثم قال: يا أحمد، والله إني عليك لشفيق، وإني لاشفق عليككشفقتي على ابني هارون، ما تقول ؟ فأقول: أعطوني شيئا من كتاب الله وسنة رسوله.

فلما طال المجلس، ضجر وقال: قوموا، وحبسني، (يعني عنده) وعبد الرحمن بن إسحاق يكلمني.

وقال: ويحك ! أجبني.

وقال: ويحك ! ألم تكن تأتينا ؟ فقال له عبدالرحمن: يا أمير المؤمنين، أعرفه منذ ثلاثين سنة، يرى طاعتك والحج والجهاد معك.

فيقول: والله إنه لعالم، وإنه لفقيه.

وما يسوءني أن يكون معي يرد عني أهل الملل.

ثم قال: ما كنت تعرف صالحا الرشيدي ؟ قلت: قد سمعت به قال: كان مؤدبي، وكان في ذلك الموضع جالسا، وأشار إلى ناحية من الدار.

فسألني عن القرآن، فخالفني، فأمرت به فوطئ وسحب ! يا أحمد، أجبني إلى شئ لك فيه أدنى فرج، حتى أطلق عنك بيدي.

قلت: أعطوني شيئا من كتاب الله وسنة رسوله.

فطال المجلس، وقام، ورددت إلى الموضع.

فلما كان بعد المغرب، وجه إلي رجلين من أصحاب ابن أبي دواد، يبيتان عندي ويناظراني ويقيمان معي، حتى إذا كان وقت الافطار، جئ بالطعام، ويجتهدان بي أن أفطر فلا أفعل – قلت: وكانت ليالي رمضان – قال: ووجه المعتصم إلي ابن أبي دواد في الليل، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: ما تقول ؟ فأرد عليه نحوا مما كنت أرد.

فقال ابن أبي دواد: واللهلقد كتب اسمك في السبعة: يحيى بن معين وغيره ، فمحوته.

ولقد ساءني أخذهم إياك.

ثم يقول: إن أمير المؤمنين قد حلف أن يضربك ضربا بعد ضرب، وأن يلقيك في موضع لا ترى فيه الشمس.

ويقول: إن أجابني، جئت إليه حتى أطلق عنه بيدي، ثم انصرف.

فلما أصبحنا جاء رسوله، فأخذ بيدي حتى ذهب بي إليه، فقال لهم: ناظروه وكلموه، فجعلوا يناظروني، فأرد عليهم.

فإذا جاؤوا بشئ من الكلام مما ليس في الكتاب والسنة، قلت: ما أدري ما هذا.

قال: فيقولون: يا أمير المؤمنين، إذا توجهت (له) الحجة علينا، ثبت، وإذا كلمناه بشئ، يقول: لا أدري ما هذا ؟ فقال: ناظروه.

فقال رجل: يا أحمد، أراك تذكر الحديث وتنتحله، فقلت: ما تقول في قوله: (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين) (النساء: ١١) ؟ قال: خص الله بها المؤمنين.

قلت: ما تقول: إن كان قاتلا أو عبدا ؟ فسكت، وإنما احتججت عليهم بهذا، لانهم كانوا يحتجون بظاهر القرآن.

فحيث قال لي: أراك تنتحل الحديث، احتججت بالقرآن، يعني: وإن السنة خصصت القاتل والعبد، فأخرجتهما من العموم.

قال: فلم يزالوا كذلك إلى قرب الزوال.

فلما ضجر، قال: قوموا، ثم خلابي، وبعبد الرحمن بن إسحاق، فلم يزل يكلمني، ثم قام ودخل.

ورددت إلى الموضع.

قال: فلما كانت الليلة الثالثة، قلت: خليق أن يحدث غدا من أمري

شئ فقلت للموكل بي: أريد خيطا فجاءني بخيط، فشددت به الاقياد، ورددت التكة إلى

سراويلي مخافة أن يحدث من أمري شئ، فأتعرى.

فلما كان من الغد، أدخلت إلى الدار، فإذا هي غاصة، فجعلت أدخل من موضع إلى موضع، وقوم معهم السيوف، وقوم معهم السياط، وغير ذلك.

ولم يكن في اليومين الماضيين كبير أحد من هؤلاء.

فلما انتهيت إليه، قال: اقعد.

ثم قال: ناظروه، كلموه.

فجعلوا يناظروني، يتكلم هذا، فأرد عليه، ويتكلم هذا، فأرد عليه، وجعل صوتي يعلو أصواتهم.

فجعل بعض من هو قائم على رأسي يومئ إلي بيده، فلما طال المجلس، نحاني، ثم خلا بهم، ثم نحاهم، وردني إلى عنده، وقال: ويحك يا أحمد ! أجبني حتى أطلق عنك بيدي، فرددت عليه نحو ردي.

فقال: عليك، وذكر اللعن، خذوه اسحبوه خلعوه.

فسحبت وخلعت.

قال: وقد كان صار إلي شعر من شعر النبي، ﷺ، في كم قميصي، فوجه إلي إسحاق بن إبراهيم، يقول: ما هذا المصرور ؟ قلت: شعر من شعر رسول الله، ﷺ، وسعى بعضهم ليخرق القيمص عني، فقال المعتصم: لا تخرقوه، فنزع، فظننت أنه إنما درئ عن القميص الخرق بالشعر.

قال: وجلس (المعتصم) على كرسي، ثم قال: العقابين والسياط، فجئ بالعقابين، فمدت يداي، فقال بعض من حضر خلفي: خذ ناتئ الخشبتين بيديك، وشد عليهما.

فلم أفهم ما قال، فتخلعت يداي.

وقال صالح: قال أبي: ولما جئ بالسياط، نظر إليها المعتصم، فقال: ائتوني بغيرها، ثم قال للجلادين: تقدموا، فجعل يتقدم إلي الرجل منهم، فيضربني سوطين، فيقول له: شد، قطع الله يدك ! ثم يتنحى ويتقدم آخر، فيضربني سوطين، وهو يقول في كل ذلك: شد، قطع الله يدك ! فلما ضربت سبعة عشر سوطا، قام إلي، يعني: المعتصم، فقال: يا أحمد، علام تقتل نفسك ؟ إني والله عليك لشفيق، وجعل عجيف ينخسني بقائمة سيفه، وقال: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم ؟ وجعل بعضهم يقول: ويلك ! إمامك على رأسك قائم.

وقال بعضهم: يا أمير المؤمنين، دمه في عنقي، اقتله، وجعلوا يقولون: يا أمير المؤمنين، أنت صائم، وأنت في الشمس قائم ! فقال لي: ويحك يا أحمد، ما تقول ؟ فأقول: أعطوني شيئا من كتاب الله أو سنة رسول الله أقول به.

فرجع وجلس.

وقال للجلاد: تقدم، وأوجع، قطع الله يدك، ثم قام الثانية،

وجعل يقول: ويحك يا أحمد.

أجبني.

فجعلوا يقبلون علي، ويقولون: يا أحمد، إمامك على رأسك قائم ! وجعل عبدالرحمن يقول: من صنع من أصحابك في هذا الامر ما تصنع ؟ والمعتصم يقول: أجبني إلى شئ (لك) فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدي، ثم رجع، وقال للجلاد: تقدم، فجعل يضربني سوطين ويتنحى، وهو في خلال ذلك يقول: شد، قطع الله يدك.

فذهب عقلي، ثم أفقت بعد، فإذا الاقياد قد أطلقت عني.

فقال لي رجل ممن حضر: كببناك على وجهك، وطرحنا على ظهرك بارية ودسناك !

(قال أبي): فما شعرت بذلك، وأتوني بسويق، وقالوا: اشرب وتقيأ، فقلت: لا أفطر.

ثم جئ بي إلى دار إسحاق بن إبراهيم، فحضرت الظهر، فتقدم ابن سماعة، فصلى.

فلما انفتل من صلاته، وقال لي: صليت، والدم يسيل في ثوبك ؟ قلت: قد صلى عمر، وجرحه يثعب دما.

قال صالح: ثم خلي عنه، فصار إلى منزله.

وكان مكثه (في السجن) منذ أخذ إلى أن ضرب وخلي عنه، ثمانية وعشرين شهرا.

ولقد حدثني أحد الرجلين اللذين كانا معه، قال:: يا ابن أخي، رحمة الله على أبي عبد الله، والله ما رأيت أحدا يشبهه، ولقد جعلت أقول له في وقت ما يوجه إلينا بالطعام: يا أبا عبد الله، أنت صائم، وأنت في موضع تفئة.

ولقدعطش، فقال لصاحب الشراب: ناولني، فناوله قدحا فيه ماء وثلج، فأخذه ونظر فيه، ثم رده، ولم يشرب، فجعلت أعجب من صبره على الجوع والعطش، وهو فيما هو فيه من الهول ! قال صالح: فكنت ألتمس وأحتال أن أوصل إليه طعاما أو رغيفا في تلك الايام، فلم أقدر.

وأخبرني رجل حضره: أنه تفقده في الايام الثلاثة وهم يناظرونه، فلما لحن في كلمة.

قال: وما ظننت أن أحدا يكون في مثل شجاعته وشدة قلبه.

قال حنبل: سمعت أبا عبد الله، يقول: ذهب عقلي مرارا، فكان إذا

رفع عني الضرب، رجعت إلي نفسي.

وإذا استرخيت وسقطت، رفع الضرب، أصابني ذلك مرارا.

ورأيته، يعني: المعتصم، قاعدا في الشمس بغير مظلة، فسمعته، وقد أفقت ، يقول لابن أبي دواد، لقد ارتكبت (إثما) في أمر هذا الرجل.

فقال: يا أمير المؤمنين، إنه – والله – كافر مشرك، قد أشرك من غير وجه.

فلا يزال به حتى يصرفه عما يريد.

وقد كان أراد تخليتي بلا ضرب، فلم يدعه، ولا إسحاق بن إبراهيم.

قال حنبل: وبلغني أن المعتصم، قال لابن أبي دواد بعدما ضرب أبو عبد الله: كم ضرب ؟ قال: أربعة أو نيفا وثلاثين سوطا.

وقد رحل موسى عليه السلام إلى «مجمع البحرين» كما في البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠) عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ نَوْفًا الْبِكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام صَاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْسَ هُوَ مُوسَى صَاحِبَ الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَام فَقَالَ: كَذَبَ عَدُوُّ اللهِ سَمِعْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: قَامَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ قَالَ فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ قَالَ مُوسَى: أَيْ رَبِّ كَيْفَ لِي بِهِ فَقِيلَ لَهُ احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ فَحَيْثُ تَفْقِدُ الْحُوتَ فَهُوَ، ثَمَّ فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ وَهُوَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ فَحَمَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام حُوتًا فِي مِكْتَلٍ وَانْطَلَقَ هُوَ وَفَتَاهُ يَمْشِيَانِ حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ فَرَقَدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام وَفَتَاهُ فَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ حَتَّى خَرَجَ مِنْ الْمِكْتَلِ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ قَالَ: وَأَمْسَكَ اللهُ عَنْهُ جِرْيَةَ الْمَاءِ حَتَّى كَانَ مِثْلَ الطَّاقِ فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ

يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا وَنَسِيَ صَاحِبُ مُوسَى أَنْ يُخْبِرَهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ: لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا قَالَ: وَلَمْ يَنْصَبْ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ قَالَ: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا قَالَ مُوسَى: ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا قَالَ: يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ فَرَأَى رَجُلًا مُسَجًّى عَلَيْهِ بِثَوْبٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: أَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ قَالَ: أَنَا مُوسَى قَالَ مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا قَالَ: نَعَمْ فَانْطَلَقَ الْخَضِرُ وَمُوسَى يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ فَكَلَّمَاهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ: لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا، ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذَا غُلَامٌ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ فَقَالَ مُوسَى: أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَاكِيَةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى قَالَ: إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا

جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ يَقُولُ مَائِلٌ قَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ هَكَذَا فَأَقَامَهُ قَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُونَا وَلَمْ يُطْعِمُونَا لَوْ شِئْتَ لَتَخِذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ: هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كَانَتْ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا قَالَ وَجَاءَ عُصْفُورٌ حَتَّى وَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، ثُمَّ نَقَرَ فِي الْبَحْرِ فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ الْبَحْرِ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: وَكَانَ يَقْرَأُ وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا، وَكَانَ يَقْرَأُ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا.

فهذا موسى عليه السلام صبر في رحلته العلمية حتى أخذ من العلم الذي أمر بأخذه.

ورسولنا ﷺ حين أتاه جبريل بالعلم، والوحي لاقى من الشدة بمكان كما في حديث عائشة عند البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ أُوْلَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ؟ قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ قَالَ: قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: أَقْرَأْ فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ

وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ الله ﷺ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، ثُمَّ قَالَ لِخَدِيجَةَ: أَيْ خَدِيجَةُ مَا لِي وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ قَالَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ كَلَّا أَبْشِرْ فَوَالله لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، وَالله إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ وَيَكْتُبُ مِنْ الْإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: أَيْ عَمِّ اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ، قَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ خَبَرَ مَا رَآهُ فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى ﷺ يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا يَا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟» قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا.

وابن عباس رضي الله عنه كم عانا في تحصيل العلم النافع، ومع ذلك صار إمامًا للمسلمين يؤخذ عنه، ويستفاد منه، حتى قال الحسن: كان ابن عباس مثجة كثير العلم، وقال طاووس: ما رأيت رجلًا أعلم من ابن عباس، وكان يقول عطاء، قال البحر، وفعل البحر، وقال مجاهد، كان ابن عباس يسمى البحر من كثرة علمه.

أخرج ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٣٦٧) بسند صحيح عن ابن عباس قال: لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير، قال: فقال: واعجبًا لك يا ابن عباس، أترى الناس يفتقرون إليك وفي

الناس من أصحاب رسول الله ﷺ من فيهم، قال: فتركت ذلك وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن الحديث، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتي بابه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه تسفي الريح علي التراب فيخرج فيراني فيقول لي: يا ابن عم رسول الله ما جاء بك، ألا أرسلت إلي فآتيك، فأقول: لا أنا أحق أن آتيك فاسأله عن الحديث، فعاش ذلك الأنصاري حتى رآني، وقد اجتمع الناس حولي ليسألوني فيقول: هذا الفتى كان أعقل مني.أهـ

والأمثلة في صبر الأئمة والصحابة والعلماء على تحصيل العلم كثيرة جدًا، لكن تكفي اشارات ونختم هذه الأمثلة بما حصل لأبي هريرة رضي الله عنه في سبيل طلب العلم وتحصيله وإلى ما صار.

أخرج مسلم (٢٤٩٢): عَنْ الْأَعْرَجِ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: إِنَّكُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ وَاللهُ الْمُوْعِدُ كُنْتُ رَجُلًا مِسْكِينًا أَخْدُمُ رَسُولَ الله ﷺ عَلَى مِلْءِ بَطْنِي وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَشْغَلُهُمْ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَكَانَتْ الْأَنْصَارُ يَشْغَلُهُمْ الْقِيَامُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ يَبْسُطْ ثَوْبَهُ فَلَنْ يَنْسَى شَيْئًا سَمِعَهُ مِنِّي»، فَبَسَطْتُ ثَوْبِي حَتَّى قَضَى حَدِيثَهُ، ثُمَّ ضَمَمْتُهُ إِلَيَّ فَمَا نَسِيتُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْهُ.

ولفظ البخاري رحمه الله عن أبي هريرة كان يقول

: آلله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع ولقد قعدت يوما على طريقهم الذي يخرجون منه فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني فمر ولم يفعل ثم مر بي عمر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني فمر ولم يفعل ثم مر بي أبو القاسم صلى

الله عليه و سلم فتبسم حين رآني وعرف ما في نفسي وما في وجهي ثم قال (يا أبا هر) . قلت لبيك يا رسول الله قال (الحق) . ومضى فاتبعته فدخل فأستأذن فأذن لي فدخل فوجد لبنا في قدح فقال (من أين هذا اللبن) . قالوا أهداه لك فلان أو فلانة قال (أبا هر) . قلت لبيك يا رسول الله قال (الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي) . قال وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها فساءني ذلك فقلت وما هذا اللبن في أهل الصفة كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها فإذا جاء أمرني فكنت أنا أعطيهم وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه و سلم بد فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت قال (يا أبا هر) . قلت لبيك يا رسول الله قال (خذ فأعطهم) . قال فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد علي القدح فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد علي القدح فيشرب حتى يروى ثم يرد علي القدح حتى انتهيت إلى النبي صلى الله عليه و سلم وقد روي القوم كلهم فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلي فتبسم فقال (أبا هر) . قلت لبيك يا رسول الله قال (بقيت أنا وأنت) . قلت صدقت يا رسول الله قال (اقعد فاشرب) . فقعدت فشربت فقال (اشرب) . فشربت فما زال يقول (اشرب) . حتى قلت لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكا قال (فأرني) . فأعطيته القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة

وأما الصبر على العمل بالعلم فقد تقدم الكلام على الميزة العظيمة للعمل بالعلم، ولنبقى هنا مع بعض الأمثلة في الذين صبروا على العمل بما علموا.

وأفضل من ذكر في هذا المقام صبر رسول ﷺ، حيث كان يصلي حتى ورمت قدماه، فقيل له في ذلك، فقال: أفلا أكون عبدًا شكورًا، أخرجه الشيخان من حديث المغيرة، وانفر به مسلم عن عائشة رضي الله عنها.

وكم أنفق الصحابة من أموال عظيمة، وضحوا تضحيات جسيمة بما هو فوق ذلك من باب العمل بالعلم، صبرًا في ذات الله عز وجل.

أخرج البخاري (١٤٦١) ومسلم (٩٩٨): من حديث أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ أَنْصَارِيٍّ بِالْمَدِينَةِ مَالًا وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرَحَى وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرَحَى وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ للهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ شِئْتَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَخْ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ قَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ فِيهَا، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ»، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ.

وأخرج الإمام مسلم (٧٢٨) عن أم حبيبة رضي الله عنها: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد مسلم يصلي لله ثنتي عشرة ركعة كل يوم تطوعًا غير فرضية إلا بنى الله له بيتًا في الجنة»، فقالت أم حبيبة: والله ما تركتهن منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك، وقال عنبسة بن أبي سفيان الراوي عنها: والله ما تركتهن منذ سمعتهن من أم حبيبة.

وقال عمرو بن أوس: ما تركتهن منذ سمعتهن من عنبسة، وقال النعمان بن سالم: ما

تركتهن منذ سمعتهن من عمرو بن أوس.

في أمثلة كثيرة جدًا.

ومن المعلوم أن رسول الله ﷺ يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه» متفق عليه من حديث أنس رضي الله عنه.

وقال ﷺ في حديث سهل بن سعد المتفق عليه لعلي رضي الله عنه: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خيراً لك من حمر النعم».

ويقول ﷺ كما في حديث أبي مسعود البدري عندهما: «الدال على الخير له مثل أجر فاعله».

ويقول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[النحل:١٢٥].

وهذه هي سبيل الأنبياء والمرسلين، قال الله تعالى لمحمد ﷺ: **﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [يوسف:١٠٨] .

والعلماء هم ورثة الأنبياء، وطلاب العلم الدعاة، هم مساعدي العلماء في نشر الحق والخير، وهذا الأمر لا يقوم إلا على الصبر وتحمل المشاق؛ لأن الداعي إلى الله عز وجل مزدرى ومبغوض، من المخالفين للحق والهدى، فكان لزامًا عليه أن يصبر نفسه في طاعة الله، ومن أجل تبليغ دين الله عز وجل حتى يكون من المفلحين، ولنا في أنبياء الله عز وجل أعظم مثل.

قال تعالى مخبرًا عما لاقو من الأذى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا

قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذريات: ٥٢-٥٣].

وقال الله تعالى مخبرًا عن نوح: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ * أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾[الأعراف: ٥٩-٦٤].

وقال عنه أيضًا كما في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ * وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ

* وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ * حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[هود: ٢٥-٤٩].

وقال عن هود كما في سورة هود: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ * وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ

مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ * قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾[هود: ٥٠-٦٠].

وقال عن صالح كما في في سورة هود: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ * قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ * وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾[هود: ٦١-٦٨].

وقص الله عن إبراهيم وصبره في سبيل الدعوة كما في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[الأنبياء: ٥١-٧٣].

وقال عن لوط كما في في سورة هود: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ

رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[هود: ٧٧-٨٣].

وقال عن شعيب كما في في سورة هود: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ * وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾[هود: ٨٤-٩٥] إلى غير ذلك من القصص القرآني الشيق ويختم كل قصة سبحانه وتعالى بتمكين الأنبياء والمؤمنين وذلك مجازاهُ لهم على صبرهم وبرهم وخيرهم، والآخرة خير وأبقى.

وأما النبي ﷺ فإن له الباع الطويل والذكر الجميل في هذا الباب وغيره، نذكر منها على سبيل الاختصار لا التطويل.

ما أخرج البخاري (١٨٩) ومسلم (٢٠٨): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَرَهْطَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾ خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا فَهَتَفَ: «يَا صَبَاحَاهْ» فَقَالُوا: مَنْ هَذَا الَّذِي يَهْتِفُ؟ قَالُوا: مُحَمَّدٌ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: «يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فَقَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» قَالَ: فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ أَمَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا، ثُمَّ قَامَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَقَدْ تَبَّ.

وجاء من حديث عائشة رضي الله عنها: أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ فَقَالَ « لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِى عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ فَلَمْ يُجِبْنِى إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِى فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِى فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِى فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِى فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ قَالَ فَنَادَانِى

مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ. ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللهَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ فَمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ ». فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهَّ -ﷺ- « بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُّ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَّ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا »..

أخرجه البخاري (٣٢٣١)،ومسلم (١٧٩٥).

وأخرج البخاري (٢٩٨٧)، ومسلم (١٧٩٨) من حديث أسامة بن زيد: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَكِبَ حِمَارًا عَلَيْهِ إِكَافٌ تَحْتَهُ قَطِيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ وَأَرْدَفَ وَرَاءَهُ أُسَامَةَ وَهُوَ يَعُودُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، وَذَاكَ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، حَتَّى مَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَالْيَهُودِ فِيهِمْ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ، وَفِي الْمَجْلِسِ عَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ فَلَمَّا غَشِيَتْ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ خَمَّرَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: لَا تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ وَقَفَ فَنَزَلَ فَدَعَاهُمْ إِلَى الله وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ، فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ: أَيُّهَا الْمَرْءُ، لَا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا، إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَلَا تُؤْذِنَا فِي مَجَالِسِنَا وَارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ، فَمَنْ جَاءَكَ مِنَّا فَاقْصُصْ عَلَيْهِ، فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ: اغْشَنَا فِي مَجَالِسِنَا فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: فَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَتَوَاثَبُوا، فَلَمْ يَزَلْ النَّبِيُّ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ، ثُمَّ رَكِبَ دَابَّتَهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فَقَالَ: «أَيْ سَعْدُ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ يُرِيدُ عَبْدَ الله بْنَ أُبَيٍّ؟ قَالَ: كَذَا وَكَذَا«، قَالَ: اعْفُ عَنْهُ يَا رَسُولَ الله وَاصْفَحْ، فَوَالله لَقَدْ أَعْطَاكَ اللهُ الَّذِي أَعْطَاكَ، وَلَقَدْ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ أَنْ يُتَوِّجُوهُ فَيُعَصِّبُوهُ بِالْعِصَابَةِ فَلَمَّا رَدَّ اللهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَهُ شَرِقَ بِذَلِكَ، فَذَلِكَ فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ، فَعَفَا عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ.

وأخرج الدارقطني (٣/ ٤٤): عن طارق بن عبد الله المحاربي قال : رأيت رسول الله ﷺ مرتين مرة بسوق ذي المجاز وأنا في تباعة لي هكذا قال: أبيعها فمر وعليه حلة حمراء وهو ينادي بأعلى صوته: «يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»، ورجل يتبعه بالحجارة وقد أدمى كعبيه وعرقوبيه وهو يقول: يا أيها الناس، لا تطيعوه فإنه كذاب، قلت: من هذا؟ فقالوا: هذا غلام بني عبد المطلب، قلت: من هذا الذي يتبعه يرميه؟ قالوا: هذا عمه عبد العزى وهو أبو لهب، فلما ظهر الإسلام وقدم المدينة أقبلنا في ركب من الربذة وجنوب الربذة حتى نزلنا قريبًا من المدينة ومعنا ظعينة لنا، قال: فبينا نحن قعود إذ أتانا رجل عليه ثوبان أبيضان فسلم فرددنا عليه، فقال: من أين أقبل القوم؟ قلنا: من الربذة وجنوب الربذة، قال: ومعنا جمل أحمر قال: تبيعوني جملكم؟ قلنا: نعم، قال: بكم؟ قلنا: بكذا وكذا صاعًا من تمر، قال: فما استوضعنا شيئًا وقال: قد أخذته، ثم أخذ برأس الجمل حتى دخل المدينة فتوارى عنا فتلاومنا بيننا وقلنا: أعطيتم جملكم من لا تعرفونه، فقالت الظعينة: لا تلاوموا فقد رأيت وجه رجل ما كان ليحقركم، ما رأيت وجه رجل أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه، فلما كان العشاء أتانا رجل فقال: السلام عليكم، أنا رسول رسول الله ﷺ إليكم، وأنه أمركم أن تأكلوا من هذا حتى تشبعوا وتكتالوا حتى تستوفوا، قال: فأكلنا حتى شبعنا واكتلنا حتى استوفينا، فلما كان من الغد دخلنا المدينة فإذا رسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب الناس، وهو يقول: «يد المعطي العليا وابدأ بمن تعول: أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك أدناك، فقام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، هؤلاء بنو ثعلبة بن يربوع الذين قتلوا فلانًا في الجاهلية فخذ لنا بثأرنا، فرفع يديه حتى رأينا بياض إبطيه فقال: «ألا لا يجني والد على ولده».، وهو في

«الصحيح المسند» (٥٢٠).

وأخرج البخاري (٢٤٠)، ومسلم (١٧٤٩) من حديث ابن مسعود قال: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ، فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَجَاءَ بِهِ فَنَظَرَ حَتَّى سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ وَأَنَا أَنْظُرُ لَا أُغْنِي شَيْئًا لَوْ كَانَ لِي مَنَعَةٌ، قَالَ: فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ: «اللهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ -ثَلَاثَ مَرَّاتٍ-» فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ، قَالَ: وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ، ثُمَّ سَمَّى: «اللهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ»، وَعَدَّ السَّابِعَ فَلَمْ يَحْفَظْ قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَرْعَى فِي الْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ.

وهذا غيض من فيض وقليل من كثير من صبر النبي ﷺ في دعوته وتمكين الله عز وجل له بعد ذلك.

فانظر وفقك الله عز وجل كيف نصر الله عز وجل هؤلاء الأنبياء على العتاة والظالمين بسبب ما يحملون للناس من خير، وبسبب تحملهم وصبرهم على تبليغ دين الله عز وجل الحق، شعارهم في ذلك: ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[هود:٤٩]، ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ**﴾[الروم:٦٠].

ومن كل هذا تبين لنا جليًا أن الصبر في الدعوة إلى الله تعالى من أهم المهمات، ومن

أعظم الواجبات على الدعاة إلى الله تعالى، ولهذا أمر الله به إمام الدعوة وقدوتهم رسول الله ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨]، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[الاحقاف:٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام:٣٤]١.

وكما قيل:

والصبر مثل اسمه مرٌّ مذاقته ... لكن عواقبه أحلى من العسل

والداعي إلى الله عز وجل محتاج إلى الصبر في ثلاثة أحوال:

الأول: قبل الشروع في الدعوة بتصحيح النية والإخلاص، وتجنب دواعي الريبة والسمعة، وعقد العزم على توفية المأمورية حقها.

الثاني: الصبر حال الدعوة إلى الله عز وجل عند دواعي التقصير والتفريط، ويلازم الصبر على استصحاب ذكر النية وعلى حضور القلب بين يدي المعبود.

الثالث: الصبر بعد الفراغ من الدعوة إلى الله عز وجل وذلك من وجوه:

أحدها: أن يصبر نفسه عن الأتيان بما يبطل عمله.

الثاني: أن يصبر عن رؤيتها والعجب بها والتكبر، فإن هذا أضر عليه من المعاصي الظاهرة.

الثالث: أن يصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية.

---

١ »مفهومات الداعية الناجح« (١٨٦).

راجع «عدة الصابرين» (١٠٥) لابن القيم رحمه الله.

وإن حقق الداعي إلى الله عز وجل هذه الشعيرة العظيمة حصل له خير عظيم بضبط نفسه عن السآمة والملل والعجلة والطيش والغضب وضبط نفسه من الخوف، من غير الله، وضبط النفس عن جميع الأخلاق السيئة، فإن فعل ذلك كانت له العقبى الحسنة.

وكما قال أبو يعلى الموصلي:

إني رأيت في الأيام تجربة ... للصبر عاقبة محمودة الأثر

وقل من جد في أمر يحاوله ... وستصحب الصبر إلا فاز بالظفر(٢)

ونختم بالحديث عن هذه الوسيلة العظيمة بما يعين عليها ومنها:

١- العلم بأن هذه الحياة ما هي إلا دار ابتلاء واختبار، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك:٢]، وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد:٤].

٢- استحضار الجزاء الأوفى عند الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر:١٠].

٣- العلم بأنك ملك لله، وحياتك له يصرفها كيف يشاء، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾[التكوير:٢٩].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢].

٤- المعلوم من تقلبات الدهور أن الفرج بعد الشدة قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾[الشرح: ٥-٦].

---

٢ »مفهومات الراعبة الناجح« (١٩٩).

وقال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾[الطلاق:٧].

وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤].

وقد أحسن من قال:

اشتدي أزمة تنفرجي ... قد أذن ليلك بالبلج

ومن قال:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعًا وعند الله فيه المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكنت أظنها لا تفرج

وعسى الله أن يأتي بالفرج كما قيل:

عسى فرج يأتي به الله إنه ... له كل يوم في خليقة أمر

٥- الاستعانة بالله عز وجل على الصبر وغيره، قال الله عز وجل: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا﴾[الأعراف:١٢٨].

٦- التأسي بالأنبياء والصالحين قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[الاحقاف:٣٥]، ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[الحديد: ٢٢-٢٣].

السابعة: «الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه».

الرفق واللين من أعظم الأسباب المعينة على نجاح الدعوات ونصرها وقبولها؛ لأنه سبيل الأنبياء والصالحين كما تقدم في خطاباتهم مع قومهم وصبرهم عليهم، وقد قال الله عز وجل لنبيه المصطفى وخليله المجتبى ورسوله المقتفى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران:١٥٩].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: قال الحسن: هذا خلق محمد ﷺ، بعثه الله به، وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

وأعلم أن الرفق هو اللطف ولين الجانب، وهو ضد العنف، واللين ضد الخشونة.

والداعي إلى الله عز وجل يحتاج إلى الرفق واللين في قوله، وفعله، وعدم التشديد على الناس، قال ﷺ: «من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير».

أخرجه الترمذي (٢١٣)، وقال: حديث حسن صحيح.

وأخرج مسلم (١٨٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها قوله ﷺ: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه».

وكم من الدعاة إلى الله عز وجل حرموا الرفق في دعوتهم فما نجحوا وما أفلحوا، وهذا يدل عليه حديث النبي ﷺ: «ومن يحرم الرفق يحرم الخير» أخرجه مسلم (٢٥٩٢) من حديث جرير رضي الله عنه.

وإذا أراد الله عز وجل بعبد من عباده خيرًا أدخل عليه الرفق في أقواله وأفعاله، قال ﷺ: «يا عائشة ارفقي فإن الله عز وجل إذا أراد بأهل بيت خيرًا أدخل عليهم الرفق» أخرجه أحمد (٦/ ١٠٤) من حديث عائشة رضي الله عنها وهو في «الصحيحة» (٥٢٣).

فمن هذه الأحاديث يتبين لنا وجوب العمل بهذه الوسيلة لما فيها من جلب الخير للمسلمين جميعًا، وهي طريقة النبي الأعظم ﷺ.

أخرج الإمام أحمد في مسند (٥/ ٢٥٦): عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ قَالُوا: مَهْ مَهْ فَقَالَ: ادْنُهْ فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا قَالَ: فَجَلَسَ قَالَ: أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ قَالَ: لَا وَالله جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ قَالَ: لَا وَالله يَا رَسُولَ الله، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ قَالَ: لَا وَالله جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ قَالَ: لَا وَالله جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ قَالَ: لَا وَالله جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ.

وهو في «الصحيح المسند» لشيخنا الوادعي (٥٠٠).

فانظر وفقك الله عز وجل كيف انتفع هذا الشاب ببركة الدعوة النبوية المصاحبة بالرفق واللين، ومع المخالف الرفق نافع أيضًا.

كما في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري (٦٠٣٠)، ومسلم (٢١٦٥) أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقال: «وعليكم»، فقالت

عائشة: وعليكم السام واللعنة، وفي رواية: والذم، فقال رسول الله ﷺ: «مه يا عائشة فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش» هذه رواية مسلم.

وفي رواية البخاري مهلًا: «يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله».

وجاء من حديث أنس رضي الله عنه عند الإمام مسلم (٢٨٥) قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه مه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزرموه دعوه»، فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر، إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن»، قال: فأمر رجلًا من القوم فجاء بدلو من ماء فشنه عليه.

وجاء من حديث معاوية بن الحكم السلمي عند مسلم (٥٣٧) قال: عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ فَقُلْتُ: وَا ثُكْلَ أُمِّيَاهْ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ فَوَالله مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ».

وحياة رسول الله ﷺ ودعوته كانت قائمة على الرفق واللين، إلا إذا انتهكت المحارم، فإنه يغضب لله عز وجل كما سيأتي في بابه إن شاء الله تعالى.

ومن بركات الرفق:

أنه:

١- محبوب إلى الله عز وجل كما تقدم.

٢- أنه خلق ممدوح.

٣- أنه يثمر محبة الناس ويجلبها.

٤- دليل على فقه الرجل وحكمته.

أخرج البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤): من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتُرِكَ حَتَّى كَانَ الْغَدُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ: إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ، فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ، فَقَالَ: «أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ»، فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنْ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، يَا مُحَمَّدُ وَاللهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: صَبَوْتَ، قَالَ: لَا وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله ﷺ، وَلَا وَاللهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنْ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ.

ومع ذلك لا يصل بالداعي إلى الله عز وجل الترفق حتى يصاب بالتميع، بل كل بحسبه فرسول الله ﷺ كان إذا انتهكت محارم الله عز وجل غضب لله سبحانه وتعالى، فكان يقيم الحدود بما فيها حد الرجم، وربما أغلظ القول على مخالف الحق كما في حديث ابن عباس عند مسلم يعمد أحدكم إلى جمرة من النار فيضعها في يده إلى ذلك من الأدلة التي يعرفها من تتبع السيرة النبوية.

الثامنة: «حدث الناس بما يعرفون أتريد أن يكذب الله ورسوله».

من أسباب نصر الدعوة السلفية مخاطبة الناس بما يعرفون، ومراعاة أحوالهم، ولما كان شأن هذه الوسيلة عظيم فإن الله ما ابتعث رسولًا إلا بلسان قومه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [ابراهيم:٤].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: هذا من لطف الله تعالى بخلقه: أنه يرسل إليهم رسلًا منهم بلغاتهم ليفقهوا عنهم ما يريدون، وما ارسلوا به إليهم.

والمتأمل لأحوال الرسل صلوات الله عز وجل عليهم وسلامه وما أيدهم به من المعجزات يلاحظ أن كل معجزة تلائم حال قوم ذلك الرسول، فلما كان زمن موسى عليه السلام قد انتشر في الناس السحر أيده بمعجزات طنوها سحرًا، ثم تبين لهم صدقها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي

إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِنْ كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾[الأعراف:١٠٣-١٢٢].

ولما كان زمن عيسى عليه السلام زمن طب وحكمة أيده الله بمعجزات توافق ذلك، قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:٤٩].

ولما كان قوم محمد ﷺ قوم فصاحة وبلاغة أنزل الله عز وجل عليه القرآن بلسان عربي مبين، حتى قال النبي ﷺ: «ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر إنما كان الذي أتوتيئه وحي أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تبعًا» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ

﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢]، وذلك لأن الداعي إلى الله عز وجل إذا كان على معرفة بخطاب القوم وأحوالهم عالج الأمور على وفق ما يلائمهم، فيحصلون على الخير العظيم من بركة الدعوات والفقه.

وكان رسول الله ﷺ كما في حديث عائشة عند البخاري (٣٥٦٨) لم يكن يسرد الحديث كسردكم.

والسرد هو الإتيان بالكلام على الولاء والاستعجال منه، ومعنى الحديث كما قال الحافظ في «الفتح» (٦/ ٥٧٨): لم يكن ﷺ يتابع الحديث استعجالًا بعضه إثر بعض لئلا يلتبس على المستمع.

وكان حريصًا على إفهام المخاطبين يدل على ذلك ما أخرجه البخاري (٩٤) عن أنس رضي الله عنه أنه كان إذا سلم سلم ثلاثًا، وإذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا.

وهذا حرص منه ﷺ على تفهيم الناس بخطابه.

وربما استخدم رسول الله ﷺ بعض الوسائل من أجل تفهيم ما يتكلم به، يدل على ذلك ما أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن مسعود (٦٤١٧) قال: خط رسول الله ﷺ خطًا مربعًا وخط خطًا في الوسط خارجًا منه، وخط خططًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط من جانب الذي في الوسط وقال: «هذا الإنسان وهذا أجله محيط به، وهذا الذي هو خارج أمله، وهذا الخطط الصغار الأعراض، فأن أخطأه هذا نهشه هذا».

وربما استخدم ﷺ اسلوب الأمثال للتفهيم والتوضيح، يدل على ذلك حديث أبي موسى عند الشيخين: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ

أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ «.

الشاهد مما تقدم أن الدعوة تنصر وتشهر وتذكر إذا كان الداعي إلى الله ممن يتواضع في خطاباته على مستويات الناس، وكذلك بألسنتهم التي يفهمونها إلى غير ذلك.

قال الحافظ في الفتح تحت أثر علي رقم (١٢٧): (حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله). المراد بقوله بما يعرفون، أي: يفهمون. أهـ

ونسأل السداد وإليه المرجع والمآب فله الحمد على كل حال[٣] .

التاسعة: «المؤمن للمؤمن كاليد للأخرى».

والمؤازرة والمناصرة ونبذ التخذيل من أهم الأسباب التي تنصر بها الدعوات، ولذلك سألها الأنبياء من قبل نبينا ﷺ وحرصوا عليها غاية الحرص.

قال تعالى عن موسى: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾[طـه: ٢٩-٣١].

قال ابن عادل في «اللباب» (١٣/ ٢٢٩): أعلم أنه طلب الوزير إما أنه خاف على نفسه العجز عن القيام بذلك الأمر، فطلب المعين، أو لأنه رأى التعاون على الدين والتظاهر عليه مع خالص الود وزوال التهمة قربة عظيمة في الدعاء إلى الله. أهـ

وقال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا

---

[٣] راجع للموضوع مراعاة أحوال المخاطبين لفضل اللهي.

﴿بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص:٣٥].

وعيسى عليه السلام لما رأى بوادر الكفر والخذلان من قومه سأل عن النصراء، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٥٢].

وقال تعالى أمرًا هذه الأمة أن تكون من أنصاره عز وجل، وأن ينصروا الدين كما نصره أصحاب عيسى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف:١٤].

قال ابن كثير رحمه الله:

قال سفيان الثوري وغيره: أي من أنصاري مع الله.

وقال مجاهد: من يتبعني إلى الله، وقول مجاهد أقرب.

والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله، كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر: «من رجل يؤويني وينصرني حتى أبلغ كلام ربي؟» أخرجه أحمد من حديث جابر، حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه، وهاجر إليهم فآسوه ومنعوه من الأسود والأحمر رضي الله عنهم.

وهكذا عيسى ابن مريم انتدب له طائفة من بني إسرائيل، فأمنوا به وآزروه ونصروه، وأتبعوا النور الذي أنزل معه. أهـ

قال صاحب «اللباب» (٥/ ٢٦٣): قوله: قال الحواريون نحن أنصار الله أي أنصار أنبيائه؛ لأن نصره الله في الحقيقة محال.

(أمنا بالله): هذا يجري مجرى ذكر العلة، والمعنى أنه يجب علينا أن نكون من أنصار الله لأجل أن أمنا به، فإن الإيمان بالله يوجب نصرة دين الله والذب عن أوليائه ومحاربة أعدائه. أهـ

وتمنى لوط عليه السلام أن يكون له من ينصره من قومه فقال تعالى مخبراً عنه: ﴿**قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾[هود:٨٠].

مع أنه كان يأوي إلى ركن شديد، وهو الله عز وجل كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عند الشيخين وفيه يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد.

فيجب على المؤمن أن يكون ناصرًا لدين الله عز وجل في جميع أوقاته، بقوله وفعله ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

ولعظم هذه الوسيلة مَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظٍ وَمَجَنَّةَ وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِنًى يَقُولُ: «مَنْ يُؤْوِينِي مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ» حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنْ الْيَمَنِ أَوْ مِنْ مُضَرَ كَذَا قَالَ فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ فَيَقُولُونَ: احْذَرْ غُلَامَ قُرَيْشٍ لَا يَفْتِنُكَ وَيَمْشِي بَيْنَ رِجَالِهِمْ وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ، حَتَّى بَعَثَنَا اللهُ إِلَيْهِ مِنْ يَثْرِبَ فَآوَيْنَاهُ وَصَدَّقْنَاهُ فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا فَيُؤْمِنُ بِهِ وَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ، ثُمَّ ائْتَمَرُوا جَمِيعًا فَقُلْنَا حَتَّى مَتَى نَتْرُكُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ فَرَحَلَ إِلَيْهِ مِنَّا سَبْعُونَ رَجُلًا، حَتَّى قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ فَاجْتَمَعْنَا عَلَيْهِ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ حَتَّى تَوَافَيْنَا فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: «تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ

بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ لَا تَخَافُونَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ وَلَكُمْ الْجَنَّةُ«، قَالَ: فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ وَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ وَهُوَ مِنْ أَصْغَرِهِمْ، فَقَالَ: رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ، فَإِنَّا لَمْ نَضْرِبْ أَكْبَادَ الْإِبِلِ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَأَنَّ تَعَضَّكُمْ السُّيُوفُ، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ، وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ جَبِينَةً فَبَيِّنُوا ذَلِكَ فَهُوَ عُذْرٌ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ، قَالُوا: أَمِطْ عَنَّا يَا أَسْعَدُ، فَوَاللهِ لَا نَدَعُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ أَبَدًا وَلَا نَسْلُبُهَا أَبَدًا، قَالَ: فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ فَأَخَذَ عَلَيْنَا وَشَرَطَ وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ. أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٢) وهو في (الصحيح المسند) (٢١٥).

وقد أوجب الله النصرة للمستنصرين من المؤمنين، **قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**[الأنفال:٧٢].

وقال تعالى مبينًا أن أصحاب النصرة هم أصحاب الإيمان الحق: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾** [الأنفال:٧٤].

والله عز وجل ناصرٌ دينه بنا أو بغيرنا، لكن إن نُصر بك فهو خير لك في الدنيا والآخرة، **قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ**

﴿الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١].

ويقول: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:٤٠].

قال صديق حسن خان في «فتح البيان» (٥/ ٢٠٤): أي إن تركتم نصره فالله متكفل به اعتنموه أولا، فقد نصره في موطن القلة واظهره على عدوه بالغلبة والقهر .

وقال: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١].

وهذا وعدّ إلهي لا يتخلف.

بل ربما نصر الله الدين بالرجل الفاجر كما في حديث سهل بن سعد عند مسلم: «إن الله ينصر هذا الدين بالرجل الفاجر».

ومن نصر الدين نصره الله عز وجل، ولنقف مع بعض الوقائع العظيمة التي ظهرت فيها جوانب النصرة لهذا الدين من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

تقدم حديث جابر في مناصرة الأنصار للنبي ﷺ، وكيف بايعوه على النصرة له، ولدين الله عز وجل.

وأخرج البخاري (٢٩٥٢) من حديث ابن مسعود قال: شهدت من المقدام ابن الأسود مشهدًا لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعوا على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك، فرأيت رسول الله ﷺ أشرق وجهه.

وأخرج مسلم في «صحيحه» (١٧٧٩): عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ شَاوَرَ حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ قَالَ فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُ ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ إِيَّانَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللهِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لَأَخَضْنَاهَا وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا قَالَ فَنَدَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ فَانْطَلَقُوا حَتَّى نَزَلُوا بَدْرًا وَوَرَدَتْ عَلَيْهِمْ رَوَايَا قُرَيْشٍ وَفِيهِمْ غُلَامٌ أَسْوَدُ لِبَنِي الْحَجَّاجِ فَأَخَذُوهُ فَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ فَيَقُولُ مَا لِي عِلْمٌ بِأَبِي سُفْيَانَ وَلَكِنْ هَذَا أَبُو جَهْلٍ وَعُتْبَةُ وَشَيْبَةُ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ ضَرَبُوهُ فَقَالَ نَعَمْ أَنَا أُخْبِرُكُمْ هَذَا أَبُو سُفْيَانَ فَإِذَا تَرَكُوهُ فَسَأَلُوهُ فَقَالَ مَا لِي بِأَبِي سُفْيَانَ عِلْمٌ وَلَكِنْ هَذَا أَبُو جَهْلٍ وَعُتْبَةُ وَشَيْبَةُ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ فِي النَّاسِ فَإِذَا قَالَ هَذَا أَيْضًا ضَرَبُوهُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ انْصَرَفَ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَضْرِبُوهُ إِذَا صَدَقَكُمْ وَتَتْرُكُوهُ إِذَا كَذَبَكُمْ قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ قَالَ وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى الْأَرْضِ هَاهُنَا هَاهُنَا قَالَ فَمَا مَاطَ أَحَدُهُمْ عَنْ مَوْضِعِ يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وهاك أبو بكر الصديق رضي الله عنه نصر النبي ﷺ بماله ونفسه، وبما استطاع، حتى قال عنه النبي ﷺ: «إن أمن الناس علي في ماله وصحبته أبو بكر».

وأخرج البزار كما في «المجمع» (٩/ ٤٦-٤٧)، وأخرج أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٢) عن علي رضي الله عنه قال: أيها الناس أخبروني من أشجع الناس قالوا أو قال قلنا أنت يا أمير المؤمنين قال أما إني ما بارزت أحدا إلا انتصفت منه ولكن أخبروني بأشجع الناس قالوا لا نعلم فمن قال أبو بكر إنه لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله ﷺ عريشا فقلنا من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوي إليه أحد من المشركين فوالله ما دنا منه أحد

إلا أبو بكر شاهرا السيف على رأس رسول الله ﷺ لا يهوي إليه أحد إلا أهوى إليه فهذا أشجع الناس فقال علي ولقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش فهذا نحاه وهذا يتلتله وهم يقولون أنت الذي جعلت الآلهة إلها واحدا قال فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ويحار هذا ويتلتل هذا وهو يقول ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ثم رفع علي بردة كانت عليه ثم بكى حتى اخضلت لحيته ثم قال علي أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر فسكت القوم فقال ألا تجيبوني فوالله لساعة من أبي بكر خير من مثل مؤمن آل فرعون ذاك رجل كتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه.

وأخرج البخاري (٣٨٥٦) عن ابن عمر رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب النبي ﷺ، فلف ثوبه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ، ثم قال: أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم.

وبلغ به النصرة مبلغها، فقد ذكر ابن إسحاق وابن كثير في «البداية والنهاية» وغيرهم من أهل التاريخ والسير: أن أبا جهل جاءه صبيحة الإسراء فقال: يا أبا بكر يزعم محمد كذا وكذا وكذا فقال: إن كان قال هذا فقد صدق.

نصر الرسول ﷺ يوم الحديبية، فقد أخرج البخاري (٢٧٣١): عَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ قَالَا: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ»، فَوَاللهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتَرَةِ الْجَيْشِ فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ

بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ فَأَلَحَّتْ فَقَالُوا خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ»، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»، ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ قَالَ: فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى ثَمَدٍ قَلِيلِ الْمَاءِ يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا فَلَمْ يُلَبِّثْهُ النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ وَشُكِيَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْعَطَشُ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ فَوَاللهِ مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرِّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ وَكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَةِ وَمَعَهُمْ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنْ الْبَيْتِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمْ الْحَرْبُ وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ» فَقَالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ، قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا قَالَ: إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا: فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا، فَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ: لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ، وَقَالَ ذَوُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ: هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَوَلَسْتُ بِالْوَلَدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَهَلْ تَتَّهِمُونِي؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظَ فَلَمَّا بَلَّحُوا عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي؟

قَالُوا: بَلَى قَالَ: فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ اقْبَلُوهَا وَدَعُونِي آتِيهِ، قَالُوا: ائْتِهِ فَأَتَاهُ فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَيْ مُحَمَّدُ أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنْ الْعَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَإِنِّي وَاللهِ لَأَرَى وُجُوهًا وَإِنِّي لَأَرَى أَوْشَابًا مِنْ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: امْصُصْ بِبَظْرِ اللَّاتِ، أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ، فَقَالَ: مَنْ ذَا؟ قَالُوا: أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لَأَجَبْتُكَ، قَالَ: وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَكُلَّمَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ السَّيْفُ وَعَلَيْهِ الْمِغْفَرُ، فَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ، وَقَالَ لَهُ: أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، فَقَالَ: أَيْ غُدَرُ أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ؟ وَكَانَ الْمُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا الْإِسْلَامَ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا الْمَالَ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ»، ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ قَالَ: فَوَاللهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ وَاللهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا، وَاللهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ،

وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقَالُوا: ائْتِهِ فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «هَذَا فُلَانٌ وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ، فَابْعَثُوهَا لَهُ» فَبُعِثَتْ لَهُ وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ سُبْحَانَ الله: مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنْ الْبَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ: رَأَيْتُ الْبُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ، فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنْ الْبَيْتِ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ فَقَالَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقَالُوا: ائْتِهِ فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا مِكْرَزٌ وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ مَعْمَرٌ فَأَخْبَرَنِي أَيُّوبُ عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ».

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه ورضي عنه كذلك كان من المناصرين للنبي ﷺ الذابين عن دعوته ودينه المبغضين للكفرة والملحدين، فقد أخرج الإمام مسلم (١٧٦٣):

عَنِ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ الله ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: «اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ وَقَالَ: يَا نَبِيَّ الله كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلَائِكَةِ.

ولما كانت النصرة واجبة والتخذيل محرم فقد هجر رسول الله ﷺ قومًا تخلفوا عن نصرته، كما في حديث كعب بن مالك عند البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩): عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: ثُمَّ غَزَا رَسُولُ الله ﷺ غَزْوَةَ تَبُوكَ وَهُوَ يُرِيدُ الرُّومَ وَنَصَارَى الْعَرَبِ بِالشَّامِ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ، فَأَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ كَعْبٍ كَانَ قَائِدَ كَعْبٍ مِنْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حَدِيثَهُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ قَالَ: كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ لَمْ أَتَخَلَّفْ، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطُّ إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ غَيْرَ أَنِّي قَدْ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهُ إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ الله بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا وَكَانَ مِنْ خَبَرِي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ وَالله مَا جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، فَغَزَاهَا رَسُولُ الله ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا وَاسْتَقْبَلَ عَدُوًّا كَثِيرًا فَجَلَا لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِمْ الَّذِي يُرِيدُ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ كَثِيرٌ وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابُ حَافِظٍ يُرِيدُ بِذَلِكَ الدِّيوَانَ قَالَ كَعْبٌ: فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنْ الله عَزَّ وَجَلَّ وَغَزَا رَسُولُ الله ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتْ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ فَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعَرُ فَتَجَهَّزَ رَسُولُ الله ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا وَأَقُولُ فِي نَفْسِي أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَرَدْتُ فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اسْتَمَرَّ بِالنَّاسِ

الْجِدُّ فَأَصْبَحَ رَسُولُ الله ﷺ غَادِيًا وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ فَيَا لَيْتَنِي فَعَلْتُ، ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ ذَلِكَ لِي فَطَفِقْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ الله ﷺ يَحْزُنُنِي أَنِّي لَا أَرَى لِي أُسْوَةً إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ مِنْ الضُّعَفَاءِ وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ الله حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَالنَّظَرُ فِي عِطْفَيْهِ فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ، وَالله يَا رَسُولَ الله مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا فَسَكَتَ رَسُولُ الله ﷺ فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ رَأَى رَجُلًا مُبَيِّضًا يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ فَإِذَا هُوَ أَبُو خَيْثَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ فَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ حَضَرَنِي بَثِّي فَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ بِمَ أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ كُلَّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي فَلَمَّا قِيلَ لِي: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَنْجُوَ مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ وَصَبَّحَ رَسُولُ الله ﷺ قَادِمًا وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ الله ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى الله حَتَّى جِئْتُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَ: فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ لِي: مَا خَلَّفَكَ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله، إِنِّي وَالله لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ وَلَقَدْ

أُعْطِيتُ جَدَلًا وَلَكِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عُقْبَى اللهِ، وَاللهِ مَا كَانَ لِي عُذْرٌ وَاللهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي: وَاللهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا لَقَدْ عَجَزْتَ فِي أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ، فَقَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَكَ قَالَ: فَوَاللهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونَنِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي مِنْ أَحَدٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ قَالَ: قُلْتُ مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعَةَ الْعَامِرِيُّ، وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ، قَالَ: فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ، قَالَ: فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي قَالَ وَنَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ قَالَ: فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَقَالَ: تَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ لِي فِي نَفْسِيَ الْأَرْضُ فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَعْرِفُ فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ وَآتِي رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ أَمْ لَا، ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ وَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي حَتَّى إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا

قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ بِاللهِ هَلْ تَعْلَمَنَّ أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ؟ قَالَ: فَسَكَتَ فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَسَكَتَ فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَقَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ نَبَطِ أَهْلِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ حَتَّى جَاءَنِي فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ وَكُنْتُ كَاتِبًا فَقَرَأْتُهُ، فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ قَالَ: فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُهَا وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ الْبَلَاءِ فَتَيَامَمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهَا بِهَا حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ مِنْ الْخَمْسِينَ وَاسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَأْتِينِي فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ قَالَ: فَقُلْتُ أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ قَالَ: لَا بَلْ اعْتَزِلْهَا فَلَا تَقْرَبَنَّهَا قَالَ: فَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ بِمِثْلِ ذَلِكَ قَالَ: فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، قَالَ: فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ قَالَ: لَا وَلَكِنْ لَا يَقْرَبَنَّكِ فَقَالَتْ: إِنَّهُ وَاللهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ وَوَاللهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا قَالَ: فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ فَقَدْ أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ قَالَ: فَقُلْتُ لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَا يُدْرِينِي مَاذَا يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ قَالَ: فَلَبِثْتُ بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ فَكَمُلَ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نُهِيَ عَنْ كَلَامِنَا قَالَ: ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَّا قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ

أَوْفَى عَلَى سَلْعٍ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ قَالَ فَآذَنَ رَسُولُ الله ﷺ النَّاسَ بِتَوْبَةِ الله عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا فَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي وَأَوْفَى الْجَبَلَ فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنْ الْفَرَسِ فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي فَنَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ وَالله مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا فَانْطَلَقْتُ أَتَأَمَّمُ رَسُولَ الله ﷺ يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّئُونِي بِالتَّوْبَةِ وَيَقُولُونَ لِتَهْنِئْكَ تَوْبَةُ الله عَلَيْكَ حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ الله يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي وَالله مَا قَامَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ قَالَ: فَكَانَ كَعْبٌ لَا يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنْ السُّرُورِ وَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ قَالَ: فَقُلْتُ أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ الله أَمْ مِنْ عِنْدِ الله فَقَالَ: لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ الله وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ قَالَ: وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ قَالَ: فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ يَا رَسُولَ الله: إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى الله وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، قَالَ: فَقُلْتُ فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِيَ الَّذِي بِخَيْبَرَ قَالَ: وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ اللهَ إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصِّدْقِ وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ قَالَ: فَوَالله مَا عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي اللهُ بِهِ، وَالله مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللهُ فِيمَا بَقِيَ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**لَقَدْ تَابَ اللهُ**

عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قَالَ كَعْبٌ: وَاللهِ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ إِذْ هَدَانِي اللهُ لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللهِ ﷺ، أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا إِنَّ اللهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ، وَقَالَ اللهُ سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ قَالَ كَعْبٌ كُنَّا خُلِّفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى فِيهِ فَبِذَلِكَ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ مِمَّا خُلِّفْنَا تَخَلُّفَنَا عَنِ الْغَزْوِ وَإِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ.

إلى غير ذلك، ولما كانت النصرة على هذه المزية العظيمة في نصر الحق والخير قابلته تلك الصفة الذميمة: إلا وهي التخذيل سبيل الشيطان، قال الله عز وجل: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً﴾[الفرقان:٢٩].

وهي طريقة اليهود عليهم لعائن الله، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا

فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[البقرة: ٢٤٦-٢٥١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا

فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[المائدة: ٢٠-٢٦].

وقد تألم لوط عليه السلام من كثرة الخاذلين وقلتة الناصرين، **فال تعالى:** ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[هود: ٧٧-٨٣].

والتخذيل كذلك من صفات المنافقين، فقد أخبر به عز وجل عن ابن أبي قوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[المنافقون: ٧-٨].

وأخرج البخاري (٤٩٠٤)، ومسلم (٢٧٧٢) في سبب نزولها حديث زَيْد بْن أَرْقَمَ يَقُولُ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- فِى سَفَرٍ أَصَابَ النَّاسَ فِيهِ شِدَّةٌ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَىٍّ لأَصْحَابِهِ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ. قَالَ زُهَيْرٌ

وَهِيَ قِرَاءَةُ مَنْ خَفَضَ حَوْلَهُ. وَقَالَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ - قَالَ - فَأَتَيْتُ النَّبِىَّ -ﷺ- فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَىٍّ فَسَأَلَهُ فَاجْتَهَدَ يَمِينَهُ مَا فَعَلَ فَقَالَ كَذَبَ زَيْدٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - قَالَ - فَوَقَعَ فِى نَفْسِى مِمَّا قَالُوهُ شِدَّةٌ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقِى (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ) قَالَ ثُمَّ دَعَاهُمُ النَّبِىُّ -ﷺ- لِيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ - قَالَ - فَلَوَّوْا رُءُوسَهُمْ. وَقَوْلُهُ (كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ) وَقَالَ كَانُوا رِجَالاً أَجْمَلَ شَىْء

وقال الله تعالى في شأن رؤوس المخذلين وهم المنافقون: ﴿ **لَوْ . خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴾[التوبة:٤٧].

فمن أراد نصرة دعوته فليكن ناصرًا للحق وأهله، وليبتعد كل البعد أن يكون من المخذلين فيقع في كبيرة من كبائر الذنوب التي حذر منها النبي ﷺ بقوله: المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله، لا يخذله بالقول ولا يخذله بالفعل.

قال الراغب في تعريف الخذلان: هو ترك النصرة ممن يظن به أن ينصر والتخذيل من صفات إبليس اللعين، **قال تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولًا﴾** [الفرقان:٢٩]، قال ابن كثير: أي يخذله عن الحق، ويصرفه عنه ويستعمله في الباطل ويدعوه إليه، ومع ذلك أعلم أن تخلفك أيها المخذول الخاذل ، أن الدعوة منصورة بغيرك كما في الحديث: «لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة»، وما ذلك إلا لأنهم حملة الدين وحراس العقيدة، والذي يجب أن يخذل ولا يعان هو المخالف للكتاب والسنة، **قال تعالى: ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾**[الإسراء:٢٢].

قال ابن القيم في المدارج (١/ ٤٥٨) في تفسير الآية: ﴿**مذمومًا**﴾ لا حامد لك،

﴿مخذولًا﴾ لا ناصر لك، إذ قد يكون بعض الناس مقهورًا محمودًا كالذي قهر بباطل، وقد يكون مذمومًا منصورًا كالذي قهر وتسلط عليه بباطل، وقد يكون محمودًا منصورًا كالذي تمكن وملك بحق، والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة لا محمود ولا منصور. أهـ

وكم يلاقي الدعاة إلى الله عز وجل من الأذى والهوان بسبب تخاذل من حولهم من العلماء وغيرهم، بينما لو نصروا الحق نُصروا، ولكن الله يفعل ما يريد.

قال شيخ الإسلام ابن كما في مجموع الفتاوى (٢/ ٤٣٨-٤٣٩): وأما قول القائل: إن أحمد إنما قال ذلك خوفًا من الناس فبطلان هذا يعلمه كل عاقل بلغه شيء من أخبار أحمد، وقائل هذا إلى العقوبة البليغة التى يفترى بها على الأئمة أحوج منه إلى جوابه، فان الإمام أحمد صار مثلًا سائرًا يضرب به المثل في المحنة والصبر على الحق، وأنه لم تكن تأخذه في الله لومة لائم حتى صار اسم الإمام مقرونًا باسمه في لسان كل أحد، فيقال: قال الإمام أحمد، هذا مذهب الإمام أحمد؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤] فإنه أعطى من الصبر واليقين ما يستحق به الإمامة في الدين، وقد تداوله ثلاثة خلفاء مسلطون من شرق الأرض إلى غربها ومعهم من العلماء المتكلمين، والقضاة والوزراء والسعاة والأمراء والولاة من لا يحصيهم إلا الله، فبعضهم بالحبس وبعضهم بالتهديد الشديد بالقتل وبغيره وبالترغيب في الرياسة والمال ما شاء الله، وبالضرب وبعضهم بالتشريد والنفي وقد خذله في ذلك عامة أهل الأرض حتى أصحابه العلماء والصالحون والأبرار، وهو مع ذلك لم يعطهم كلمة واحدة مما طلبوه منه، وما رجع عما جاء به الكتاب والسنة ولا كتم العلم ولا استعمل التقية، بل

قد أظهر من سنة رسول الله وآثاره ودفع من البدع المخالفة لذلك ما لم يتأت مثله لعالم من نظرائه وإخوانه المتقدمين والمتأخرين، ولهذا قال بعض شيوخ الشام: لم يظهر أحد ما جاء به الرسول كما أظهره أحمد بن حنبل فكيف يظن به أنه كان يخاف في هذه الكلمة التى لا قدر لها.أهـ

نقلنا هذا لنعلم أن الله ناصر دينه، نصرنا أم خذلنا، ألا فليتق الله الدعاة والمشايخ والعلماء من خذلان بعضهم لبعض، بل عليهم تجاه بعضهم المناصرة لحديث: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» الحديث.

قال بكر أبو زيد في كتاب الردود (٧٢): والتخذيل لا يسري في أمة إلا وتعمل على اسقاط نفسها، وتوجد من تقصيرها وتخذيل الناصحين فيها معاول لهدمها، وإذا نظرت في تاريخ داء التخذيل الطويل منذ فجر الرسالة رأيته من سمات المسلمين ظاهراً لا باطناً –المنافقين– ... والمخذل آثم شرعاً مرتين، بالتقصير والتخذيل. أهـ

فعلى هذا أناشد العلماء وطلاب العلم وجميع الناصحين من الأمة بالبعد عن التخذيل، وعليهم أن يقوموا بالنصرة كما أمرهم الله تعالى.

العاشرة: ابدء بما بدأ اللّه به.

الوسيلة العاشرة لنصرة الدعوة السلفية التدرج في الدعوة من الأهم فالأهم.

فإذا كان المدعو من الكافرين أو من يقاربهم من المعرضين عن شرع رب العالمين فيحبب إليه الإيمان الإسلام، ويرغب في الجنة ويخوف من النار، وهكذا دوليك.

أخرج الإمامان البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ لما أرسل معاذ إلى اليمن قال: إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما

تدعوهم إليه أن يوحدوا الله، وفي رواية: أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا.

وفي رواية: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأخبرهم أن الله أفترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة أموالهم فترد على فقرائهم، وإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب.

قال الخطابي في «معالم السنن» (٢/ ١٩٩): فإذا أقاموها أي الشهادتين توجهت عليهم بعد ذلك الشرائع والعبادات؛ لأنه قد أوجبها مرتبة، وقدم فيها الشهادة ثم تلاها بالصلاة والزكاة.

ويدل على ذلك ما أخرجه البخاري (٤٩٩٣) عن يوسف بن ماهك قال: إني عند عائشة أم المؤمنين إذ جاء عراقي فقال: أي الكفن خير؟ قالت: ويحك ما يضرك؟ قال: يا أم المؤمنين أريني مصحفك، قالت: لم؟ قال: لعلي أؤلف القرآن عليه فإنه يقرا غير مؤلف.

قالت: وما يضرك آية قرأت قبل؟ إنما أنزل أول ما أنزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا.

ولو نزل لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وأنا جارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر:٤٦] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده.

قال: فأخرجت له المصحف فأملت إليه أي السور.

قال الحافظ في شرح الحديث: إشارة على الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاص بالنار، فلما أطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام. أهـ

ويدل على كلام عائشة رضي الله عنها قول الله تعالى: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ [الاسراء:١٠٦].

أي نزل متدرجًا في الأحكام.

قال الزرقاني في «مناهل العرفان» (١/ ٥٠) ط أحياء التراث: وكان الإسلام في انتهاج هذه الخطة المثلى أبعد نظرًا وأهدى سبيلًا وأنجح تشريعًا وانجع سياسية من تلكم الأمم المتمدنة المتحضرة.

ومن الأدلة على البدأ بالأهم قول الله تعالى: ﴿يَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢١٥].

قال الآلوسي في «روح المعاني» (١/ ١٠٥) ظاهر الآية أنه سئل عن المنفق فأجاب ببيان المعرف صريحًا لأنه أهم، فإن اعتداد النفقة باعتباره.

وقال القاسمي في تفسيره (٣/ ٥٣١): بنى الكلام على ما هو أهم وهو بيان المصرف؛ لأن النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها.

وفي حديث معاذ أيضًا بيان لطيف: وهو أنه ينبغي للداعي إلى الله عز وجل إن أراد نصرة دعوته وقبول خيره أن يتعرف على أحوال المدعوين قبل دعوتهم.

ولو نظرنا بعين المتأمل المستبصر في قصص الأنبياء عليهم السلام لرأينا أنهم يقدمون

الأهم فالأهم.

وقد أخرج أحمد في مسنده من حديث طارق المحاربي أن النبي ﷺ كان يسير في الأسواق وهو يقول: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا».

وفي حديث عمر بن عبسة عند مسلم (٨٣٢): عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ: كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ مُسْتَخْفِيًا جُرَءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «أَنَا نَبِيٌّ» فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «أَرْسَلَنِي اللهُ» فَقُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ»، قُلْتُ لَهُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: «حُرٌّ وَعَبْدٌ»، قَالَ: وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ، فَقُلْتُ: إِنِّي مُتَّبِعُكَ، قَالَ: إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ، وَلَكِنْ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي قَالَ: فَذَهَبْتُ إِلَى أَهْلِي وَقَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ الْمَدِينَةَ وَكُنْتُ فِي أَهْلِي، فَجَعَلْتُ أَتَخَبَّرُ الْأَخْبَارَ وَأَسْأَلُ النَّاسَ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ حَتَّى قَدِمَ عَلَيَّ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةَ، فَقُلْتُ: مَا فَعَلَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدِمَ الْمَدِينَةَ؟ فَقَالُوا: النَّاسُ إِلَيْهِ سِرَاعٌ وَقَدْ أَرَادَ قَوْمُهُ قَتْلَهُ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ، فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَتَعْرِفُنِي؟ قَالَ: «نَعَمْ أَنْتَ الَّذِي لَقِيتَنِي بِمَكَّةَ»، قَالَ: فَقُلْتُ بَلَى، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله، أَخْبِرْنِي عَمَّا عَلَّمَكَ اللهُ وَأَجْهَلُهُ، أَخْبِرْنِي عَنْ الصَّلَاةِ قَالَ: «صَلِّ صَلَاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنْ الصَّلَاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، حَتَّى تَرْتَفِعَ فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ، ثُمَّ صَلِّ فَإِنَّ

الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بِالرُّمْحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنْ الصَّلَاةِ فَإِنَّ حِينَئِذٍ تُسْجَرُ جَهَنَّمُ، فَإِذَا أَقْبَلَ الْفَيْءُ فَصَلِّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى تُصَلِّيَ الْعَصْرَ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنْ الصَّلَاةِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ، فَإِنَّهَا تَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ«، قَالَ: فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللهِ فَالْوُضُوءَ حَدِّثْنِي عَنْهُ؟ قَالَ: »مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ فَيَتَمَضْمَضُ وَيَسْتَنْشِقُ فَيَنْتَثِرُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ وَفِيهِ وَخَيَاشِيمِهِ، ثُمَّ إِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ وَفَرَّغَ قَلْبَهُ للهِ إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ«.

وفي حديث أبي نضلة عندما سئل رسول الله ﷺ: إلى ما تدعو؟ قال: »إلى الله والرحم«.

فكل هذه الأدلة تدل أن رسول الله ﷺ إنما بدأ دعوته إلى التوحيد، ثم تدرج حتى أتم الله الدين وأكمله.

وهذا من أهم الوسائل لقبول الدعوة، وفي حديث عائشة عند الشيخين البخاري (١٥٨٥)، ومسلم (١٣٣٣): قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: »لَوْلَا حَدَاثَةُ عَهْدِ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ وَلَجَعَلْتُهَا عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّ قُرَيْشًا حِينَ بَنَتْ الْبَيْتَ اسْتَقْصَرَتْ وَلَجَعَلْتُ لَهَا خَلْفًا«.

فإن وصلت إلى مجتمع قبوري فابدأ بدعوتهم إلى التوحيد وترغيبهم فيه، فإنهم إن

أحبوا الإسلام والتوحيد تركوا كل ما يخالفه.

وكم كنا نسمع من شيخنا الوادعي رحمه الله تعالى وهو يقول: حببوا العلم والسنة إلى الناس، فإنهم إذا أحبوها قبلوا منكم الحق الذي تحملون.

الحادية عشرة: التخول بالموعظة بين الحين والآخر بعدًا عن السائمة والغفلة.

أخرج البخاري (٦٨)، ومسلم (٢٨٢١) عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة خائفه السائمة علينا.

وبوب عليه البخاري باب: ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم لكي لا ينفروا.

قال الحافظ في شرح الحديث: وفيه رفق النبي ﷺ بأصحابه، وحسن التوصل إلى تعليهم وتفهيمهم ليأخذوا عنه بنشاط لا عن ضجر ولا ملل، ويقتدي به في ذلك، فإن التعليم بالتدريج أخف مؤونة وادعى إلى الثبات من أخذه بالكبر والمغالبة. أهـ

وكما قيل: من أراد الشيء جملة فقده جمله.

فعلى الداعي إلى الله أن يكون وسطًا بين ما يؤدي إلى الملل وبين الإعراض.

يتخول القرى والمناطق بالدعوة خشية تسلط الغفلة عليهم، فإنها الداء الثقيل الذي يفسد الدنيا والدين.

وعدم السكينة في جميع شؤون الحياة يؤدي إلى الانقطاع، وكما قيل: فإن المنبت لا ظهرًا أبقى ولا أرضًا قطع.

ويدخل في هذا الباب تقصير الخطبة، فقد كانت خطبة النبي قصدًا كما في حديث

جابر بن سمرة عند مسلم، وكثرة الكلام ينسي بعضه بعضًا كما قال الزهري.

وقد قال رسول الله ﷺ: «السكينة السكينة، فإن البر ليس بالإيضاع».

وغالبًا ما ينقطع هذا الداعي قبل غيره.

فنسأل الله السداد وأن يوصلنا المراد.

الثانية عشرة:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾[النور: ٣٦]

ومن الوسائل الجليلة لنصرة الدعوة السلفية بناء المساجد ودور العلم، ولما كان شئنها عظيم بالنسبة لنشر الدين والخير، فإن النبي ﷺ حين وضع رحله في المدينة النبوية بدأ ببناء المسجد، يدل على ذلك حديث أنس رضي الله عنه عند الإمام مسلم (٥٢٤): أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَنَزَلَ فِي عُلْوِ الْمَدِينَةِ فِي حَيٍّ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، فَأَقَامَ فِيهِمْ أَرْبَعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، ثُمَّ إِنَّهُ أَرْسَلَ إِلَى مَلَإِ بَنِي النَّجَّارِ فَجَاءُوا مُتَقَلِّدِينَ بِسُيُوفِهِمْ قَالَ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَأَبُو بَكْرٍ رِدْفُهُ وَمَلَأُ بَنِي النَّجَّارِ حَوْلَهُ، حَتَّى أَلْقَى بِفِنَاءِ أَبِي أَيُّوبَ قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي حَيْثُ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ، وَيُصَلِّي فِي مَرَابِضِ الْغَنَمِ، ثُمَّ إِنَّهُ أَمَرَ بِالْمَسْجِدِ قَالَ: فَأَرْسَلَ إِلَى مَلَإِ بَنِي النَّجَّارِ فَجَاءُوا فَقَالَ: «يَا بَنِي النَّجَّارِ ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا؟» قَالُوا: لَا وَاللهِ لَا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلَّا إِلَى اللهِ، قَالَ: أَنَسٌ فَكَانَ فِيهِ مَا أَقُولُ كَانَ فِيهِ نَخْلٌ وَقُبُورُ الْمُشْرِكِينَ، وَخِرَبٌ فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالنَّخْلِ فَقُطِعَ، وَبِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فَنُبِشَتْ، وَبِالْخِرَبِ فَسُوِّيَتْ، قَالَ: فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةً وَجَعَلُوا عِضَادَتَيْهِ حِجَارَةً قَالَ: فَكَانُوا يَرْتَجِزُونَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ:

اللهُـمَّ إِنَّـهُ لَا خَـيْرَ إِلَّا خَـيْرُ الْآخِـرَهْ فَانْصُرْ الْأَنْصَـارَ وَالْمُهَـاجِرَهْ

وعندما دخل أهل البحرين في الإسلام بنوا مسجد جواثا في البحرين.

وكذلك أصحابه ما فتحوا بلدًا من البلدان إلا وبنوا به مسجدًا، لما في المسجد من النفع العظيم لنشر الدعوة والخير.

وكان ﷺ إذا قدم من سفر أو حرب بدأ بالمسجد.

وكان المسجد هو المدرسة التي تخرج منها فطاحلة العلماء حفظًا للقرآن وعملًا به، يدل على ذلك حديث عقبة عند مسلم (٨٠٣): عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟» فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: «أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعٌ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ».

وعن أبي واقد الليثي عند الشيخين البخاري (٦٦)، ومسلم (٢١٧٦) قال: بَيْنَمَا رَسُولَ اللهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ، إِذْ أَقْبَلَ نَفَرٌ ثَلَاثَةٌ فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَذَهَبَ وَاحِدٌ قَالَ: فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَرَأَى فُرْجَةً فِي الْحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الْآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ: أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللهِ فَآوَاهُ اللهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ».

وعند مسلم (٢٦٩٩) مرفوعًا: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يَجْتَمِعُونَ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَقْرَءُونَ وَيَتَعَلَّمُونَ كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ،

يَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا حَفَّتْ بِهِمْ الْمَلَائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَذَكَرَهُمْ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَسْلُكُ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ بِهِ الْعِلْمَ إِلَّا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ يُبْطِئُ بِهِ عَمَلُهُ لَا يُسْرِعُ بِهِ نَسَبُهُ«.

وقد أخرج البخاري في كتاب الصلاة (٩٥٢)، ومسلم (٨٩٢): عَنْ عَائِشَةُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلَعَّابِينَ: وَدِدْتُ أَنِّي أَرَاهُمْ قَالَتْ: فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقُمْتُ عَلَى الْبَابِ أَنْظُرُ بَيْنَ أُذُنَيْهِ وَعَاتِقِهِ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي الْمَسْجِدِ.

قال الحافظ في شرح الحديث: واللعب بالحراب ليس لعبًا مجردًا، بل فيه تدريب الشجعان على مواقع الحروب والاستعداد للعدو، وقال المهلب: المسجد موضوع لأمر جماعة المسلمين، فما كان من أعمال ينفع الدين وأهله جاز فيه.

حتى أن الله عز وجل أخبر في كتابه أن بناء المساجد وعمارتها بالطاعة والخير فارق بين المشركين والمؤمنين، **قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾**[التوبة: ١٧-١٨].

وكان رسول الله ﷺ يجهز الجيوش في المسجد، ويعلم في المسجد، ويخطب ويعض في المسجد، إلى غير ذلك من وسائل الدعوة التي سلكها ﷺ لنشر الخير والسنة، وما دخل الخور على المسلمين إلا حين تركوا المساجد خاوية على عروشها، فابدلهم الله عز وجل بعد العزة هوانًا، وبعد القوة ضعفًا، وبعد التمكين خذلانًا، فالعودة العودة إلى ما كان عليه السلف نسعد.

الثالثة عشرة: رأيت القناعة أصل الغنى

ومما ينبه عليه هنا أن القناعة بدين الله عز وجل الحق الذي هو السلفية الحقة، من أعظم أسباب نصرة الحق وأهله ففي قصة هرقل: وفيه: هل يرتد منهم أحدًا سخطة لدينه؟ فقال أبو سفيان: لا، قال: كذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب. متفق عليه

ويدل على ذلك حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عند الشيخين: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وإن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**».

وفي محاضرة ألقاها شيخنا مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله إلى بريطانيا عبر الهاتف:

إذا اقتنعت أن الإسلام حق لو ارتدَّ الناس كلهم لا تتزحزح عن دينك ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل: من الآية ١٢٠).

الرابعة عشرة: «الدين النصيحة».

بث النصيحة وبذلها واجب متحتم، به يقوم الدين، وبه تصلح البلاد ويصلح العباد، وبه تنشر الدعوة، ولذلك بعث الأنبياء بالنصيحة، فقد قال الله عز وجل عن نوح: ﴿**وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾[الأعراف:٦٢] ، وقال في شأن هود: ﴿**وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ**﴾[الأعراف:٦٨].

وقال عن صالح: ﴿**وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ**﴾[الأعراف:٧٩].

وقال عن شعيب: ﴿**وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ**﴾[الأعراف:٩٣].

وجمع الرسل إنما أرسلوا وبعثوا بالنصيحة وبذلها والدعوة إلى الشرع.

وقد أخبر الله عز وجل أن الناس في خسارة، إلا من لزم النصح وصبر عليه، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[العصر: ١-٣].

وأخرج الإمام مسلم برقم(٥٥): عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ».

وقال جرير رضي الله عنه: بايعنا رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم، أخرجه البخاري (١٤٠١)، ومسلم (٥٦).

واتفقا على حديث أبي هريرة البخاري (١٢٤٠)، ومسلم (٢١٦٢) واللفظ له: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ» قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ».

قال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» في شرح الحديث السابع: وقد وردت في أحاديث كثيرة النصح للمسلمين عمومًا وفي بعضها النصح لولاة الأمور، وفي بعضها نصح ولاة الأمور لرعايهم .. وذكر بعض ما تقدم من الأحاديث.

قال: وقد أخبر النبي ﷺ أن الدين النصيحة، فهذا يدل على أن النصيحة تشمل خصال الإسلام والإيمان والإحسان التي ذكرت في حديث جبريل وسمي ذلك كله دينًا.

فإن النصح يقتضي القيام بأداء الواجبات على أكمل وجوهها، وهو مقام الإحسان، فلا يكمل النصح لله بدون ذلك، ولا يتأتى ذلك بدون كمال المحبة الواجبة والمستحبة،

ويستلزم ذلك الاجتهاد في التقرب إليه بنوافل الطاعات على هذا الوجه وترك المحرمات والمكروهات على هذا الوجه أيضًا.

قال: وقال الخطابي: النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة، هي إرادة الخير للمنصوح له، واصل النصح في اللغة الخلوص، يقال: نصحت العسل إذا خلصته من الشمع.

فمعنى النصيحة لله سبحانه صحة الاعتقاد في وحدانيته، وإخلاص النية في عبادته.

والنصيحة لكتابه الإيمان به والعمل بما فيه.

والنصيحة لرسوله التصديق بنبوته، وبذل الطاعة له فيما أمر به ونهى عنه.

والنصيحة لعامة المسلمين إرشادهم إلى مصالحهم. أهـ

وقالرحمه الله: قال أبو عمرو بن الصلاح: والنصيحة لعامة المسلمين إرشادهم إلى مصالحهم وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم، وستر عوراتهم وسد خلاتهم، ونصرتهم على أعدائهم والذب عنهم، ومجانبة الغش والحسد لهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه. انتهى ما ذكره.

قال: ومن أنواع نصحهم نصحهم بدفع الأذى والمكروه عنهم، وإيثار فقيرهم وتعليم جاهلهم، ورد من زاغ منهم عن الحق في قول أو عمل بالتلطف في ردهم إلى الحق، والرفق بهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر محبة لإزالة فسادهم ولو بحصول ضرر في دنياه.

قال: ومن أعظم أنواع النصح لله ولكتابه ورسوله، هو ما يختص به العلماء رد الأهواء المضلة بالكتاب والسنة، وبيان دلالتها على ما يخالف الأهواء كلها، وكذلك رد الأقوال الضعيفة من زلات العلماء، وبيان دلالة الكتاب والسنة على ردها. أهـ

وكان السلف رضوان الله عليهم حريصين كل الحرص على النصيحة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

فقد قال ميمون بن مهران لجعفر بن برقان: يا جعفر قل لي في وجهي ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره.

ذكرها الذهبي في «السير» (٥/ ٧٥).

وقد ضرب الأوزاعي مثلًا عظيمًا في بث النصيحة كما في «السير» (٧/ ١٢٤-١٢٥)، قال: بعث عبد الله بن علي إلي فاشتد ذلك عليَّ وقدمت فدخلت والناس سماطان فقال: ما تقول في مخرجنا وما نحن فيه؟ قلت: أصلح الله الأمير، قد كان بيني وبين داود بن علي مودة قال: لتخبرني فتفكرت، ثم قلت: لأصدقنه، واستبسلت للموت، ثم رويت له عن يحيى بن سعيد حديث الأعمال وبيده قضيتِ ينكت به، ثم قال: يا عبد الرحمن ما تقول في قتل أهل هذا البيت؟ قلت: حدثني محمد ابن مروان، عن مطرف بن الشخير، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «لا يحل قتل المسلم إلا في ثلاث» وساق الحديث، فقال: أخبرني عن الخلافة وصية لنا من رسول الله ﷺ فقلت: لو كانت وصية من رسول الله ﷺ ما ترك علي رضي الله عنه أحدًا يتقدمه، قال: فما تقول في أموال بني أمية؟ قلت: إن كانت لهم حلالًا فهي عليك حرام، وإن كانت عليهم حرامًا فهي عليك أحرم فأمرني فأُخْرِجت.

وعند الفريابي قال: أجتمع الثوري والأوزاعي، وعباد بن كثير بمكة، فقال الثوري للأوزاعي: حدثنا يا أبا عمرو حديثك مع عبد الله بن علي قال: نعم لما قدم الشام وقتل بني أمية جلس يومًا على سريره وعبأ أصحابه أربعة أصناف صنف معهم السيوف

المسللة، وصنف معهم الجزرة أظنها الأطبار وصنف معهم الأعمدة وصنف معهم الكافر كوب، ثم بعث إلي فلما صرت بالباب أنزلوني وأخذ اثنان بعضدي وأدخلوني بين الصفوف حتى أقاموني مقامًا يسمع كلامي فسلمت فقال: أنت عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي قلت: نعم، أصلح الله الأمير قال: ما تقول في دماء بني أمية فسأل مسألة رجل يريد: أن يقتل رجلًا فقلت قد كان بينك وبينهم عهود فقال: ويحك اجعلني وإياهم لا عهد بيننا فأجهشت نفسي وكرهت القتل فذكرت مقامي بين يدي الله عز وجل فلفظتها، فقلت: دماؤهم عليك حرام فغضب وانتفخت عيناه وأوداجه فقال لي: ويحك، ولم قلت قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرى ء مسلم إلا بإحدى ثلاث: ثيب زان، ونفس بنفس، وتارك لدينه»، قال: ويحك أوليس الأمر لنا ديانة، قلت: وكيف ذاك قال: أليس كان رسول الله ﷺ كان أوصى إلى علي، قلت: لو أوصى إليه ما حكم الحكمين فسكت، وقد اجتمع غضبًا فجعلت أتوقع رأسي تقع بين يدي فقال: بيده هكذا أوما أن أخرجوه فخرجت فركبت دابتي فلما سرت غير بعيد إذا فارس يتلوني فنزلت إلى الأرض فقلت: قد بعث ليأخذ رأسي أصلي ركعتين فكبرت فجاء وأنا قائم أصلي فسلم وقال: إن الأمير، قد بعث إليك بهذه الدنانير فخذها فأخذتها ففرقتها قبل أن أدخل منزلي.

وهذا أبو عبيد القاسم بن سلام ينصح لشيخه كما في «السير»(١٠/ ٤٩٨) قال:

فعلت بالبصرة فعلتين أرجو بهما الجنة أتيت يحيى القطان، وهو يقول أبو بكر وعمر فقلت: معي شاهدان من أهل بدر يشهدان: أن عثمان أفضل من علي قال: من قلت أنت، حدثتنا عن شعبة عن عبد الملك بن ميسرة عن النزال بن سبرة قال: خطبنا ابن مسعود فقال: أمرنا خير من بقي ولم نأل قال: ومن الاخر قلت الزهري عن حميد بن عبد الرحمن

عن المسور قال سمعت عبد الرحمن بن عوف يقول: شاورت المهاجرين الأولين وأمراء الأجناد وأصحاب رسول الله ﷺ فلم أر أحدا يعدل بعثمان قال: فترك يحيى قوله وقال أبو بكر وعمر وعثمان، قال: وأتيت عبد الله الخريبي فإذا بيته بيت خمار فقلت: ما هذا؟ قال: ما اختلف فيه أولنا ولا أخرنا قلت: أختلف فيه أولكم وأخركم قال: من قلت أيوب السختياني، عن محمد عن عبيدة قال: اختلف علي في الأشربة فمالي شراب منذ عشرين سنة إلا عسل أو لبن أو ماء قال: ومن أخرنا قلت عبد الله بن إدريس قال: فأخرج كل ما في منزله فأهراقه.

والنصح فيه بركة للداعي والمدعو، قال البربهاري كما في «السير» (١٥/ ٩١): المجالسة للمناصحة فتح باب الفائدة، والمجالسة للمناظرة غلق باب الفائدة.

فالنصيحة سبب لاستمرار الخير وظهوره، وكتم النصيحة سبب لضياح الحق وخموده، فالزم النصيحة بضوابطها من الرفق واللين ووضع الأمور في مواضعها، وملازمة الكتاب والسنة تفلح وتعلوا وتمكن وتنصر.

الخامسة عشرة: «ما منعك إذ رأيت المنكر أن لا تغيره»

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم ميزات هذا الدين القويم، دين رب العالمين، **قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾**[آل عمران:١١٠].

ولعظم شأن هذه الشعيرة الجليلة قال ابن القيم في «المدارج» (٣/ ١٢٣): إنما بعث الله رسله وأنزل كتبه بالإنكار على الخلق بما هم عليه من أحكام البشرية وغيرها، فلهذا

أرسلت الرسل وأنزلت الكتب وانقسمت الدار إلى دار سعادة للمنكرين، ودار شقاوة للمنكر عليهم.

وقال الغزالي في «الإحياء» (٢/ ٣٣٣): إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه وأهل عمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة واستشرى الفساد، واتسع الخرق وخربت البلاد، وهلك العباد ولم يشعروا بالهلاك إلى يوم التناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.أهـ

وقال تعالى مرغبًا فيه وحاثًا عليه: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤].

فمن أعظم وسائل الفلاح في الدنيا للداعين بنشر خيرهم ودعوتهم هو صدعهم بالمعروف ودعوتهم إليه، ونهيهم عن المنكر وتحذير الناس منه.

كما أنه سبب للفلاح الآخروي السرمدي، فهل من مدكر.

وقال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[آل عمران:١١٤].

فقرن الله عز وجل بين الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لما بينهما من التلازم، وليعلم أنه لا كمال لإيمان العبد إلا بتحقيق هذه الشعيرة العظيمة.

وقال تعالى مبينًا أن الولاية للمؤمنين لا تكمل ولا تتم إلا بملازمة هذه الوسيلة

العظيمة لنصرة الحق والسنة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١].

والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر باع نفسه من الله، ووعد بالحسنى، فهنيئًا له **قال تعالى:** ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[التوبة: ١١١-١١٢].

ولنا في قصة أهل القرية العبرة العظيمة، كيف نجى الله عز وجل أهل الخير واستمرت دعوتهم، وأهلك غيرهم ممن عصى وتمرد، **قال تعالى:** ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[الأعراف: ١٦٣-١٦٥].

ومن فرط في هذه الوسيلة تعمدًا وتهاونًا بالدين استحق اللعن، فقد **وقال تعالى:** ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[المائدة: ٧٨-

.[٧٩

وذم الله عز وجل الأحبار بعدم النهي عن المنكر، فقال: ﴿لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[المائدة:٦٣].

ولا خير فيك أيها الداعي أنت وغيرك من المسلمين إلا بتحقيق هذه الشعيرة، وقال تعالى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء:١١٤].

وبين أن العاقبة لأصحاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[الحج:٤١].

ولو نظرنا في عاقبة المفرطين في هذه الشعيرة الجليلة والطريقة القويمة تجد أن دعواتهم قد انتهت والشر بينهم قد عم، ووصفوا بأقبح الأوصاف.

فقد شبههم الله بالحمير كما في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[الجمعة:٥].

وشبههم بالكلاب كما في قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

ولعنوا كما تقدم.

وهم في الآخرة مبشرون بالعذاب الأليم والخزي العظيم.

أخرج أبو داود في «سننه» من حديث أبي سعيد: «إن الله ليسأل العبد يوم القيامة حتى يقول: يا فلان، ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره، فإذا لقن الله العبد حجته قال: يا رب رجوتك وفرقت من الناس».

الحديث في: «الصحيح المسند».

وأخرج الترمذي (٢١٩١) من حديث أبي سعيد مرفوعًا: «ألا لا يمنعن رجلًا هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه».

الحامل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال ابن رجب رحمه الله في شرح الحديث الرابع والثلاثين في «جامع العلوم والحكم»: واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تارة يحمل عليه رجاء ثوابه، وتارة خوف العقاب في تركه، وتارة الغضب لله على انتهاك محارمه، وتارة النصيحة للمؤمنين والرحمة لهم ورجاء انقاذهم مما أوقعوا أنفسهم فيه من التعرض لغضب الله وعقبوبته في الدنيا والآخرى، وتارة يحمل عليه إجلال الله وإعظامه ومحبته، وأنه أهل أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وأنه يفتدى من انتهاك محارمه بالنفوس والأموال، ومن حفظ هذا المقام هان علية كل ما يلقى من الأذى في الله عز وجل، وربما دعا لمن آذاه كما قال ذلك النبي ﷺ لما ضربه قومه، فجعل يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثلاثة درجات يجمعها حديث أبي سعيد عند مسلم (٥٠) قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

وفي حديث ابن مسعود عند مسلم (٥١) بعد الثالثة: وليس وراء ذلك حبة خردل من إيمان».

قال النووي رحمه الله في شرح الحديث (٢/ ٢١-٢٤) قوله: «فليغيره»: فهو أمر إيجاب بإجماع الأمة وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الكتاب والسنة وإجماع الأمة وهو أيضًا من النصيحة التي هي الدين ولم يخالف في ذلك إلا بعض الرافضة ولا يعتد بخلافهم، كما قال الإمام أبو المعالى إمام الحرمين لا يكترث بخلافهم فى هذا فقد أجمع المسلمون عليه قبل أن ينبغ هؤلاء ووجوبه بالشرع لا بالعقل خلافًا للمعتزلة، وأما قول الله عز وجل: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، فليس مخالفًا لما ذكرناه؛ لأن المذهب الصحيح عند المحققين في معنى الآية إنكم إذا فعلتم ما كلفتم به فلا يضركم تقصير غيركم مثل قوله تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، وإذا كان كذلك فمما كلف به الإمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإذا فعله ولم يمتثل المخاطب فلا عتب بعد ذلك على الفاعل لكونه أدى ما عليه، فإنما عليه الأمر والنهى لا القبول والله أعلم ثم ان الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية إذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين وإذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلا عذر ولا خوف، ثم أنه قد يتعين كما اذا كان في موضع لا يعلم به الا هو أولا يتمكن من إزالته الا

هو وكمن يرى زوجته أو ولده أو غلامه على منكر أو تقصير في المعروف، قال العلماء رضى الله عنهم: ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لكونه لا يفيد في ظنه، بل يجب عليه فعله فإن الذكرى تنفع المؤمنين، وقد قدمنا أن الذى عليه الأمر والنهى لا القبول وكما قال الله عز وجل ما على الرسول إلا البلاغ ومثل العلماء هذا بمن يرى إنسانًا في الحمام أو غيره مكشوف بعض العورة ونحو ذلك والله أعلم.

قال العلماء: ولا يشترط في الآمر والناهى أن يكون كامل الحال ممتثلًا ما يأمر به مجتنبا ما ينهى عنه، بل عليه الأمر وان كان مخلًا بما يأمر به والنهى وإن كان متلبسا بما ينهى عنه، فإنه يجب عليه شيئان أن يأمر نفسه وينهاها ويأمر غيره وينهاه، فإذا أخل بأحدهما كيف يباح له الاخلال بالآخر قال العلماء: ولا يختص الامر بالمعروف والنهى عن المنكر بأصحاب الولايات بل ذلك جائز لآحاد المسلمين قال امام الحرمين والدليل عليه اجماع المسلمين، فإن غير الولاة في الصدر الأول والعصر الذى يليه كانوا يأمرون الولاة بالمعروف وينهونهم عن المنكر مع تقرير المسلمين أياهم وترك توبيخهم على التشاغل بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من غير ولاية والله أعلم، ثم إنه إنما يأمر وينهى من كان عالما بما يأمر به وينهى عنه وذلك يختلف باختلاف الشيء، فإن كان من الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة كالصلاة والصيام والزنا والخمر ونحوها فكل المسلمين علماء بها وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال ومما يتعلق بالاجتهاد لم يكن للعوام مدخل فيه ولا لهم انكاره، بل ذلك للعلماء.

واعلم أن هذا الباب أعنى باب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر قد ضيع أكثره من أزمان متطاولة ولم يبق منه فى هذه الازمان الا رسوم قليلة جدا وهو باب عظيم به قوام

الأمر وملاكه واذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح واذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[النور:٦٣]، فينبغي لطالب الآخرة والساعى في تحصيل رضا الله عز وجل أن يعتنى بهذا الباب فان نفعه عظيم لا سيما وقد ذهب معظمه ويخلص نيته ولا يهابن من ينكر عليه لارتفاع مرتبته فان الله تعالى قال: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنصُرُهُ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[آل عمران:١٠١]، وقال تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وقال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾[العنكبوت: ٢-٣].

واعلم أن الاجر على قدر النصب ولا يتاركه أيضا لصداقته ومودته ومداهنته وطلب الوجاهة عنده ودوام المنزلة لديه فان صداقته ومودته توجب له حرمة وحقا ومن حقه أن ينصحه ويهديه إلى مصالح آخرته وينقذه من مضارها وصديق الانسان ومحبه هو من سعى في عمارة آخرته وأن أدى ذلك إلى نقص في دنياه وعدوه من يسعى في ذهاب أو نقص آخرته وان حصل بسبب ذلك صورة نفع في دنياه وانما كان ابليس عدوا لنا لهذا وكانت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أولياء للمؤمنين لسعيهم فى مصالح آخرتهم وهدايتهم اليها ونسأل الله الكريم توفيقنا وأحبابنا وسائر المسلمين لمرضاته وأن يعمنا بجوده ورحمته والله أعلم.

وينبغى للآمر بالمعروف والناهى عن المنكر أن يرفق ليكون أقرب إلى تحصيل المطلوب فقد قال الامام الشافعى رضى الله عنه من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه

ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه ومما يتساهل اكثر الناس فيه من هذا الباب ما اذا رأى انسانا يبيع متاعا معيبا أو نحوه فإنهم لا ينكرون ذلك ولا يعرفون المشترى بعيبه وهذا خطأ ظاهر وقد نص العلماء على أنه يجب على من علم ذلك أن ينكر على البائع وأن يعلم المشترى به والله أعلم.

وأما صفة النهى ومراتبه فقد قال النبى ﷺ في هذا الحديث الصحيح فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه فقوله ﷺ فبقلبه معناه فليكرهه بقلبه وليس ذلك بازالة وتغيير منه للمنكر ولكنه هو الذى فى وسعه وقوله ﷺ (وذلك أضعف الايمان) معناه والله أعلم أقله ثمرة قال القاضي عياض رحمه الله هذا الحديث أصل فى صفة التغيير فحق المغير أن يغيره بكل وجه أمكنه زواله به قولا كان أو فعلا فيكسر آلات الباطل ويريق المسكر بنفسه أو يأمر من يفعله وينزع الغصوب ويردها إلى أصحابها بنفسه أو بأمره اذا أمكنه ويرفق في التغيير جهده بالجاهل وبذى العزة الظالم المخوف شره اذ ذلك أدعى إلى قبول قوله كما يستحب أن يكون متولى ذلك من أهل الصلاح والفضل لهذا المعنى ويغلظ على المتمادى في غيه والمسرف في بطالته اذا أمن أن يؤثر اغلاظه منكرا أشد مما غيره لكون جانبه محميا عن سطوة الظالم فان غلب على ظنه أن تغييره بيده يسبب منكرا أشد منه من قتله أو قتل غيره بسبب كف يده واقتصر على القول باللسان والوعظ والتخويف فان خاف أن يسبب قوله مثل ذلك غير بقلبه وكان في سعة وهذا هو المراد بالحديث ان شاء الله تعالى وان وجد من يستعين به على ذلك استعان ما لم يؤد ذلك إلى اظهار سلاح وحرب وليرفع ذلك إلى من له الأمر ان كان المنكر من غيره أو يقتصر على تغييره بقلبه هذا هو فقه المسألة وصواب العمل فيها عند العلماء والمحققين خلافا لمن

رأى الانكار بالتصريح بكل حال وان قتل ونيل منه كل أذى هذا آخر كلام القاضي رحمه الله. أهـ

قال سفيان الثوري كما في «جامع العلوم والحكم» (٦١٠) ط ابن الجوزي: لا يأمر بالمعروف إلا من توفرت فيه ثلاث خصال: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل بما أمر عدل بما نهى، عالم بما يأمر عالم بما ينهى. أهـ

درجات إنكار المنكر:

قال ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٣/ ٧٦):

وإنكار المنكر أربع درجات:

١- أن يزول ويخلفه ضده.

٢- أن يقل وإن لم يزل بجملته.

٣- أن يخلفه ما هو مثله.

٤- أن يخلفه ما هو شر منه.

فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله كرمي النشاب وسباق الخيل ونحو ذلك وإذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو ولعب أو سماع مكاء وتصدية فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد وإلا كان تركهم على ذلك خيرا من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك فكان ما هم فيه شاغلا لهم عن ذلك وكما إذا كان الرجل مشتغلا بكتب المجون ونحوها وخفت من نقله عنها انتقاله إلى كتب البدع والضلال والسحر فدعه وكتبه

الأولى وهذا باب واسع، وسمعت شيخ الإسلام بن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه يقول مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر فأنكر عليهم من كان معي فأنكرت عليه وقلت له إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم.أهـ

وحال الرابع كما قيل:

ومـــن يغـــير منكـــرًا بـــإنكرى كغاســـل الحـــيض ببـــول أغـــبرى

ولنقف مع مواقف عن السلف نفع الله بها.

ابن عباس والخوارج

أخرج النسائي في «الخصائص» (١٩٥) وعبد الرزاق (١٠/ ١٥٧): عن عكرمة بن عمار قال حدثنا أبو زميل الحنفي قال حدثنا عبد الله بن عباس ﷺ قال لما اعتزلت الحروراء فكانوا في دار على حدتهم فقلت لعلي يا أمير المؤمنين أبرد عن الصلاة لعلي آتي هؤلاء القوم فأكلمهم قال إني أتخوفهم عليك قلت كلا إن شاء الله تعالى قال فلبست أحسن ما أقدر عليه من هذه اليمانية قال ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة قال فدخلت على قوم لم أر قوما قط أشد اجتهادا منهم أيديهم كأنها ثفن الإبل ووجوههم معلمة من آثار السجود قال فدخلت فقالوا مرحبا بك يا بن عباس ما جاء بك قلت جئت أحدثكم عن أصحاب رسول الله ﷺ عليهم نزل الوحي وهم أعلم بتأويله فقال بعضهم لا تحدثوه وقال بعضهم والله لنحدثنه قال قلت أخبروني ما تنقمون على بن عم رسول الله ﷺ وختنه وأول من آمن به وأصحاب رسول الله ﷺ معه قالوا ننقم عليه ثلاثا قال قلت وما هن قالوا أولهن أنه حكم الرجال في دين الله وقد قال الله إن الحكم إلا

لله قال قلت وماذا قالوا وقاتل ولم يسب ولم يغنم لئن كانوا كفارا لقد حلت له أموالهم ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم قال قلت وماذا قالوا محا نفسه من أمير المؤمنين فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين قال قلت أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم وحدثتكم من سنة نبيه ﷺ ما لا تنكرون أترجعون قالوا نعم قال قلت أما قولكم حكم الرجال في دين الله فإن الله تعالى يقول يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم إلى قوله يحكم به ذوا عدل منكم وقال في المرأة وزوجها وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها أنشدكم الله أحكم الرجال في حقن دمائهم وأنفسهم وإصلاح ذات بينهم أحق أم في أرنب ثمنها ربع درهم قالوا اللهم بل في حقن دمائهم وإصلاح ذات بينهم قال أخرجت من هذه قالوا اللهم نعم قال وأما قولكم إنه قاتل ولم يسب ولم يغنم أتسبون أمكم عائشة أم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها فقد كفرتم وإن زعمتم أنها ليست أم المؤمنين فقد كفرتم وخرجتم من الإسلام إن الله يقول النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم فأنتم مترددون بين ضلالتين فاختاروا أيتهما شئتم أخرجت من هذه قالوا اللهم نعم قال وأما قولكم محا نفسه من أمير المؤمنين فإن رسول الله ﷺ دعا قريشا يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتابا فقال اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فقالوا والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال والله إني لرسول الله حقا وإن كذبتموني، اكتب يا علي محمد بن عبد الله فرسول الله ﷺ كان أفضل من علي رضي الله عنه أخرجت من هذه قالوا اللهم نعم فرجع منهم عشرون ألفا وبقي منهم أربعة آلاف فقتلوا.

وذكر ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (١/ ١١٠-١١١) قال عبد الرزاق: قدمنا مكة وقدمها الذي يقال له المهدى فحضرت الثوري، وقد خرج من عنده وهو مغضب فقال: أدخلت آنفا على بن أبى جعفر فقال لي: يا أبا عبد الله، طلبناك فاعجزتنا فأمكننا الله منك في أحب المواضع إليه فارفع إلينا حوائجك قال: فقلت وأى حاجة تكون لي إليك وأولاد المهاجرين وأولاد الأنصار يموتون خلف بابك جوعًا فقال لي أبو عبيد الله: يا أبا عبد الله، لا تكثر الفضول واطلب حوائجك من أمير المؤمنين فقلت مالي إليه من حاجة لقد أخبرني إسماعيل بن أبى خالد ان عمر بن الخطاب حج فقال لصاحب نفقته: كم انفقنا في حجنا هذا؟ قال: اثنا عشر دينارا قال اكثرنا اكثرنا أو قال اسرفنا اسرفنا وعلى ابوابكم أمور لا تقوم لها الجبال الراسيات قال فقال لي بن أبي جعفر يا أبا عبد الله أفرأيت ان لم اقدر أن اوصل الى كل ذي حق حقه فما اصنع قال تفر بدينك وتلزم بيتك وتترك الأمر ومن يقدر أن يوصل الى كل ذي حق حقه قال فسكت وقال لي أبو عبيد الله أراك تكثر الفضول ان كانت لك حاجه فاطلبها والا فانصرف قال فانصرفت.

ابن أبي ذئب وقوله بالحق

قال الذهبي في «السير» (٧/ ١٤٠-١٤٤): دخل ابن أبي ذئب مرة على والي المدينة فكلمه وهو عبد الصمد بن علي عم المنصور فكلمه في شيء فقال عبد الصمد بن علي إني لأراك مرائيا فأخذ عودا وقال من أرائي فوالله للناس عندي أهون من هذا.

وقال الذهبي في «السير» (١٨/ ٥٠٩) في ترجمة أبي إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الهروي: وقد كان هذا الرجل سيفا مسلولا على المتكلمين له صولة وهيبة واستيلاء على النفوس ببلده يعظمونه ويتغالون فيه ويبذلون أرواحهم فيما يأمر به كان عندهم أطوع

وأرفع من السلطان بكثير وكان طودا راسيا في السنة لا يتزلزل ولا يلين لولا ما كدر كتابه الفاروق في الصفات بذكر أحاديث باطلة يجب بيانها وهتكها والله يغفر له بحسن قصده وصنف الأربعين في التوحيد وأربعين في السنة وقد امتحن مرات وأوذي ونفي من بلده

قال ابن طاهر سمعته يقول عرضت على السيف خمس مرات لا يقال لي ارجع عن مذهبك لكن يقال لي اسكت عمن خالفك فأقول لا أسكت.

قال ابن طاهر: حكى لنا أصحابنا أن السلطان ألب ارسلان قدم هراة ومعه وزيره نظام الملك فاجتمع إليه أئمة الحنفية وأئمة الشافعية للشكوى من الأنصاري ومطالبته بالمناظرة فاستدعاه الوزير فلما حضر قال إن هؤلاء قد اجتمعوا لمناظرتك فإن يكن الحق معك رجعوا إلى مذهبك وإن يكن الحق معهم رجعت أو تسكت عنهم فوثب الأنصاري وقال أناظر على ما في كمي قال وما في كمك قال كتاب الله وأشار إلى كمه اليمين وسنة رسول الله وأشار إلى كمه اليسار وكان فيه الصحيحان فنظر الوزير إليهم مستفهما منهم فلم يكن فيهم من ناظره من هذا الطريق.

وقال الذهبي في «السير» في ترجمة عبد الغني المقدسي (٢١/ ٤٥٣-٤٥٥) قال الضياء: أخبرني خالي موفق الدين قال كان الحافظ عبد الغني جامعا للعلم والعمل وكان رفيقي في الصبا وكان رفيقي في طلب العلم وما كنا نستبق إلى خير إلا سبقني إليه إلا القليل وكمل الله فضيلته بابتلائه بأذى أهل البدعة وعداوتهم ورزق العلم وتحصيل الكتب الكثيرة إلا أنه لم يعمر قال أخوه الشيخ العماد ما رأيت أحدا أشد محافظة على وقته من أخي.

قال ضياء: وكان يستعمل السواك كثيرا حتى كأن أسنانه البرد

سمعت محمود بن سلامه التاجر الحراني يقول كان الحافظ عبد الغني نازلا عندي بأصبهان وما كان ينام من الليل إلا قليلا بل يصلي ويقرأ ويبكي

وسمعت الحافظ يقول أضافني رجل بأصبهان فلما تعشينا كان عنده رجل أكل معنا فلما قمنا إلى الصلاة لم يصل فقلت ما له قالوا هذا رجل شمسي فضاق صدري وقلت للرجل ما أضفتني إلا مع كافر قال إنه كاتب ولنا عنده راحة ثم قمت بالليل أصلي وذاك يستمع فلما سمع القرآن تزفر ثم أسلم بعد أيام وقال لما سمعتك تقرأ وقع الإسلام في قلبي

وسمعت نصر بن رضوان المقرئ يقول ما رأيت أحدا على سيرة الحافظ كان مشتغلا طوال زمانه

قيامة في المنكر

كان لا يرى منكرا إلا غيره بيده أو بلسانه وكان لا تأخذه في الله لومة لائم قد رأيته مرة يهريق خمرا فجبذ صاحبه السيف فلم يخف منه وأخذه من يده وكان قويا في بدنه وكثيرا ما كان بدمشق ينكر ويكسر الطنابير والشبابات

قال خالي الموفق كان الحافظ لا يصبر عن إنكار المنكر إذا رآه وكنا مرة أنكرنا على قوم وأرقنا خمرهم وتضاربنا فسمع خالي أبو عمر فضاق صدره وخاصمنا فلما جئنا إلى الحافظ طيب قلوبنا وصوب فعلنا وتلا : ﴿ **وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ**﴾[لقمان:١٧].

وسمعت أبا بكر بن أحمد الطحان قال كان بعض أولاد صلاح الدين قد عملت لهم

طنابير وكانوا في بستان يشربون فلقي الحافظ الطنابير فكسرها قال فحدثني الحافظ قال فلما كنت انا وعبد الهادي عند حمام كافور إذا قوم كثير معهم عصي فخففت المشي وجعلت أقول حسبي الله ونعم الوكيل فلما صرت على الجسر لحقوا صاحبي فقال أنا ما كسرت لكم شيئا هذا هو الذي كسر قال فإذا فارس يركض فترجل وقبل يدي وقال الصبيان ما عرفوك وكان قد وضع الله له هيبة في النفوس.

قصة ابن تيمية من «البداية»، و«مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٤٥-٤٧٥): أما بعد فقد كتبت ما حضرنى ذكره فى المشهد الكبير بقصر الامارة والميدان بحضرة الخلق من الامراء والكتاب والعلماء والفقراء العامة وغيرهم فى أمر البطائحية يوم السبت تاسع جمادى الاولى سنة خمس لتشوف الهمم إلى معرفة ذلك وحرص الناس على الأطلاع عليه فان من كان غائبا عن ذلك قد يسمع بعض اطراف الواقعة ومن شهدها فقد رأى وسمع ما رأى وسمع ومن الحاضرين من سمع ورأى ما لم يسمع غير ويره لانتشار هذه الواقعة العظيمة ولما حصل بها من عز الدين وظهور كلمته العليا وقهر الناس على متابعة الكتاب والسنة وظهور زيف من خرج عن ذلك من أهل البدع المضلة والاحوال الفاسدة والتلبيس على المسلمين

وقد كتبت فى غير هذا الموضع صفة حال هؤلاء البطائحية وطريقهم وطريق الشيخ احمد بن الرفاعى وحاله وما وافقوا فيه المسلمين وما خالفوهم ليتبين ما دخلوا فيه من دين الاسلام وما خرجوا فيه عن دين الاسلام فان ذلك يطول وصفه فى هذا الموضع وانما كتبت هنا ما حضرنى ذكره من حكاية هذه الواقعة المشهورة فى مناظرتهم ومقابلتهم وذلك انى كنت أعلم من حالهم بما قد ذكرته فى غير هذا الموضع وهو انهم وان كانوا

منتسبين إلى الاسلام وطريقة الفقر والسلوك ويوجد فى بعضهم التعبد والتأله والوجد والمحبة والزهد والفقر والتواضع ولين الجانب والملاطفة فى المخاطبة والمعاشرة والكشف والتصرف ونحو ذلك ما يوجد فيوجد ايضا فى بعضهم من الشرك وغيره من انواع الكفر ومن الغلو والبدع فى الاسلام والاعراض عن كثير مما جاء به الرسول والاستخفاف بشريعة الاسلام واظهار المخارق الباطلة واكل اموال الناس بالباطل والصد عن سبيل الله ما يوجد

وقد تقدمت لى معهم وقائع متعددة بينت فيها لمن خاطبته منهم ومن غيرهم بعض ما فيهم من حق وباطل وأحوالهم التى يسمونها الاشارات وتاب منهم جماعة وادب منهم جماعة من شيوخهم وبينت صورة ما يظهرونه من المخاريق مثل ملابسة النار والحيات وإظهار الدم واللاذن والزعفران وماء الورد والعسل والسكر وغير ذلك وان عامة ذلك عن حيل معروفة واسباب مصنوعة واراد غير مرة منهم قوم اظهار ذلك فلما رأوا معارضتى لهم رجعوا ودخلوا على ان استرهم فأجبتهم الى ذلك بشرط التوبة حتى قال لى شيخ منهم فى مجلس عام فيه جماعة كثيرة ببعض البساتين لما عارضتهم بأنى ادخل معكم النار بعد ان نغتسل بما يذهب الحيلة ومن احترق كان مغلوبا فلما رأوا الصدق امسكوا عن ذلك

وحكى ذلك الشيخ انه كان مرة عند بعض امراء التتر بالمشرق وكان له صنم يعبده قال فقال لى هذا الصنم يأكل من هذا الطعام كل يوم ويبقى أثر الأكل فى الطعام بينا يرى فيه فأنكرت ذلك فقال لى ان كان يأكل انت تموت فقلت نعم قال فأقمت عنده الى نصف النهار ولم يظهر فى الطعام أثر التترى وأقسم بايمان مغلظة انه كل يوم يرى فيه أثر الا كل

لكن اليوم بحضورك لم يظهر ذلك فقلت لهذا الشيخ أنا ابين لك سبب ذلك ذلك التترى كافر مشرك ولصنمه شيطان يغويه بما يظهره من الاثر فى الطعام وأنت كان معك من نور الاسلام وتأييد الله تعالى ما أوجب انصراف الشيطان عن ان يفعل ذلك بحضورك وأنت وأمثالك بالنسبة إلى أهل الاسلام الخالص كالتترى بالنسبة إلى أمثالك فالتترى وأمثاله سود وأهل الاسلام المحض بيض وأنتم بلق فيكم سواد وبياض فأعجب هذا المثل من كان حاضرا

وقلت لهم فى مجلس آخر لما قالوا تريد ان نظهر هذه الاشارات

قلت ان عملتموها بحضور من ليس من أهل الشأن من الاعراب والفلاحين أو الأتراك أو العامة أو جمهور المتفقهة والمتفقرة والمتصوفة لم يحسب لكم ذلك فمن معه ذهب فليأت به إلى سوق الصرف إلى عند الجهابذة الذين يعرفون الذهب الخالص من المغشوش ومن الصفر ولا يذهب إلى عند أهل الجهل بذلك فقالوا لى لا نعمل هذا إلا ان تكون همتك معنا فقلت همتى ليست معكم بل انا معارض لكم مانع لكم لأنكم تقصدون بذلك ابطال شريعة رسول الله فان كان لكم قدرة على اظهار ذلك فافعلوا فانقلبوا فلما كان قبل هذه الواقعة بمدة كان يدخل منهم جماعة مع شيخ لهم من شيوخ البر مطوقين باغلال الحديد فى أعناقم وهو واتباعه معروفون بأمور وكان يحضر عندى مرات فاخاطبه بالتى هى احسن فلما ذكر الناس ما يظهرونه من الشعار المبتدع الذى يتميزون به عن المسلمين ويتخذونه عبادة ودينا يوهمون به الناس ان هذا لله سر من اسرارهم وإنه سيماء أهل الموهبة الالهية السالكين طريقهم اعنى طريق ذلك الشيخ وأتباعه خاطبته فى ذلك بالمسجد الجامع وقلت هذا بدعة لم يشرعها الله تعالى ولا رسوله

ولا فعل ذلك احد من سلف هذه الامة ولا من المشايخ الذين يقتدى بهم ولا يجوز التعبد بذلك ولا التقرب به إلى الله تعالى لأن عبادة الله بما لم يشرعه ضلالة ولباس الحديد على غير وجه التعبد قد كرهه من كرهه من العلماء للحديث المروى فى ذلك وهو ان النبى رأى على رجل خاتما من حديد فقال مالى ارى عليك حلية أهل النار وقد وصف الله تعالى أهل النار بأن فى أعناقهم الاغلال فالتشبه بأهل النار من المنكرات وقال بعض الناس قد ثبت فى الصحيح عن ابى هريرة عن النبى فى حديث الرؤيا قال فى آخره أحب القيد واكره الغل القيد ثبات فى الدين فاذا كان مكروها فى المنام فكيف فى اليقظة

فقلت له فى ذلك المجلس ما تقدم من الكلام أو نحوا منه مع

التترى وأقسم عاقبة الاصرار على البدعة وان ذلك يوجب عقوبة فاعله ونحو ذلك من الكلام الذى نسيت أكثره لبعد عهدى به وذلك ان الأمور التى ليست مستحبة فى الشرع لا يجوز التعبد بها باتفاق المسلمين ولا التقرب بها الى الله ولا اتخاذها طريقا الى الله وسببا لأن يكون الرجل من أولياء الله وأحبائه ولا اعتقاد ان الله يحبها او يحب اصحابها كذلك او ان اتخاذها يزداد به الرجل خيرا عند الله وقربة إليه ولا أن يجعل شعارا للتائبين المريدين وجه الله الذين هم أفضل ممن ليس مثلهم

فهذ أصل عظيم تجب معرفته والاعتناء به وهو ان المباحات انما تكون مباحة إذا جعلت مباحات فاما إذا اتخذت واجبات أو مستحبات كان ذلك دينا لم يشرعه الله وجعل ما ليس من الواجبات والمستحبات منها بمنزلة جعل ما ليس من المحرمات منها فلا حرام الا ما حرمه الله ولا دين الا ما شرعه الله ولهذا عظم ذم الله فى القرآن لمن شرع دينا لم يأذن الله به ولمن حرم ما لم يأذن الله بتحريمه فاذا كان هذا فى المباحات فكيف

بالمكروهات او المحرمات ولهذا كانت هذه الأمور لا تلزم بالنذر فلو نذر الرجل فعل مباح أو مكروه أو محرم لم يجب عليه فعله كما يجب عليه إذا نذر طاعة الله ان يطيعه بل عليه كفارة يمين إذا لم يفعل عند أحمد وغيره وعند آخرين لا شيء عليه فلا

يصير بالنذر ما ليس بطاعة ولا عبادة طاعة وعبادة

ونحو ذلك العهود التى تتخذ على الناس لالتزام طريقة شيخ معين كعهود أهل الفتوة و رماة البندق ونحو ذلك ليس على الرجل أن يلتزم من ذلك على وجه الدين والطاعة لله الا ما كان دينا وطاعة لله ورسوله فى شرع الله لكن قد يكون عليه كفارة عند الحنث فى ذلك ولهذا أمرت غير واحد ان يعدل عما اخذ عليه من العهد بالتزام طريقة مرجوحة او مشتملة على أنواع من البدع الى ما هو خير منها من طاعة الله ورسوله واتباع الكتاب والسنة إذا كان المسلمون متفقين على انه لا يجوز لأحد أن يعتقد او يقول عن عمل أنه قربة وطاعة وبر وطريق إلى الله واجب أو مستحب إلا أن يكون مما أمر الله به ورسوله وذلك يعلم بالأدلة المنصوبة على ذلك وما علم باتفاق الامة انه ليس بواجب ولا مستحب ولا قربة لم يجز أن يعتقد أو يقال انه قربة وطاعة

فكذلك هم متفقون على انه لا يجوز قصد التقرب به إلى الله ولا التعبد به ولا اتخاذه دينا ولا عمله من الحسنات فلا يجوز جعله من الدين لا باعتقاد وقول ولا بارادة وعمل

إذا لم يكن محرما لا ينهى عنه بل يقال أنه جائز ولا يفرقون بين اتخاذه دينا وطاعة وبرا وبين استعماله كما تستعمل المباحات المحضة ومعلوم ان اتخاذه دينا بالاعتقاد أو الاقتصاد أو بهما أو بالقول أو بالعمل أو بهما من أعظم المحرمات واكبر السيئات وهذا من البدع المنكرات التى هى اعظم من المعاصى التى يعلم أنها معاصى وسيئات

فصل فلما نهيتهم عن ذلك اظهروا الموافقة والطاعة ومضت على ذلك مدة والناس يذكرون عنهم الاصرار على الابتداع فى الدين واظهار ما يخالف شرعة المسلمين ويطلبون الايقاع بهم وانا اسلك مسك الرفق والاناة وانتظر الرجوع والفيئة واؤخر الخطاب إلى أن يحضر ذلك الشيخ لمسجد الجامع وكان قد كتب إلى كتابا بعد كتاب فيه احتجاج واعتذار وعتب وآثار وهو كلام باطل لا تقوم به حجة بل اما أحاديث موضوعة او اسرائيليات غير مشروعة وحقيقة الأمر الصد عن سبيل الله واكل أموال الناس بالباطل

فقلت لهم الجواب يكون بالخطاب فان جواب مثل هذا الكتاب لا يتم إلا بذلك وحضر عندنا منهم شخص فنزعنا الغل من عنقه

وهؤلاء هم من أهل الأهواء الذين يتعبدون فى كثير من الأمور بأهوائهم لا بما أمر الله تعالى ورسوله ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ولهذا غالب وجدهم هوى مطلق لا يدرون من يعبدون وفيهم شبه قوى من النصارى الذين قال الله تعالى فيهم يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل واضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ولهذا كان السلف يسمون أهل البدع أهل الأهواء فحملهم هواهم على ان تجمعوا تجمع الاحزاب ودخلوا إلى المسجد الجامع مستعدين للحراب بالاحوال التى يعدونها للغلاب فلما قضيت صلاة الجمعة أرسلت إلى شيخهم لنخاطبه بامر الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ونتفق على اتباع سبيله فخرجوا من المسجد الجامع فى جموعهم إلى قصر الامارة وكأنهم اتفقوا مع بعض الاكابر على مطلوبهم ثم رجعوا إلى مسجد الشاغو على ما ذكر لى وهم من الصياح والاضطراب على امر من

أعجب العجاب فأرسلت اليهم مرة ثانية لاقامة الحجة والمعذرة وطلبا للبيان والتبصرة ورجاء المنفعة والتذكرة فعمدوا إلى القصر مرة ثانية وذكر لى أنهم قدموا من الناحية الغربية مظهرين الضجيج والعجيج والازباد والارعاد واضطراب الرءوس والاعضاء والتقلب فى نهر بردى واظهار التوله الذى يخيلوا به على الردى وابراز ما يدعونه من الحال والمحال الذى يسلمه اليهم من اضلوا من الجهال

فلما رأى الأمير ذلك هاله ذلك المنظر وسأل عنهم فقيل له هم مشتكون فقال ليدخل بعضهم فدخل شيخهم واظهر من الشكوى على ودعوى الاعتداء منى عليهم كلاما كثيرا لم يبلغنى جميعه لكن حدثنى من كان حاضرا ان الامير قال لهم فهذا الذى يقوله من عنده او يقوله عن الله ورسوله فقالوا بل يقوله عن الله ورسوله قال فأى شىء يقال له قالوا نحن لنا أحوال وطريق يسلم إلينا قال فنسمع كلامه فمن كان الحق معه نصرناه قالوا نريد ان تشد منا قال لا ولكن اشد من الحق سواء كان معكم أو معه قالوا ولا بد من حضوره قال نعم فكرروا ذلك فأمر باخراجهم فأرسل إلى بعض خواصه من أهل الصدق والدين ممن يعرف ضلالهم وعرفنى بصورة الحال وانه يريد كشف امر هؤلاء

فلما علمت ذلك القى فى قلبى ان ذلك لامر يريده الله من اظهار الدين وكشف حال أهل النفاق المبتدعين لأنتشارهم فى اقطار الارضين وما احببت البغى عليهم والعدوان ولا ان اسلك معهم الا ابلغ ما يمكن من الاحسان فأرسلت إليهم من عرفهم بصورة الحال وانى اذا حضرت كان ذلك عليكم من الوبال وكثر فيكم القيل والقال وان من قعد او قام قدام رماح أهل الايمان فهو الذى اوقع نفسه فى الهوان فجاء الرسول واخبر

انهم اجتمعوا بشيوخهم الكبار الذين يعرفون حقيقة الأسرار واشاروا عليهم بموافقة ما امروا به من اتباع الشريعة والخروج عما ينكر عليهم من البدع الشنيعة وقال شيخهم الذى يسيح بأقطار الأرض كبلاد الترك ومصر وغيرهما احوالنا تظهر عند التتار لا تظهر عند شرع محمد بن عبد الله وانهم نزعوا الاغلال من الأعناق واجابوا إلى الوفاق

ثم ذكر لى انه جاءهم بعض اكابر غلمان المطاع وذكر انه لابد من حضورهم لموعد الاجتماع فاستخرت الله تعالى تلك الليلة واستعنته واستنصرته واستهديته وسلكت سبيل عباد الله فى مثل هذه المسالك حتى ألقى فى قلبى ان أدخل النار عند الحاجة إلى ذلك وانها تكون بردا وسلاما على من اتبع ملة الخليل وانها تحرق اشباه الصابئة أهل الخروج عن هذا السبيل وقد كان بقايا الصابئة اعداء إبراهيم امام الحنفاء بنواحى البطائح منضمين إلى من يضاهيهم من نصارى الدهماء

وبين الصائبة ومن ضل من العباد المنتسبين إلى هذا الدين نسب يعرفه من عرف الحق المبين فالغالية من القرامطة والباطنية كالنصيرية

والاسماعيلية يخرجون الى مشابهة الصابئة الفلاسفة ثم الى الاشراك ثم الى جحو الحق تعالى ومن شركهم الغلو فى البشر والابتداع فى العبادات والخروج عن الشريعة له نصيب من ذلك بحسب ما هو به لائق كالملحدين من اهل الاتحاد والغالية من اصناف العباد

فلما أصبحنا ذهبت للميعاد وما احببت ان استصحب احدا للاسعاد لكن ذهب ايضا بعض من كان حاضرا من الأصحاب والله هو المسبب لجميع الأسباب وبلغنى بعد ذلك انهم طافوا على عدد من اكابر الأمراء وقالوا انواعا مما جرت به عادتهم من التلبيس

والافتراء الذى استحوذوا به على أكثر أهل الأرض من الاكابر والرؤساء مثل زعمهم أن لهم احوالا لا يقاومهم فيها أحد من الأولياء وان لهم طريقا لا يعرفها أحد من العلماء وان شيخهم هو فى المشايخ كالخليفة وانهم يتقدمون على الخلق بهذه الأخبار المنيفة وان المنكر عليهم هو آخذ بالشرع الظاهر غير واصل إلى الحقائق والسرائر وأن لهم طريقا وله طريق وهم الواصلون إلى كنه التحقيق واشباه هذه الدعاوى ذات الزخرف والتزويق

وكانوا لفرط انتشارهم فى البلاد واستحواذهم على الملوك والأمراء والاجناد لخفاء نور الاسلام واستبدال أكثر الناس بالنور الظلام

وطموس آثار الرسول فى أكثر الامصار ودروس حقيقة الاسلام فى دولة التتار لهم فى القلوب موقع هائل ولهم فيهم من الاعتقاد ما لا يزول بقول قائل

قال المخبر فغدا أولئك الأمراء الا كابر وخاطبوا فيهم نائب السلطان بتعظيم أمرهم الباهر وذكر لى انواعا من الخطاب والله تعالى اعلم بحقيقة الصواب والامير مستشعر ظهور الحق عند التحقيق فأعاد الرسول إلى مرة ثانية فبلغه انا فى الطريق وكان كثير من أهل البدع الاضداد كطوائف من المتفقهة والمتفقرة واتباع أهل الاتحاد مجدين فى نصرهم بحسب مقدورهم مجهزين لمن يعينهم فى حضورهم فلما حضرت وجدت النفوس فى غاية الشوق إلى هذا الاجتماع متطلعين إلى ما سيكون طالبين للاطلاع فذكر لى نائب السلطان وغيره من الأمراء بعض ما ذكروه من الأقوال المشتملة على الافتراء وقال انهم قالوا انك طلبت منهم الامتحان وان يحموا الاطواق نارا ويلبسوها فقلت هذا من البهتان

وها أنا ذا اصف ما كان قلت للأمير نحن لا نستحل ان نأمر احدا بأن يدخل نارا

ولا تجوز طاعة من يأمر بدخول النار وفى ذلك الحديث الصحيح وهؤلاء يكذبون فى ذلك وهم كذابون مبتدعون قد افسدوا من امر دين المسلمين ودنياهم ما الله به عليم وذكرت.

تلبيسهم على طوائف من الأمراء وانهم لبسوا على الأمير المعروف بالايدمرى وعلى قفجق نائب السلطنة وعلى غيرهما وقد لبسوا أيضا على الملك العادل كتغا فى ملكه وفى حالة ولاية حماه وعلى امير السلاح أجل امير بديار مصر وضاق المجلس عن حكاية جميع تلبيسهم فذكرت تلبيسهم على الايدمرى وأنهم كانوا يرسلون من النساء من يستخبر عن احوال بيته الباطنة ثم يخبرونه بها على طريق المكاشفة ووعدوه بالملك وانهم وعدوه ان يروه رجال الغيب فصنعوا خشبا طوالا وجعلوا عليها من يمشى كهيئة الذى يلعب باكر الزجاج فجعلوا يمشون على جبل المزة وذاك يرى من بعيد قوما يطوفون على الجبل وهم يرتفعون عن الأرض واخذوا منه مالا كثيرا ثم انكشف له امرهم

قلت للأمير وولده هو الذى فى حلقة الجيش يعلم ذلك وهو ممن حدثنى بهذه القصة واما قفجق فانهم ادخلوا رجلا فى القبر يتكلم وأوهموه أن الموتى تتكلم واتوا به فى مقابر باب الصغير الى رجل زعموا انه الرجل الشعرانى الذى بجبل لبنان ولم يقربوه منه بل من بعيد لتعود عليه بركته وقالوا انه طلب منه جملة من المال فقال قفجق الشيخ يكاشف وهو يعلم ان خزائنى ليس فيها هذا كله وتقرب قفجق منه وجذب الشعر فانقلع الجلد الذى ألصقوه على جلده من جلد الماعز.

فذكرت للأمير هذا ولهذا قيل له إنه لما انقضى المجلس وانكشف حالهم للناس كتب اصحاب قفجق اليه كتابا وهو نائب السلطنة بحماه يخبره بصورة ما جرى

وذكرت للأمير أنهم مبتدعون بأنواع من البدع مثل الاغلال ونحوها وانا نهيناهم عن البدع الخارجة عن الشريعة فذكر الأمير حديث البدعة وسألنى عنه فذكرت حديث العرباض بن سارية وحديث جابر بن عبد الله وقد ذكرتهما بعد ذلك بالمجلس العام كما سأذكره

قلت للأمير أنا ما امتحنت هؤلاء لكن هم يزعمون ان لهم احوالا يدخلون بها النار وان أهل الشريعة لا يقدرون على ذلك ويقولون لنا هذه الأحوال التى يعجز عنها أهل الشرع ليس لهم ان يعترضوا علينا بل يسلم الينا ما نحن عليه سواء وافق الشرع أو خالفه وانا قد استخرت الله سبحانه انهم ان دخلوا النار ادخل انا وهم ومن احترق منا ومنهم فعليه لعنة الله وكان مغلوبا وذلك بعد ان تغسل جسومنا بالخل والماء الحار

فقال الامير ولم ذاك قلت لأنهم يطلون جسومهم بأدوية يصنعونها من دهن الضفادع وباطن قشر النارنج وحجر الطلق وغير ذلك.

من الحيل المعروفة لهم وانا لا اطلى جلدى بشىء فاذا اغتسلت انا وهم بالخل والماء الحار بطلت الحيلة وظهر الحق فاستعظم الامير هجومى على النار وقال أتفعل ذلك فقلت له نعم قد استخرت الله فى ذلك والقى فى قلبى ان افعله ونحن لا نرى هذا وامثاله ابتداء فان خوارق العادات انما تكون لامة محمد المتبعين له باطنا وظاهرا لحجة أو حاجة فالحجة لاقامة دين الله والحاجة لما لا بد منه من النصر والرزق الذى به يقوم دين الله وهؤلاء إذا اظهروا ما يسمونه اشاراتهم وبراهينهم التى يزعمون انها تبطل دين الله وشرعه وجب علينا ان ننصر الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ونقوم فى نصر دين الله وشريعته بما نقدر عليه من أرواحنا وجسومنا وأموالنا فلنا حينئذ ان نعارض ما

يظهرونه من هذه المخاريق بما يؤيدنا الله به من الآيات.

وليعلم ان هذا مثل معارضة موسى للسحرة لما أظهروا سحرهم ايد الله موسى بالعصا التى ابتلعت سحرهم فجعل الامير يخاطب من حضره من الامراء على السماط بذلك وفرح بذلك وكأنهم كانوا قد اوهموه ان هؤلاء لهم حال لا يقدر أحد على رده وسمعته يخاطب الامير الكبير الذى قدم من مصر الحاج بهادر وأنا جالس بينهما على رأس السماط بالتركى ما فهمته منه الا انه قال اليوم ترى حربا عظيما ولعل ذاك كان.

جوابا لمن كان خاطبه فيهم على ما قيل

وحضر شيوخهم الا كابر فجعلوا يطلبون من الامير الاصلاح واطفاء هذه القضية ويترفقون فقال الامير انما يكون الصلح بعد ظهور الحق وقمنا إلى مقعد الامير بزاوية القصر أنا وهو وبها در فسمعته يذكر له أيوب الحمال بمصر والمولهين ونحو ذلك فدل ذلك على انه كان عند هذا الامير لهم صورة معظمة وان لهم فيهم ظنا حسنا والله أعلم بحقيقة الحال فانه ذكر لى ذلك

وكان الامير احب أن يشهد بهادر هذه الواقعة ليتبين له الحق فانه من اكابر الامراء وأقدمهم وأعظمهم حرمة عنده وقد قدم الآن وهو يحب تأليفه واكرامه فأمر ببساط يبسط فى الميدان وقد قدم البطائحية وهم جماعة كثيرون وقد أظهروا أحوالهم الشيطانية من الازباد والارغاء وحركة الرؤوس والاعضاء والطفر والحبو والتقلب ونحو ذلك من الاصوات المنكرات والحركات الخارجة عن العادات المخالفة لما أمر به لقمان لابنه فى قوله واقصد فى مشيك واغضض من صوتك

فلما جلسنا وقد حضر خلق عظيم من الامراء والكتاب والعلماء والفقراء والعامة

وغيرهم وحضر شيخهم الاول المشتكى وشيخ آخر.

يسمى نفسه خليفة سيده أحمد ويركب بعلمين وهم يسمونه عبد الله الكذاب ولم أكن أعرف ذلك وكان من مدة قد قدم على منهم شيخ بصورة لطيفة واظهر ما جرت به عادتهم من المسألة فاعطيته طلبته ولم اتفطن لكذبه حتى فارقنى فبقى فى نفسى ان هذا خفى على تلبيسه إلى ان غاب وما يكاد يخفى على تلبيس احد بل ادركه فى أول الامر فبقى ذلك فى نفسى ولم أره قط إلى حين ناظرته ذكر لى انه ذاك الذى كان اجتمع بى قديما فتعجبت من حسن صنع الله انه هتكه فى اعظم مشهد يكون حيث كتم تلبيسه بينى وبينه

فلما حضروا تكلم منهم شيخ يقال له حاتم بكلام مضمونه طلب الصلح والعفو عن الماضى والتوبة وأنا مجيبون إلى ما طلب من ترك هذه الاغلال وغيرها من البدع ومتبعون للشريعة فقلت اما التوبة فمقبولة قال الله تعالى غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب هذه إلى جنب هذه وقال تعالى نبىء عبادى انى انا الغفور الرحيم وان عذابى هو العذاب الاليم

فاخذ شيخهم المشتكى ينتصر للبسهم الأطواق وذكر ان وهب ابن منبه روى انه كان فى بنى اسرائيل عابد وانه جعل فى عنقه طوقا فى حكاية من حكايات بنى اسرائيل لا تثبت.

فقلت لهم ليس لنا ان نتعبد فى ديننا بشىء من الاسرائيليات المخالفة لشرعنا قد روى الامام احمد فى مسنده عن جابر بن عبد الله ان النبى رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة فقال أمتهوكون يا ابن الخطاب لقد جئتكم بها بيضاء نقية لو كان موس حيا ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم وفى مراسيل أبى داود ان النبى رأى مع بعض أصحابه

شيئا من كتب أهل الكتاب فقال كفى بقوم ضلالة ان يتبعوا كتابا غير كتابهم انزل إلى نبى غير نبيهم وانزل الله تعالى او لم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم

فنحن لا يجوز لنا اتباع موسى ولا عيسى فيما علمنا انه انزل عليهما من عند الله اذا خالف شرعنا وانما علينا ان نتبع ما أنزل علينا من ربنا ونتبع الشرعة والمنهاج الذى بعث الله به إلينا رسولنا كما قال تعالى وان أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا فكيف يجوز لنا أن نتبع عباد بنى اسرائيل فى حكاية لا تعلم صحتها وما علينا من عباد بنى اسرائيل تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون هات ما فى القرآن وما فى الاحاديث الصحاح كالبخارى ومسلم وذكرت هذا وشبهه بكيفية قوية.

فقال هذا الشيخ منهم يخاطب الأمير نحن نريد ان تجمع لنا القضاة الأربعة والفقهاء ونحن قوم شافعية.

فقلت له هذا غير مستحب ولا مشروع عند أحد من علماء المسلمين بل كلهم ينهى عن التعبد به ويعده بدعة وهذا الشيخ كمال الدين بن الزملكانى مفتى الشافعية ودعوته وقلت يا كمال الدين ما تقول فى هذا فقال هذا بدعة غير مستحبة بل مكروهة أو كما قال وكان مع بعض الجماعة فتوى فيها خطوط طائفة من العلماء بذلك وقلت ليس لأحد الخروج عن شريعة محمد ولا الخروج عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم وأشك هل تكلمت هنا فى قصة موسى والخضر فانى تكلمت بكلام بعد عهدى به.

فانتدب ذلك الشيخ عبد الله ورفع صوته وقال نحن لنا احوال وامور باطنة لا

يوقف عليها وذكر كلاما لم اضبط لفظه مثل المجالس والمدارس والباطن والظاهر ومضمونه ان لنا الباطن ولغيرنا الظاهر وان لنا أمرا لا يقف عليه أهل الظاهر فلا ينكرونه علينا فقلت له ورفعت صوتى.

وغضبت الباطن والظاهر والمجالس والمدارس والشريعة والحقائق كل هذا مردود إلى كتاب الله وسنة رسوله ليس لأحد الخروج عن كتاب الله وسنة رسوله لا من المشايخ والفقراء ولا من الملوك والأمراء ولا من العلماء والقضاة وغيرهم بل جميع الخلق عليهم طاعة الله ورسوله وذكرت هذا ونحوه

فقال ورفع صوته نحن لنا الأحوال وكذا وكذا وادعى الأحوال الخارقة كالنار وغيرها واختصاصهم بها وانهم يستحقون تسليم الحال اليهم لأجلها

فقلت ورفعت صوتى وغضبت أنا اخاطب كل احمدى من مشرق الأرض إلى مغاربها اى شيء فعلوه فى النار فانا اصنع مثل ما تصنعون ومن احترق فهو مغلوب وربما قلت فعليه لعنة الله ولكن بعد ان نغسل جسومنا بالخل والماء الحار فسألنى الأمراء والناس عن ذلك فقلت لأن لهم حيلا فى الاتصال بالنار يصنعونها من أشياء من دهن الضفادع وقشر النارنج وحجر الطلق فضج الناس بذلك فأخذ يظهر القدرة على ذلك فقال أنا وأنت نلف فى بارية بعد أن تطلى جسومنا بالكبريت فقلت فقم، وأخذت أكرر عليه فى القيام إلى ذلك فمد يده يظهر خلع القميص فقلت لا حتى تغتسل فى الماء الحار والخل فاظهر الوهم على عادتهم فقال من كان يحب الأمير فليحضر خشبا أو قال حزمة حطب فقلت هذا تطويل وتفريق للجمع ولا يحصل به مقصود بل قنديل يوقد وادخل اصبعى وأصبعك فيه بعد الغسل ومن احترقت أصبعه فعليه لعنه الله أو قلت فهو

مغلوب فلما قلت ذلك تغير وذل وذكر لى ان وجهه اصفر

ثم قلت لهم ومع هذا فلو دخلتم النار وخرجتم منها سالمين حقيقة ولو طرتم فى الهواء ومشيتم على الماء ولو فعلتم ما فعلتم لم يكن فى ذلك ما يدل على صحة ما تدعونه من مخالفة الشرع ولا على إبطال الشرع فان الدجال الأكبر يقول للسماء امطرى فتمطر وللأرض انبتى فتنبت وللخربة أخرجى كنوزك فتخرج كنوزها تتبعه ويقتل رجلا ثم يمشى بين شقيه ثم يقول له قم فيقوم ومع هذا فهو دجال كذاب ملعون لعنه الله ورفعت صوتى بذلك فكان لذلك وقع عظيم فى القلوب وذكرت قول أبى يزيد البسطامى لو رأيتم الرجل يطير فى الهواء ويمشى على الماء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف وقوفه عند الأوامر والنواهى وذكرت عن يونس بن عبد الاعلى انه قال للشافعى اتدرى .

ما قال صاحبنا يعنى الليث بن سعد قال أو رأيت صاحب هوى يمشى على الماء فلا تغتر به فقال الشافعى لقد قصر الليث لو رأيت صاحب هوى يطير فى الهواء فلا تغتر به وتكلمت فى هذا ونحوه بكلام بعد عهدى به ومشايخهم الكبار يتضرعون عند الأمير فى طلب الصلح وجعلت ألح عليه فى اظهار ما ادعوه من النار مرة بعد مرة وهم لا يجيبون وقد اجتمع عامة مشايخهم الذين فى البلد والفقراء الموهون منهم وهم عدد كثير والناس يضجون فى الميدان ويتكلمون بأشياء لا أضبطها فذكر بعض الحاضرين ان الناس قالوا ما مضمونه فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وذكروا أيضا أن هذا الشيخ يسمى عبد الله الكذاب وأنه الذى قصدك مرة فاعطيته ثلاثين درهما فقلت ظهر لى حين أخذ الدراهم وذهب أنه ملبس وكان قد حكى حكاية عن نفسه مضمونها انه أدخل النار فى لحيته قدام صاحب حماة ولما فارقنى وقع فى قلبى ان لحيته

مدهونة وانه دخل إلى الروم واستحوذ عليهم فلما ظهر للحاضرين عجزهم وكذبهم وتلبيسهم وتبين للأمراء الذين كانوا يشدون منهم أنهم مبطلون رجعوا وتخاطب الحاج بهادر ونائب السلطان وغيرهما بصورة الحال وعرفوا حقيقة المحال وقمنا إلى داخل ودخلنا وقد طلبوا التوبة عما مضى وسألنى الأمير عما تطلب منهم فقلت متابعة الكتاب والسنة مثل أن لا يعتقد انه لا يجب عليه اتباعهما أو أنه يسوغ لاحد الخروج من حكمهما ونحو ذلك أو انه يجوز اتباع طريقة تخالف بعض حكمهما ونحو ذلك من وجوه الخروج عن الكتاب والسنة التى توجب الكفر وقد توجب القتل دون الكفر وقد توجب قتال الطائفة الممتنعة دون قتل الواحد المقدور عليه

فقالوا نحن ملتزمون الكتاب والسنة اتنكر علينا غير الاطواق نحن نخلعها فقلت الاطواق وغير الاطواق ليس المقصود شيئا معينا وإنما المقصود ان يكون جميع المسلمين تحت طاعة الله ورسوله فقال الامير فاى شىء الذى يلزمهم من الكتاب والسنة فقلت حكم الكتاب والسنة كثير لا يمكن ذكره فى هذا المجلس لكن المقصود ان يلتزموا هذا التزاما عاما ومن خرج عنه ضربت عنقه وكرر ذلك وأشار بيده إلى ناحية الميدان وكان المقصود ان يكون هذا حكما عاما فى حق جميع الناس فان هذا مشهد عام مشهور قد توفرت الهمهم عليه فيتقرر عند المقاتلة وأهل الديوان والعلماء والعباد وهؤلاء وولاة الامور أنه من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه .

قلت ومن ذلك الصلوات الخمس فى مواقيتها كما أمر الله ورسوله فان من هؤلاء من لا يصلى ومنهم من يتكلم فى صلاته حتى إنهم بالامس بعد ان اشتكوا على فى عصر الجمعة جعل أحدهم يقول فى صلب الصلاة يا سيدى أحمد شىء لله وهذا مع انه مبطل

للصلاة فهو شرك بالله ودعاء لغيره فى حال مناجاته التى امرنا ان نقول فيها إياك نعبد وإياك نستعين وهذا قد فعل بالامس بحضرة شيخهم فامر قائل ذلك لما انكر عليه المسلمون بالاستغفار على عادتهم فى صغير الذنوب ولم يأمره باعادة الصلاة وكذلك يصيحون فى الصلاة صياحا عظيما وهذا منكر يبطل الصلاة

فقال هذا يغلب على احدهم كما يغلب العطاس

فقلت العطاس من الله والله يحب العطاس ويكره التثاؤب ولا يملك أحدهم دفعه وأما هذا الصياح فهو من الشيطان وهو باختيارهم وتكلفهم ويقدرون على دفعه ولقد حدثنى بعض الخبيرين بهم بعد المجلس انهم يفعلون فى الصلاة ما لا تفعله اليهود والنصارى مثل قول أحدهم أنا على بطن امرأة الامام وقول الآخر كذا وكذا من الامام ونحو ذلك من الأقوال الخبيثة وأنهم إذا انكر عليهم المنكر ترك الصلاة يصلون بالنوبة وأنا أعلم أنهم متولون للشياطين ليسوا، مغلوبين على ذلك كما يغلب الرجل فى بعض الأوقات على صيحة او بكاء فى الصلاة أو غيرها

فلما اظهروا التزام الكتاب والسنة وجموعهم بالميدان باصواتهم وحركاتهم الشيطانية يظهرون احوالهم قلت له أهذا موافق للكتاب والسنة فقال هذا من الله حال يرد عليهم فقلت هذا من الشيطان الرجيم لم يأمر الله به ولا رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ولا أحبه الله ولا رسوله فقال ما فى السموات والأرض حركة ولا كذا ولا كذا إلا بمشيئته وإرادته فقلت له هذا من باب القضاء والقدر وهكذا كل ما فى العالم من كفر وفسوق وعصيان هو بمشيئته وإرادته وليس ذلك بحجة لأحد فى فعله بل ذلك مما زينه الشيطان وسخطه الرحمن

فقال فبأى شىء تبطل هذه الأحوال فقلت بهذه السياط الشرعية فاعجب الأمير وضحك وقال أى والله بالسياط الشرعية تبطل هذه الأحوال الشيطانية كما قد جرى مثل ذلك لغير واحد ومن لم يجب إلى الدين بالسياط الشرعية فبالسيوف المحمدية وأمسكت سيف الأمير وقلت هذا نائب رسول الله وغلامه وهذا السيف سيف رسول الله فمن خرج عن كتاب الله وسنة رسوله ضربناه بسيف الله وأعاد الأمير.

هذا الكلام وأخذ بعضهم يقول فاليهود والنصارى يقرون ولا نقر نحن فقلت اليهود والنصارى يقرون بالجزية على دينهم المكتوم فى دورهم والمبتدع لا يقر على بدعته فافحموا لذلك

و حقيقة الأمر ان من اظهر منكرا فى دار الاسلام لم يقر على ذلك فمن دعا الى بدعة واظهرها لم يقر ولا يقر من اظهر الفجور وكذلك أهل الذمة لا يقرون على إظهار منكرات دينهم ومن سواهم فان كان مسلما أخذ بواجبات الاسلام وترك محرماته وان لم يكن مسلما ولا ذميا فهو إما مرتد واما مشرك واما زنديق ظاهر الزندقة

وذكرت ذم المبتدعة فقلت روى مسلم فى صحيحه عن جعفر ابن محمد الصادق عن أبيه أبى جعفر الباقر عن جابر بن عبد الله أن رسول الله كان يقول فى خطبته أن أصدق الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وفى السنن عن العرباض بن سارية قال خطبنا رسول الله خطبة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل يا رسول كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا فقال أوصيكم بالسمع والطاعة فانه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم

ومحدثات الأمور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وفى رواية وكل ضلالة فى النار

فقال لى البدعة مثل الزنا وروى حديثا فى ذم الزنا فقلت هذا حديث موضوع على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والزنا معصية والبدعة شر من المعصية كما قال سفيان الثورى البدعة أحب إلى ابليس من المعصية فان المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها وكان قد قال بعضهم نحن نتوب الناس فقلت مما ذا تتوبونهم قال من قطع الطريق والسرقة ونحو ذلك فقلت حالهم قبل تتويبكم خير من حالهم بعد تتويبكم فانهم كانوا فساقا يعتقدون تحريم ما هم عليه ويرجون رحمة الله ويتوبون إليه أو ينوون التوبة فجعلتموهم بتتويبكم ضالين مشركين خارجين عن شريعة الاسلام يحبون ما يبغضه الله ويبغضون ما يحبه الله وبينت ان هذه البدع التى هم وغيرهم عليها شر من المعاصى

قلت مخاطبا للأمير والحاضرين أما المعاصى فمثل ما روى البخارى فى صحيحه عن عمر بن الخطاب ان رجلا كان يدعى حمارا وكان يشرب الخمر وكان يضحك النبى ﷺ وكان كلما أتى به النبى جلده الحد فلعنه رجل مرة وقال لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به إلى النبى ﷺ فقال النبى لا تلعنه فانه يحب الله ورسوله قلت فهذا رجل كثير الشرب للخمر ومع هذا فلما كان صحيح الاعتقاد يحب الله ورسوله شهد له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك ونهى عن لعنه

واما المبتدع فمثل ما اخرجا فى الصحيحين عن على بن أبى طالب وعن أبي سعيد الخدرى وغيرهما دخل حديث بعضهم فى بعض أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقسم فجاءه رجل ناتىء الجبين كث اللحية مخلوق الرأس بين عينيه أثر السجود وقال ما قال فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يخرج من ضئضىء هذا قوم يحقر أحدكم

صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية لئن أدركتم لاقتلنهم قتل عاد وفى رواية لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد لنكلوا عن العمل وفى رواية شر قتلى تحت اديم السماء خير قتلى من قتلوه

قلت فهؤلاء مع كثرة صلاتهم وصيامهم وقراءتهم وماهم عليه من العبادة والزهادة أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بقتلهم وقتلهم على بن أبى طالب ومن معه من أصحاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

وذلك لخروجهم عن سنة النبى وشريعته وأظن انى ذكرت قول الشافعى لأن يبتلى العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يبتل بشىء من هذه الاهواء فلما ظهر قبح البدع فى الاسلام وإنها أظلم من الزنا والسرقة وشرب الخمر وأنهم مبتدعون بدعا منكرة فيكون حالهم أسوأ من حال الزانى والسارق وشارب الخمر اخذ شيخهم عبد الله يقول يا مولانا لا تتعرض لهذا الجناب العزيز يعنى اتباع أحمد ابن الرفاعى فقلت منكرا بكلام غليظ ويحك أى شىء هو الجناب العزيز وجناب من خالفه أولى بالعز ياذو الزرجنة تريدون ان تبطلوا دين الله ورسوله فقال يا مولانا يحرقك الفقراء بقلوبهم فقلت مثل ما احرقنى الرافضة لما قصدت الصعود اليهم وصار جميع الناس يخوفونى منهم ومن شرهم ويقول أصحابهم أن لهم سرا مع الله فنصر الله وأعان عليهم وكان الامراء الحاضرون قد عرفوا بركة ما يسره الله فى أمر غزو الرافضة بالجبل

وقلت لهم يا شبه الرافضة يا بيت الكذب فان فيهم من الغلو والشرك والمروق عن الشريعة ما شاركوا به الرافضة فى بعض صفاتهم وفيهم من الكذب ما قد يقاربون به

الرافضة فى ذلك أو يساوونهم .

أو يزيدون عليهم فانهم من أكذب الطوائف حتى قيل فيهم لا تقولوا أكذب من اليهود على الله ولكن قولوا أكذب من الأحمدية على شيخهم وقلت لهم أنا كافر بكم وباحوالكم فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون

ولما رددت عليهم الأحاديث المكذوبة أخذوا يطلبون منى كتبا صحيحة ليهتدوا بها فبذلت لهم ذلك واعيد الكلام انه من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه واعاد الامير هذا الكلام واستقر الكلام على ذلك والحمد لله الذى صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده.

السادسة عشرة: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة.

الدعوة إلى الله عز وجل من أفضل القربات إلى ربنا عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[فصلت:٣٣].

قال ابن كثير: أي دعى عباد الله إليه وهو في نفسه مهتدي بما يقول، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعدٍ. أهـ

فالداعي إلى الله قوله من أحسن الأقوال وأزكاها، وأفضلها وأحلاها، كيف لا وهو يدعو العباد إلى عبادرة رب العباد، كيف لا وهو يدعو إلى السنة ويحذر من البدعة، كيف لا وهو يدعو إلى الهدى ويحذر من الردى، كيف لا وهو يدعو إلى النور ويحذر من الظلمات، فهنيئًا لمن سلك هذا السبيل: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم»، «الدال على الخير له مثل أجر فاعله»، «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة».

وكفى بها شرفًا أن طريقة الأنبياء والمرسلين من أجلها جاهدوا، ومن أجلها هاجروا، ومن أجلها عادوا، ومن أجلها عُودوا، ومن أجلها حُبوا وأحبوا، ومن أجلها بغضوا وأبغضوا.

قال ابن القيم رحمه الله كما في «التفسير القيم» (٣١٩): إذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها، فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لا بد من كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد أقصى يصل إليه السعي، ويكفي صاحب العلم أنه يحوز به هذا القمام والله يؤتي فضله من يشاء.أهـ

والدعوة الناجحة المنصورة هي التي تتوفر فيها هذه الشروط:

١- أن تكون بعلم بإخلاص وعلم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[يوسف:١٠٨].

فدل على أهمية الإخلاص، قوله: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللهِ﴾، ويدل على العلم قوله: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾.

٢- أن يكون الداعي عاملًا للآية السابقة، ولقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[فصلت:٣٣].

٣- أن تكون الدعوة إلى الله عز وجل لا إلى فكرة ولا حزب ولا مذهب ولا إمام، لقوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾[النحل:١٢٥].

٤- أن تكون بالحكمة لقوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل:١٢٥].

والذي سنتكلم عليه في هذا الموضع هو الحكمة في الدعوة، وهي كما قال الراغب:

إصابة الحق بالعلم والعقل.

ولأهميتها أمر الله عز وجل بها نبيه محمدًا ﷺ الذي هو أحكم الناس كما قال عن نفسه ﷺ: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمه وإيمانًا فأفرغه في صدري».

وبهذا الحديث يُستدل أن الحكمة من العلم والعمل من أفضل مقومات الدعوة، وهي الخير العظيم الكثير التي قال الله عز وجل عنها: ﴿**وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾[البقرة:٢٦٩].

وليست الحكمة هي اللين والرفق والحلم فقط كما يظن كثير من الناس، بل الحكمة هي وضع الشيء موضعه، وهي طريقة النبي ﷺ في الدعوة.

قال ابن القيم رحمه الله كما في «بدائع التفسير» (٣/ ٦٤): جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق، فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة، وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة.

والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن، هذا هو الصحيح في معنى هذه الآية.

لا ما يزعم أسير منطق اليونان: أن الحكمة قياس البرهان، وهي دعوى الخواص.

والموعظة الحسنة قياس الخطابة، وهي دعوى العوام.

والمجادلة بالتي هي أحسن القياس الجدلي، وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلي مسلم المقدمات، وهذا باطل. أهـ «مفتاح دار السعادة» (١٦٧).

وقال في «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٢٧٦): ذكر سبحانه مرات الدعوة وجعلها ثلاثة

أقسام بحسب حال المدعو، فإنه إما أن يكون طالبًا للحق راغبًا فيه، محبًا له مؤثرًا له على غيره، إذا عرفه فهذا يدعى بالحكمة ولا يحتاج إلى موعظة ولا إلى جدل.

وإما أن يكون معرضًا مشتغلًا بضد الحق ولكن لو عرفه عرفه وآثره واتبعه، فهذا يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة بالترغيب والترهيب.

وإما أن يكون معاندًا معارضًا فهذا يجادل بالتي هي أحسن، فإن رجع إلى الحق وإلا انتقل معه من الجدال إلى الجلاد، وإن امكن فلمناظرة المبطل فائدتان:

الأولى: أن يرد عن باطله ويرجع إلى الحق.

الثانية: أن ينكشف شره وعداوته ويتبين للناس أن هذا معه باطل.

وهذه الوجوه لا يمكن أن تنال بأحسن من حجج القرآن ومناظرته للطوائف، فإنه كفيل بذلك على أتم الوجوه لمن تأمله وتدبره ورزق فهما فيه، فحججه مع أنها من أعلى مرات بالحجج، فهي أقرب شيء تناولًا، وأوضح دلالة وأقوى برهانًا، وأبعد من كل شبهة وتشكيك. أهـ

ولنقف مع أمثلة للنبي ﷺ في دعوته بالطرق الثلاث التي أمر الله بها.

لما كانت الدعوة في مهدها غير معهودة كانت من حكمة رسول الله ﷺ أنه بدأ يدعو الناس سرًا، فقد جاء من حديث أبي ذر عند مسلم (٢٤٧٣) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ خَرَجْنَا مِنْ قَوْمِنَا غِفَارٍ وَكَانُوا يُحِلُّونَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ فَخَرَجْتُ أَنَا وَأَخِي أُنَيْسٌ وَأُمُّنَا فَنَزَلْنَا عَلَى خَالٍ لَنَا فَأَكْرَمَنَا خَالُنَا وَأَحْسَنَ إِلَيْنَا فَحَسَدَنَا قَوْمُهُ فَقَالُوا إِنَّكَ إِذَا خَرَجْتَ عَنْ أَهْلِكَ خَالَفَ إِلَيْهِمْ أُنَيْسٌ فَجَاءَ خَالُنَا فَنَثَا عَلَيْنَا الَّذِي قِيلَ لَهُ فَقُلْتُ أَمَّا مَا مَضَى مِنْ مَعْرُوفِكَ فَقَدْ كَدَّرْتَهُ وَلَا جِمَاعَ لَكَ فِيمَا بَعْدُ فَقَرَّبْنَا صِرْمَتَنَا فَاحْتَمَلْنَا عَلَيْهَا

وَتَغَطَّى خَالُنَا ثَوْبَهُ فَجَعَلَ يَبْكِي فَانْطَلَقْنَا حَتَّى نَزَلْنَا بِحَضْرَةِ مَكَّةَ فَنَافَرَ أُنَيْسٌ عَنْ صِرْمَتِنَا وَعَنْ مِثْلِهَا فَأَتَيَا الْكَاهِنَ فَخَيَّرَ أُنَيْسًا فَأَتَانَا أُنَيْسٌ بِصِرْمَتِنَا وَمِثْلِهَا مَعَهَا قَالَ وَقَدْ صَلَّيْتُ يَا ابْنَ أَخِي قَبْلَ أَنْ أَلْقَى رَسُولَ اللهِ ﷺ بِثَلَاثِ سِنِينَ قُلْتُ لِمَنْ قَالَ للهِ قُلْتُ فَأَيْنَ تَوَجَّهُ قَالَ أَتَوَجَّهُ حَيْثُ يُوَجِّهُنِي رَبِّي أُصَلِّي عِشَاءً حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ أُلْقِيتُ كَأَنِّي خِفَاءٌ حَتَّى تَعْلُوَنِي الشَّمْسُ فَقَالَ أُنَيْسٌ إِنَّ لِي حَاجَةً بِمَكَّةَ فَاكْفِنِي فَانْطَلَقَ أُنَيْسٌ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ فَرَاثَ عَلَيَّ ثُمَّ جَاءَ فَقُلْتُ مَا صَنَعْتَ قَالَ لَقِيتُ رَجُلًا بِمَكَّةَ عَلَى دِينِكَ يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ قُلْتُ فَمَا يَقُولُ النَّاسُ قَالَ يَقُولُونَ شَاعِرٌ كَاهِنٌ سَاحِرٌ وَكَانَ أُنَيْسٌ أَحَدَ الشُّعَرَاءِ قَالَ أُنَيْسٌ لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ فَمَا هُوَ بِقَوْلِهِمْ وَلَقَدْ وَضَعْتُ قَوْلَهُ عَلَى أَقْرَاءِ الشِّعْرِ فَمَا يَلْتَئِمُ عَلَى لِسَانِ أَحَدٍ بَعْدِي أَنَّهُ شِعْرٌ وَاللهِ إِنَّهُ لَصَادِقٌ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ قَالَ قُلْتُ فَاكْفِنِي حَتَّى أَذْهَبَ فَأَنْظُرَ قَالَ فَأَتَيْتُ مَكَّةَ فَتَضَعَّفْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ فَقُلْتُ أَيْنَ هَذَا الَّذِي تَدْعُونَهُ الصَّابِئَ فَأَشَارَ إِلَيَّ فَقَالَ الصَّابِئَ فَمَالَ عَلَيَّ أَهْلُ الْوَادِي بِكُلِّ مَدَرَةٍ وَعَظْمٍ حَتَّى خَرَرْتُ مَغْشِيًّا عَلَيَّ قَالَ فَارْتَفَعْتُ حِينَ ارْتَفَعْتُ كَأَنِّي نُصُبٌ أَحْمَرُ قَالَ فَأَتَيْتُ زَمْزَمَ فَغَسَلْتُ عَنِّي الدِّمَاءَ وَشَرِبْتُ مِنْ مَائِهَا وَلَقَدْ لَبِثْتُ يَا ابْنَ أَخِي ثَلَاثِينَ بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلَّا مَاءُ زَمْزَمَ فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُكَنُ بَطْنِي وَمَا وَجَدْتُ عَلَى كَبِدِي سُخْفَةَ جُوعٍ قَالَ فَبَيْنَا أَهْلِ مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ قَمْرَاءَ إِضْحِيَانَ إِذْ ضُرِبَ عَلَى أَسْمِخَتِهِمْ فَمَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ أَحَدٌ وَامْرَأَتَيْنِ مِنْهُمْ تَدْعُوَانِ إِسَافًا وَنَائِلَةَ قَالَ فَأَتَتَا عَلَيَّ فِي طَوَافِهِمَا فَقُلْتُ أَنْكِحَا أَحَدَهُمَا الْأُخْرَى قَالَ فَمَا تَنَاهَتَا عَنْ قَوْلِهِمَا قَالَ فَأَتَتَا عَلَيَّ فَقُلْتُ هَنٌ مِثْلُ الْخَشَبَةِ غَيْرَ أَنِّي لَا أَكْنِي فَانْطَلَقَتَا تُوَلْوِلَانِ وَتَقُولَانِ لَوْ كَانَ هَاهُنَا أَحَدٌ مِنْ أَنْفَارِنَا قَالَ فَاسْتَقْبَلَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَهُمَا هَابِطَانِ قَالَ مَا لَكُمَا قَالَتَا الصَّابِئُ بَيْنَ الْكَعْبَةِ وَأَسْتَارِهَا قَالَ مَا قَالَ لَكُمَا قَالَتَا إِنَّهُ قَالَ لَنَا

كَلِمَةً تَمْلَأُ الْفَمَ وَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى اسْتَلَمَ الْحَجَرَ وَطَافَ بِالْبَيْتِ هُوَ وَصَاحِبُهُ ثُمَّ صَلَّى فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ قَالَ أَبُو ذَرٍّ فَكُنْتُ أَنَا أَوَّلَ مَنْ حَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ قَالَ فَقُلْتُ السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ وَعَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ ثُمَّ قَالَ مَنْ أَنْتَ قَالَ قُلْتُ مِنْ غِفَارٍ قَالَ فَأَهْوَى بِيَدِهِ فَوَضَعَ أَصَابِعَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي كَرِهَ أَنْ انْتَمَيْتُ إِلَى غِفَارٍ فَذَهَبْتُ آخُذُ بِيَدِهِ فَقَدَعَنِي صَاحِبُهُ وَكَانَ أَعْلَمَ بِهِ مِنِّي ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ مَتَى كُنْتَ هَاهُنَا قَالَ قُلْتُ قَدْ كُنْتُ هَاهُنَا مُنْذُ ثَلَاثِينَ بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ قَالَ فَمَنْ كَانَ يُطْعِمُكَ قَالَ قُلْتُ مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلَّا مَاءُ زَمْزَمَ فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُكَنُ بَطْنِي وَمَا أَجِدُ عَلَى كَبِدِي سُخْفَةَ جُوعٍ قَالَ إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِي فِي طَعَامِهِ اللَّيْلَةَ فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَانْطَلَقْتُ مَعَهُمَا فَفَتَحَ أَبُو بَكْرٍ بَابًا فَجَعَلَ يَقْبِضُ لَنَا مِنْ زَبِيبِ الطَّائِفِ وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ طَعَامٍ أَكَلْتُهُ بِهَا ثُمَّ غَبَرْتُ مَا غَبَرْتُ ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ إِنَّهُ قَدْ وُجِّهَتْ لِي أَرْضٌ ذَاتُ نَخْلٍ لَا أُرَاهَا إِلَّا يَثْرِبَ فَهَلْ أَنْتَ مُبَلِّغٌ عَنِّي قَوْمَكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ بِكَ وَيَأْجُرَكَ فِيهِمْ فَأَتَيْتُ أُنَيْسًا فَقَالَ مَا صَنَعَتْ قُلْتُ صَنَعْتُ أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ قَالَ مَا بِي رَغْبَةٌ عَنْ دِينِكَ فَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ فَأَتَيْنَا أُمَّنَا فَقَالَتْ مَا بِي رَغْبَةٌ عَنْ دِينِكُمَا فَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ فَاحْتَمَلْنَا حَتَّى أَتَيْنَا قَوْمَنَا غِفَارًا فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمْ وَكَانَ يَؤُمُّهُمْ أَيْمَاءُ بْنُ رَحَضَةَ الْغِفَارِيُّ وَكَانَ سَيِّدَهُمْ وَقَالَ نِصْفُهُمْ إِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَسْلَمْنَا فَقَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمْ الْبَاقِي وَجَاءَتْ أَسْلَمُ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ إِخْوَتُنَا نُسْلِمُ عَلَى الَّذِي أَسْلَمُوا عَلَيْهِ فَأَسْلَمُوا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ غِفَارُ غَفَرَ اللهُ لَهَا وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ حَدَّثَنَا إِسْحَقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْحَنْظَلِيُّ أَخْبَرَنَا النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُغِيرَةِ حَدَّثَنَا حُمَيْدُ بْنُ هِلَالٍ بِهَذَا الْإِسْنَادِ وَزَادَ بَعْدَ قَوْلِهِ قُلْتُ

فَاكْفِنِي حَتَّى أَذْهَبَ فَأَنْظُرَ قَالَ نَعَمْ وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَإِنَّهُمْ قَدْ شَنِفُوا لَهُ وَتَجَهَّمُوا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى الْعَنَزِيُّ حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ قَالَ أَنْبَأَنَا ابْنُ عَوْنٍ عَنْ حُمَيْدِ بْنِ هِلَالٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ قَالَ أَبُو ذَرٍّ يَا ابْنَ أَخِي صَلَّيْتُ سَنَتَيْنِ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ قُلْتُ فَأَيْنَ كُنْتَ تَوَجَّهُ قَالَ حَيْثُ وَجَّهَنِيَ اللهُ وَاقْتَصَّ الْحَدِيثَ بِنَحْوِ حَدِيثِ سُلَيْمَانَ بْنِ الْمُغِيرَةِ وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ فَتَنَافَرَا إِلَى رَجُلٍ مِنْ الْكُهَّانِ قَالَ فَلَمْ يَزَلْ أَخِي أُنَيْسٌ يَمْدَحُهُ حَتَّى غَلَبَهُ قَالَ فَأَخَذْنَا صِرْمَتَهُ فَضَمَمْنَاهَا إِلَى صِرْمَتِنَا وَقَالَ أَيْضًا فِي حَدِيثِهِ قَالَ فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَطَافَ بِالْبَيْتِ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَلْفَ الْمَقَامِ قَالَ فَأَتَيْتُهُ فَإِنِّي لَأَوَّلُ النَّاسِ حَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ قَالَ قُلْتُ السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ وَعَلَيْكَ السَّلَامُ مَنْ أَنْتَ وَفِي حَدِيثِهِ أَيْضًا فَقَالَ مُنْذُ كَمْ أَنْتَ هَاهُنَا قَالَ قُلْتُ مُنْذُ خَمْسَ عَشْرَةَ وَفِيهِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَتَحْفِنِي بِضِيَافَتِهِ اللَّيْلَةَ.

وكذلك حديث عمرو بن عبسة عند مسلم (٨٣٢) قال: كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا جُرَءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ فَقُلْتُ لَهُ مَا أَنْتَ قَالَ أَنَا نَبِيٌّ فَقُلْتُ وَمَا نَبِيٌّ قَالَ أَرْسَلَنِي اللهُ فَقُلْتُ وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ قَالَ أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ قُلْتُ لَهُ فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا قَالَ حُرٌّ وَعَبْدٌ قَالَ وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ فَقُلْتُ إِنِّي مُتَّبِعُكَ قَالَ إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ وَلَكِنْ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي قَالَ فَذَهَبْتُ إِلَى أَهْلِي وَقَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَكُنْتُ فِي أَهْلِي فَجَعَلْتُ أَتَخَبَّرُ الْأَخْبَارَ وَأَسْأَلُ النَّاسَ

حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ حَتَّى قَدِمَ عَلَيَّ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةَ فَقُلْتُ مَا فَعَلَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَقَالُوا النَّاسُ إِلَيْهِ سِرَاعٌ وَقَدْ أَرَادَ قَوْمُهُ قَتْلَهُ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَتَعْرِفُنِي قَالَ نَعَمْ أَنْتَ الَّذِي لَقِيتَنِي بِمَكَّةَ قَالَ فَقُلْتُ بَلَى فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللهِ أَخْبِرْنِي عَمَّا عَلَّمَكَ اللهُ وَأَجْهَلُهُ أَخْبِرْنِي عَنْ الصَّلَاةِ قَالَ صَلِّ صَلَاةَ الصُّبْحِ ثُمَّ أَقْصِرْ عَنْ الصَّلَاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَتَّى تَرْتَفِعَ فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ ثُمَّ صَلِّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بِالرُّمْحِ ثُمَّ أَقْصِرْ عَنْ الصَّلَاةِ فَإِنَّ حِينَئِذٍ تُسْجَرُ جَهَنَّمُ فَإِذَا أَقْبَلَ الْفَيْءُ فَصَلِّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى تُصَلِّيَ الْعَصْرَ ثُمَّ أَقْصِرْ عَنْ الصَّلَاةِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ فَإِنَّهَا تَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ قَالَ فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللهِ فَالْوُضُوءَ حَدِّثْنِي عَنْهُ قَالَ مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ فَيَتَمَضْمَضُ وَيَسْتَنْشِقُ فَيَنْتَثِرُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ وَفِيهِ وَخَيَاشِيمِهِ ثُمَّ إِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ وَفَرَّغَ قَلْبَهُ للهِ إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ فَحَدَّثَ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَبَا أُمَامَةَ صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ أَبُو أُمَامَةَ يَا عَمْرَو بْنَ عَبَسَةَ انْظُرْ مَا تَقُولُ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ يُعْطَى هَذَا الرَّجُلُ فَقَالَ عَمْرٌو يَا أَبَا أُمَامَةَ لَقَدْ كَبِرَتْ سِنِّي وَرَقَّ عَظْمِي وَاقْتَرَبَ أَجَلِي وَمَا بِي حَاجَةٌ أَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللهِ وَلَا عَلَى رَسُولِ اللهِ لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ

ثَلَاثًا حَتَّى عَدَّ سَبْعَ مَرَّاتٍ مَا حَدَّثْتُ بِهِ أَبَدًا وَلَكِنِّي سَمِعْتُهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.

وكذلك سريته ﷺ في تتبع القبائل في أيام الموسم.

حتى نزل عليه قول الله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[الحجر:٩٤].

ولما أنزل الله عز وجل عليه: وانذر عشيرتك الأقربين صعد على الصفا كما في حديث ابن عباس عند البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم قال: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه مَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي يَا بَنِي فِهْرٍ يَا بَنِي عَدِيٍّ لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فَقَالَ أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ قَالُوا نَعَمْ مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا قَالَ فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾.

ومنها: حكمته في نصح ذلك الشاب الذي تاع في الزنا كما في حديث أبي أمامة عند أحمد (٥/ ٢٥٦) وفيه: إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ قَالُوا مَهْ مَهْ فَقَالَ ادْنُهْ فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا قَالَ فَجَلَسَ قَالَ أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ قَالَ لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ قَالَ لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ قَالَ لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ قَالَ لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ قَالَ لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ قَالَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ اللهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ

وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ.

ومن فوائد الحكمة في الدعوة:

١- استمرارية الدعوة وقبول الناس لها.

٢- موافقة الشرع في كل ما دق وجل؛ لأنها لا حكمة إلا بشرع.

٣- ومن فوائدها الأصابة في القول والعمل.

٤- غرس المحبة في قلوب الاتباع.

السابعة عشرة: الكلام في أهل البدع أفضل من الجهاد في سبيل الله.

جرح أهل البدع والتحذير منهم من أعظم الوسائل لنشر الحق والخير، ولما كان الأمر هكذا فإن الله عز وجل قد بين في غير ما سورة من سور القرآن حال المبطلين للحذر منهم والتنفير عنهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:٣٤].

وقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ

الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

وقال سبحانه وتعالى في قصة موسى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص:١٨] .

وقال الله تعالى مخبرًا عن قول يوسف لأخوته: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[يوسف:٧٧].

وقال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ [المسد:١-٥].

وقال تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾[القلم: ١٠-١٣].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات:٦] .

إلى غير ذلك من الأدلة القرآنية الربانية المحذرة من طريقة المبطلين وسبيل المجرمين، حتى قال ربنا عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾[الأنعام:٥٥].

والناظر في كثير من سور القرآن كالمائدة والتوبة والنساء والمنافقون وغيرها من السور: يجد أن الله عز وجل قد جرح الكافرين والمنافقين جرحًا مفسرًا لا يخفى شأنهم على المستبصرين، ولا يغتر بهم بعد ذلك إلا كل غوي مبين.

وأما من السنة المطهرة:

فقد أخرج البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) واللفظ للبخاري، قال: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قِسْمًا أَتَاهُ ذُو

الْخُوَيْصِرَةِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ اعْدِلْ فَقَالَ وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ فَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ فَقَالَ دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَمَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ وَهُوَ قِدْحُهُ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُذَذِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ النَّاسِ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ فَالْتُمِسَ فَأُتِيَ بِهِ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ عَلَى نَعْتِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي نَعَتَهُ.

ففي هذا الحديث جرح شديد لقوم من المسلمين يخرجون في زمن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولكن البدعة استهوتهم، فاستحقوا هذا التحذير المبين، وهذا من غاية النصح والتبيين حتى لا ينخدع بهم عوام المسلمين.

وفي حديث علي عند مسلم: عَنْ سُوَيْدِ بْنِ غَفَلَةَ قَالَ: قَالَ عَلِيٌّ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَأَنْ أَخِرَّ مِنْ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقُولَ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْ وَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ سَيَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ أَحْدَاثُ الْأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وقال في الخوارج: كلاب النار، كما في حديث أبي أمامة ﷺ عند أحمد (٥/ ٢٥٣): حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا غَالِبٍ يَقُولُ: لَمَّا أُتِيَ بِرُءُوسِ الْأَزَارِقَةِ فَنُصِبَتْ عَلَى دَرَجِ دِمَشْقَ جَاءَ أَبُو أُمَامَةَ فَلَمَّا رَآهُمْ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ فَقَالَ: كِلَابُ النَّارِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ هَؤُلَاءِ شَرُّ قَتْلَى قُتِلُوا تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ وَخَيْرُ قَتْلَى قُتِلُوا تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ الَّذِينَ قَتَلَهُمْ هَؤُلَاءِ قَالَ: فَقُلْتُ فَمَا شَأْنُكَ دَمَعَتْ عَيْنَاكَ قَالَ رَحْمَةً لَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ قَالَ قُلْنَا أَبَرَأْيِكَ قُلْتَ هَؤُلَاءِ كِلَابُ النَّارِ أَوْ شَيْءٌ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ إِنِّي لَجَرِيءٌ بَلْ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ غَيْرَ مَرَّةٍ وَلَا ثِنْتَيْنِ وَلَا ثَلَاثٍ قَالَ فَعَدَّ مِرَارًا.

وجاء من حديث عدي بن حاتم عند الإمام مسلم (٨٧٠): أن رجلًا خطب عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال رسول الله ﷺ: «بئس خطيب القوم أنت»، قل: ومن يعص الله ورسوله«.

وأخرج (٢١٩٥) من حديث جابر أن عبدًا لحاطب قال: يا رسول الله ليدخلن حاطب النار، فقال ﷺ: «كذبت لا يدخلها، فإنه شهد بدرًا والحديبية«.

وحديث أبي هريرة عند البخاري: وفيه قوله في الشيطان: «صدقك وهو كذوب«.

وحديث جابر بن سمرة عند مسلم: «إن بين يدي الساعة كذابين«.

وعن المعرور بن سويد قال: عَنْ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمْ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ. متفق عليه.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رجل على النبي ﷺ، فقال: عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: «بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ» وَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ يَا رَسُولَ اللهِ حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَا عَائِشَةُ مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ. والحديث رواه البخاري.

وعن عائشة رضي الله عنها أن هند بنت عتبة قالت: يا رسول الله: عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ هِنْدَ بِنْتَ عُتْبَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ وَإِنَّهُ لَا يُعْطِينِي وَوَلَدِي مَا يَكْفِينَا إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْ مَالِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ قَالَ: «خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالْمَعْرُوفِ». الحديث متفق عليه.

وفي حديث جابر عند البخاري ومسلم وفيه: عَنْ جَابِرٍ قَالَ: كَانَ مُعَاذٌ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ يَأْتِي فَيَؤُمُّ قَوْمَهُ فَصَلَّى لَيْلَةً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الْعِشَاءَ ثُمَّ أَتَى قَوْمَهُ فَأَمَّهُمْ فَافْتَتَحَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ فَانْحَرَفَ رَجُلٌ فَسَلَّمَ ثُمَّ صَلَّى وَحْدَهُ وَانْصَرَفَ فَقَالُوا لَهُ أَنَافَقْتَ يَا فُلَانُ قَالَ لَا وَاللهِ وَلَآتِيَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَلَأُخْبِرَنَّهُ فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا أَصْحَابُ نَوَاضِحَ نَعْمَلُ بِالنَّهَارِ وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى مَعَكَ الْعِشَاءَ ثُمَّ أَتَى فَافْتَتَحَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى مُعَاذٍ فَقَالَ يَا مُعَاذُ أَفَتَّانٌ أَنْتَ اقْرَأْ بِكَذَا وَاقْرَأْ بِكَذَا قَالَ سُفْيَانُ فَقُلْتُ لِعَمْرٍو إِنَّ أَبَا الزُّبَيْرِ حَدَّثَنَا عَنْ جَابِرٍ أَنَّهُ قَالَ اقْرَأْ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَسَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى فَقَالَ عَمْرٌو نَحْوَ هَذَا.

إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على جواز جرح المخطأ حتى يُحذر مما عنده من

الخطأ ويحذر الناس من المتابعة له على باطله، ومن أراد التزود من ذلك فليراجع كتاب «المخرج من الفتنة» للشيخ مقبل رحمه الله، وكتاب «صعقة الزلزال في نسف أهل الرفض والاعتزال»، ونشر الصحيفة في الصحيح من أقوال أهل العلم في أبي حنيفة»، فإنه قد جمع خيرًا رحمه الله، ورفع درجته في المهديين، وهو من مجددي هذه السنة العظيمة كما بينت ذلك في كتاب: «البيان الحسن في ترجمة الإمام الوادعي وما أحياه من السنن» ولله الحمد والمنة، ولشيخنا يحيى الحجوري حفظه الله تعالى كلام نفيس حول الجرح والتعديل في مقدمة كتابه: «الطبقات لما حصل بعد موت شيخنا الوادعي رحمه الله تعالى في الدعوة السلفية باليمن من الحالات».

شبهة والرد عليها:

كثير من أهل البدع ومن جهال المسلمين يعتبرون الجرح من الغيبة، وهذه شبهة قديمة لا جديدة، فقد قال بكر بن حماد كما في «جامع بيان العلم وفضله» (١٩٣٩):

لقد جفت الأقلام بالخلق كلهم ... فمنهم شقي خائب وسعيد

تمر الليالي بالنفوس سريعة ... ويبدئ ربي خلقه ويعيد

أرى الخير في الدنيا يقل كثيره ... وينقص نقصًا والحديث يزيد

فلو كان خيرًا قل كالخير كله ... وأحسب أن الخير منه بعيد

ولأبن معين في الرجال مقالة ... سيسئل عنها والمليك شهيد

فإن يك حقًا قوله فهو غيبة ... وإن يك زورًا فالقصاص شديد

وكل شياطين الحديث ضعيفة ... وشيطان أصحاب الحديث مريد

قال أبو عمر رحمه الله: قد رد هذا القول على بكر بن حماد جماعة نظمًا، فمن ذلك ما أخبرني غير واحد عن مسلمة بن القاسم قال ذاكرت أبا الأصابع عبد السلام بن يزيد بن

غياث الأشبيلي رفيقي أبيات بكر بن حماد هذه ونحن في المسجد الحرام وسألته الرد عليه فعارضه بشعر أوله:

تبارك من لا يعلم الغيب غيره ... ومن بطشه بالمعتدين شديد
وفيه تعرضت يا بكر بن حماد خطة ... بامثالها في الناس شاب وليد
تقول بأن الخير قل كثيره ... وأخبرتنا أن الحديث يزيد
وصيرته إذ زاد شرا وقام في ... ضميرك أن الخير منه بعيد
فلم تأت فيه الحق إذ قلت فيه ... بالعموم وأنت المرء كنت تحيد
وما زال ذا قسمين حقا وباطلا ... فهذا خلاخيل وذاك قيود
وذا ذهب محض وذلك آنك ... ذا ورق صاف وذاك حديد
وهذا أمير في الأنام معظم وذاك ... طريد في البلاد شريد
فذمك هذا في المقال مذمم ... وذمك هذا في الفعال حميد
وألزمت هذا ذنب ذا كمعاقب ... ظباء يذنب قارفته أسود
وهل ضرأ حرارا كراما أعزة ... إذا جوزتهم في الندى عبيد
ولولا الحديث المحتوى سنن الهدى ... لقامت على رأس الضلال بنود
وقول رسول الله يعرف حده ... فليس له عند الرواة مزيد
وما كان من إفك وزور فإنه ... كعدة رمل تحتويه زرود
وليس له حد وفي كل ساعة ... يزيد جديدا يقتفيه جديد
ولابن معين في الذي قال أسوة ... ورأي مصيب للصواب سديد
وأجر به يعلى الآله محله ... وينزله في الخلد حيث يريد
يناضل عن قول النبي ويطرد ... الأباطيل عن أحواضه ويزود

وجلة أهل العلم قالوا بقوله: وما هو في شيء أتاه فريد:

ولـــيس الصـــدق منـــك ســـجية ... وشـيطان أصـحاب الحـديث مريـد
ومـــا النـــاس إلا اثنـــان بـــر وفـــاجر ... فقولـك عـن سـبل الصـواب حيـود
وكـــل حـــديثي تـــأزر بـــالتقى ... فـــذاك امـــرؤ عنـــد ألآلـــه ســـعيد
ولـــو لم يقـــم أهـــل الحـــديث بـــديننا ... فمـــن كـــان يـــروي علمـــه ويفيـــد
هـــم ورثـــوا علـــم النبـــوة واحتـــووا ... مـــن الفضـــل مـــا عنـــه الأنـــام رقـــود
وهـــم كمصـــابيح الـــدجى يهتـــدي بهـــم ... ومـــا لهـــم بعـــد المـــمات خمـــود
عليـــك ابـــن غيـــاث لـــزوم ســـبيلهم ... فحـــالهم عنـــد ألآلـــه حميـــد

وقال أبو علي بن ملولة القيرواني يعارض بكر بن حماد:

ولابـــن معـــين في الرجـــال مقالـــة ... تقدمـــه فيهـــا شريـــك ومالـــك
فـــإن يـــك مـــا قالـــه ســـهلا وواســـعا ... فقـــد ســـهلت لابـــن المعـــين المســـالك
وإن يـــك زورا مـــنهم أو نميمـــة ... فـــما مـــنهم في القـــول إلا مشـــارك

وأنشدني أحمد بن عصفور رحمه الله لنفسه يعارض بكر بن حماد:

أجـل أن حكـم الله في الخلـف سـابق ... ومـــا لا مـــريء عـــما يحـــم محيـــد
هـــو الـــرب لا تخفـــى عليـــه خفيـــة ... عليـــم بـــما تخفـــى الصـــدور شـــهيد
جـرت بقضـاياه المقـادير في الـورى ... فمقـــترب مـــن خيرهـــا وبعيـــد
أيـا قـادح في العلـم زنـد عمائـه رويجـا ... بـــما تبـــدي بـــه وتعيـــد
جعلـــت شـــياطين الحـــديث مريـــدة ... ألا أن شـــيطان الضـــلال مريـــد
وجرحت بالتكذيب مـن كـان صـادقا ... فقولـــك مـــردود وأنـــت عنيـــد
ذوو العلـــم في الـــدنيا نجـــوم هدايـــة ... إذا غـــار نجـــم لاح بعـــد جديـــد

بهـــــم عـــــز ديـــــن الله طـــــرا وهـم لـه معاقـل مـن أعدائـه وجنـود

وقال الترمذي في كتاب العلل من جامعه: وقد عاب بعض من لا يفهم على أهل الحديث الكلام في الرجال، وقد وجدنا غير واحد من الأئمة من التابعين قد تكلموا في الرجال منهم الحسن البصري وطاووس تكلما في معبد الجهني وتكلم سعيد بن جبير في طلق بن حبيب وتكلم إبراهيم النخعي وعامر الشعبي في الحارث الأعور وهكذا روي عن أيوب السختياني وعبد الله بن عون وسليمان التيمي وشعبة بن الحجاج وسفيان الثوري ومالك بن أنس والأوزاعي وعبد الله بن المبارك ويحيى بن سعيد القطان ووكيع بن الجراح وعبد الرحمن بن مهدي وغيرهم من أهل العلم أنهم تكلموا في الرجال وضعفوا وإنما حملهم على ذلك عندنا والله أعلم النصيحة للمسلمين لا ظن بهم أنهم أرادوا الطعن على الناس أو الغيبة إنما أرادوا عندنا أن يبينوا ضعف هؤلاء لكي يعرفوا لأن بعضهم من الذين ضعفوا كان صاحب بدعة.

قال ابن الأثير في «جامع الأصول» (١/ ١٣٠-١٣١): قد عاب من لا يفهم على أهل الحديث الكلام في الرجال؛ لأنهم لم يقفوا على الغرض من ذلك، ولا أدركوا المقصد فيه، وإنما حمل أهل الحديث على الكلام في الرجال وتعديل من عدلوا وتجريح من جرحوا الاحتياط في أمور الدين وحراسة قانونه، وتمييز مواقع الغلط والخطأ في هذا الأصل العظيم الذي عليه مبنى الإسلام، وأساس الشريعة، ولا يظن بهم أنهم أرادوا الطعن في الناس والغيبة والوقيعة فيهم، ولكنهم بينوا ضعف من ضعفوه لكي يعرف فيجتنب الرواية عنه، والأخذ بحديثه تورعًا وحسبة وتثبتًا في أمر الدين، فإن الشهادة في الدين أحق وأولى أن يتثبت فيها من الشهادة في الحقوق والأموال، فلهذا افترضوا على

أنفسهم الكلام في ذلك وتبيين أحوال الناس، وهو من الأمور المتعينة العائدة بالنفع العظيم في أصول الدين.

وقال الحافظ في «اللسان» (١/ ٣-٤): ثم إن من بعد الصحابة تلقوا ذلك منهم وبذلوا أنفسهم في حفظه وتبليغه، وكذلك من بعدهم، إلا أنه دخل فيمن بعد الصحابة في كل عصر قوم ممن ليست لهم أهلية ذلك إما لبدعة، أو كذب، أو سوء حفظ وتبليغه، فأخطأوا فيما تحملوا، ونقلوا ومنهم من تعمد ذلك، فدخلت الآفة فيه من هذا الوجه.

فأقام الله طائفة كثيرة من هذه الأمة للذب عن سنة نبيه ﷺ، فتكلموا في الرواية على قصد النصيحة، ولم يعد ذلك من الغيبة المذمومة، بل كان ذلك واجبًا عليهم وجوب كفاية.

وقال النووي في «رياض الصالحين» (باب ما يباح من الغيبة) (٢٥٦): اعلم أن الغيبة تباح لغرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه إلا بها وهو ستة أسباب الأول التظلم فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه فيقول ظلمني فلان بكذا الثاني الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى الصواب فيقول لمن يرجوا قدرته على إزالة المنكر فلان يعمل كذا فازجره عنه ونحو ذلك ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر فإن لم يقصد ذلك كان حراما الثالث الاستفتاء فيقول للمفتي ظلمني أبي أو أخي أو زوجي أو فلان بكذا فهل له ذلك وما طريقي في الخلاص منه وتحصيل حقي ودفع الظلم ونحو ذلك فهذا جائز للحاجة ولكن الأحوط والأفضل أن يقول ما تقول في رجل أو شخص أو زوج كان من أمره كذا فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين ومع ذلك فالتعيين جائز كما سنذكره في حديث هند

إن شاء الله تعالى الرابع تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم وذلك من وجوه منها جرح المجروحين من الرواة والشهود وذلك جائز بإجماع المسلمين بل واجب للحاجة ومنها المشاورة في مصاهرة إنسان أو مشاركته أو إيداعه أو معاملته أو غير ذلك أو محاورته ويجب على المشاور أن لا يخفي حاله بل يذكر المساويء التي فيه بنية النصيحة ومنها إذا رأى متفقها يتردد إلى مبتدع أو فاسق يأخذ عنه العلم وخاف أن يتضرر المتفقه بذلك فعليه نصيحته ببيان حاله بشرط أن يقصد النصيحة وهذا مما يغلط فيه وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد ويلبس الشيطان عليه ذلك ويخيل إليه أنه نصيحة فليتفطن لذلك ومنها أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها إما بألا يكون صالحا لها وإما بأن يكون فاسقا أو مغفلا ونحو ذلك فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولاية عامة ليزيله ويولي من يصلح أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله ولا يغتر به وأن يسعى في أن يحثه على الاستقامة أو يستبدل به الخامس أن يكون مجاهرا بفسقه أو بدعته كالمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس وأخذ المكس وجباية الأموال ظلما وتولي الأمور الباطلة فيجوز ذكره بما يجاهر به ويحرم ذكره بغيره من العيوب إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما ذكرناه السادس التعريف فإذا كان الإنسان معروفا بلقب كالأعمش والأعرج والأصم والأعمى والأحول وغيرهم جاز تعريفهم بذلك ويحرم إطلاقه على جهة التنقيص ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى فهذه ستة أسباب ذكرها العلماء وأكثرها مجمع عليه.

وقال الحافظ الذهبي في «الميزان» (٣/ ٣٧٣): قال عاصم الأحول: جلست إلى قتادة فذكر عمرو بن عبيد، فوقع فيه، فقلت العلماء يقع بعضهم في بعض، فقال: يا أحول: ألا تدري أن الرجل إذا ابتدع ينبغي أن يذكر حتى يُحذر.

وذكر ابن المبارك رجلًا كما في «شرح العلل» لابن رجب (٧٧) فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن تغتاب، فقال: اسكت إذا لم نبين كيف يعرف الحق من الباطل، وقال ابن عليه في الجرح: إن هذه أمانة ليست بغيبة.

وذكر الخطيب في «الكفاية» (٤٦) عن محمد بن بندار السبكي قال: قلت لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله إنه ليشتد علي أن أقول فلان كذاب، فلان ضعيف، فقال لي: إذا سكتَ أنت وسكتُ أنا، فمتى يعرف الجاهل الصحيح من السقيم؟

ورحم الله محمد بن سيرين إذ يقول كما في مقدمة مسلم: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذوا دينكم.

فيجب على الداعية السلفي أن يبين حال المبطلين حتى يعُرف أهل الباطل فيبتعد عنهم، ويفر منهم، وكان هذا الإمام هو أول من فتش في علم الإسناد كما في «شرح علل بن رجب» (١/ ٥٢).

وقال الذهبي: أول من ذكر وجرحَّ عند انقراض عصر الصحابة الشعبي وابن سيرين ونحوهما، وحفظ عنهم توثيق أناس وتضعيف آخرين، فلما كان عند انقراض عامة التابعين في حدود الخمسين ومئة تكلم طائفة من الجهابذة في التوثيق والتضعيف، كالأعمش وشعبة بن الحجاج ومالك بن أنس. أهـ من علم الرجال نشاته وتطوره (٢٧).

وابن عباس رضي الله عنه قبل هؤلاء حين بدأت تظهر قرون البدع ومن ينتحل العلم وليس من أهله جرح من هذا حاله وحذر من مجالسته وسماع حديثه.

فقد قال كما في «مقدمة مسلم»: إنا كنا نحدث عن رسول الله ﷺ إذ لم يكذب عليه،

فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه.

وفي رواية: لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف.

وصار على سير الصحابة أئمة التابعين، فقد قال الحسن عن معبد الجهيني: إياكم ومعبد فإنه ضال مضل.

وكذب الشعبي جابرًا الجعفي.

وغير ذلك من أراد أن يقف على قطف من كلام أهل العلم فليرجع إلى مقدمة «الكامل» لابن عدي ومقدمة «المجروحين» لابن حبان، ومقدمة «لسان الميزان»، وكتاب «الميزان» وغيرها من الكتب.

وأحب أن أختم هذه الوسيلة العظيمة التي تنصر بها الدعوة السلفية وتخذل بها دعوات الباطل بقصيدة أبي الطاهر السلفي.

قال الإمام الذهبي في «سير إعلام النبلاء» (٢١/ ٢٩): أنبأني أحمد بن سلامة عن الحافظ عبد الغني بن سرور: أنشدنا أبو طاهر السلفي لنفسه في رجب سنة ست وستين وخمسمائة:

دعوني من أسانيد الضلال ... وهاتوا من أسانيد العوالي

رخاص ثم أهل الجهل طرًا ... وعند العارفين بها غوالي

عن أشياخ الحديث وما رواه ... إمام في العلوم على الكمال

كمالك أو كمعمر المزكى ... وشعبة أو كسفيان الهلالي

وسفيان العراق وليث مصر ... فقدما كان معدوم المثال

والأوزاعي فهو له بشرع ال ... نبي المصطفى أوفى اتصال

ومسعر الذي في كل علم ... يشار كذا إليه كالهلال

وزائـــــدة وزد أيضـــــا جريـــــرا ... فكـــل مـــنهما رجـــل النضـــال
وكـــابن المبـــارك أو كـــابن وهـــب ... وكالقطـــــان ذي شرف وحـــــال
وحمـــــاد وحمـــــاد جميعـــــا ... وكـــــابن الدســـــتوائي الجـــمال
وبعـــدهم وكيـــع وابـــن مهـــدي ... المهـــــدي في كـــــل الخـــــلال
ومكـــــي ووهـــــب والحميـــــدي ... عبـــــد الله ليـــــث ذي صـــــيال
وضـــحاك عقيـــب يزيـــد أعنـــي ... ابـــن هـــارون المحقـــق في الخصـــال
كـــذاك طيالســـيا البصرـــة اذكـــر ... فـــما رويـــاه مـــن أثـــر لآلي
وعفـــان نعـــم وأبـــو نعـــيم ... حميـــدا الحـــال مرضـــيا الفعـــال
ويحيـــى شـــيخ نيســـابور ثـــم ال ... إمـــام الشـــافعي المقتـــدى لي
كـــذاكم بـــن خالـــد المكنـــي ... أبـــا ثـــور وكـــان حـــوى المعـــالي
وأيضـــا فالصـــدوق أبـــو عبيـــد ... فـــأعلام مـــن أربـــاب المقـــال
كيحيـــى وابـــن حنبـــل المعـــلى ... بمعرفـــة المتـــون وبالرجـــال
وإســـحاق التقـــي وفتـــى نجـــيح ... وعبـــد الله ذي مـــدح طـــوال

إلى آخر لقصيدة.

الثامنة عشرة: خذوا القرآن من أربعة: من ابن أم عبد ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وسالم مولى أبي حذيفة.

كما أن الجرح لأهل البدع من الواجبات التي أوجبها الله عز وجل على العلماء من أجل صد البدعة وأهلها، فإن تعديل أهل الحق أمر مطلوب ومرغب فيه، وذلك لأن تعديلهم يكسبهم ثقة المسلمين، فيأخذون بنصائحهم ويقتدون بهم، ويحرصون على مجالستهم وأخذ الخير منهم.

ولما كان الشأن كما ذكر فقد عدل الله عز وجل النبي ﷺ وبين فضائله حتى يتبع ويأخذ عنه ومنه الحق قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾[الحاقة: ٤٠-٤٢].

وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤].

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[الأعراف:١٨٤].

وقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ تم وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة:١٠٠].

وقال في تعديل منهج النبي ﷺ ومنهج اتباعه المستقيمين: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح:١٨].

وقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً

وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[الفتح:٢٩].

وقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[الحشر: ٨-١٠].

وقال تعالى في تعديل المنهج الذي يسيرون عليه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[المائدة:٣]، وقال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾[الأعراف:٣].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف: ١٥٦-١٥٨].

وقال في بيان جزاء هؤلاء المعدلين الاتقياء الأصفياء: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٣٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[التوبة: ١١١-١١٢].

وقال النبي ﷺ معدلًا لأصحابه كما في «الصحيحين» من حديث عمران، وجاء عن ابن مسعود، وجاء عن عائشة عند مسلم، وعن أبي هرية: «خيركم قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

وقال ﷺ: «مَا زِلْتُمْ هَاهُنَا؟» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ ثُمَّ قُلْنَا نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَكَ الْعِشَاءَ قَالَ: «أَحْسَنْتُمْ أَوْ أَصَبْتُمْ» قَالَ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتْ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ». أخرجه مسلم، عن أبي موسى رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما

بلغ مد أحدكم ولا نصيفه« متفق عليه، من حديث أبي سعيد ﷺ .

وقال عبد الله بن مسعود كما في «مسند أحمد»: إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ سَيِّئٌ.

وقال في أهل بدر كما في حديث جابر: «لعل الله اطلع عل أهل بدر فقال: اصنعوا ما بدا لكم«.

وقال في شأن أبي بكر: «أمن الناس علي في ماله وصحبته أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا«.

وقال: «وإن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا«. أخرجه مسلم عن أبي قتادة.

وقال كما في البخاري (٣٦٨٢)، ومسلم (٢٣٩٣): عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ أُرِيتُ كَأَنِّي أَنْزِعُ بِدَلْوِ بَكْرَةٍ عَلَى قَلِيبٍ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَنَزَعَ ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ فَنَزَعَ نَزْعًا ضَعِيفًا وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَغْفِرُ لَهُ ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ فَاسْتَقَى فَاسْتَحَالَتْ غَرْبًا فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنْ النَّاسِ يَفْرِي فَرْيَهُ حَتَّى رَوِيَ النَّاسُ وَضَرَبُوا الْعَطَنَ.

وقال في شأن عمر: «لو سلكت فجًا لسلك الشطان غير فجك«.

وقال في شأن عثمان: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة«.

وقال: « لعل الله عز وجل أن يلبسك قميصًا، فإن أرادوك على نزعه فلا تنزعه«.

وقال في شأن علي ﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه« عن بريدة عند أحمد.

وقال: «لأعطين الراية غدًا رجل يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله يفتح الله على

يديه».

وقال في شأن أبي عبيدة كما في «الصحيحين»: «لأبعثن عليكم رجلًا أمين حق أمين»، فبعث أبا عبيدة بن الجراح.

وقال ﷺ دالًا على من يأخذ منهم القرآن: «استقرؤوا القرآن من أربعة: عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل»، البخاري (٣٧٦٠)، ومسلم (٢٤٦٤).

وقال: «من أحب أن يقرأ القرآن غضًا كما أنزل فليقراه على قرأة ابن أم عبد».

إلى غير ذلك مما هو مدون في الصحاح والسنن والمعاجم في تعديل أصحاب النبي ﷺ وسلك سبيله الصحابة رضوان الله عز وجل عليهم، وساروا على سيره، واقتفوا أثره يعدلون أهل الإيمان ويتنكرون ويجرحون أهل الزيغ والخذلان، فهذا علي رضي الله عنه يقول في شأن عمر رضي الله عنه، قال ابن عباس: وُضِعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَى سَرِيرِهِ فَتَكَنَّفَهُ النَّاسُ يَدْعُونَ وَيُثْنُونَ وَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ وَأَنَا فِيهِمْ قَالَ فَلَمْ يَرُعْنِي إِلَّا بِرَجُلٍ قَدْ أَخَذَ بِمَنْكِبِي مِنْ وَرَائِي فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ عَلِيٌّ فَتَرَحَّمَ عَلَى عُمَرَ وَقَالَ مَا خَلَّفْتَ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى اللهَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ وَايْمُ اللهِ إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ اللهُ مَعَ صَاحِبَيْكَ وَذَاكَ أَنِّي كُنْتُ أُكَثِّرُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ جِئْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَإِنْ كُنْتُ لَأَرْجُو أَوْ لَأَظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ اللهُ مَعَهُمَا. متفق عليه البخاري (٣٦٧٧)، ومسلم (٢٣٨٩) وهذا لفظه.

وقال عبد الله بن عمر كما عند البخاري (٣٦٥٥): كنا نخير بين الناس في زمن رسول الله ﷺ فنخير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان.

وقال محمد بن الحنفية كما في البخاري (٦/ ٣٦٧١): قُلْتُ لِأَبِي: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ أَبُو بَكْرٍ قُلْتُ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ عُمَرُ وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ عُثْمَانُ قُلْتُ ثُمَّ أَنْتَ قَالَ مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ.

وقال ابن عباس في شأن معاوية: (فقيه) كما في البخاري (٣٧٦٥).

وفي رواية: (دعه فإنه صحب رسول الله ﷺ).

وقال عمر رضي الله عنه في شأن ابن عباس كما في البخاري (٤٩٧٠) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ فَقَالَ عُمَرُ إِنَّهُ مَنْ قَدْ عَلِمْتُمْ فَدَعَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ قَالَ مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ الله تَعَالَى إِذَا جَاءَ نَصْرُ الله وَالْفَتْحُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا فَقَالَ لِي أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ فَقُلْتُ لَا قَالَ فَمَا تَقُولُ قُلْتُ هُوَ أَجَلُ رَسُولِ الله ﷺ أَعْلَمَهُ لَهُ قَالَ: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ الله وَالْفَتْحُ**﴾ وَذَلِكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**﴾ فَقَالَ عُمَرُ مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ.

وقال ابن مسعود في معاذ ابن جبل كما في «الحلية» بسند صحيح: إن معاذ ابن جبل كان أمة قانتًا لله حنيفًا وما كان من المشركين.

وقال معاذ ابن جبل كما في المسند: (إِنَّ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ مَكَانَهُمَا مَنْ ابْتَغَاهُمَا وَجَدَهُمَا يَقُولُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَالْتَمِسُوا الْعِلْمَ عِنْدَ أَرْبَعَةِ رَهْطٍ عِنْدَ عُوَيْمِرٍ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَعِنْدَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ وَعِنْدَ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ وَعِنْدَ عَبْدِ الله بْنِ سَلَامٍ الَّذِي كَانَ يَهُودِيًّا ثُمَّ أَسْلَمَ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ إِنَّهُ عَاشِرُ عَشَرَةٍ فِي الْجَنَّةِ.

في هذا شيء كثير من ذلك من أراده فليراجع كتب الرجال والسير، فسيجد خيرًا كثيرًا ولله الحمد والمنة.

التاسعة عشر: من جالس جانس.

ومما تنصر به الدعوة السلفية على الدعوات الخلفية هو مجالسة أهل السنة ومجانبة أهل البدعة، وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [الكهف:٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨].

وقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[الأنعام:٦٨].

قال قتاده: نهاه الله أن يجلس مع الذين يخوضون في آيات الله يكذبون بها، وإن نسي فلا يقعد بعد الذكر مع القوم الظالمين، أخرجه ابن بطة في «الإبانة» (٢/ ٤٣١).

وأخرج أيضًا عن ابن عون قال: كان محمد بن سيرين يرى أن أسرع الناس ردة أهل الأهواء، ويرى أن هذه الآية نزلت فيهم: وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم.

وقال ﷺ كما في حديث أبي موسى: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً.

أخرجه البخاري (٢٠١)، ومسلم (٢٦٢٨).

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[النساء:١٤٠].

قال ابن جرير (٥/ ٣٣٠): وفي هذه الآية الدلالة الواضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع من المبتدعة والفسقة عند خوضهم في باطلهم.

ومن أقوى الأدلة في النهي عن مجالسة أهل البدع والمعاصي ما أخرجه البخاري (٤١١٨)، ومسلم (٢٧٦٩) في قضية تخلف كعب بن مالك: عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: ثُمَّ غَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ غَزْوَةَ تَبُوكَ وَهُوَ يُرِيدُ الرُّومَ وَنَصَارَى الْعَرَبِ بِالشَّامِ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ فَأَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ كَعْبٍ كَانَ قَائِدَ كَعْبٍ مِنْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ قَالَ سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حَدِيثَهُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطُّ إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ غَيْرَ أَنِّي قَدْ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهُ إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا وَكَانَ مِنْ خَبَرِي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ وَاللهِ مَا جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ فَغَزَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا وَاسْتَقْبَلَ عَدُوًّا كَثِيرًا فَجَلَا لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِمْ الَّذِي يُرِيدُ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ

كَثِيرٌ وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابُ حَافِظٍ يُرِيدُ بِذَلِكَ الدِّيوَانَ قَالَ كَعْبٌ فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنْ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَغَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتْ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ فَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعَرُ فَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا وَأَقُولُ فِي نَفْسِي أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَرَدْتُ فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اسْتَمَرَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ غَادِيًا وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ فَيَا لَيْتَنِي فَعَلْتُ ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ ذَلِكَ لِي فَطَفِقْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَحْزُنُنِي أَنِّي لَا أَرَى لِي أُسْوَةً إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ مِنْ الضُّعَفَاءِ وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ يَا رَسُولَ اللهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَالنَّظَرُ فِي عِطْفَيْهِ فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ بِئْسَ مَا قُلْتَ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ رَأَى رَجُلًا مُبَيِّضًا يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ فَإِذَا هُوَ أَبُو خَيْثَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ فَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ حَضَرَنِي بَثِّي فَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ بِمَ أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ كُلَّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي فَلَمَّا قِيلَ لِي إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَنْجُوَ مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ وَصَبَّحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَادِمًا وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ الله ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى الله حَتَّى جِئْتُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ تَعَالَ فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ لِي مَا خَلَّفَكَ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ الله إِنِّي وَالله لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا وَلَكِنِّي وَالله لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عُقْبَى الله وَالله مَا كَانَ لِي عُذْرٌ وَالله مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي وَالله مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا لَقَدْ عَجَزْتَ فِي أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ فَقَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ الله ﷺ لَكَ قَالَ فَوَالله مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونَنِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي قَالَ ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي مِنْ أَحَدٍ قَالُوا نَعَمْ لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ قَالَ قُلْتُ مَنْ هُمَا قَالُوا مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعَةَ الْعَامِرِيُّ وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ قَالَ فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ قَالَ فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي قَالَ وَنَهَى رَسُولُ الله ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ قَالَ فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَقَالَ تَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ لِي فِي نَفْسِيَ الْأَرْضُ فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَعْرِفُ فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ وَآتِي رَسُولَ الله ﷺ

فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَأَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ أَمْ لَا ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ وَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي حَتَّى إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ فَقُلْتُ لَهُ يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدُكَ بِاللهِ هَلْ تَعْلَمَنَّ أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ قَالَ فَسَكَتَ فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَسَكَتَ فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَقَالَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ نَبَطِ أَهْلِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ حَتَّى جَاءَنِي فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ وَكُنْتُ كَاتِبًا فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فِيهِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ قَالَ فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُهَا وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ الْبَلَاءِ فَتَيَامَمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهَا بِهَا حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ مِنْ الْخَمْسِينَ وَاسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَأْتِينِي فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ قَالَ فَقُلْتُ أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ قَالَ لَا بَلْ اعْتَزِلْهَا فَلَا تَقْرَبَنَّهَا قَالَ فَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ بِمِثْلِ ذَلِكَ قَالَ فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ قَالَ فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ لَهُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ قَالَ لَا وَلَكِنْ لَا يَقْرَبَنَّكِ فَقَالَتْ إِنَّهُ وَاللهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ وَ وَاللهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا قَالَ فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ فَقَدْ أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ قَالَ فَقُلْتُ لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ

وَمَا يُدْرِينِي مَاذَا يَقُولُ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ قَالَ فَلَبِثْتُ بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ فَكَمُلَ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نُهِيَ عَنْ كَلَامِنَا قَالَ ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَّا قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى سَلْعٍ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ قَالَ فَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ قَالَ فَآذَنَ رَسُولُ الله ﷺ النَّاسَ بِتَوْبَةِ الله عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا فَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي وَأَوْفَى الْجَبَلَ فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنْ الْفَرَسِ فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي فَنَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ وَالله مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا فَانْطَلَقْتُ أَتَأَمَّمُ رَسُولَ الله ﷺ يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّئُونِي بِالتَّوْبَةِ وَيَقُولُونَ لِتَهْنِئْكَ تَوْبَةُ الله عَلَيْكَ حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحَوْلَهُ النَّاسُ فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ الله يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي وَالله مَا قَامَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ قَالَ فَكَانَ كَعْبٌ لَا يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ قَالَ كَعْبٌ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قَالَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنْ السُّرُورِ وَيَقُولُ أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ قَالَ فَقُلْتُ أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ الله أَمْ مِنْ عِنْدِ الله فَقَالَ لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ الله وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ قَالَ وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ قَالَ فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ يَا رَسُولَ الله إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى الله وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ أَمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ قَالَ فَقُلْتُ فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِيَ الَّذِي بِخَيْبَرَ قَالَ وَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله إِنَّ الله إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصِّدْقِ وَإِنَّ

مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ قَالَ فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي اللهُ بِهِ وَاللهِ مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللهُ فِيمَا بَقِيَ قَالَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ حَتَّى بَلَغَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ قَالَ كَعْبٌ وَاللهِ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ إِذْ هَدَانِي اللهُ لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا إِنَّ اللهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ وَقَالَ اللهُ سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ قَالَ كَعْبٌ كُنَّا خُلِّفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى فِيهِ فَبِذَلِكَ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ مِمَّا خُلِّفْنَا تَخَلُّفَنَا عَنْ الْغَزْوِ وَإِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ و حَدَّثَنِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ حَدَّثَنَا حُجَيْنُ بْنُ الْمُثَنَّى حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ بِإِسْنَادِ يُونُسَ عَنْ الزُّهْرِيِّ سَوَاءً و حَدَّثَنِي عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُسْلِمٍ ابْنُ أَخِي الزُّهْرِيِّ عَنْ عَمِّهِ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ الزُّهْرِيِّ

أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ عُبَيْدَ اللهِ بْنَ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ وَكَانَ قَائِدَ كَعْبٍ حِينَ عَمِيَ قَالَ سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حَدِيثَهُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَسَاقَ الْحَدِيثَ وَزَادَ فِيهِ عَلَى يُونُسَ فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَلَّمَا يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ وَلَمْ يَذْكُرْ فِي حَدِيثِ ابْنِ أَخِي الزُّهْرِيِّ أَبَا خَيْثَمَةَ وَلْحُوقَهُ بِالنَّبِيِّ ﷺ و حَدَّثَنِي سَلَمَةُ بْنُ شَبِيبٍ حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَعْيَنَ حَدَّثَنَا مَعْقِلٌ وَهُوَ ابْنُ عُبَيْدِ اللهِ عَنْ الزُّهْرِيِّ أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ عَمِّهِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ كَعْبٍ وَكَانَ قَائِدَ كَعْبٍ حِينَ أُصِيبَ بَصَرُهُ وَكَانَ أَعْلَمَ قَوْمِهِ وَأَوْعَاهُمْ لِأَحَادِيثِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ سَمِعْتُ أَبِي كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ وَهُوَ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ تِيبَ عَلَيْهِمْ يُحَدِّثُ أَنَّهُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطُّ غَيْرَ غَزْوَتَيْنِ وَسَاقَ الْحَدِيثَ وَقَالَ فِيهِ وَغَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِنَاسٍ كَثِيرٍ يَزِيدُونَ عَلَى عَشْرَةِ آلَافٍ وَلَا يَجْمَعُهُمْ دِيوَانُ حَافِظٍ.

وأخرج الآجري في «الشريعة» (٦١)، وابن بطة في «الإبانة» (٢/ ٤٣٨) عن ابن عباس: (لا تجالس أهل الأهواء، فإن مجالستهم ممرضة للقلب).

وقال أبو قلابة: (لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم، فإني لا أمن أن يغمسوكم في الضلالة أو يلبسوا عليكم في الدين بعض ما لبس عليهم).

أخرجه الدارمي (١/ ١٢٠) وغيره.

وأخرج أيضًا عن أيوب قال: (رآني سعيد جلست إلى طلق فقال: ألم أرك جلست إلى طلق ابن حبيب، لا تجالسنه فإنه مرجئ).

فمن هذا تبين أن مجالسة أهل السنة مرغب فيها ومحبوبة عند الله عز وجل، **فال**

تعالى: (وجبت محبتي للمتحابين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، والمتجالسين فيَّ). أخرجه مالك عن معاذ رضي الله عنه.

وبما أنها محبوبة عند الله عز وجل، فهي من أجل العبادات الموصلة إلى مرضات ربنا عز وجل.

ثم إنها سبب لنشر الخير وبثه، وسيأتي مزيد بيان في الوسيلة التالية إن شاء الله، ولنقف مع بعض من تأثر بمجالسة أهل البدع والريب.

ذكر الذهبي في السير (٤/ ٢١٤) في قصة عمران بن حطان مع زوجته الخارجية قال: حدث سلمة بن علقمة عن ابن سيرين قال: تزوج عمران بن حطان خارجية وقال: سأردها قال، فصرفته إلى مذهبها حتى بلغ من شعره أن قال في وصف بن ملجم:

يا ضربة من تقي ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره حينًا فأحسبه ... أو في البرية عند الله ميزانا

أكرم بقوم بطون الطير قبرهم ... لم يخلطوا دينهم بغيًا وعدوانا

وجعفر بن سليمان الضبعي مع عبد الرزاق الصنعاني.

فقد قال الذهبي في «السير» (٩/ ٥٧٠): ما أفسد عبد الرزاق سوى جعفر بن سليمان يعني أنه جالسه فأدخل عليه التشيع.

بينما لو نظرت إلى مجالس أهل السنة لرأيت أن من جالسهم انتفع وترك باطله، إلا من أراد الله إزاغته.

دل على ذلك ما أخرجه مسلم (١٩١): عَنْ يَزِيدُ الْفَقِيرُ قَالَ: كُنْتُ قَدْ شَغَفَنِي رَأْيٌ مِنْ رَأْيِ الْخَوَارِجِ فَخَرَجْنَا فِي عِصَابَةٍ ذَوِي عَدَدٍ نُرِيدُ أَنْ نَحُجَّ ثُمَّ نَخْرُجَ عَلَى النَّاسِ قَالَ

فَمَرَرْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ فَإِذَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَالِسٌ إِلَى سَارِيَةٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ فَإِذَا هُوَ قَدْ ذَكَرَ الْجَهَنَّمِيِّينَ قَالَ فَقُلْتُ لَهُ يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ مَا هَذَا الَّذِي تُحَدِّثُونَ وَاللهُ يَقُولُ إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا فَمَا هَذَا الَّذِي تَقُولُونَ قَالَ فَقَالَ أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فَهَلْ سَمِعْتَ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَام يَعْنِي الَّذِي يَبْعَثُهُ اللهُ فِيهِ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فَإِنَّهُ مَقَامُ مُحَمَّدٍ ﷺ الْمَحْمُودُ الَّذِي يُخْرِجُ اللهُ بِهِ مَنْ يُخْرِجُ قَالَ ثُمَّ نَعَتَ وَضْعَ الصِّرَاطِ وَمَرَّ النَّاسِ عَلَيْهِ قَالَ وَأَخَافُ أَنْ لَا أَكُونَ أَحْفَظُ ذَاكَ قَالَ غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ زَعَمَ أَنَّ قَوْمًا يَخْرُجُونَ مِنْ النَّارِ بَعْدَ أَنْ يَكُونُوا فِيهَا قَالَ يَعْنِي فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ عِيدَانُ السَّمَاسِمِ قَالَ فَيَدْخُلُونَ نَهَرًا مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ فَيَغْتَسِلُونَ فِيهِ فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ الْقَرَاطِيسُ فَرَجَعْنَا قُلْنَا وَيْحَكُمْ أَتُرَوْنَ الشَّيْخَ يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَرَجَعْنَا فَلَا وَاللهِ مَا خَرَجَ مِنَّا غَيْرُ رَجُلٍ وَاحِدٍ أَوْ كَمَا قَالَ أَبُو نُعَيْمٍ.

وأخرج النسائي في «الخصائص» (١٩٥)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١٠/ ١٥٧) من طريق عكرمة قال: حدثنا أبو زميل الحنفي قال حدثنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال لما اعتزلت الحروراء فكانوا في دار على حدتهم فقلت لعلي يا أمير المؤمنين أبرد عن الصلاة لعلي آتي هؤلاء القوم فأكلمهم قال إني أتخوفهم عليك قلت كلا إن شاء الله تعالى قال فلبست أحسن ما أقدر عليه من هذه اليمانية قال ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة قال فدخلت على قوم لم أر قوما قط أشد اجتهادا منهم أيديهم كأنها ثفن الإبل ووجوههم معلمة من آثار السجود قال فدخلت فقالوا مرحبا بك يا بن عباس ما جاء بك قلت جئت أحدثكم عن أصحاب رسول الله ﷺ عليهم نزل الوحي وهم أعلم بتأويله فقال بعضهم لا تحدثوه وقال بعضهم والله لنحدثنه قال قلت أخبروني ما تنقمون

على بن عم رسول الله ﷺ وختنه وأول من آمن به وأصحاب رسول الله ﷺ معه قالوا ننقم عليه ثلاثا قال قلت وما هن قالوا أولهن أنه حكم الرجال في دين الله وقد قال الله إن الحكم إلا لله قال قلت وماذا قالوا وقاتل ولم يسب ولم يغنم لئن كانوا كفارا لقد حلت له أموالهم ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم قال قلت وماذا قالوا محا نفسه من أمير المؤمنين فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين قال قلت أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم وحدثتكم من سنة نبيه ﷺ ما لا تنكرون أترجعون قالوا نعم قال قلت أما قولكم حكم الرجال في دين الله فإن الله تعالى يقول يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم إلى قوله يحكم به ذوا عدل منكم وقال في المرأة وزوجها وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها أنشدكم الله أحكم الرجال في حقن دمائهم وأنفسهم وإصلاح ذات بينهم أحق أم في أرنب ثمنها ربع درهم قالوا اللهم بل في حقن دمائهم وإصلاح ذات بينهم قال أخرجت من هذه قالوا اللهم نعم قال وأما قولكم إنه قاتل ولم يسب ولم يغنم أتسبون أمكم عائشة أم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها فقد كفرتم وإن زعمتم أنها ليست أم المؤمنين فقد كفرتم وخرجتم من الإسلام إن الله يقول النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم فأنتم مترددون بين ضلالتين فاختاروا أيتهما شئتم أخرجت من هذه قالوا اللهم نعم قال وأما قولكم محا نفسه من أمير المؤمنين فإن رسول الله ﷺ دعا قريشا يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتابا فقال اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فقالوا والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال والله إني لرسول الله حقا وإن كذبتموني اكتب يا علي محمد بن عبد الله فرسول الله

ﷺ كان أفضل من علي رضي الله عنه أخرجت من هذه قالوا اللهم نعم فرجع منهم عشرون ألفا وبقي منهم أربعة آلاف فقتلوا.

العشرون: واتفقوا مع ذلك على قهر أهل البدع والتقرب إلى الله بمجانبتهم ومهاجرتهم.

تقدم في الوسيلة السابقة بيان وجوب البعد عن مجالسة أهل البدع، وما ذلك إلا لأنها تؤدي إلى انقطاع الداعي إلى الله عز وجل عن دعوته بسبب تأثره بالمجالس، وباب الهجر هو من باب النهي عن مجالسة أهل البدع والريب لكن أحببت أن أفرده لأن بعض الناس ربما ظن أن الهجر هو ترك المجالسة فقط.

وهذه الوسيلة من أنجح الوسائل في التحذير من المبطلين، ومن أعظم الأسباب لنصر الدعوة السلفية.

وأذكر أن الشيخ الإمام مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله تعالى لما رجع من السعودية إلى صنعاء في رحلته العلاجية كان مما تكلم به في مجلسه الحث على التميز والبعد عن أهل البدع، فلما كان بعد صلاة الفجر ذلك اليوم قام بكلمة مختصرة قال فيها: عليكم بالتميز، ما نصر الله دعوتنا إلا بالتميز، أي مجانبة أهل البدع وهجرهم والتبرء منهم.

وهجر المسلم محرم بالسنة والإجماع، وإنما استثني منه الهجر لأهل البدع والريب والمعاصي بضوابطها، لما في ذلك من المصلحة الدينية والدنيوية.

فقد هجر النبي ﷺ نساءه فقد أخرج البخاري (٨٩)، ومسلم (١٤٧٩) واللفظ لمسلم قال: عَنْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ لَمَّا اعْتَزَلَ نَبِيُّ الله ﷺ نِسَاءَهُ قَالَ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا النَّاسُ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى وَيَقُولُونَ طَلَّقَ رَسُولُ الله ﷺ نِسَاءَهُ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرْنَ

بِالْحِجَابِ فَقَالَ عُمَرُ فَقُلْتُ لَأَعْلَمَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ قَالَ فَدَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقُلْتُ يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكِ أَنْ تُؤْذِي رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَتْ مَا لِي وَمَا لَكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ عَلَيْكَ بِعَيْبَتِكَ قَالَ فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ فَقُلْتُ لَهَا يَا حَفْصَةُ أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكِ أَنْ تُؤْذِي رَسُولَ الله ﷺ وَالله لَقَدْ عَلِمْتِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَا يُحِبُّكِ وَلَوْلَا أَنَا لَطَلَّقَكِ رَسُولُ الله ﷺ فَبَكَتْ أَشَدَّ الْبُكَاءِ فَقُلْتُ لَهَا أَيْنَ رَسُولُ الله ﷺ قَالَتْ هُوَ فِي خِزَانَتِهِ فِي الْمَشْرُبَةِ فَدَخَلْتُ فَإِذَا أَنَا بِرَبَاحٍ غُلَامِ رَسُولِ الله ﷺ قَاعِدًا عَلَى أُسْكُفَّةِ الْمَشْرُبَةِ مُدَلٍّ رِجْلَيْهِ عَلَى نَقِيرٍ مِنْ خَشَبٍ وَهُوَ جِذْعٌ يَرْقَى عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ وَيَنْحَدِرُ فَنَادَيْتُ يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَنَظَرَ رَبَاحٌ إِلَى الْغُرْفَةِ ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ثُمَّ قُلْتُ يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَنَظَرَ رَبَاحٌ إِلَى الْغُرْفَةِ ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ثُمَّ رَفَعْتُ صَوْتِي فَقُلْتُ يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ ظَنَّ أَنِّي جِئْتُ مِنْ أَجْلِ حَفْصَةَ وَالله لَئِنْ أَمَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ بِضَرْبِ عُنُقِهَا لَأَضْرِبَنَّ عُنُقَهَا وَرَفَعْتُ صَوْتِي فَأَوْمَأَ إِلَيَّ أَنْ ارْقَهْ فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ فَجَلَسْتُ فَأَدْنَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ الله ﷺ فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ قَالَ فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ قَالَ مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ قُلْتُ يَا نَبِيَّ الله وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ وَأَنْتَ رَسُولُ الله ﷺ وَصَفْوَتُهُ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ فَقَالَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا قُلْتُ بَلَى قَالَ وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ حِينَ دَخَلْتُ وَأَنَا أَرَى فِي وَجْهِهِ الْغَضَبَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله

مَا يَشُقُّ عَلَيْكَ مِنْ شَأْنِ النِّسَاءِ فَإِنْ كُنْتَ طَلَّقْتَهُنَّ فَإِنَّ اللهَ مَعَكَ وَمَلَائِكَتَهُ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَأَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَكَ وَقَلَّمَا تَكَلَّمْتُ وَأَحْمَدُ اللهَ بِكَلَامٍ إِلَّا رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ اللهُ يُصَدِّقُ قَوْلِي الَّذِي أَقُولُ وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ آيَةُ التَّخْيِيرِ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ وَكَانَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ وَحَفْصَةُ تَظَاهَرَانِ عَلَى سَائِرِ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَطَلَّقْتَهُنَّ قَالَ لَا قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ وَالْمُسْلِمُونَ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى يَقُولُونَ طَلَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نِسَاءَهُ أَفَأَنْزِلُ فَأُخْبِرَهُمْ أَنَّكَ لَمْ تُطَلِّقْهُنَّ قَالَ نَعَمْ إِنْ شِئْتَ فَلَمْ أَزَلْ أُحَدِّثُهُ حَتَّى تَحَسَّرَ الْغَضَبُ عَنْ وَجْهِهِ وَحَتَّى كَشَرَ فَضَحِكَ وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ ثَغْرًا ثُمَّ نَزَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ وَنَزَلْتُ فَنَزَلْتُ أَتَشَبَّثُ بِالْجِذْعِ وَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَأَنَّمَا يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا يَمَسُّهُ بِيَدِهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا كُنْتَ فِي الْغُرْفَةِ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ قَالَ إِنَّ الشَّهْرَ يَكُونُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ فَقُمْتُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي لَمْ يُطَلِّقْ رَسُولُ اللهِ ﷺ نِسَاءَهُ وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ فَكُنْتُ أَنَا اسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ آيَةَ التَّخْيِيرِ.

قال الخطابي في «معالم السنن» (٢/ ١٢٢): وأما هجران الوالد والولد والزوج والزوجة ومن كان في معناهما فلا يضيق أكثر من ثلاث، وقد هجر النبي ﷺ نساءه شهرًا. أهـ

ويكون الهجر من الإمام والمطاع كما في قصة كعب بن مالك وتخلفه عن غزوة تبوك وقد تقدم.

قال ابن القيم في «الزاد» (٣/ ٥٧٨): وفيه دليل على هجران الإمام والعالم والمطاع لمن فعل ما يستوجب العتب، ويكون هجرانه دواء له بحيث لا يضعف عن حصول الشفاء به، ولا يزيد في الكمية والكيفية عليه، إذ المراد تأديبه لا اتلافه.

وأما هجر أهل البدع والأهواء فإنها دائمة على مر الزمان حتى يتوبوا من بدعتهم ويأبوا من غيهم، ويراجعوا دينهم وسنة نبيهم التي عاشوا عنها ناكبين، ولسبيلها هاجرين ولعهدها ناكثين.

قال الخطابي رحمه الله في «معالم السنن» (٧/ ٥) في شرح حديث كعب، فيه من العلم أن تحريم الهجر بين المسلمين أكثر من ثلاث إنما هو فيما يكون سببًا من قبل عتب وموجدة، أو لتقصير يقع في حقوق العشرة ونحوها دون ما كان ذلك في حق الدين، فإن هجرة أهل الأهواء والبدعة دائمة على مر الزمان، ما لم تظهر منه التوبة والرجوع عن الحق.

وكان رسول الله ﷺ خاف على كعب وأصحابه النفاق حين تخلفوا عن الخروج معه إلى غزوة تبوك فأمر بهجرانهم، وأمرهم بالقعود في بيوتهم نحو خمسين ليلة، إلى أن أنزل سبحانه توبته وتوبة أصحابه، فعرف رسول الله ﷺ براءتهم من النفاق. أهـ

وقال النووي رحمه الله في شرح الحديث (١٧/ ١٠٠): فيه استحباب هجران أهل البدع والمعاصي الظاهرة، وترك السلام عليهم، ومقاطعتهم تحقيرًا لهم وزجرًا.أهـ

وقال في «روضة الطالبين» (٧/ ٣٦٧-٣٦٨): إن الهجر بعذر بأن كان المهجور مذموم الحال لبدعة أو فسق أو نحوهما، أو كان فيه صلاح لدين الهاجر والمهجور فلا تحريم، وعلى هذا يحمل ما ثبت من هجر النبي ﷺ كعب بن مالك وصاحبيه، ونهيه ﷺ الصحابة عن كلامهم، وكذلك ما جاء في هجران السلف بعضهم بعضًا. أهـ

وقد نقل إجماع العلماء غير واحد من العلماء في وجوب هجران أهل البدع ومنابذتهم من أراد أن يقف عليها فليراجع كتاب: «إجماع العلماء على الهجر والتحذير من أهل الأهواء«.

وكتاب: «موقف أهل السنة من البدع والأهواء« للرحيلي، و«هجر المبتدع« لبكر أبو زيد، وغيرها من الكتب.

وإليك بعض المواقف الدالة على منابذة السلف لأهل البدع والأهواء.

أخرج الدارمي في مقدمة سننه، واللالكائي في «أصول اعتقاد أهل السنة« (١١٣٦):

عَنْ نَافِعٍ مَوْلَى عَبْدِ اللهِ: أَنَّ صَبِيغًا الْعِرَاقِيَّ جَعَلَ يَسْأَلُ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ الْقُرْآنِ فِي أَجْنَادِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى قَدِمَ مِصْرَ فَبَعَثَ بِهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَلَمَّا أَتَاهُ الرَّسُولُ بِالْكِتَابِ فَقَرَأَهُ فَقَالَ أَيْنَ الرَّجُلُ قَالَ فِي الرَّحْلِ قَالَ عُمَرُ أَبْصِرْ أَيَكُونُ ذَهَبَ فَتُصِيبَكَ مِنْهُ الْعُقُوبَةُ الْمُوجِعَةُ فَأَتَاهُ بِهِ فَقَالَ عُمَرُ تَسْأَلُ مُحْدَثَةً وَأَرْسَلَ عُمَرُ إِلَى رَطَائِبَ مِنْ جَرِيدٍ فَضَرَبَهُ بِهَا حَتَّى تَرَكَ ظَهْرَهُ دَبِرَةً ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى بَرَأَ ثُمَّ عَادَ لَهُ ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى بَرَأَ فَدَعَا بِهِ لِيَعُودَ لَهُ قَالَ فَقَالَ صَبِيغٌ إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ قَتْلِي فَاقْتُلْنِي قَتْلًا جَمِيلًا وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تُدَاوِيَنِي فَقَدْ وَاللهِ بَرَأْتُ فَأَذِنَ لَهُ إِلَى أَرْضِهِ وَكَتَبَ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَنْ لَا يُجَالِسَهُ أَحَدٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الرَّجُلِ فَكَتَبَ أَبُو مُوسَى إِلَى عُمَرَ أَنْ قَدْ حَسُنَتْ تَوْبَتُهُ فَكَتَبَ عُمَرُ أَنْ ائْذَنْ لِلنَّاسِ بِمُجَالَسَتِهِ.

واسانيدها لا تخلو من مقال، لكن يشد بعضها بعضًا.

وقد استوعبها الحافظ في «الإصابة« (٢/ ١٩٨-١٩٩)، وصحيح بعض أسانيدها، وصححها ابن كثير وشيخنا الحجوري في تحقيقه لمقدمة «سنن الدارمي« وغيرهم كثير.

وأخرج البخاري (٥٤٧٩)، ومسلم (١٩٥٤) عن عبد الله بن مغفل ﷺ أنه رأى رجلًا يخذف فقال له لا تخذف فإن رسول الله ﷺ كان يكره أو قال ينهى عن الخذف فإنه لا يصطاد به الصيد ولا ينكأ به العدو ولكنه يكسر السن ويفقأ العين ثم رآه بعد ذلك يخذف فقال له أخبرك أن رسول الله ﷺ كان يكره أو ينهى عن الخذف ثم أراك تخذف لا أكلمك كلمة كذا وكذا.

قال النووي في شرح الحديث (١٣/ ١٠٦): فيه هجران أهل البدع والفسوق ومنابذي السنة مع العلم، وأنه يجوز هجرهم دائمًا والنهي عن الهجران فوق ثلاث أيام إنما هو في حق من هجر لحظ نفسه ومعايش الدنيا، وأما أهل البدع ونحوهم فهجرانهم دائم.

وقال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (٢٨/ ٢٤-٢٠٥): الهجر على وجه التأديب، وهو هجر من يظهر المنكرات حتى يتوب منها، كما هجر النبي ﷺ والمسلمون الثلاثة الذين خلفوا حتى أنزل الله توبتهم حين ظهر منهم ترك الجهاد المتعين عليهم بغير عذر ولم يهجر من أظهر الخير وان كان منافقا فهنا الهجر هو بمنزلة التعزير، والتعزير يكون لمن ظهر منه ترك الواجبات وفعل المحرمات كتارك الصلاة والزكاة والتظاهر بالمظالم والفواحش والداعى إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة واجماع سلف الامة التى ظهر انها بدع، وهذا حقيقة قول من قال من السلف والأئمة ان الدعاة إلى البدع لا تقبل شهادتهم ولا يصلى خلفهم ولا يؤخذ عنهم العلم ولا يناكحون فهذه عقوبة لهم حتى ينتهوا ولهذا يفرقون بين الداعية وغير الداعية لأن الداعية اظهر المنكرات فاستحق العقوبة بخلاف الكاتم فانه ليس شرا من المنافقين الذين كان النبى ﷺ يقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى

الله مع علمه بحال كثير منهم . أهـ

قال الإمام الأجري في الشريعة (ج٣-ص٥٧٤)

باب ذكر هجرة أهل البدع والأهواء قال محمد بن الحسين رحمه الله : ينبغي لكل من تمسك بما رسمناه في كتابنا هذا وهو كتاب الشريعة أن يهجر جميع أهل الأهواء من الخوارج والقدرية والمرجئة والجهمية ، وكل من ينسب إلى المعتزلة ، وجميع الروافض ، وجميع النواصب ، وكل من نسبه أئمة المسلمين أنه مبتدع بدعة ضلالة ، وصح عنه ذلك ، فلا ينبغي أن يكلم ولا يسلم عليه ، ولا يجالس ولا يصلى خلفه ، ولا يزوج ولا يتزوج إليه من عرفه ، ولا يشاركه ولا يعامله ولا يناظره ولا يجادله ، بل يذله بالهوان له ، وإذا لقيته في طريق أخذت في غيرها إن أمكنك . فإن قال : فلم لا أناظره وأجادله وأرد عليه قوله ؟ . قيل له : لا يؤمن عليك أن تناظره وتسمع منه كلاما يفسد عليك قلبك ويخدعك بباطله الذي زين له الشيطان فتهلك أنت ؛ إلا أن يضطرك الأمر إلى مناظرته وإثبات الحجة عليه بحضرة سلطان أو ما أشبهه لإثبات الحجة عليه ، فأما لغير ذلك فلا . وهذا الذي ذكرته لك فقول من تقدم من أئمة المسلمين ، وموافق لسنة رسول الله ﷺ ، فأما الحجة في هجرتهم بالسنة ، فقصة هجرة الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في الخروج معه في غزاته بغير عذر : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع رحمهم الله تعالى فأمر النبي ﷺ بهجرتهم ، وأن لا يكلموا ، وطردهم حتى نزلت توبتهم من الله عز وجل ، وهكذا قصة حاطب بن أبي بلتعة لما كتب إلى قريش يحذرهم خروج النبي ﷺ إليهم ؛ فأمر النبي ﷺ بهجرته وطرده ، فلما أنزل الله توبته فعاتبه الله تعالى على فعله فتاب عليه ، وقول النبي ﷺ : « أفضل العمل الحب في الله والبغض في الله » .

وضرب عمر بن الخطاب ﷺ لصبيغ ، وبعث إلى أهل البصرة أن لا يجالسوه ؛ قال : فلو جاء إلى حلقة ما هي قاموا وتركوه ، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام » وسنذكر عن التابعين وأئمة المسلمين معنى ما قلناه إن شاء الله تعالى

والهجر يستخدم إذا كانت فيه مصلحة للسنة وأهلها، إما إذ لا مصلحة فيه وإنما تحصل منه مفسدة وعزلة للسني وظهور للبدعي فهنا يترك حتى تقوى السنة، وهذه فتوى الإمام الوادعي، والعلامة الحجوري وعليها شيخ الإسلام .

قال حيث كما في «المجموع» (٢٨/٢٠٦-٢٠٧): وهذا الهجر يختلف باختلاف الهاجرين في قوتهم وضعفهم وقلتهم وكثرتهم فان المقصود به زجر المهجور وتأديبه ورجوع العامة عن مثل حاله فان كانت المصلحة في ذلك راجحة بحيث يفضى هجره إلى ضعف الشر وخفيته كان مشروعا وان كان لا المهجور ولا غيره يرتدع بذلك بل يزيد الشر والهاجر ضعيف بحيث يكون مفسدة ذلك راجحة على مصلحته لم يشرع الهجر بل يكون التأليف لبعض الناس أنفع من الهجر، والهجر لبعض الناس أنفع من التأليف ولهذا كان النبى يتألف قوما ويهجر آخرين كما أن الثلاثة الذين خلفوا كانوا خيرا من اكثر المؤلفة قلوبهم لما كان أولئك كانوا سادة مطاعين في عشائرهم فكانت المصلحة الدينية في تأليف قلوبهم وهؤلاء كانوا مؤمنين والمؤمنون سواهم كثير فكان في هجرهم عز الدين وتطهيرهم من ذنوبهم وهذا كما أن المشروع في العدو القتال تارة والمهادنه تارة وأخذ الجزية تارة كل ذلك بحسب الاحوال والمصالح، وجواب الائمة كأحمد وغيره في هذا الباب مبنى على هذا الأصل ولهذا كان يفرق بين الأماكن التى كثرت فيها البدع كما كثر

القدر في البصرة والتنجيم بخراسان والتشيع بالكوفة وبين ما ليس كذلك ويفرق بين الأئمة المطاعين وغيرهم واذا عرف مقصود الشريعة سلك في حصوله أوصل الطرق إليه.

...ولهذا كان يفرق بين الأماكن التي كثرت فيها البدع كما كثر القدرية في البصرة والتجهم بخرسان، والتشيع بالكوفة، وبين ما ليس كذلك، ويفرق بين الأئمة المطاعين وغيرهم، وغذا عرف مقصود الشريعة سلك في حصوله أوصل الطريق إليه.

وقال رحمه الله (٢٨/ ٢١١-٢١٣): وعقوبة الظالم وتعزيره مشروط بالقدرة فلهذا اختلف حكم الشرع في نوعى الهجرتين بين القادر والعاجز وبين قلة نوع الظالم المبتدع وكثرته وقوته وضعفه كما يختلف الحكم بذلك في سائر أنواع الظلم من الكفر والفسوق والعصيان فإن كلما حرمه الله فهو ظلم اما في حق الله فقط واما في حق عباده واما فيهما وما امر به من هجر الترك والانتهاء وهجر العقوبة والتعزير إنما هو إذا لم يكن فيه مصلحة دينية راجحة على فعله والا فاذا كان في السيئة حسنة راجحة لم تكن سيئة واذا كان في العقوبة مفسدة راجحة على الجريمة لم تكن حسنة بل تكون سيئة وان كانت مكافئة لم تكن حسنة ولا سيئة

فالهجران قد يكون مقصوده ترك سيئة البدعة التى هي ظلم وذنب وأثم وفساد وقد يكون مقصوده فعل حسنة الجهاد والنهى عن المنكر وعقوبة الظالمين لينزجروا ويرتدعوا وليقوى الايمان والعمل الصالح عند اهله فان عقوبة الظالم تمنع النفوس عن ظلمه وتحضها على فعل ضد ظلمه من الايمان والسنة ونحو ذلك فاذا لم يكن في هجرانه انزجار أحد ولا انتهاء احد بل بطلان كثير من الحسنات المأمور بها لم تكن هجرة مامورا بها كما

ذكره أحمد عن أهل خراسان اذ ذاك انهم لم يكونوا يقوون بالجهمية فاذا عجزوا عن أظهار العداوة لهم سقط الأمر بفعل هذه الحسنة وكان مداراتهم فيه دفع الضرر عن المؤمن الضعيف ولعله ان يكون فيه تأليف الفاجر القوى وكذلك لما كثر القدر في أهل البصرة فلو ترك رواية الحديث عنهم لاندرس العلم والسنن والآثار المحفوظة فيهم فاذا تعذر اقامة الواجبات من العلم والجهاد وغير ذلك الا بمن فيه بدعة مضرتها دون مضرة ترك ذلك الواجب كان تحصيل مصلحة الواجب مع مفسدة مرجوحة معه خيرا من العكس ولهذا كان الكلام في هذه المسائل فيه تفصيل وكثير من أجوبة الامام أحمد وغيره من الأئمة خرج على سؤال سائل قد علم المسئول حاله أو خرج خطابا لمعين قد علم حاله فيكون بمنزلة قضايا الأعيان الصادرة عن الرسول إنما يثبت حكمها في نظيرها

فان أقواما جعلوا ذلك عاما فاستعملوا من الهجر والأنكار ما لم يؤمروا به فلا يجب ولا يستحب وربما تركوا به واجبات أو مستحبات وفعلوا به محرمات وآخرون أعرضوا عن ذلك بالكلية فلم يهجروا ما أمروا بهجره من السيئات البدعية بل تركوها ترك المعرض لا ترك المنتهى الكاره أو وقعوا فيها وقد يتركونها ترك المنتهى الكاره ولا ينهون عنها غيرهم ولا يعاقبون بالهجرة ونحوها من يستحق العقوبة عليها فيكونون قد ضيعوا من النهى عن المنكر ما أمروا به إيجابا أو إستحبابا فهم بين فعل المنكر أو ترك النهى عنه وذلك فعل مانهوا عنه وترك ما أمروا به فهذا هذا ودين الله وسط بين الغالى فيه والجافى عنه والله سبحانه أعلم. أهـ

وقال رحمه الله (٢٨/ ٢٠٩): واذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر وفجور وطاعة ومعصية وسنة وبدعة استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير واستحق من

المعادات والعقاب بحسب ما فيه من الشر فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الأكرام والأهانة فيجتمع له من هذا وهذا كاللص الفقير تقطع يده لسرقته ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته هذا هو الأصل الذى اتفق عليه أهل السنة والجماعة. أهـ

وأيضًا يستخدم الهجر في حق بعض العصاة المظهرين كما تقدم.

قال شيخ الإسلام (٢٨/ ٢١٧-٢١٨٩): وأما اذا اظهر الرجل المنكرات وجب الانكار عليه علانية ولميبق له غيبة ووجب ان يعاقب علانية بما يردعه عن ذلك من هجر وغيره فلا يسلم عليه ولا يرد عليه السلام إذا كان الفاعل لذلك متمكنا من ذلك من غير مفسدة راجحة وينبغى لأهل الخير والدين أن يهجروه ميتا كما هجروه حيا اذا كان في ذلك كف لامثاله من المجرمين فيتركون تشييع جنازته كما ترك النبى الصلاة على غير واحد من أهل الجرائم وكما قيل لسمرة بن جندب ان أبنك مات البارحة فقال لو مات لم أصل عليه يعنى لأنه أعان على قتل نفسه فيكون كقاتل نفسه وقد ترك النبى الصلاه على قاتل نفسه وكذلك هجر الصحابة الثلاثة الذين ظهر ذنبهم في ترك الجهاد الواجب حتى تاب الله عليهم فاذا أظهر التوبة أظهر له الخير .

وانظر إلى حال السلف فى هذا الباب فهذا عبد الله ابن عمر رضي الله عنه كما عند اللالكائي (١١٣٥) من طريق نافع قال: بينما نحن عند عبد الله بن عمر جاءه انسان فقال: إن فلان يقرأ عليك السلام لرجل من أهل الشام، فقال ابن عمر: إنه قد بلغني أنه أحدث حدثًا، فإن كان كذلك فلا تقران عليه مني سلام.

وسنده حسن.

وأخرج رقم (١١٤١) من طريق عمرو بن دينار قال: بينا طاووس يطوف بالبيت

لقيه معبد الجهني فقال له طاووس: أنت معبد؟

قال: نعم، فالتفت إليهم طاووس فقال: هذا معبد فأهينوه.

وأخرج (١١٤٧) من طريق ابن أبي عاصم قال: قال ابن أبي رواد قد جاءكم ثور فاتقوه، لا ينطحكم بقرنيه يعني ثور بن يزيد، قال الشيخ: وكان قدريًا.

وأخرج (١١٤٨) من طريق محمود بن غيلان: سمعت مؤمل ابن إسماعيل يقول في غير مجلس يقبل علينا احرج على كل مبتدع جهمي أو رافضي أو قدري أو مرجئ سمع مني، والله لو عرفتكم ما حدثتكم.

وأخرج (١١٤٩) قول الفضيل بن عياض: من جلس مع صاحب بدعة فاحذره، ومن جلس مع صاحب البدعة لم يعط الحكمة، وأحب أن يكون بيني وبين صاحب البدعة حصن من حديد.

آكل عند اليهودي والنصراني أحب إلي من أن آكل عند صاحب بدعة.أهـ

وما ذلك إلا لأن اليهودي والنصراني معروف شره ولن يُغتربه بينما صاحب البدعة قد يجرك إلى بدعته وانت لاتشعر .

وأخرج عبد الله بن أحمد في «السنة» (١٩٦): أن الناس وثبوا على بشر المريسي عند سفيان بن عيينة حتى ضربوه، وقالوا: جهمي، فقال له سفيان: يا دويبة يا دويبة، ألم تسمع الله يقول:(ألا له الخلق والأمر)، فأخبر الله عز وجل: أن الخلق غير الأمر.

وأخرج عبد الله بن أحمد في «السنة» (٦٦) بسند صحيح عن هارون الرشيد أنه قال: بلغني أن بشرًا المريشي يزعم أن القرآن مخلوق لله علي إن اظفرني الله به إلا قتلته قتلة ما قتلتها أحدًا قط.

وأخرج رحمه الله بسنده (٢/ ٤٣٤): عن محمد بن كعب القرضي: أن الفضل الرقاشي قعد إليه فذاكره شيئًا من القدر، فقال له محمد بن كعب القرضي: تشهدفلما بلغ من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له رفع محمد عصا معه فضرب بها رأسه وقال قم فلما قام فذهب قال لا يرجع هذا عن رأيه أبدا.

وأخرج الآجري في «الشريعة»: بلغ عمر بن عبد العزيز أن غيلان بن مسلم يقول في القدر فبعث إليه فحجبه.

وأخرج الفريابي في «القدر» (٢٠٦) عن ابن عون قال: كنا جلوسًا في مسجد بني عدي، فدخل معبد الجهني المسجد فقال أبو السوار: ما يدخل هذا مسجدنا، لا تدعوه يجلس إلينا.

قال الوادعي في «الجامع الصحيح في القدر»: أثر صحيح.

وأخرج عبد الله بن أحمد في «السنة»: عن أبي الزبير أنه كان يطوف مع طاووس بالبيت، فمر بمعبد الجهني فقال قائل لطاووس هذا معبد الجهني الذي يقول في القدر فعدل إليه طاووس حتى وقف عليه فقال أنت المفتري على الله عز وجل القائل ما لا تعلم قال معبد يكذب علي قال أبو الزبير فعدلت مع طاووس حتى دخلنا على ابن عباس فقال له طاووس يا أبا عباس الذين يقولون في القدر فقال ابن عباس أروني بعضهم قال قلنا صانع ماذا قال إذا أجعل يدي في رأسه ثم أدق عنقه.

قال الوادعي: هذا الأثر سنده حسن.

فهذا باب عظيم لنصرة السنة وأهلها، وهو البرأة والبعد وهجر أهل الأهواء والريب والتميز عنهم، وترى زهد السلف وحرصهم على كل خير ومع ذلك لا

تأخذهم في المبتدعة لومة لائم، يغضبون لله عز وجل، وينابذون من نابذ الكتاب والسنة.

والعجب أن كثيرًا من الناس ممن يتقمص القماص السلفي في هذه الأيام تجده سهلًا هينًا لينًا لأهل البدع.بدعوى الرحمة بالمسلمين والشفقة عليهم والحكمة في الدعوة ما هذا والله إلا من التميع الذي يؤدي إلى زحزحة الدين والسنة يجاملهم تارة

بالابتسامات والمجالسات والمراسلات وإن ذكرهم ذكر محاسنهم وترك مساوئهم.

وإن حذر المصلحون من أهل البدع خذلهم، فلا خير في هذا الصنف ولا كرامة، بل هم والله أضر على الدعوة من المبتدعة؛ لأنهم بصنيعهم هذا يظهرون بالاعتدال والوسيطة، وربما اغتر بهم بعض من لا يعرف أصحاب البدعة، فإنا لله وإنا إليه راجعون من الخذلان ومن هذه الأصناف السقيمة المريضة الذين تنكروا الطريقة السلف الصالحين والعلماء المصالحين ﴿**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[الحج:٤٦].

الحادية والعشرون: كان رسول الله ﷺ أجود الناس وأشجع الناس

من الوسائل العظيمة لنصرة السنة وأهلها هو الجود بالعلم وبثه بين الناس، وتبيين الحق من الباطل.

قال ابن القيم رحمه الله في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٩٢): والجود عشرة مراتب:

أحدها: الجود بالنفس وهو أعلى مرتبة كما قال الشاعر:

يجود بالنفس إذا ضن البخيل بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

الثانية: الجود بالرياسة وهو ثاني مراتب الجود، فيحمل الجواد جواده على أمتهان

رياسته والجود بها، والإيثار في قضاء حاجات الملتمس.

الثالثة: الجود براحته ورفاهيته، وإجمام نفسه فيجود بها تعبًا وكدًا في مصلحة غيره.

الرابعة: الجود بالعلم وبذله، وهو من أعلى مراتب الجود، والجود به أفضل من الجود بالمال؛ لأن العلم أشرف من المال، ومن الجود به أن تبذله لمن يسألك عنه بل تطرحه عليه طرحًا.

ومن الجود أن السائل إذا سألك عن مسألة استقصيت له جوابها جوابًا شافيًا لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة كما كان بعضهم يكتب في جوانب الفتيا نعم أولا مقتصرا عليها

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه في ذلك أمرا عجيبا كان إذا سئل عن مسألة حكمية ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة إذا قدر ومأخذ الخلاف وترجيح القول الراجح وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون أنفع للسائل من مسألته فيكون فرحه بتلك المتعلقات واللوازم أعظم من فرحه بمسألته وهذه فتاوىرحمه الله بين الناس فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك فمن جود الإنسان بالعلم أنه لا يقتصر على مسألة السائل بل يذكر له نظائرها ومتعلقها ومأخذها بحيث يشفيه ويكفيه وقد سأل الصحابة رضي الله عنه م النبي عن المتوضى ء بماء البحر فقال هو الطهور ماؤه الحل ميتته فأجابهم عن سؤالهم وجاد عليهم بما لعلهم في بعض الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه

وكانوا إذا سألوه عن الحكم نبههم على علته وحكمته كما سألوه عن بيع الرطب بالتمر فقال أينقص الرطب إذا جف قالوا نعم قال فلا إذن ولم يكن يخفى عليه نقصان الرطب بجفافه ولكن نبههم على علة الحكم وهذا كثير جدا في أجوبته مثل قوله إن بعت

من أخيك ثمرة فأصابتها جائحة فلا يحل لك أن تأخذ من مال أخيك شيئا بم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق وفي لفظ أرأيت إن منع الله الثمرة بم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق فصرح بالعلة التي يحرم لأجلها إلزامه بالثمن وهي منع الله الثمرة التي ليس للمشتري فيها صنع

وكان خصومه يعني شيخ الإسلام ابن تيمية يعيبونه بذلك ويقولون

سأله السائل عن طريق مصر مثلا فيذكر له معها طريق مكة والمدينة وخراسان والعراق والهند وأي حاجة بالسائل إلى ذلك

ولعمر الله ليس ذلك بعيب وإنما العيب الجهل والكبر وهذا موضع المثل المشهور.

لقبوه بحامض وهو خل مثل من لم يصل إلى العنقود.

الخامسة: الجود بالنفع بالجاه كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي سلطان ونحوه وذلك زكاة الجاه المطالب بها العبد كما أن التعليم وبذل العلم زكاته.

السادسة: الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه كما قال يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين اثنين صدقة ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها أو يرفع له عليها متاعه صدقة والكلمة الطيبة صدقة وبكل خطوة يمشيها الرجل إلى الصلاة صدقة ويميط الأذى عن الطريق صدقة متفق عليه السابعة الجود بالعرض كجود أبي ضمضم من الصحابة رضى الله عنهم كان إذا أصبح قال اللهم إنه لا مال لي أتصدق به على الناس وقد تصدقت عليهم بعرضي فمن شتمني أو قذفني فهو في حل فقال النبي من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم.

وفي هذا الجود من سلامة الصدر وراحة القلب والتخلص من معاداة الخلق ما فيه

الثامنة الجود بالصبر والاحتمال والإغضاء وهذه مرتبة شريفة من مراتبه وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال وأعز له وأنصر وأملك لنفسه وأشرف لها ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود فإنه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة وهذا جود الفتوة قال تعالى: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾[المائدة:٤٥]، وفي هذا الجود قال تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾[الشورى:٤٠]، فذكر المقامات الثلاثة في هذه الآية مقام العدل وأذن فيه ومقام الفضل وندب إليه ومقام الظلم وحرمه.

التاسعة: الجود بالخلق والبشر والبسطة وهو فوق الجود بالصبر والاحتمال والعفو وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم وهو أثقل ما يوضع في الميزان قال النبي لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط إليه وفي هذا الجود من المنافع والمسار وأنواع المصالح ما فيه والعبد لا يمكنه أن يسع الناس بحاله ويمكنه أن يسعهم بخلقه واحتماله.

العاشرة: الجود بتركه ما في أيدي الناس عليهم فلا يلتفت إليه ولا يستشرف له بقلبه ولا يتعرض له بحاله ولا لسانه وهذا الذي قال عبدالله ابن المبارك إنه أفضل من سخاء النفس بالبذل

فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد وإن لم أعطك ما تجود به على الناس فجد عليهم بزهدك في أموالهم وما في أيديهم تفضل عليهم وتزاحمهم في الجود وتنفرد عنهم بالراحة ولكل مرتبة من مراتب الجود مزيدوتأثير خاص في القلب والحال .

والله سبحانه قد ضمن المزيد للجواء والاتلاف للمسك والله المستعان.أهـ

وشاهدنا من ذكر هذه المراتب أن الداعي إلى الله عز وجل إذا بذل علمه للناس بجود وسخاء انتفع الناس منه، وانتشر خيره، وكذلك الجود بالشفاعات وغيرها كلها من أسباب إقبال الناس على الداعي إلى الله عز وجل.

فإن النفوس مجبولة على محبة من يحسن إليها، وإذا وقع الحب لهذا الداعي قبل خيره.

ثم هو أيضًا كما قل ابن القيم رحمه الله أن الجواد قد وعد بالخلف والزيادة والممسك وعد بالخذلان والإتلاف.

وما أنتشر الخير إلا بهذه الوسيلة العظيمة، فرسول الله ﷺ جاد بنفسه في تبليغ الدين الحق، وجاد برياسته في نفع المسلمين والإحسان إليهم، وجاء بماله فكان يعطي الرجل الغنم بين الجبلين يتألفه على الإسلام كما هو معلوم.

وجاد بعلمه وبثه بين الناس ﷺ، إلى غير ذلك من أنواع الجود، بل ما سئل شيئًا فقال: لا.

كان جوادًا مع القريب والبعيد، حتى أقبل الناس عليه وعلى دعوته، كما فعل ذلك الذي قال لقومه: اسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

وكذا أصحابه من بعده، ساروا على سيره واقتفوا اثره فنجحوا وأفلحوا.

فهاك ابن عباس رضي الله عنه كم جاد بالعلوم فنفعه الله به، وأبو هريرة حافظ الصحابة، وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر وغيرهم كثير جادوا بعلمهم فانتفع منهم الخلق، وما زال خيرهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا عمر بن عبد العزيز كما في «جامع بيان العلم» (٧٨٨): قال كتب إلينا عمر بن عبد العزيز أما بعد

فمر أهل الفقه والعلم من عندك فلينشروا ما علمهم الله في مجالسهم ومساجدهم والسلام. وسنده حسن.

وجاء عن سلمان بسند حسن عند أبي خيثمة في العلم (١٢) علم لا يقال به كنز لا ينفق منه.

وروى عن مالك أنه كان يقول: اتقوا الله وانشروا هذا العلم وعلموه ولا تكتموه.

وجاء عن الزهري كما في «مقدمة الدارمي»: أَخْبَرَنَا أَبُو الْمُغِيرَةِ حَدَّثَنَا الْأَوْزَاعِيُّ عَنْ يُونُسَ بْنِ يَزِيدَ عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ كَانَ مَنْ مَضَى مِنْ عُلَمَائِنَا يَقُولُونَ الِاعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ نَجَاةٌ وَالْعِلْمُ يُقْبَضُ قَبْضًا سَرِيعًا فَنَعْشُ الْعِلْمِ ثَبَاتُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَفِي ذَهَابِ الْعِلْمِ ذَهَابُ ذَلِكَ كُلِّهِ.

ولو لم يكن العلماء قد جادوا بعلمهم لما وصلنا هذا الخير، فهاك المسانيد والسنن والمعاجم والسير وغيرها كلها تدل على جود أصحابها بالعلم.

وقد لاحظنا وأدركنا كثيرًا ممن يبخلون بالعلم ولا يجودون به، تكون عاقبتهم الإفلاس منه، يرى المنكرات فلا يبالي، ويسأل فلا يجيب، زهد المخذولين وبخل الحريصين، فصار إلى أن عاد جاهلًا:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وما وقعوا فيه ما هو والله إلا استدراجًا من الشيطان.

والناظر في كتب شيخ الإسلام ورسائله يرى أنها من باب الجود بالعلم، فقد سأله أهل واسط سؤالًا فأجاب بالعقيدة الواسطية، وكم قد استفاد المسلمون ونهلوا منها، وكذلك التدمرية والحموية وغيرها.

وهل «صحيح مسلم» إلا استجابة لطلب أحمد بن سلمة إلى غير ذلك.

وأعظم الناس بخلًا من بخل بعلمه الذي لا يضره كثرة الانفاق، وكما قيل:

يزيـــد بكثـــرة الإنفـــاق منـــه ويـــنقص إن بـــه كفـــاً شـــددت

ومن الألغاز ما هو الكنز الذي إذا أنفقت منه زاد، جعلنا الله وإياكم ممن يجود بعلمه بعد العمل حتى لا يكون حجة علينا.

الثانية والعشرون:

بأبي أنت وأمي العلماء قبلتي، إذا لقيتهم وضالتي إذا فقدتهم لا خير في الناس إلا بهم.

كفى في فضلهم أن الله أشهدهم على وحدانيته، يقول: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[آل عمران:١٨]،

وصفهم بالخشية بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[فاطر:٢٨]، وأخبر برفعتهم: يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[المجادلة:١١].

وأمر بالرجوع عليهم: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[النحل:٤٣]، وقرن طاعتهم بطاعته وطاعة رسوله فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قال في تفسيرها المفسرون: هم الفقهاء والعلماء.

وبين أنهم لا يستون مع غيرهم بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ وبين أنهم الفاهمون العاقلون لمراد الله ومراد رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَتِلْكَ

﴿الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٣].

وهم الأدلاء على الخير المحذرين من الشر : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ﴾ وهم ورثة الأنبياء كما عند أبي الدرداء عند أحمد (٥/ ١٩٦) وغيره : يقول: »من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم وإنه ليستغفر للعالم من في السماوات والأرض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب إن العلماء هم ورثة الأنبياء لم يرثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر«، وهم المبلغون لدين الله عز وجل كما في حديث ابن عباس عند أحمد (٢٩٤٧) وغيره: »تسمعون ويسمع منكم، ويسمع ممن يسمع منكم«.

وهم أهل الخير بنص حديث معاوية رضي الله عنه عند الشيخين، البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧): »من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين«.

وهداية الناس بوجودهم وضلالهم سببه غيابهم وقبضهم، كما في حديث ابن عمرو رضي الله عنه ما عند البخاري (٧٣٠٧)، ومسلم (٢٦٧٣): عن هشام بن عروة عن أبيه سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يترك عالما اتخذ الناس رؤسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا.

وأخرج أحمد (٦/ ٢٦) من حديث عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَنَظَرَ فِي السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ: »هَذَا أَوَانُ الْعِلْمِ أَنْ يُرْفَعَ«، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ: أَيُرْفَعُ الْعِلْمُ يَا رَسُولَ اللهِ وَفِينَا كِتَابُ اللهِ وَقَدْ عَلَّمْنَاهُ

أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: »إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّكَ مِنْ أَفْقَهِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ«، ثُمَّ ذَكَرَ ضَلَالَةَ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ وَعِنْدَهُمَا مَا عِنْدَهُمَا مِنْ كِتَابِ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ. الحديث بطوله وهو في «الصحيح المسند« لشيخنا الوادعي.

وانظر إلى ثناء العلماء على هذا الصنف وبيان حاجة الأمة إليهم.

قال محمد بن الحسين : « فما ظنكم ـ رحمكم الله ـ بطريق فيه آفات كثيرة ، ويحتاج الناس إلى سلوكه في ليلة ظلماء ، فإن لم يكن فيه مصباح وإلا تحيروا ، فقيض الله لهم فيه مصابيح تضيء لهم ، فسلكوه على السلامة والعافية ، ثم جاءت طبقات من الناس لابد لهم من السلوك فيه ، فسلكوا ، فبينما هم كذلك ، إذ طفئت المصابيح ، فبقوا في الظلمة ، فما ظنكم بهم ؟ هكذا العلماء في الناس لا يعلم كثير من الناس كيف أداء الفرائض ، وكيف اجتناب المحارم ، ولا كيف يعبد الله في جميع ما يعبده به خلقه ، إلا ببقاء العلماء ، فإذا مات العلماء تحير الناس ، ودرس العلم بموتهم ، وظهر الجهل ، فإنا لله وإنا إليه راجعون مصيبة ما أعظمها على المسلمين ؟ » أهـ من أخلاق العلماء (٩٦)

وقال عبد الله بن مسعود: هل تدرون كيف ينقص الإسلام؟ قالوا: كيف قال؟ كما يُنقص الدابة سمنها وكما ينَقُص الثَّوب عن طول اللبس، وكما ينَقُص الدرهم عن طول الخبث، وقد يكون في القبيلة عالمان فيموت أحدهما فيذهب نصف علمهم ويموت الآخر فيذهب علمهم كله.

أخرجه الآجري في «أخلاق العلماء« رقم (٢١).

قال الشيخ يحيى الحجوري في تحقيقه: وسائر رجال الإسناد أئمة ثقات مشاهير وفى أخلاق العلماء للآجرى (٢٢) أبيات منسوبة إلى علي رضى الله عنه فيها وصف حسن

على العلماء فقال :

كـــلام الحكـــيم حيـــاة القلـــوب كوبـــل الســـماء غيـــاث الامـــم
فنطـــق الحكـــيم جـــلاء الظـــلام وصـــمت الحكـــيم دعـــاء الحكـــم
حيـــاة الحكـــيم جـــلاء القلـــوب كضـــوء النهـــار يجـــلي الظلـــم

وقال ابن القيم في «الفروسية» (٧٠-٧١): لما كان الجلاد بالسيف والسنان، والجدال بالحجة والبرهان كالأخوين الشقيقين، والقرينين المتصاحبين، كانت أحكام كل واحد منهما شبيهة بأحكام الآخر ومستفادة منه.

فالإصابة في الرمي والنضال كالإصابة في الحجة والمقال، والطعن والتبطيل نظير إقامة الحجة وإبطال حجة الخصم والخروج نظير الإيراد والاحتراز منه، وجواب القرن عند دخوله عليك كجواب الخصم عما يورده عليك.

فالفروسية فروستان: فروسية العلم والبيان، وفروسية الرمي والطعان، ولما كان أصحاب رسول الله ﷺ أكمل الخلق في الفروسيتين فتحوا القلوب بالحجة والبرهان، والبلاد بالسيف والسنان.

وما الناس إلا هؤلاء الفريقان، وما عداهما فإن لم يكن رداءً وعونًا لهما فهو كلٌّ على نوع الإنسان.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بجدال الكفار والمنافقين وجلاد أعدائه المشاقين والمحاربين، فعلم أن الجدال والجلاد من أهم العلوم وأنفعها للعباد في المعاش والمعاد.

ولا يعدل مداد العلماء إلا دم الشهداء والرفعة، وعلو المنزلتين في الدارين إنما هي

لهاتين الطائفتين وسائر الناس رعية لهما منقادون لرؤسائهما.

وانظر كيف اعتبر الهلال بن العلاء الرقي رحمه الله أن وجود العلماء من أعظم منن الله عز وجل على عباده، قال كما في «السير» (١٠/ ٤٩٩): منّ الله على هذه الأمة بأربعة في زمانهم بالشافعي تفقه بحديث رسول الله ﷺ وبأحمد ثبت في المحنة لولا ذلك كفر الناس وبيحيى بن معين نفى الكذب عن الحديث وبأبي عبيد فسر الغريب من الحديث ولولا ذلك لاقتحم الناس في الخطأ.

وفضائلهم كثيرة مشهورة، وعند أهل الفضل مذكورة، وفي الكتب مزبورة، فما بقي إلا العمل والعون.

فمن أراد أن تستمر دعوته وتنتصر فليعرف لهم قدرهم وليشكر لهم فضلهم، ويلتمس لهم الأعذار ويلازمهم في الليل والنهار، وعليه أن ينصرهم ولا يخذلهم.

ولهم علينا أيضًا واجبات منها:

١- حبهم وموالاتهم، فرسول الله ﷺ يقول: «وإن يحب المرء لا يحبه إلا لله»، كما في حديث أنس عند الشيخين، والعلماء يدخلون دخولًا أوليًا في هذا الحديث وما في بابه، وفي مثل قول الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[التوبة:٧١].

قال شيخ الإسلام في «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» (١١): فيجب على المسلمين بعد موالاة الله ورسوله ﷺ موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن خصوصًا العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم.

وقال ابن المديني كما في «أصول السنة» للالكائي (١/ ١٧١): إذا رأيت الرجل

يعتمد من أهل البصرة على أيوب السختياني، وابن عون، ويونس، والتيمي، ويحبهم ويكثر ذكرهم والاقتداء بهم فارجع خيره، ثم من بعد هؤلاء حماد بن سلمة، ومعاذ بن معاذ، ووهب بن جرير فإن هؤلاء محنة أهل البدع.

وقال الطحاوي في «الطحاوية»: وعلماء السلف من السابقين، ومن بعدهم من التابعين، أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر، لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل.

ولهذا تجد أن أهل السنة والجماعة سائرين على هذا المذهب في العلماء، وهو محبتهم ومودتهم وموالاتهم على قدر إيمانهم، قال شيخ الإسلام كما في «الوصية الكبرى» (١١٧): وإنما الواجب أن يقدم من قدمه الله ورسوله ويؤخر من أخره الله ورسوله ويحب ما أحبه الله ورسوله ويبغض ما أبغضه الله ورسوله وينهى عما نهى الله عنه ورسوله وأن يرضى بما رضي الله به ورسوله وأن يكون المسلمون يدا واحدة فكيف إذا بلغ الأمر ببعض الناس إلى أن يضلل غيره ويكفره وقد يكون الصواب معه وهو الموافق للكتاب والسنة ولو كان أخوه المسلم قد أخطأ في شيء من أمور الدين فليس كل من أخطأ يكون كافرا ولا فاسقا بل قد عفا الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وقد قال تعالى في كتابه في دعاء الرسول والمؤمنين: ﴿ **رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾ وثبت في الصحيح أن الله قال قد فعلت، لا سيما وقد يكون من يوافقكم في أخص من الإسلام مثل أن يكون مثلكم على مذهب الشافعي أو منتسبا إلى الشيخ عدي ثم بعد هذا قد يخالف في شيء وربما كان الصواب معه فكيف يستحل عرضه ودمه أو ماله مع ما قد ذكر الله تعالى من حقوق المسلم والمؤمن.

وكيف يجوز التفريق بين الأمة بأسماء مبتدعة لا أصل لها في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ وهذا التفريق الذي حصل من الأمة علمائها ومشائخها وأمرائها وكبرائها هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾[المائدة:١٤] فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب.

وجماع ذلك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢-١٠٤] فمن الأمر بالمعروف الأمر بالائتلاف والاجتماع والنهي عن الاختلاف والفرقة ومن النهي عن المنكر إقامة الحدود على من خرج من شريعة الله تعالى .

فمن اعتقد في بشر أنه إله أو دعا ميتا أو طلب منه الرزق والنصر والهداية وتوكل عليه أو سجد له فإنه يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه.

ومن فضل أحدا من المشائخ على النبي ﷺ أو اعتقد أن أحدا يستغني عن طاعة رسول الله ﷺ استتيب فإن تاب وإلا ضربت عنقه .

وكذلك من اعتقد أن أحدا من أولياء الله يكون مع محمد كما كان الخضر مع موسى عليه السلام فإنه يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه لأن الخضر لم يكن من أمة موسى عليه السلام ولا كان يجب عليه طاعته بل قال له إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه وكان مبعوثا إلى بني إسرائيل كما قال نبينا وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة ومحمد مبعوث إلى جميع الثقلين إنسهم وجنهم فمن اعتقد أنه يسوغ لأحد الخروج عن شريعته وطاعته فهو كافر يجب قتله.

وكذلك من كفر المسلمين أو استحل دماءهم وأموالهم ببدعة ابتدعها ليست في كتاب الله ولا سنة رسوله فإنه يجب نهيه عن ذلك وعقوبته بما يزجره ولو بالقتل أو القتال فإنه إذا عوقب المعتدون من جميع الطوائف وأكرم المتقون من جميع الطوائف كان ذلك من أعظم الأسباب التي ترضى الله ورسوله وتصلح أمر المسلمين

ويجب على أولي الأمر وهم علماء كل طائفة وأمراؤها ومشائخها أن يقوموا على عامتهم ويأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر فيأمرونهم بما أمر الله به ورسوله وينهونهم عما نهى الله عنه ورسوله ﷺ .

فالأول مثل شرائع الإسلام وهي الصلوات الخمس في مواقيتها وإقامة الجمعة والجماعات من الواجبات والسنن الراتبات كالأعياد وصلاة الكسوف والاستسقاء والتراويح وصلاة الجنائز وغير ذلك وكذلك الصدقات المشروعة والصوم المشروع وحج البيت الحرام ومثل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره ومثل الإحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك

ومثل سائر ما أمر الله به ورسوله من الأمور الباطنة والظاهرة ومثل إخلاص الدين لله والتوكل على الله وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما والرجاء لرحمة الله والخشية من عذابه والصبر لحكم الله والتسليم لأمر الله ومثل صدق الحديث والوفاء بالعهود وأداء الأمانات إلى أهلها وبر الوالدين وصلة الأرحام والتعاون على البر والتقوى والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وبن السبيل والصاحب والزوجة والمملوك والعدل في المقال والفعال ثم الندب إلى مكارم الأخلاق مثل أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك **وقال تعالى:** ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾[الشورى: ٤٠-٤٣].

وأما المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله فاعظمه الشرك بالله وهو أن يدعو مع الله إلها آخر إما الشمس وإما القمر أو الكواكب أو ملكا من الملائكة أو نبيا من الأنبياء أو رجلا من الصالحين أو أحدا من الجن أو تماثيل هؤلاء أو قبورهم أو غير ذلك مما يدعى من دون الله تعالى أو يستغاث به أو يسجد له فكل هذا وأشباهه من الشرك الذي حرمه الله على لسان جميع رسله، وقد حرم الله قتل النفس بغير حقها وأكل أموال الناس بالباطل إما بالغصب وإما بالربا أو الميسر كالبيوع والمعاملات التي نهى عنها رسول الله وكذلك قطيعة الرحم وعقوق الوالدين وتطفيف المكيال والميزان والإثم والبغي بغير الحق

وكذلك مما حرمه الله تعالى أن يقول الرجل على الله ما لا يعلم مثل أن يروي عن الله ورسوله أحاديث يجزم بها وهو لا يعلم صحتها أو يصف الله بصفات لم ينزل بها كتاب

من الله ولا أثارة من علم عن رسول الله ﷺ سواء كانت من صفات النفي والتعطيل مثل قول الجهمية إنه ليس فوق العرش ولا فوق السماوات وأنه لا يرى في الآخرة وأنه لا يتكلم ولا يحب ونحو ذلك مما كذبوا به الله ورسوله أو كانت من صفات الأثبات والتمثيل مثل من يزعم أنه يمشي في الأرض أو يجالس الخلق أو أنهم يرونه بأعينهم أو أن السماوات تحويه وتحيط به أو أنه سار في مخلوقاته إلى غير ذلك من أنواع الفرية على الله

وكذلك العبادات المبتدعة التي لم يشرعها الله ورسوله كما **قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾**، فإن الله شرع لعباده المؤمنين عبادات فأحدث لهم الشيطان عبادات ضاهاها منها مثل أنه شرع لهم عبادة الله وحده لا شريك له فشرع لهم شركاء وهي عبادة ما سواه والإشراك به وشرع لهم الصلوات الخمس وقراءة القرآن فيها والاستماع له والاجتماع لسماع القرآن خارج الصلاة أيضا فأول سورة أنزلها على نبيه: **﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾**[العلق:١] أمر في أولها بالقراءة وفي آخرها بالسجود بقوله تعالى: **﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾**[العلق:١٩].

ولهذا كان أعظم الأذكار التي في الصلاة قراءة القرآن وأعظم الأفعال السجود لله وحده لا شريك له **وقال تعالى: ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾**[الإسراء:٧٨]، **وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾**[الأعراف:٢٠٤]، وكان أصحاب رسول الله إذا اجتمعوا أمروا واحدا منهم أن يقرأ والباقي يستمعون وكان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى رضي الله عنه ما ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يستمعون ومر النبي بأبي موسى رضي الله عنه وهو يقرأ فجعل يستمع لقراءته فقال يا أبا موسى مررت بك البارحة فجعلت أستمع لقراءتك فقال لو علمت لحبرته لك تحبيرا

وقال لله أشد أذنا أي استماعا إلى الرجل يحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته وهذا هو سماع المؤمنين وسلف الأمة وأكابر المشائخ كمعروف الكرخي والفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني ونحوهم وهو سماع المشائخ المتأخرين الأكابر كالشيخ عبدالقادر والشيخ عدي بن مسافر والشيخ أبي مدين وغيرهم من المشائخ رحمهم الله وأما المشركون فكان سماعهم كما ذكره الله تعالى في كتابه بقوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً** ﴾.

قال السلف: المكاء الصفير والتصدية التصفيق باليد فكان المشركون يجتمعون في المسجد الحرام يصفقون ويصوتون يتخذون ذلك عبادة وصلاة فذمهم الله على ذلك وجعل ذلك من الباطل الذي نهى عنه.

فمن اتخذ نظير هذا السماع عبادة وقربة يتقرب بها إلى الله فقد ضاهى هؤلاء في بعض أمورهم وكذلك لم تفعله القرون الثلاثة التي أثنى عليها النبي ولا فعله أكابر المشائخ

وأما سماع الغناء على وجه اللعب فهذا من خصوصية الأفراح للنساء والصبيان كما جاءت به الآثار فإن دين الإسلام واسع لا حرج فيه.

وعماد الدين الذي لا يقوم إلا به هو الصلوات الخمس المكتوبات ويجب على المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة.

وهي أول ما أوجبه الله من العبادات والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج وهي آخر ما وصى به النبي ﷺ أمته وقت فراق الدنيا جعل يقول

الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم وهي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله وآخر ما يفقد من الدين فإذا ذهبت ذهب الدين كله وهي عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين

قال النبي رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله وقد قال الله في كتابه: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[مريم:٥٩].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره: إضاعتها تأخيرها عن وقتها ولو تركوها كانوا كفارا **وقال تعالى:** ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى ﴾[البقرة:٢٣٨] والمحافظة عليها فعلها في أوقاتها **وقال تعالى:** ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾[الماعون: ٤-٥]، وهم الذين يؤخرونها حتى يخرج الوقت.

وقد اتفق المسلمون على أنه لا يجوز تأخير صلاة النهار إلى الليل ولا تأخير صلاة الليل إلى النهار لا لمسافر ولا لمريض ولا غيرهما لكن يجوز عند الحاجة أن يجمع المسلم بين صلاتي النهار وهي الظهر والعصر في وقت إحداهما ويجمع بين صلاتي الليل وهي المغرب والعشاء في وقت إحداهما وذلك لمثل المسافر والمريض وعند المطر ونحو ذلك من الأعذار وقد أوجب الله على المسلمين أن يصلوا بحسب طاقتهم كما **وقال تعالى:** ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، فعلى الرجل أن يصلي بطهارة كاملة وقراءة كاملة وركوع وسجود كامل فإن كان عادما للماء أو يتضرر باستعماله لمرض أو برد أو غير ذلك وهو محدث أو جنب يتيمم الصعيد الطيب وهو التراب يمسح به وجهه ويديه ويصلي ولا يؤخرها عن وقتها باتفاق العلماء.

وكذلك إذا كان محبوسا أو مقيدا أو زمنا أو غير ذلك صلى على حسب حاله وإذا كان

بإزاء عدوه صلى أيضا صلاة الخوف وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا * وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَّ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللهَّ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾[النساء: ١٠١-١٠٣].

ويجب على أهل القدرة من المسلمين أن يأمروا بالصلاة كل أحد من الرجال والنساء حتى الصبيان قال النبي مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم على تركها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع والرجل البالغ إذا امتنع من صلاة واحدة من الصلوات الخمس أو ترك بعض فرائضها المتفق عليها فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل فمن العلماء من يقول يكون مرتدًا كافرًا لا يصلى عليه ولا يدفن بين المسلمين ومنهم من يقول يكون كقاطع الطريق وقاتل النفس والزاني المحصن .

وأمر الصلاة عظيم شأنها أن تذكر ها هنا فإنها قوام الدين وعماده وتعظيمه تعالى لها في كتابه فوق جميع العبادات فإنه سبحانه يخصها بالذكر تارة ويقرنها بالزكاة تارة وبالصبر تارة وبالنسك تارة كقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[البقرة:٤٣]، وقوله: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ ﴾[البقرة:٤٥] وقوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ

﴾[الكوثر:٢]، وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، وتارة يفتتح بها أعمال البر ويختمها بها كما ذكره في سورة: ﴿سأل سائل﴾ وفي أول سورة المؤمنين قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[المؤمنون: ١-١١].

فنسأل الله العظيم أن يجعلنا وإياكم من الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.أهـ

ومع ذلك على طالب العلم ألا يصل به الحد في حب العلماء وموالاتهم إلى التقليد لهم.

بل يأخذ بأقوالهم المستدل لها من الكتاب والسنة ويحذر من زلاتهم، قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (٣٥/ ٦٩): فأما الصديقون والشهداء والصالحون فليسوا بمعصومين، وهذا في الذنوب المحققة، وأما ما اجتهدوا فيه، فتارة يصيبون وتارة يخطئون، فإذا اجتهدوا وأصابوا فلهم أجران.

وإذا اجتهدوا واخطأوا فلهم أجر على أجتهادهم وخطؤهم مغفور لهم.

قال الشاطبي في «الموافقات» (٤/ ١٧٠-١٧١): إن زلة العالم لا يصح اعتمادها من جهة ولا الأخذ بها تقليدًا له، وذلك لأنها موضوعة على المخالفة للشرع، ولذلك عدت زلة، وإلا فلو كانت معتدًا بها لم يجعل لها هذه المرتبة، ولا نسب إلى صاحبها الزلل فيها.أهـ

يدل على ذلك أن الله تعالى يقول: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾[الزمر:٥٥].

فالعالم إن افتى بما أنزل الله اتبعناه في فتواه كونها موافقة للشرع الحكيم، ولأنها أعلم الناس بمراد الله ومراد رسوله.

وإن اخطأ في فتواه فقد قال الله: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾[الأعراف:٣].

وهو مع ذلك معذور في زلته وذنبه، مغفور لحديث عمر بن العاص: عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ « الحديث رواه مسلم، وعلينا أن نلتمس النحذر لهم، قال تعالى: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾[النور:١٢].

ومن حق العالم أن ينصح إذا زل أو أخطأ لحديث أبي رقية تميم الداري عند مسلم: عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: الدِّينُ النَّصِيحَةُ قُلْنَا لِمَنْ قَالَ للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ«.

ومن أئمة الدين العلماء.

والنصيحة للعالم يكون المراد منها رده إلى الصواب، فتكون برفق ولين، ولا يتخذ

الناصح سبيل المتعالمين، ومتتبعي العورات، هذه المسألة للتشهير والتحقير، وما أكثر هذا الصنف في زماننا هذا، وما ذلك إلا لعدم الإخلاص والسكينة والفقه الكافي لدى كثير من المتعالمين، ورسول الله ﷺ قد قال كما في حديث عبد الله بن عمر عند الترمذي (٢٠٣٢): قال : صعد رسول الله صلى الله عليه و سلم المنبر فنادى بصوت رفيع فقال يا معشر من قد أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحلة قال ونظر ابن عمر يوما إلى البيت أو إلى الكعبة فقال ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك

الحديث في «الصحيح المسند» رقم (٧٢٥).

وقد لاحظنا وعايشنا ما حصل لهذا الصنف البائر وعلى رأسهم صالح بن عبد الله البكري اليافعي.

وكذلك أحمد الشيباني، ومثل أبي عبيده الزاوي الليبي، وكذلك فالح الحربي وغيرهم كثير ممن جعلوا من قصور فهمهم لبعض المسائل زلات للعلماء، فكان مصيرهم البوار والخزي والشنار، والذلة والعار، فالله أسأل أن يسلم.

٢ – ومن حقوقهم احترامهم وتقديرهم لحديث النبي ﷺ عند البخاري في «الأدب المفرد» (ص١٢٩) عن عبد الله بن عمر قال: «من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا».

قال طاووس كما في «شرح السنة» (١٣/ ٤٣) من السنة أن يوقر أربعة: العالم، وذو الشيبة، والسلطان، والوالد.

وقد ذكر الخطيب في «الرحله» (١٠) عن يزيد بن هارون قال لحماد بن زيد: يا أبا إسماعيل، هل ذكر أصحاب الحديث في القرآن؟ قال: نعم، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾[التوبة:١٢٢].

٣- ومن حقهم الأخذ عنهم والسعي إليهم، حيث والسعي إليهم من أسباب دخول الجنة، قال رسول الله ﷺ: «من سلك طريقًا يلتمس به علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة».

فقد رحل موسى عليه السلام إلى الخضر كما في «الصحيحين» من حديث ابن عباس وقد تقدم الحديث.

وحديث صفوان بن عسال عند الترمذي عن زر بن حبيش قال : أتيت صفوان بن عسال المرادي أسأله المسح على الخفين فقال ما جاء بك يا زر ؟ فقلت ابتغاء العلم فقال إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب فقلت إنه حك في صدري المسح على الخفين بعد الغائط والبول وكنت أمرأ من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم فجئت أسألك هل سمعته يذكر في ذلك شيئا قال نعم كان يأمرنا إذا كنا سفرا أو مسافرين أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة لكن من غائط وبول ونوم فقلت هل سمعته يذكر في الهوى شيئا ؟ قال نعم كنا مع النبي صلى الله عليه و سلم في سفر فبينا نحن عنده إذ ناداه أعرابي بصوت له جهوري يا محمد فأجابه رسول الله صلى الله عليه و سلم نحوا من صوته هاؤم وقلنا له ويحك اغضض من صوتك فإنك عند النبي صلى الله عليه و سلم وقد نهيت عن هذا فقال والله لا اغضض قال الأعرابي المرء يحب القوم ولما يلحق بهم قال النبي صلى الله عليه و سلم المرء من أحب يوم القيامة فما

زال يحدثنا حتى ذكر بابا من قبل المغرب مسيرة سبعين عاما عرضه أو يسير الراكب في عرضه أربعين أو سبعين عاما قال سفيان قبل الشام خلقه الله يوم خلق السموات والأرض مفتوحا يعني للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه

ومن أراد التوسع فليراجع سير العلماء في رحلتهم وصبرهم على العلم والتعلم مثل الرحلة للخطيب ففيها خير عظيم، منها قول سعيد بن المسيب رقم (٤١)، قال: كنت أسير الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد.

ومنها رقم (٤٥) قال عبيد الله بن عدي بن الخيار، أحد بني نوفل بن عبد مناف بلغني حديث عن علي خفت إن مات إلا أجده عند غيره.

وأخرج رقم (٤٧) عن ابن الديلمي قال: بلغني حديث عن عبد الله ابن عمرو بن العاص فركبت إليه إلى الطائف أسأله عنه وكان ابن الديلمي بفلسطين قال فدخلت عليه وهو في حديقة له فوجدته مختصرا بيد رجل كنا نتحدث بالشام أن ذلك الرجل من شربة الخمر قال فقلت له يا أبا محمد، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول في شارب الخمر شيئا قال فاختلج الرجل يده من يد عبد الله بن عمرو فقال نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين صباحا.

قلت ما حديث بلغني عنك تقوله إن صلاة في بيت المقدس كألف صلاة وإن القلم قد جف فقال عبد الله اللهم إني لا أحل لهم أن يقولوا إلا ما سمعوا مني قالها ثلاثا قال ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول إن سليمان بن داود سأل الله ثلاثا سأله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه وسأله حكما يصادف حكمه فأعطاه إياه وسأله من أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه أن يغفر له هذا آخر حديث أبي صالح وزاد معن وسياق

الحديث له قال وسمعت رسول الله ﷺ يقول إن الله خلق الناس في ظلمة فأخذ نورا من نوره فألقى عليهم فأصاب من شاء وأخطأ من شاء فقد عرف من يخطئه ممن يصيبه فمن أصابه من نوره اهتدى ومن أخطأه ضل فلذلك أقول إن القلم قد جف. الحديث.

وأخرج (٩٦) عن مكحول الدمشقي قال: كنت عبدًا بمصر لامرأة من بني هذيل، فاعتقتني فما خرجت من مصر وبها علم إلا حويت عليه فيما أرى.

وقال ابن أبي حاتم في مقدمة «الجرح والتعديل» (٣٥٩-٣٦٠) سمعت أبي يقول: أول سنة خرجت في طلب الحديث أقمت سبع سنين احصيت ما مشيت على قدمى زيادة على ألف فرسخ لم أزل أحصى حتى لمازاد على ألف فرسخ تركته ما كنت سرت انا من الكوفة الى بغداد فما لا أحصى كم مرة ومن مكة الى المدينة مرات كثيرة وخرجت من البحرين من قرب مدينة صلا الى مصر ماشيا ومن مصر الى الرملة ماشيا ومن الرملة الى بيت المقدس ومن الرملة الى عسقلان ومن الرملة الى طبرية ومن طبرية الى دمشق ومن دمشق الى حمص ومن حمص الى أنطاكية ومن أنطاكية الى طرسوس ثم رجعت من طرسوس الى حمص وكان بقى على شيء من حديث أبى اليمان فسمعت ثم خرجت من حمص الى بيسان ومن بيسان الى الرقة ومن الرقة ركبت الفرات الى بغداد وخرجت قبل خروجى الى الشام من واسط الى النبيل ومن النيل الى الكوفة كل ذلك ماشيا كل هذا في سفرى الأول وانا بن عشرين سنة اجول سبع سنين خرجت من الري سنة ثلاث عشرة ومائتين قدمنا الكوفة في شهر رمضان سنة ثلاث عشرة والمقرئ حي بمكة وجاءنا نعيه ونحن بالكوفة ورجعت سنة إحدى وعشرين ومائتين.

فانظر كيف رحل هؤلاء الرجال إلى مشايخهم واستقوا منهم علمًا كثيرًا به انتصرت

دعوتهم وازدهرت وما قاموا بهذه الرحلات لمشاقة إلا بدافع الإخلاص والحب للعلم والعلماء.

وإن قومًا ازدروا علمائهم فاهانهم الله عز وجل في الدنيا قبل الآخرة، ومنهم عمرو بن عبيد بن باب المعتزلي.

قال الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٢/ ١٦٦): جالس الحسن البصري وحفظ عنه، واشتهر بصحبته، ثم ازاله واصل بن عطاء عن مذهب أهل السنة فقال بالقدر ودعا إليه، واعتزل أصحاب الحسن وكان له سمعه وأظهار زهد.

ووصل به الحال إلى ما رواه معاذ بن معاذ قال: كنت جالسا عند عمرو بن عبيد فاتاه رجل يقال له عثمان أخو السمري فقال يا أبا عثمان سمعت والله اليوم بالكفر فقال لا تعجل بالكفر وما سمعت قال سمعت هاشما الاوقصى يقول ان تبت يدا أبى لهب وقوله ذرنى ومن خلقت وحيدا وسأصليه سقر ان هذا ليس في أم الكتاب والله تعالى يقول حم والكتاب المبين انا جعلناه قرانا عربيا لعلكم تعقلون وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم فما الكفر الا هذا يا أبا عثمان فسكت عمرو هنية ثم اقبل على فقال والله لو كان القول كما يقول ما كان على أبى لهب من لوم ولا على الوحيد من لوم قال يقول عثمان ذاك هذا والله الدين يا أبا عثمان قال معاذ فدخل بالإسلام وخرج بالكفر أو كما قال.الأثر.

وأخرج بسنده قول عمرو بن عبيد في حديث ابن مسعود عند الشيخين، من طريق الأَعْمَش عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ عَنْ عَبْدِ اللهَّ قَالَ حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهَّ -ﷺ- وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ « إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِى بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ فِى ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ فِى ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ

كَلِمَاتٍ بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ فَوَالَّذِى لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا ».

فقال عمرو: لو سمعت الأعمش يقول هذا لكذبته، ولو سمعت زيد بن وهب يقول: هذا ما أجبته ولو سمعت عبد الله بن مسعود يقوله هذا ما قبلته، ولو سمعت رسول الله ﷺ يقوله هذا لرددته ولو سمعت الله يقول: هذا لقلت ما علي هذا أخذت ميثاقنا.

فهذا الضال تنكر لشيخه وجالس أهل البدعة والضلال، فأصبح من الممقوتين المخذولين قاتله الله وأخزاه، وكذلك ما حدث لعبد الله القصيمي كان من علماء نجد، لكن كان فيه تطاول على العلماء وفخر وألف كتبًا في الرد على الرافضة، فأجاد، ثم إنه أراد أن يرد على الفالسفة زعم فانزلق انزلاقة أودت بدينه، فألف كتابًا اسمه الاغلال يرد به على الإسلام، وقد وجدت من أقواله البائرة: أيدخل الله عجائز نجد الجنة ويدخل فاتنات لبيان النار يعترض على قدر الله عز وجل ويسخر بالدين.

ثم إنه مات على ردته بالقاهرة في عام (١٤١٨هـ) وأيضًا الكرابيسي إلى طابورهم حيث ثار على أحمد وخرج من أهل السنة، وكان أول من نشر مذهب اللفظية.

قال الخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ٦٥): جاء رجل إلى أبي علي الحسين بن علي الكرابيسي فقال ما تقول في القرآن فقال حسين الكرابيسي كلام الله غير مخلوق فقال له الرجل فما تقول في لفظي بالقرآن فقال له حسين لفظك بالقرآن مخلوق فمضى الرجل إلى

أبي عبد الله أحمد بن حنبل فعرفه أن حسينا قال له إن لفظه بالقرآن مخلوق فأنكر ذلك وقال هي بدعة فرجع الرجل إلى حسين الكرابيسي فعرفه إنكار أبي عبد الله احمد بن حنبل لذلك وقوله هذا بدعة فقال له حسين تلفظك بالقرآن غير مخلوق فرجع إلى أحمد بن حنبل فعرفه رجوع حسين وانه قال تلفظك بالقرآن غير مخلوق فأنكر أحمد بن حنبل ذلك أيضا وقال هذا أيضا بدعة فرجع الرجل إلى أبي علي حسين الكرابيسي فعرفه إنكار أبي عبد الله أحمد بن حنبل وقوله هذا أيضا بدعة فقال حسين أيش نعمل بهذا الصبي إن قلنا مخلوق قال بدعة وإن قلنا غير مخلوق قال بدعة فبلغ ذلك أبا عبد الله فغضب له أصحابه فتكلموا في حسين وكان ذلك سبب الكلام في حسين والغمز عليه بذلك.

وبسبب هذا الفعل منه حذر منه العلماء وذموه ومقتوه، وأردوه، وهذا حال كل من تنكر لمشائخه وعلمائه.

وسلك سبيل المرجفين الطاعنين.

قال الخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ٦٤-٦٥).

عن جعفر بن أبي عثمان الطيالسي قال: سمعت يحيى بن معين، وقيل له: إن حسينًا الكرابيسي يتكلم في أحمد قال: ومن حين الكرابيس لعنه الله، إنما يتكلم الناس في أشكالهم ينطل حسين ويرتفع أحمد، قال جعفر ينطل يعني ينزل، وهو الدرى الذي في أسفل الدن.

وفي رواية أنه قال: ما أحوجه إلى أن يضرب وشتمه.

ومن الواجبات الرجوع إليهم كما تقدم، وخصوصًا في المسائل المدلهمة والأمور المهمة **وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى**

الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء:٨٣].

وكما قال الحسن: العلماء يعرفون الفتنة وهي مقبلة، والجهال لا يعرفونها إلا إذا أدبرت.

ولما كان الوقوع في الفتن من الباطل العظيم الذي حذر الله عز وجل منه ورسوله ﷺ كان واجبًا على كل مسلم أن يحتاط لدينه وأن يرجع إلى أهل العلم والمعرفة حتى يأتوه بالدواء الشافي والبلسم الصافي فيسلم ويسلم.

فقد جاء في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة (١٩٦٣)، ومسلم (١١١١): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ هَلَكْتُ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ وَمَا أَهْلَكَكَ قَالَ وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي فِي رَمَضَانَ قَالَ هَلْ تَجِدُ مَا تُعْتِقُ رَقَبَةً قَالَ لَا قَالَ فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ قَالَ لَا قَالَ فَهَلْ تَجِدُ مَا تُطْعِمُ سِتِّينَ مِسْكِينًا قَالَ لَا قَالَ ثُمَّ جَلَسَ فَأُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَرَقٍ فِيهِ تَمْرٌ فَقَالَ تَصَدَّقْ بِهَذَا قَالَ أَفْقَرَ مِنَّا فَمَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا أَهْلُ بَيْتٍ أَحْوَجُ إِلَيْهِ مِنَّا فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ ثُمَّ قَالَ اذْهَبْ فَأَطْعِمْهُ أَهْلَكَ.

فما كان من النبي ﷺ إلا أن دله على العلاج والسبيل المخرج من هذه الفتنة.

وكم من إنسان يتوع في المنكر والفتن، فإذا ما سمع نصيحة من عالم أو داعي بصير إلا ويرعوي عن شره وينزجر، فقد أخرج الشيخان البخاري (٣٤٧١)، ومسلم (٢٧٦٦) واللفظ له من حديث أبي سعيد مرفوعًا، قال: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ لَا

فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ فَاعْبُدْ اللهَ مَعَهُمْ وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ. قَالَ قَتَادَةُ: فَقَالَ الْحَسَنُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَأَى بِصَدْرِهِ.

ولما كاد المسلمون أن يقعوا في الطاعون وجاء العلم رجع عمر رضي الله عنه وأصحابه كما في حديث عبد الله بن عباس : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشأم حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشأم . قال ابن عباس فقال عمر ادع لي المهاجرين الأولين فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشأم فاختلفوا فقال بعضهم قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه وقال بعضهم معك بقية الناس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء فقال ارتفعوا عني ثم قال ادع لي الأنصار فدعوتهم فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم فقال ارتفعوا عني ثم قال ادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان فقالوا نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء فنادى عمر في الناس إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه . قال أبو عبيدة بن الجراح أفرارا من قدر الله ؟

فقال عمر لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ؟ نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديا له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ قال فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبا في بعض حاجته فقال إن عندي في هذا علما سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول (إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه) . قال فحمد الله عمر ثم انصرف

متفق عليه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩).

وكم من الناس الذين عصموا من الفتن بسبب العودة إلى العلماء.

بينما الذين يتمردون على علمائهم ويركبون أهوائهم، فإن الخسران مسألهم والمخالفة سبيلهم والندامة عاقبتهم، وما حصل في الجزائر وسفك الآف الدماء إلا بسبب عدم العودة إلى العلماء وفتاويهم.

ومن حقهم أن ندعوا لهم ونذكرهم بالجميل، فإنهم قد بصرونا بسواء السبيل.

قال الشيخ العثيمين في شرح حديث الباب رقم (٤٤) من «رياض الصالحين»: وإذا كان الأنبياء لهم حق التبجيل والتعظيم والتكريم، فلمن ورثهم نصيب من ذلك أن يبجل ويعظم ويكرم .. وبتوقير العلماء توقر الشريعة؛ لأنهم حاملوها، وبإهانة العلماء تهان الشريعة؛ لأن العلماء إذا ذلوا وسقطوا أمام أعين الناس ذلت الشريعة التي يحملونها، ولم يبق لها قيمة عند الناس، وصار كل إنسان يحتقرهم ويزدريهم، فتطيح الشريعة.

وهنا فائدة في «السير» للإمام الذهبي (٧/ ١٥٢-١٥٣).

قال هشام الدستوائي: والله ما استطيع أن أقول إني ذهبت يومًا قط أطلب الحديث أريد به وجه الله عز وجل.

قال الذهبي في »السير« (٧/ ١٥٢-١٥٣): قلت: والله ولا أنا فقد كان السلف يطلبون العلم لله فنبلوا وصاروا أئمة يقتدى بهم وطلبه قوم منهم أولا لا لله وحصلوه، ثم استفاقوا وحاسبوا أنفسهم فجرهم العلم إلى الأخلاص في أثناء الطريق، كما قال مجاهد وغيره: طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبير نية، ثم رزق الله النية بعد.

وبعضهم يقول: طلبنا هذا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله، فهذا أيضًا حسن، ثم نشروه بنية صالحة وقوم طلبوه بنية فاسدة لأجل الدنيا وليثنى عليهم فلهم ما نووا قال عليه السلام: »من غزا ينوي عقالًا فله ما نوى«، وترى هذا الضرب لم يستضيؤوا بنور العلم ولا لهم وقع في النفوس ولا لعلمهم كبير نتيجة من العمل، وإنما العالم من يخشى الله تعالى وقوم نالوا العلم وولوا به المناصب فظلموا وتركوا التقيد بالعلم وركبوا الكبائر والفواحش، فتبا لهم فما هؤلاء بعلماء، وبعضهم لم يتق الله في علمه، بل ركب الحيل وأفتى بالرخص وروى الشاذ من الأخبار وبعضهم أجترأ على الله ووضع الأحاديث فهتكه الله وذهب علمه، وصار زاده إلى النار، وهؤلاء الأقسام كلهم رووا من العلم شيئًا كبيرًا وتضلعوا منه في الجملة فخلف من بعدهم خلف بأن نقصهم في العلم والعمل وتلاهم قوم انتموا إلى العلم في الظاهر ولم يتقنوا منه سوى نزر يسير أوهموا به أنهم علماء فضلاء، ولم يدر في أذهانهم قط أنهم يتقربون به إلى الله؛ لأنهم ما رأوا شيخًا يفتدى به في العلم فصاروا همجًا رعاعًا غاية المدرس منهم أن يحصل كتبا مثمنة يخزنها وينظر فيها يوما ما فيصحف ما يورده ولا يقرره، فنسأل الله النجاة والعفو كما قال بعضهم: ما أنا

عالم ولا رأيت عالمًا.

الثالثة والعشرون: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خيرًا لك من حمر النعم».

تقدم الكلام عن الدعوة وفضل الدعوة، لكن ما بقي هنا نريد ذكره هو الحرص على هداية الناس.

ومما يجعل الإنسان يحرص على الهداية أمور:

١- الداعي إلى الله من أحسن الناس مقالًا وفعالًا، وقد تقدم الدليل.

٢- دعاء النبي ﷺ لمبلغ كلامه وسنته، قال ﷺ: «نضر الله أمرء سمع مقالتي فبلغها كما سمعها، فرب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه».

٣- ثوابه لمن اهتدى على يديه، لحديث سهل عند البخاري (٤٢١٠): «فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خيرًا لك من حمر النعم».

٤- كونك أيها الداعي ستحصل من الأجور عل مثل أجور من استفاد من دعوتك لحديث أبي مسعود عند مسلم (١٨٩٣): «الدال على الخير له مثل أجر فاعله».

٥- كونك أيها الداعي تتحصل على رحمة الله عز وجل، ودعاء جميع الكائنات لك كما في الحديث: «إن الله وملائكته وأهل السموات وأهل الأرض يصلون على معلمي الناس الخير» أخرجه الترمذي (٢١٥٩) من حديث أبي أمامة وله شواهد يحسن بها.

٦- كونك أيها الداعي إلى الله تتحصل على طريق يستمر بها أجرك بعد موتك لحديث أبي هريرة عند مسلم (١٦٣١) قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان

انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

٧- كون هذا الطريق أيها الداعي هو طريق الذين اصطفاهم الله عز وجل من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

٨- وتحرص على هذا الطريق أيضًا كونه سببًا للرفعة الدنيوية والأخروية.

٩- وتحرص عليه كونه من السبل المؤدية إلى الجنة.

١٠- وتحرص عليه كونه من أسباب كل خير في الدنيا والأخرة، فكم من ضعيف تقوى به، وكم من فقير اغناه الله لما سلكه، وكم من ذليل أعزه الله بسببه، وكم من دني رفعه الله به إلى غير ذلك.

فالحرص على الشيء يجعل الإنسان يتفاني في سبيل هذا الأمر، ولذلك لو نظرنا في سير الأولين من أنبياء وغيرهم، في حرصهم على الدعوة حتى عند الاحتضار، وفي أشد المسالك، ففتح الله عليهم ومكنهم ونصرهم وأعلى شأنهم، ورفع مكانتهم، فكانوا كما قال الله: ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣] .

فهذا نبي الله نوح يقول الله عز وجل عنه واصفًا حرصه على دعوته قومه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً﴾[نوح: ٥-٦].

وعند موته يقول لولده كما في المسند: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ عَلَيْهِ جُبَّةٌ سِيجَانٍ مَزْرُورَةٌ بِالدِّيبَاجِ فَقَالَ أَلَا إِنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا قَدْ وَضَعَ كُلَّ فَارِسٍ ابْنِ فَارِسٍ قَالَ يُرِيدُ أَنْ يَضَعَ كُلَّ فَارِسٍ ابْنِ فَارِسٍ وَيَرْفَعَ كُلَّ رَاعٍ ابْنِ رَاعٍ قَالَ فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَجَامِعِ جُبَّتِهِ وَقَالَ أَلَا أَرَى عَلَيْكَ لِبَاسَ مَنْ لَا يَعْقِلُ ثُمَّ قَالَ إِنَّ نَبِيَّ اللهِ نُوحًا ﷺ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِابْنِهِ إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ

آمُرُكَ بِاثْنَتَيْنِ وَأَنْهَاكَ عَنْ اثْنَتَيْنِ آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً قَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فَإِنَّهَا صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ وَبِهَا يُرْزَقُ الْخَلْقُ وَأَنْهَاكَ عَنْ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ قَالَ قُلْتُ أَوْ قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا الشِّرْكُ قَدْ عَرَفْنَاهُ فَمَا الْكِبْرُ قَالَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا نَعْلَانِ حَسَنَتَانِ لَهُمَا شِرَاكَانِ حَسَنَانِ قَالَ لَا قَالَ هُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا حُلَّةٌ يَلْبَسُهَا قَالَ لَا قَالَ الْكِبْرُ هُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا دَابَّةٌ يَرْكَبُهَا قَالَ لَا قَالَ أَفَهُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا أَصْحَابٌ يَجْلِسُونَ إِلَيْهِ قَالَ لَا قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ فَمَا الْكِبْرُ قَالَ سَفَهُ الْحَقِّ وَغَمْصُ النَّاسِ.

وإبراهيم عليه السلام لحرصه على الدعوة مكنه الله عز وجل ونصره، وما زال يدعو حتى عند موته، **وقال تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾**[البقرة:١٣٢].

ولحرص يوسف على الدعوة يدعو حتى في السجن، قال تعالى ذاكرًا ذلك: **﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا**

﴿إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٣٦-٤٠].

وليس بخاف عنا دعوة الرجل الصالح وحرصه على هداية قومه حتى بعد موته، تمنى لو أن قومه يعلمون بما حصل عليه، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[يس: ٢٠-٢٧].

قال ابن كثير رحمه الله: ومراده أنهم لو اطلعوا على ما حصل لي من النعيم المقيم والثواب العظيم لقادهم ذلك إلى أتباع الرسل، فرحمه الله ورضي عنه، كم كان حريصًا على هداية قومه. أهـ

وأما نبينا ﷺ فله المثل الأعلى، واليد الطولى في هذا الباب، حتى قال الله في شأنه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[يوسف:١٠٣]، وقال عز وجل: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النحل:٣٧].

بل وصل به الحرص على هدايتهم حتى كاد أن يهلك نفسه فنهاه الله عن ذلك: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا﴾[الحجر:٣].

وقال تعالى: ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[فاطر:٨].

ويظهر مدى حرصه على هدايتهم أنه في أشد المواقف والإيذاء منهم وهو يقول:

«اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وحين يأتيه ملك الجبال يقول: «لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا».

وسيره في الأسواق وهو يرجم بالحجارة ويُكذب، ومع ذلك لا يكل ولا يمل في دعوتهم وتحذيرهم من الشر حرصًا منه على هدايتهم.

ناصحًا في طريقه في ليله في نهاره، في سره في جهاره، حتى قال عن نفسه وغيره من الأنبياء كما في حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم.):

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ رَبِّ الْكَعْبَةِ قَالَ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ فَأَتَيْتُهُمْ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِبَاءَهُ وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللهِ ﷺ الصَّلَاةَ جَامِعَةً فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ مُهْلِكَتِي ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ هَذِهِ فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنْ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَلْيُطِعْهُ إِنْ اسْتَطَاعَ فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخَرِ فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَقُلْتُ لَهُ أَنْشُدُكَ اللهَ آنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَهْوَى إِلَى أُذُنَيْهِ وَقَلْبِهِ بِيَدَيْهِ وَقَالَ سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي فَقُلْتُ لَهُ هَذَا ابْنُ عَمِّكَ مُعَاوِيَةُ يَأْمُرُنَا

أَنْ نَأْكُلَ أَمْوَالَنَا بَيْنَنَا بِالْبَاطِلِ وَنَقْتُلَ أَنْفُسَنَا وَاللهُ يَقُولُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا قَالَ فَسَكَتَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ أَطِعْهُ فِي طَاعَةِ اللهِ وَاعْصِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ .

الحديث عند موته يكشف الستر ويقول: لم يبق من النبوة إلا المبشرات. كما صح عن ابن عباس وغيره.

وقبلُ موته بخمسة أيام كما في حديث جندب عند مسلم يصعد على المنبر ويقول: إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ.

ويصل والرجل في سياقه الموت فيدعوه حرصًا منه على خلاصه من النار كما في حديث أنس عند البخاري (٦٩٤٤): كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ أَسْلِمْ فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ فَأَسْلَمَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنْ النَّارِ.

وما إرسال الرسل إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام إلا من هذا الشأن، فقد أرسل هرقل كما في «الصحيحين» من حديث أبي سفيان البخاري (٧)، ومسلم، وفيه: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ وَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ وَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ ارْتَفَعَتْ الْأَصْوَاتُ عِنْدَهُ وَكَثُرَ اللَّغْطُ وَأَمَرَ بِنَا فَأُخْرِجْنَا قَالَ فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي حِينَ خَرَجْنَا لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ إِنَّهُ لَيَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ قَالَ فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا بِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ.

راسل كسرى كما في حديث ابن عباس عند البخاري (٤٤٢٤): عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ: أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ بِكِتَابِهِ إِلَى كِسْرَى مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ فَأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ الْبَحْرَيْنِ فَدَفَعَهُ عَظِيمُ الْبَحْرَيْنِ إِلَى كِسْرَى فَلَمَّا قَرَأَهُ مَزَّقَهُ فَحَسِبْتُ أَنَّ ابْنَ الْمُسَيَّبِ قَالَ فَدَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ.

ومن أراد التوسع فليراجع سيرة النبي ﷺ في دعوته للناس وحرصه على ذلك، حتى قال الله في صفاته: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾[التوبة:١٢٨].

وعلى هذا السير سار خلفاؤه واتباعه حيث كانوا حريصين كل الحرص على هداية الناس إلى الإسلام، فقبل المعارك يدعونهم إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب، وحجتهم في ذلك حديث بريدة عند مسلم (١٧١١): عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَمْثُلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ

خِصَالٍ أَوْ خِلَالٍ فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمْ الْجِزْيَةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ هَذَا أَوْ نَحْوَهُ.

بل يكون فرحهم عندما يدخلون البلاد بإسلام أهلها أعظم مما يتحصلون عليه من المغانم.

وما أنتشر الإسلام هذا الانتشار إلا بجهود رجاله ونسائه، وحرصهم على نشر الخير ودعوة الناس إليه في كل عصر وحين.

وكم كنا نسمع من أمامنا الوادعي رحمه الله وهو يقول: والله لو استطيع أن أعطيكم العلم بالزنبيل لأعطيتكموه، حرصًا منه على استفادة طلابه وهذا غيض من فيض وقليل من كثير، وعبارة يراد بها الاشاره.

الرابعة والعشرون

الوقت أنفس ما عنيت بحفظه**وأراه أسهل ما عليك يضيع

وقد جاء في حديث ابن عباس عند البخاري (٦٤١٢) قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ».

قال الحافظ في شرح الحديث: يقول ابن بطال: كثير من الناس، أي أن الذين يوفقون لذلك لقليل.

وقال: من استعمل فراغه وصحته في طاعة الله عز وجل فهو المغبوط.

ومن استعملها في معصية الله فهو المغبون.

لأن الفراغ يعقبه الشغل والصحة يعقبها السقم. أهـ

ورحم الله الشافعي إذ يقول: انتفعت من الصوفية بكلمتين: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، وإن لم تشغل نفسك بالحق شغلتك بالباطل. أهـ من «المدارج» (٣/ ١٢٩٩).

قال الغزالي في «الإحياء» (١/ ٣٩١): إن الناس في هذا العالم سُفُر وأول منازلهم المهد وآخرها اللحد والوطن هو الجنة أو النار والعمر مسافة السفر فسنوه مراحله وشهوره فراسخه وأيامه أمياله وأنفاسه خطواته وطاعته بضاعته وأوقاته رءوس أمواله وشهواته وأغراضه قطاع طريقه وربحه الفوز بلقاء الله تعالى في دار السلام مع الملك الكبير والنعيم المقيم وخسرانه البعد من الله تعالى مع الأنكال والأغلال والعذاب الأليم في دركات الجحيم فالغافل في نفس من أنفاسه حتى ينقضي في غير طاعة تقربه إلى الله زلفى

متعرض في يوم التغابن لغبينة وحسرة ما لها منتهى ولهذا الخطر العظيم والخطب الهائل شمر الموفقون عن ساق الجد وودعوا بالكلية ملاذ النفس واغتنموا بقايا العمر.أهـ

فعلى طالب العلم الداعي إلى الله عز وجل أن يحافظ على الوقت في ليله ونهاره، وسره وجهاره، فإن الإيام تسير سريعًا، ومن حرص على وقته حرص على خير وبلغ المنى، ومن فرط فإنما هي الحسرة والندم.

اليـــــوم شيء وغـــــدًا مثلـــــه		مـــن نخـــب العلـــم التـــي تلـــتقط
يحصـــــل المـــــرء بهـــــا حكمـــــة		وإنـــــما الســـــيل أجـــــتماع الـــــنقط

فعلى الداعي أن يحافظ على وقته في الطلب وفي التبليغ، وفي جميع الأوقات إن أراد الاستمرارية والوصول، وإلا فكما قال أحمد بن فارس:

إذا كـــان يـــؤذك حـــر المصـــيف	وبـــرد الشـــتاء وكـــرب الخريـــف
ويلهيـــك حســـن جمـــال الربيـــع	فأخـــذك للعلـــم قـــلي متـــى

ورحم الله ابن كثير إذ يصف مرور هذه الأيام وصفًا دقيقًا، فيقول:

تمـــر بنـــا الأيـــام تـــترى، وإنـــما	نســـاق إلى الأجـــال والعـــين تنظـــر
فـلا عائـد هـذا الشـباب الـذي مضى-	ولا زئـــل هـــذا المشـــيب المكـــدر

والمتأمل يجد أن من عرف قيمة الوقت مع إلتزامه بالكتاب والسنة على فهم السلف رضوان الله عليهم أنه لا بد واصل إلى مطلوبه ومرغوبه.

وعلى الطالب النجيب أن يختار الأوقات المناسبة للدعوة والأوقات المناسبة للعبادة، والأوقات المناسبة للحفظ والمطالعة والتزود من العلم، حتى قال بعضهم كما في «تذكرة السامع» (٧٢).

أجود الأوقات للحفظ الأسحار، وللبحث الأبكار، وللكتابة وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل. أهـ

وعلى الطالب والداعي أن لا يلزم نفسه إلا بما تميل إليه، فإن الإلزام شاق وقد لا تحصل على مطلوبك، وأذكر مرة من المرات أن كنت في صنعاء في أيام حرب الخليج الثالثة والناس في انهزاميه شديدة وخوف مريب من المستقبل القريب، فأحببت أن اتكلم في أسباب النصر والتمكين، فلما قمت واستأذنت من الشيخ الجليل محمد الصوملي حفظه الله وسدده، كأنه خشى أن أتكلم بما لا ينبغي، فما كان منه إلا أن قال: تكلم في الصبر، فتكلمت حول الصبر ولكني لم أحسن المقال مع حفظ والحمد لله للادلة والأقوال.

وعلى الطالب النجيب والداعي الحبيب أن يحرص على ما ينفعه لا يقضي الإيام فيما لا ينفع ويتزود مما يحتاج إليه في الدعوة، في التأليف، في الخطابة، وقد جاء في أدب الدنيا والدين للماوردي (٤٧).

عليك بكل نوع من العلم، فإن المرء عدو ما جهل، وأنا أكره أن تكون عدو شيء من العلم.

تفنن وخذ من كل علم فإنما	يفوق امرؤ في كل فن له علم
فأنت عدو للذي أنت جاهل	به ولعلم أنت تتقنه سلم

والعلم واسع فاحرص على الأحسن منه، قال بعضهم:

ما حوى العلم جميعًا أحد	لا ولو مارسه ألف سنة
إنما العلم كبحر زاخر	فاتخذ من كل شيءٍ أحسنه

والمحافظة على الوقت كما تقدم من النعم، بل من أجلها.

قال ابن القيم في «المدراج» (٣/ ١٢٩-١٣٠):

إذا أراد الله بالعبد خيرًا أعانه بالوقت وجعل وقته مساعدًا له، وإذا أراد به شرًا جعل وقته عليه، وناكده وقته، فكلما أراد التأهب للمسير لم يساعده الوقت، والأول كلما همت نفسه بالقعود أقامه الوقت وساعده.

ومع هذا أخي الداعي لا تبكي على ما فات، قال ابن القيم في «المدارج» (٣/ ١٢٨-١٢٩): فهو مطالب بما هو قائم به في الحين والساعة الراهنة، فهو لا يهتم بما حضي وقته، وآتيه بل يهتم بوقته الذي هو فيه، فإن الاشتغال بالوقت الماضي والمستقبل يضيع الحاضر، وكلما حضروقت اشتغل عنه بالطرفين فتصير أوقاته كلها فواتًا. أهـ

وكم من انسان فرط في أوقاته، فعض أصابع الندم ولات ساعة مندم.

فكم من أناس ضيعوا العلوم وأهملوها والطاعات وفرطوا فيها، فكان عاقبة أمرهم خسرًا وحاضره قهرًا.

وقال ابن القيم في «المدارج» (٣/ ٥٠): والمقصود أن الواردات سريعة الزوال، تمر أسرع من السحاب، وينقضي الوقت بما فيه، فلا يعود عليك منه إلا أثره وحكمه، فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقتك، فإنه عائد لا محالة، ولذلك يقال للسعداء: ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ**﴾ [الحاقة:٢٤]، ويقال للأشقياء: ﴿**ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ**﴾ [غافر:٧٥]. أهـ

وأنت أيها السلفي في سباق مع قطاع طريق الجنة، من صوفية قبورية، وأخوانية وسرورية، ومن كل مبطل ضليل وبدعي دخيل، فإن لم تسبقهم إلى المجتمع سبقوك، وإن

لم تشمر في الدعوة ركضوك، فاحذر على نفسك، والناظر في تراجم أئمة الدين وعلماء المسلمين يرى الحرص على الوقت جليًا في حياتهم، فنفعه الله عز وجل بهم، فهذا حماد بن سلمة يقول عنه ابن مهدي كما في «السير» (٧/ ٤٤٧): لو قيل لحماد بن سلمة إنك تموت غدًا ما قدر أن يزيد في العمل شيئًا، وقال موسى بن إسماعيل التبوذكي: لو قلت لكم إني ما رأيت مثل حماد بن سلمة ضاحكًا لصدقت، كان مشغولًا، إما أن يحدث أو يقرا أو يصبح أو يصلي، وقد قسم النهار على ذلك، قال يونس المؤدب: مات حماد بن سلمة وهو في الصلاة رحمه الله.

وقال الضياء المقدسي في «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٥)، كان أي عبد الغني المقدسي لا يضيع شيئًا من زمانه، كان يصلي الفجر ويلقن القرآن، وربما لقن الحديث، ثم يقوم فيتوضأ ويصلي ثلاثمائة ركعة بالفاتحة والمعوذتين إلى قبيل الظهر فينام نومه، فيصلي الظهر ويشتغل بالتسميع والنسخ إلى المغرب، فيفطر إن كان صائمًا ويصلي العشاء، ثم ينام إلى نصف الليل أو بعده، ثم يتوضأ ويصلي إلى قريب الفجر، ثم ينام نومه يسيره قبل الفجر، وهذا دئبه. أهـ

وهذا يحيى بن شرف الدين النووي أبو زكريا قال ابن العطار: ذكر لي شيخنا رحمه الله تعالى أنه كان لا يضيع له وقتًا لا في ليل ولا في نهار، إلا في الاشتغال بالعلم، حتى في الطريق يكرر ويطالع، وأنه دام على ذلك ست سنين، ثم آخذ في التصنيف والإفادة والنصيحة وقول الحق إلى آخر ما قال.

وشاهدنا أن الله عز وجل نفع بهؤلاء القوم ورفع ذكرهم، واستمرت دعوتهم وانتصرت بسبب حرصهم على أوقاتهم وبذلها في الطاعة والدعوة.

وللمزيد من ذلك يراجع «علو الهمة للعفاني» (٤/ ١٥١-١٨٦) مع الحذر من ثناءه على بعض المبتدعة مثل سيد قطب وحسن البناء وغيرهم، فالرجل ما عنده تمييز ولا بصيرة بالحزبيين إن لم يكن منهم.

ومن الأمثلة على حرص العلماء على أوقاتهم شيخنا وعالمنا أبو عبد الرحمن يحيى بن علي بن أحمد بن يعقوب الحجوري حفظه الله ورعاه، وسدد على الخير خطاه.

فقد دخل دماج ملتمسًا للعلم النافع متتلمذًا على يد الإمام أبي عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله، ورفع درجته في المهديين في حوالي سنة ١٤٠٦هـ

فتتلمذ وتفقه وكان حريصًا على الوقت غاية الحرص، حتى أنه ربما كان لا ينام من الليل إلا قليلًا، ربما وهو جالس وأخرى وهو متكئ، ففي حدود عشر من السنين، إلا وهو نائبًا لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله على كرسيه، يدرس ويفيد ويفتي ويصنف، حتى أننا لازمناه في المكتبة أيامًا قبل أن تكون له مكتبة خاصة به، وكان يدخلها من الصباح إلى الظهر، ومن بعد درس الظهر إلى العصر، يؤذن علينا المؤذن ونحن في الطريق إلى بيته في المزرعة لتناول طعام الغداء، ثم بعد ذلك يرجع إلى المسجد للصلاة، وبعد الصلاة الدرس حيث كان يُدَّرس في غياب الشيخ جميع الدروس العامة، ثم يرجع إلى المكتبة إلى صلاة المغرب، ثم درس ما بين العشائين، ثم بعد ذلك يرجع المكتبة إلى بعد منتصف الليل، ونادرًا ما كنا نرجع البيت قبل منتصف الليل، ثم مع ذلك قسطه من قيام الليل، ويصلي بنا الفجر في المزرعة، ثم يقرأ ورده من القرآن إلى طلوع الشمس، ثم درس الطحاوية، وهكذا كانت أيامه وما زالت حتى بعد وفات شيخنا مقبل رحمه الله، ووصيته له بإلا يُنزل من على الكرسي، وأن لا يرضى له ببديل وسماه الناصح الأمين.

ففي كتابتي لهذه اللمحة عن حياته حفظه الله، وهو ما زال على ذلك علمًا وتعليمًا ودعوة حتى في جلوسه مع الضيوف حفظه الله، يحرص كل الحرص أن يقضي الوقت في الدعوة إلى الله عز وجل، أو أجوبة للأسئلة وغير ذلك، فنفع الله وسدده وأيده فله الحمد والمنة.

ومما يدل على حرصه على الوقت حفظه الله عز وجل أنه جاءه رد من أحمد بن نصر الله على كتاب شيخنا الجليل أبي عبد الرحمن الوادعي «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين»، وفي الكتاب جهل وجور وطعن وغرور، فما كان منه إلا أن بدأ في الرد عليه من أول يوم وصل يده وكان قبل صلاة الجمعة في الخامس عشر من ذي الحجة، فانتهى من الرد حفظه الله في غضون شهر، وكان يسمر مع الكتاب إلى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، ثم بعد صلاة الفجر مراجعة للقرآن، ثم درس الزاد بعد الشروق، فنسأل الله السداد والتوفيق والرشاد لنا وله.

وهذا العالم النبيل رفع الله قدره بسبب حرصه على الخير والسنة، فهو ناصح للحاكم والمحكوم، وللطالب والعامي، ومع كثرة مبغضيه من المبطلين وأفراخهم، وكثر خاذليه من حاسدين واضرابهم، فإن الله مسدده وناصره، فله الحمد والمنة على كل حال، فكم من محدثات دحرها حفظه الله، منها فتنة أبي الحسن مصطفى بن إسماعيل الماربي المصري، فقد بين عوارها وأوضح شناها وأطفأ نارها من أول مهدها حين أخرج هذا بيان للناس، ومن قبله قيامه بالرد على كلمة أبي الحسن في دار الحديث بدماج، حين جاء معزيًا يدعي أنه آخذ بزمام الدعوة ومنافح عنها، فقام الشيخ وألقى كلمات على مسامح الحاضرين كانت كالدامغه على ذلك الضليل أعني أبا الحسن.

وتصدى لفتنة الغلاة مثل فتنة صالح البكري، وأحمد الشيباني، وفالح الحربي، فاركسهم الله عز وجل على يديه، وأهانهم وبين ضلالهم وعوارهم.

وكذلك كم تصدى للمميعين للدعوة المتقاربين مع أهل الباطل مع ما له حفظه الله من النصح والتوجيه والتواليف النافعة منها «أحكام الجمعة»، و«أحكام المسافرين»، و«أحكام التيمم»، و«فتح الوهاب في حكم البصاق»، و«المحراب»، و«الرياض المستطابة في معرفة مفاريد الصحابة»، وكذلك «إتحاف الكرام بأحكام الزكاة والحج والصيام» وغيرها، ومن الردود «الصبح الشارق لبيان ضلالات عبد المجيد الزنداني في توحيد الخالق»، «رد على عمرو خالد»، «رد على بن حفيظ»، «رد على الجفري»، و«أضرار الحزبية»، وغيرها كثير ومن التحقيقات: تحقيق «السنن الصغرى والكبرى» للبيهقي، تحقيق «إصلاح المجتمع»، تحقيق مقدمة والجزاء الثاني من «فتح الباري»، تحقيق «أخلاق العلماء» للآجري، تحقيق «مقدمة سنن الدارمي»، تحقيق وشرح «المنتقى» لابن الجارود وغيرها حتى أنها في هذه الأيام تقارب ثمانين مؤلفًا.

ويا لله العجب حين تحضر دروس هذا العالم الجليل وخطبه، وتجد قوة الاستدلال والاستنباط تعرف قوة هذا الرجل وطول باعه في العلم ونشر الخير، وإن مما ساعده على نشر هذه الدعوة والخير هو غيرته وشجاعته، فالغيرة مع الشجاعة من الأسباب العظيمة لنصر الدعوات كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

الخامسة والعشرين: «وشاورهم في الأمر».

هذه الوسيلة مهمة جدًا لنصر الخير وخذلان الشر، فبالمشاورة تجتمع االآراء ويأخذ

بالأصلح، ولذلك أمر الله بها نبيه بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾[آل عمران:١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[الشورى:٣٨].

ولما في المشورة من الخير العظيم كان رسول الله ﷺ ملازمًا لها، حتى في الأمور اليسيرة، فقد أخرج البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (١٤٧٨): عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَوَجَدَ النَّاسَ جُلُوسًا بِبَابِهِ لَمْ يُؤْذَنْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ قَالَ فَأُذِنَ لِأَبِي بَكْرٍ فَدَخَلَ ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ فَوَجَدَ النَّبِيَّ ﷺ جَالِسًا حَوْلَهُ نِسَاؤُهُ وَاجِمًا سَاكِتًا قَالَ فَقَالَ لَأَقُولَنَّ شَيْئًا أُضْحِكُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ رَأَيْتَ بِنْتَ خَارِجَةَ سَأَلَتْنِي النَّفَقَةَ فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَوَجَأْتُ عُنُقَهَا فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ هُنَّ حَوْلِي كَمَا تَرَى يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى عَائِشَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا فَقَامَ عُمَرُ إِلَى حَفْصَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا كِلَاهُمَا يَقُولُ تَسْأَلْنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ فَقُلْنَ وَاللهِ لَا نَسْأَلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ شَيْئًا أَبَدًا لَيْسَ عِنْدَهُ ثُمَّ اعْتَزَلَهُنَّ شَهْرًا أَوْ تِسْعًا وَعِشْرِينَ ثُمَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ حَتَّى بَلَغَ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا قَالَ فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ فَقَالَ يَا عَائِشَةُ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكِ أَمْرًا أُحِبُّ أَنْ لَا تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكِ قَالَتْ وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ فَتَلَا عَلَيْهَا الْآيَةَ قَالَتْ أَفِيكَ يَا رَسُولَ اللهِ أَسْتَشِيرُ أَبَوَيَّ بَلْ أَخْتَارُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ وَأَسْأَلُكَ أَنْ لَا تُخْبِرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِكَ بِالَّذِي قُلْتُ قَالَ لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلَا مُتَعَنِّتًا وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا سأعرض عليك أمرًا فلا تعجلي حتى تشاوري أبويك، فتلا عليها: ﴿قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾[الأحزاب:٢٨].

وكذلك لما أراد النبي ﷺ أن يخرج إلى غزوة بدر جعل يشاورهم كما في حديث أنس عند مسلم (١٧٧٩): أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ شَاوَرَ حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ قَالَ فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُ ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ إِيَّانَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللهِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لَأَخَضْنَاهَا وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا قَالَ فَنَدَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ فَانْطَلَقُوا حَتَّى نَزَلُوا بَدْرًا وَوَرَدَتْ عَلَيْهِمْ رَوَايَا قُرَيْشٍ وَفِيهِمْ غُلَامٌ أَسْوَدُ لِبَنِي الْحَجَّاجِ فَأَخَذُوهُ فَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ فَيَقُولُ مَا لِي عِلْمٌ بِأَبِي سُفْيَانَ وَلَكِنْ هَذَا أَبُو جَهْلٍ وَعُتْبَةُ وَشَيْبَةُ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ ضَرَبُوهُ فَقَالَ نَعَمْ أَنَا أُخْبِرُكُمْ هَذَا أَبُو سُفْيَانَ فَإِذَا تَرَكُوهُ فَسَأَلُوهُ فَقَالَ مَا لِي بِأَبِي سُفْيَانَ عِلْمٌ وَلَكِنْ هَذَا أَبُو جَهْلٍ وَعُتْبَةُ وَشَيْبَةُ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ فِي النَّاسِ فَإِذَا قَالَ هَذَا أَيْضًا ضَرَبُوهُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ انْصَرَفَ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَضْرِبُوهُ إِذَا صَدَقَكُمْ وَتَتْرُكُوهُ إِذَا كَذَبَكُمْ قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ قَالَ وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى الْأَرْضِ هَاهُنَا هَاهُنَا قَالَ فَمَا مَاطَ أَحَدُهُمْ عَنْ مَوْضِعِ يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وعمر حين مات رضي الله عنه جعل الأمر في الستة الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، كما في حديث المسور عند البخاري (٧٢٠٧): عَنِ الْمِسْوَرِ بْنَ مَخْرَمَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ الرَّهْطَ الَّذِينَ وَلَّاهُمْ عُمَرُ اجْتَمَعُوا فَتَشَاوَرُوا فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ لَسْتُ بِالَّذِي أُنَافِسُكُمْ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ وَلَكِنَّكُمْ إِنْ شِئْتُمْ اخْتَرْتُ لَكُمْ مِنْكُمْ فَجَعَلُوا ذَلِكَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَلَمَّا وَلَّوْا عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَمْرَهُمْ فَمَالَ النَّاسُ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَتَّى مَا أَرَى أَحَدًا مِنَ النَّاسِ يَتْبَعُ أُولَئِكَ الرَّهْطَ وَلَا يَطَأُ عَقِبَهُ وَمَالَ النَّاسُ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ يُشَاوِرُونَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي حَتَّى إِذَا

كَانَتْ اللَّيْلَةُ الَّتِي أَصْبَحْنَا مِنْهَا فَبَايَعْنَا عُثْمَانَ قَالَ الْمِسْوَرُ طَرَقَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَعْدَ هَجْعٍ مِنْ اللَّيْلِ فَضَرَبَ الْبَابَ حَتَّى اسْتَيْقَظْتُ فَقَالَ أَرَاكَ نَائِمًا فَوَاللهِ مَا اكْتَحَلْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِكَبِيرِ نَوْمٍ انْطَلِقْ فَادْعُ الزُّبَيْرَ وَسَعْدًا فَدَعَوْتُهُمَا لَهُ فَشَاوَرَهُمَا ثُمَّ دَعَانِي فَقَالَ ادْعُ لِي عَلِيًّا فَدَعَوْتُهُ فَنَاجَاهُ حَتَّى ابْهَارَّ اللَّيْلُ ثُمَّ قَامَ عَلِيٌّ مِنْ عِنْدِهِ وَهُوَ عَلَى طَمَعٍ وَقَدْ كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَخْشَى مِنْ عَلِيٍّ شَيْئًا ثُمَّ قَالَ ادْعُ لِي عُثْمَانَ فَدَعَوْتُهُ فَنَاجَاهُ حَتَّى فَرَّقَ بَيْنَهُمَا الْمُؤَذِّنُ بِالصُّبْحِ فَلَمَّا صَلَّى لِلنَّاسِ الصُّبْحَ وَاجْتَمَعَ أُولَئِكَ الرَّهْطُ عِنْدَ الْمِنْبَرِ فَأَرْسَلَ إِلَى مَنْ كَانَ حَاضِرًا مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَرْسَلَ إِلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ وَكَانُوا وَافَوْا تِلْكَ الْحَجَّةَ مَعَ عُمَرَ فَلَمَّا اجْتَمَعُوا تَشَهَّدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ يَا عَلِيُّ إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي أَمْرِ النَّاسِ فَلَمْ أَرَهُمْ يَعْدِلُونَ بِعُثْمَانَ فَلَا تَجْعَلَنَّ عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلًا فَقَالَ أُبَايِعُكَ عَلَى سُنَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالْخَلِيفَتَيْنِ مِنْ بَعْدِهِ فَبَايَعَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَبَايَعَهُ النَّاسُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ وَأُمَرَاءُ الْأَجْنَادِ وَالْمُسْلِمُونَ.

وكم حفظ الله عز وجل من الدعاة إلى الله وعلماء الصحابة بسبب المشاورة، كما في البخاري (٢٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩) واللفظ للبخاري: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَرَجَ إِلَى الشَّامِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْغَ لَقِيَهُ أَهْلُ الْأَجْنَادِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ عُمَرُ ادْعُ لِي الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ فَدَعَوْتُهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ فَاخْتَلَفُوا فَقَالَ بَعْضُهُمْ قَدْ خَرَجْتَ لِأَمْرٍ وَلَا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ وَقَالَ بَعْضُهُمْ مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَا نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ فَقَالَ ارْتَفِعُوا عَنِّي ثُمَّ قَالَ ادْعُ لِي الْأَنْصَارَ فَدَعَوْتُهُمْ لَهُ فَاسْتَشَارَهُمْ فَسَلَكُوا سَبِيلَ الْمُهَاجِرِينَ وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلَافِهِمْ فَقَالَ

ارْتَفِعُوا عَنِّي ثُمَّ قَالَ ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَاهُنَا مِنْ مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الْفَتْحِ فَدَعَوْتُهُمْ فَلَمْ يَخْتَلِفْ عَلَيْهِ رَجُلَانِ فَقَالُوا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ وَلَا تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ فَنَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ إِنِّي مُصْبِحٌ عَلَى ظَهْرٍ فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللهِ فَقَالَ عُمَرُ لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ وَكَانَ عُمَرُ يَكْرَهُ خِلَافَهُ نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَتْ لَكَ إِبِلٌ فَهَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ إِحْدَاهُمَا خَصْبَةٌ وَالْأُخْرَى جَدْبَةٌ أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ قَالَ فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ فَقَالَ إِنَّ عِنْدِي مِنْ هَذَا عِلْمًا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ قَالَ فَحَمِدَ اللهَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ثُمَّ انْصَرَفَ و حَدَّثَنَا إِسْحَقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ قَالَ ابْنُ رَافِعٍ حَدَّثَنَا و قَالَ الْآخَرَانِ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ بِهَذَا الْإِسْنَادِ نَحْوَ حَدِيثِ مَالِكٍ وَزَادَ فِي حَدِيثِ مَعْمَرٍ قَالَ وَقَالَ لَهُ أَيْضًا أَرَأَيْتَ أَنَّهُ لَوْ رَعَى الْجَدْبَةَ وَتَرَكَ الْخَصْبَةَ أَكُنْتَ مُعَجِّزَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَسِرْ إِذًا قَالَ فَسَارَ حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ فَقَالَ هَذَا الْمَحِلُّ أَوْ قَالَ هَذَا الْمَنْزِلُ إِنْ شَاءَ اللهُ.

والمشورة غالبًا يصدر أصحابها بما فيه السداد، قال الحسن: والله ما استشار قوم قط إلا هدوا لأفضل ما بحضرتهم، ثم تلا: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾[الشورى:٣٨].

وقال الشافعي كما في «الفتح» (١٣/ ٣٥٤): إنما يؤمر الحاكم بالمشورة لكون المشير ينبه على ما يغفل عنه، ويدله على ما لا يستحضره من الدليل، لا يقلد المشير فيما يقوله، فإن الله لم يجعل هذا لأحد بعد رسول الله ﷺ.

وقال الماوردي في «أدب الدنيا والدين» (٢٦٠): أعلم أن من الحزم لكل ذي لب ألا

يبرم أمرًا ولا يمضي عزمًا إلا بمشورة الرأي الناصح ومطالعة ذي العقل الراجح.

وقال (٢٦١): قال بعض الأدباء: ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار.

وإن بـــاب أمـــر عليـــك ألتـــوى		فشـــــاور لبيبًـــــا ولا تعصـــــه

والداعي إلى الله عز وجل بحاجة ماسة إلى مشورة أهل العلم والدين ليسير بدعوته إلى بر الأمان، فكم يواجهها من عواصف وفتن يخرج المسلم منها بتظافر الجهود ومبادلة الأراء حتى يخرجوا بالحزم.

قال ابن العربي: والشورى ألفة للجماعة ومسبار للعقول، وسبب للصواب، وما تشاور قوم إلا هدوا.

قال القرطبي في «تفسيره» (٤/ ٢٤٩-٢٥٣) في تفسير قول الله تعالى: ﴿**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾[آل عمران:١٥٩] فيه ثمان مسائل الأولى قال العلماء أمر الله تعالى نبيه ﷺ بهذه الأوامر التي هي بتدريج بليغ وذلك أنه أمره بأن يعفو عنهم ما له في خاصته عليهم من تبعة فلما صاروا في هذه الدرجة أمره أن يستغفر فيما لله عليهم من تبعة أيضا فإذا صاروا في هذه الدرجة صاروا أهلا للأستشارة في الأمور قال أهل اللغة الاستشارة مأخوذة من قول العرب شرت الدابة وشورتها إذا علمت خبرها بجري أو غيره ويقال للموضع الذي تركض فيه مشوار وقد يكون من قولهم شرت العسل واشترته فهو مشور ومشتار إذا أخذته من موضعه قال عدي بن زيد في سماع يأذن الشيخ له وحديث مثل ماذى مشار الثانية قال بن عطية والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب هذا ما لا خلاف فيه وقد مدح الله المؤمنين بقوله وأمرهم شورى بينهم الشورى قال أعرابي ما غبنت قط حتى يغبن

قومي قيل وكيف ذلك قال لا أفعل شيئا حتى أشاورهم وقال بن خويز منداد واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون وفيما أشكل عليهم من أمور الدين ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح ووجوه الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها وكان يقال ما ندم من استشار وكان يقال من أعجب برأيه ضل الثالثة قوله تعالى: ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾ يدل على جواز الأجتهاد في الأمور والأخذ بالظنون مع إمكان الوحي فإن الله أذن لرسوله ﷺ في ذلك واختلف أهل التأويل في المعنى الذي أمر الله نبيه عليه السلام أن يشاور فيه أصحابه فقالت طائفة ذلك في مكائد الحروب وعند لقاء العدو وتطييبا لنفوسهم ورفعا لأقدارهم وتألفا على دينهم وإن كان الله تعالى قد أغناه عن رأيهم بوحيه روى هذا عن قتادة والربيع وبن إسحاق والشافعي قال الشافعي هو كقوله والبكر تستأمر تطيبا لقلبها لا أنه واجب وقال مقاتل وقتادة والربيع كانت سادات العرب إذا لم يشاوروا في الأمر شق عليهم فأمر الله تعالى نبيه عليه السلام أن يشاورهم في الأمر فإن ذلك أعطف لهم عليه وأذهب لأضغانهم وأطيب لنفوسهم فإذا شاورهم عرفوا إكرامه لهم وقال آخرون ذلك فيما لم يأته فيه وحي روي ذلك عن الحسن البصري والضحاك قالا ما أمر الله تعالى نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم وإنما أراد أن يعلمهم ما في المشاورة من الفضل ولتقتدي به أمته من بعده وفي قراءة بن عباس وشاورهم في بعض الأمر ولقد أحسن القائل شاور صديقك في الخفي المشكل واقبل نصيحة ناصح متفضل فالله قد أوصى بذاك نبيه في قوله: ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ**﴾ و توكل الرابعة جاء في مصنف أبي داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: »المستشار مؤتمن«، قال العلماء وصفة المستشار إن كان في الأحكام أن

يكون عالما دينا وقلما يكون ذلك إلا في عاقل قال الحسن ما كمل دين امرئ ما لم يكمل عقله فاذا استشير من هذه صفته واجتهد في الصلاح وبذل جهده فوقعت الإشارة خطأ فلا غرامة عليه قاله الخطابي وغيره الخامسة وصفة المستشار في أمور الدنيا أن يكون عاقلا مجربا وادا في المستشير قال شاور صديقك في الخفي المشكل وقد تقدم وقال آخر وإن باب أمر عليك التوى فشاور لبيبا ولا تعصه في أبيات والشورى بركة وقال عليه السلام: »ما ندم من استشار ولا خاب من استخار«، وروى سهل بن سعد الساعدي عن رسول الله ﷺ: »ما شقى قط عبد بمشورة وما سعد باستغناء رأي«، وقال بعضهم شاور من جرب الأمور فإنه يعطيك من رأيه ما وقع عليه غاليا وأنت تأخذه مجانا وقد جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة وهي أعظم النوازل شورى قال البخاري وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها وقال سفيان الثوري ليكن أهل مشورتك أهل التقوى والأمانة ومن يخشى الله تعالى وقال الحسن والله ما تشاور قوم بينهم إلا هداهم لأفضل ما يحضر بهم وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: »ما من قوم كانت لهم مشورة فحضر معهم من اسمه أحمد أو محمد فأدخلوه في مشورتهم إلا خير لهم«.

السادسة: والشورى مبنية على اختلاف الآراء والمستشير ينظر في ذلك الخلاف وينظر أقربها قولا إلى الكتاب والسنة إن أمكنه، فإذا أرشده الله تعالى إلى ما شاء منه عزم عليه وأنفذه متوكلا عليه إذ هذه غاية الاجتهاد المطلوب وبهذا أمر الله تعالى نبيه في هذه الآية السابعة قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ قال قتادة: أمر الله تعالى نبيه عليه السلام إذا عزم على أمر أن يمضي فيه ويتوكل على الله لا على مشاورتهم والعزم هو

الأمر المروي المنقح وليس ركوب الرأي دون روية عزما إلا على مقطع المشيحين من فتاك العرب كما قال إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا ولم يستشر في رأيه غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا وقال النقاش العزم والحزم واحد والحاء مبدلة من العين قال بن عطية وهذا خطأ فالحزم جودة النظر في الأمر وتنقيحه والحذر من الخطأ فيه والعزم قصد الإمضاء والله تعالى يقول وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فالمشاورة وما كان في معناها هو الحزم والعرب تقول قد أحزم لو أعزم وقرأ جعفر الصادق وجابر بن زيد فإذا عزمت بضم التاء نسب العزم إلى نفسه سبحانه إذ هو بهدايته وتوفيقه كما قال: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ ومعنى الكلام أي عزمت لك ووفقتك وأرشدتك فتوكل على الله والباقون بفتح التاء قال المهلب وامتثل هذا النبي ﷺ من أمر ربه فقال: »لا ينبغي لنبي يلبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله«، أي ليس ينبغي له إذا عزم أن ينصرف لأنه نقض للتوكل الذي شرطه الله عز وجل مع العزيمة فلبسه لامته ﷺ حين أشار عليه بالخروج يوم أحد من أكرمه الله بالشهادة فيه وهم صلحاء المؤمنين ممن كان فاتته بدر يا رسول الله أخرج بنا إلى عدونا دال على العزيمة وكان أشار بالقعود وكذلك عبد الله بن أبي أشار بذلك وقال أقم يا رسول الله ولا تخرج إليهم بالناس فإن هم أقاموا أقاموا بشر مجلس وإن جاءونا إلى المدينة قاتلناهم في الأفنية وأفواه السكك ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من الآطام فوالله ما حاربنا قط عدو في هذه المدينة إلا غلبناه ولا خرجنا منها إلى عدو إلا غلبنا وأبي هذا الرأى من ذكرنا وشجعوا الناس ودعوا إلى الحرب فصلى رسول الله ﷺ الجمعة ودخل إثر صلاته بيته ولبس سلاحه فندم أولئك القوم وقالوا أكرهنا رسول الله ﷺ فلما خرج عليهم في

سلاحه قالوا يا رسول الله أقم إن شئت فإنا لا نريد أن نكرهك فقال النبي: «لا ينبغي لنبي إذا لبس سلاحه أن يضعه حتى يقاتل».

وهاهو أمير المؤمنين الملهم يستشير في عدة أمور منها المشاورة في املاص المرأة كما في الصحيحين من حديث المغيرة رضي الله عنه حتى سمع قول النبي ﷺ: «غرة عبد أو أمة».

وأمر بالمشوارة عند موته فيمن يلي الخلافة، وقد تقدم وحين أراد غزو الفرس شاور كما عند البخاري (٣١٥٩): عَنْ جُبَيْرِ بْنِ حَيَّةَ قَالَ بَعَثَ عُمَرُ النَّاسَ فِي أَفْنَاءِ الْأَمْصَارِ يُقَاتِلُونَ الْمُشْرِكِينَ فَأَسْلَمَ الْهُرْمُزَانُ فَقَالَ إِنِّي مُسْتَشِيرُكَ فِي مَغَازِيَّ هَذِهِ قَالَ نَعَمْ مَثَلُهَا وَمَثَلُ مَنْ فِيهَا مِنْ النَّاسِ مِنْ عَدُوِّ الْمُسْلِمِينَ مَثَلُ طَائِرٍ لَهُ رَأْسٌ وَلَهُ جَنَاحَانِ وَلَهُ رِجْلَانِ فَإِنْ كُسِرَ أَحَدُ الْجَنَاحَيْنِ نَهَضَتْ الرِّجْلَانِ بِجَنَاحٍ وَالرَّأْسُ فَإِنْ كُسِرَ الْجَنَاحُ الْآخَرُ نَهَضَتْ الرِّجْلَانِ وَالرَّأْسُ وَإِنْ شُدِخَ الرَّأْسُ ذَهَبَتْ الرِّجْلَانِ وَالْجَنَاحَانِ وَالرَّأْسُ فَالرَّأْسُ كِسْرَى وَالْجَنَاحُ قَيْصَرُ وَالْجَنَاحُ الْآخَرُ فَارِسُ فَمُرْ الْمُسْلِمِينَ فَلْيَنْفِرُوا إِلَى كِسْرَى وَقَالَ بَكْرٌ وَزِيَادٌ جَمِيعًا عَنْ جُبَيْرِ بْنِ حَيَّةَ قَالَ فَنَدَبَنَا عُمَرُ وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْنَا النُّعْمَانَ بْنَ مُقَرِّنٍ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِأَرْضِ الْعَدُوِّ وَخَرَجَ عَلَيْنَا عَامِلُ كِسْرَى فِي أَرْبَعِينَ أَلْفًا فَقَامَ تَرْجُمَانٌ فَقَالَ لِيُكَلِّمْنِي رَجُلٌ مِنْكُمْ فَقَالَ الْمُغِيرَةُ سَلْ عَمَّا شِئْتَ قَالَ: مَا أَنْتُمْ؟ قَالَ: نَحْنُ أُنَاسٌ مِنْ الْعَرَبِ كُنَّا فِي شَقَاءٍ شَدِيدٍ وَبَلَاءٍ شَدِيدٍ نَمَصُّ الْجِلْدَ وَالنَّوَى مِنْ الْجُوعِ وَنَلْبَسُ الْوَبَرَ وَالشَّعَرَ وَنَعْبُدُ الشَّجَرَ وَالْحَجَرَ فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرَضِينَ تَعَالَى ذِكْرُهُ وَجَلَّتْ عَظَمَتُهُ إِلَيْنَا نَبِيًّا مِنْ أَنْفُسِنَا نَعْرِفُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ فَأَمَرَنَا نَبِيُّنَا رَسُولُ رَبِّنَا ﷺ أَنْ نُقَاتِلَكُمْ حَتَّى تَعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ أَوْ تُؤَدُّوا الْجِزْيَةَ وَأَخْبَرَنَا نَبِيُّنَا ﷺ عَنْ رِسَالَةِ رَبِّنَا أَنَّهُ مَنْ قُتِلَ مِنَّا صَارَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي نَعِيمٍ لَمْ يَرَ مِثْلَهَا قَطُّ وَمَنْ بَقِيَ مِنَّا مَلَكَ رِقَابَكُمْ فَقَالَ النُّعْمَانُ رُبَّمَا أَشْهَدَكَ اللهُ مِثْلَهَا

مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يُنَدِّمْكَ وَلَمْ يُخْزِكَ وَلَكِنِّي شَهِدْتُ الْقِتَالَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا لَمْ يُقَاتِلْ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ انْتَظَرَ حَتَّى تَهُبَّ الْأَرْوَاحُ وَتَحْضُرَ الصَّلَوَاتُ.

فالشاهد أن من لازم الاستشارة فقد فعل أمر الله عز وجل أولًا وثانيًا ووفق للخير؛ لأن المشورة سبيل الأنبياء والصالحين.

السادسة والعشرون: «أحب الدين إلى الله الحنيفية المسلمة»

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[البقرة:١٤٣].

والوسط هم العدل الخيار كما هو عند البخاري في صحيحه، (باب قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾[البقرة:١٤٣]، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بنوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟».

ومنه قول زهير:

وهم وسط يرضى الأنام بحكمهم		إذا نزلت أحدى الليالي العظائم

فمن وسائل نصرة الدعوة هو البعد عن الغلو والجفاء، بل يلزم المؤمن غرز السنة، ولتكن طريقته على طريقة الصحابة والتابعين، فإن الغلو سبب للهلاك، والجفاء من أسبابه أيضًا وكله مذموم.

قال ابن القيم في «المدارج» (٢/ ٤٩٦): ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما تفريط وإما إلى أفراط وغلو، ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، كالوادي بين جبلين، والهدى بين ضلالتين والوسط بين طرفين، كما أن الجافي عن الأمر مضيع له،

فالغالي فيه مضيع له هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوز الحد.

والغلو نوعان: نوع يخرجه عن كونه مطيعًا، وغلو يخاف منه الانقطاع والاستحسار.أهـ

ورحم الله عمر بن عبد العزيز بن مروان الخليفة الراشد صاحب العقل الثاقب والرأي الصائب، فقد أوصى بلزم سبيل أهل السنة بعيدًا عن الغلو والجفاء، فقال كما في أبي داود (٤٦١٢): قَالَ كَتَبَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَسْأَلُهُ عَنْ الْقَدَرِ فَكَتَبَ أَمَّا بَعْدُ أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ وَالِاقْتِصَادِ فِي أَمْرِهِ وَاتِّبَاعِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ وَتَرْكِ مَا أَحْدَثَ الْمُحْدِثُونَ بَعْدَ مَا جَرَتْ بِهِ سُنَّتُهُ وَكُفُوا مُؤْنَتَهُ فَعَلَيْكَ بِلُزُومِ السُّنَّةِ فَإِنَّهَا لَكَ بِإِذْنِ اللهِ عِصْمَةٌ ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ يَبْتَدِعْ النَّاسُ بِدْعَةً إِلَّا قَدْ مَضَى قَبْلَهَا مَا هُوَ دَلِيلٌ عَلَيْهَا أَوْ عِبْرَةٌ فِيهَا فَإِنَّ السُّنَّةَ إِنَّمَا سَنَّهَا مَنْ قَدْ عَلِمَ مَا فِي خِلَافِهَا وَلَمْ يَقُلْ ابْنُ كَثِيرٍ مَنْ قَدْ عَلِمَ مِنْ الْخَطَإِ وَالزَّلَلِ وَالْحُمْقِ وَالتَّعَمُّقِ فَارْضَ لِنَفْسِكَ مَا رَضِيَ بِهِ الْقَوْمُ لِأَنْفُسِهِمْ فَإِنَّهُمْ عَلَى عِلْمٍ وَقَفُوا وَبِبَصَرٍ نَافِذٍ كَفُّوا وَهُمْ عَلَى كَشْفِ الْأُمُورِ كَانُوا أَقْوَى وَبِفَضْلِ مَا كَانُوا فِيهِ أَوْلَى فَإِنْ كَانَ الْهُدَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ لَقَدْ سَبَقْتُمُوهُمْ إِلَيْهِ وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّمَا حَدَثَ بَعْدَهُمْ مَا أَحْدَثَهُ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِهِمْ وَرَغِبَ بِنَفْسِهِ عَنْهُمْ فَإِنَّهُمْ هُمْ السَّابِقُونَ فَقَدْ تَكَلَّمُوا فِيهِ بِمَا يَكْفِي وَوَصَفُوا مِنْهُ مَا يَشْفِي فَمَا دُونَهُمْ مِنْ مَقْصَرٍ وَمَا فَوْقَهُمْ مِنْ مَحْسَرٍ وَقَدْ قَصَّرَ قَوْمٌ دُونَهُمْ فَجَفَوْا وَطَمَحَ عَنْهُمْ أَقْوَامٌ فَغَلَوْا وَإِنَّهُمْ بَيْنَ ذَلِكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ كَتَبْتَ تَسْأَلُ عَنْ الْإِقْرَارِ بِالْقَدَرِ فَعَلَى الْخَبِيرِ بِإِذْنِ اللهِ وَقَعْتَ مَا أَعْلَمُ مَا أَحْدَثَ النَّاسُ مِنْ مُحْدَثَةٍ وَلَا ابْتَدَعُوا مِنْ بِدْعَةٍ هِيَ أَبْيَنُ أَثَرًا وَلَا أَثْبَتُ أَمْرًا مِنْ الْإِقْرَارِ بِالْقَدَرِ لَقَدْ كَانَ ذَكَرَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْجُهَلَاءُ يَتَكَلَّمُونَ بِهِ فِي كَلَامِهِمْ وَفِي شِعْرِهِمْ يُعَزُّونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ عَلَى مَا فَاتَهُمْ ثُمَّ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ بَعْدُ إِلَّا شِدَّةً وَلَقَدْ ذَكَرَهُ

رَسُولُ الله ﷺ فِي غَيْرِ حَدِيثٍ وَلَا حَدِيثَيْنِ وَقَدْ سَمِعَهُ مِنْهُ الْمُسْلِمُونَ فَتَكَلَّمُوا بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ يَقِينًا وَتَسْلِيمًا لِرَبِّهِمْ وَتَضْعِيفًا لِأَنْفُسِهِمْ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ لَمْ يُحِطْ بِهِ عِلْمُهُ وَلَمْ يُحْصِهِ كِتَابُهُ وَلَمْ يَمْضِ فِيهِ قَدَرُهُ وَإِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ لَفِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ مِنْهُ اقْتَبَسُوهُ وَمِنْهُ تَعَلَّمُوهُ وَلَئِنْ قُلْتُمْ لِمَ أَنْزَلَ اللهُ آيَةَ كَذَا لِمَ قَالَ كَذَا لَقَدْ قَرَءُوا مِنْهُ مَا قَرَأْتُمْ وَعَلِمُوا مِنْ تَأْوِيلِهِ مَا جَهِلْتُمْ وَقَالُوا بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ بِكِتَابٍ وَقَدَرٍ وَكُتِبَتِ الشَّقَاوَةُ وَمَا يُقْدَرْ يَكُنْ وَمَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَلَا نَمْلِكُ لِأَنْفُسِنَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ثُمَّ رَغِبُوا بَعْدَ ذَلِكَ وَرَهِبُوا.

وللضرر الحاصل من الغلو فأن رسول الله ﷺ قد أخبر عن ضلال الغلاة كما في مسلم عن ابن مسعود (٢٦٧٠) رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون».

وما ضل أهل الكتاب إلا بسببه مع تحذير الله عز وجل لهم، فلم يمتثلوا فلعنوا.

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ [النساء:١٧١].

وقال مبينًا أن الغلو هو سبيل الضلال: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾**

[المائدة:٧٧].

وأخرج أحمد (١/ ٢١٥)، والنسائي (٢٨٦٣): عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ غَدَاةَ الْعَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ: «هَاتِ الْقُطْ لِي فَلَقَطْتُ لَهُ حَصَيَاتٍ

هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ فَلَمَّا وَضَعْتُهُنَّ فِي يَدِهِ قَالَ بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ«.

والغالي متوعد بعدم شفاعة النبي ﷺ كما في «السنة« لابن أبي عاصم (١/ ٢٣) وغيرها عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي: سلطان ظلوم غشوم، وغالٍ في الدين يشهد عليهم ويتبرأ منهم«.

الحديث ذكره العلامة الألباني في «الصحيحة« (٤٧١).

وكان النبي ﷺ من أشد الناس تحذيرًا من الغلو، سواءً الغلو العقدي أو الغلو العملي، فكلاهما يؤدي إلى الانقطاع.

أخرج البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد في شأن ذي الخويصرة أحد الغلاة، وفيه: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي نُعْمٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ يَقُولُ بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ الْيَمَنِ بِذَهَبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا قَالَ فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ وَالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ وَزَيْدِ الْخَيْلِ وَالرَّابِعُ إِمَّا عَلْقَمَةُ بْنُ عُلَاثَةَ وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلَاءِ قَالَ فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: »أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً«، قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ نَاشِزُ الْجَبْهَةِ كَثُّ اللِّحْيَةِ مَحْلُوقُ الرَّأْسِ مُشَمَّرُ الْإِزَارِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ اتَّقِ اللهَ، فَقَالَ: »وَيْلَكَ أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ«، قَالَ: ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ، فَقَالَ: لَا لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي، قَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ

النَّاسِ وَلَا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ«، قَالَ ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهُوَ مُقَفٍّ فَقَالَ: »إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ رَطْبًا لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ«، قَالَ أَظُنُّهُ قَالَ لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ الْقَعْقَاعِ بِهَذَا الْإِسْنَادِ، قَالَ وَعَلْقَمَةُ بْنُ عُلَاثَةَ وَلَمْ يَذْكُرْ عَامِرَ بْنَ الطُّفَيْلِ وَقَالَ نَاتِئُ الْجَبْهَةِ وَلَمْ يَقُلْ نَاشِزُ وَزَادَ فَقَامَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ قَالَ لَا قَالَ ثُمَّ أَدْبَرَ فَقَامَ إِلَيْهِ خَالِدٌ سَيْفُ اللهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ قَالَ:»لَا« فَقَالَ: »إِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ لَيِّنًا رَطْبًا«، وَقَالَ قَالَ عُمَارَةُ: حَسِبْتُهُ قَالَ: »لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ«، و حَدَّثَنَا ابْنُ نُمَيْرٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ فُضَيْلٍ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ الْقَعْقَاعِ بِهَذَا الْإِسْنَادِ، وَقَالَ بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ زَيْدُ الْخَيْرِ وَالْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وَعَلْقَمَةُ بْنُ عُلَاثَةَ أَوْ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ وَقَالَ نَاشِزُ الْجَبْهَةِ كَرِوَايَةِ عَبْدِ الْوَاحِدِ وَقَالَ: »إِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ وَلَمْ يَذْكُرْ لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ«.

الغالي من أصحاب الإجرام، فكم من أمور يحرمونها على أنفسهم وعلى غيرهم من غير دليل لا من كتاب ولا من سنة، يدل على ذلك حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ عند البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨) واللفظ له: عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: »إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ«.

وهذا سلمان ينكر على أبي الدرداء ﷺ ما حصل منه من غلو، حتى أنه ترك عشرة أمرأته وهو في العبادة ﷺ كما عند البخاري (١٩٦٨) عن أبي جحيفة السوائي قال:

آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً فَقَالَ: لَهَا مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا فَقَالَ: كُلْ، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ: قُمْ الْآنَ فَصَلَّيَا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: »صَدَقَ سَلْمَانُ«.

إلى غير ذلك.

ومن نظر بعين البصيرة إلى سبب ضلال الأمم السالفة ومن ضل من هذه الأمة يجد أنه لا يخرج عن هذين السببين الغلو والجفاء.

فاليهود أتوا من جانب الجفاء، حتى أنهم قتلوا الأنبياء وتمردوا على شرع الله الحق، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[البقرة:٨٧].

والنصارى ضلوا من قبل الغلو، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[المائدة:١٧].

وما ضل الخوارج وخرجوا على المسلمين يستبيحون دمائهم ويستحلون أموالهم إلا

من جانب الغلو.

جاء في البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦) قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فَلَأَنْ أَخِرَّ مِنْ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكْذِبَ عَلَيْهِ، وَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: »يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الْأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ«.

وما ضل الرافضة إلا بغلوهم في آل البيت النبوي، حتى زعم غلاتهم أن عليًا ﷺ إلهًا، وزعموا أن النبي ﷺ أوصى إليه، وزعموا له بالرجعة، وزعموا أنه يعلم السر وأخفى، وزعموا أن الخلافة فيه وفي ذريته، إلى غير ذلك.

ورحم الله علي إذا يقول: يهلك فيَّ رجلان: محب مفرط يقرظني بما ليس فيَّ، ومبغض يحمله شنأني على أن يبهتني.

أخرجه أحمد (١/ ١٦٠).

وكذا الصوفية غلوا في جانب العبادة، فضلوا وعبدوا الله بما لم يشرع عز وجل، ظنوا أنهم يحسنون صنعًا.

مع أنه بئس الصنيع صنيعهم، فالإحسان كل الإحسان في ملازمة الكتاب والسنة، حتى قال النبي ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» متفق عليه، وفي لفظ لمسلم: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد».

والغلو لا يؤدي إلى خير أبدًا كما تقدم في الحديث.

قال الدارمي (٢١٠)- أَخْبَرَنَا الْحَكَمُ بْنُ الْمُبَارَكِ أَنْبَأَنَا عَمْرُو بْنُ يَحْيَى قَالَ سَمِعْتُ أَبِى يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : كُنَّا نَجْلِسُ عَلَى بَابِ عَبْدِ اللهَّ بْنِ مَسْعُودٍ قَبْلَ صَلاَةِ الْغَدَاةِ ، فَإِذَا خَرَجَ مَشَيْنَا مَعَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَجَاءَنَا أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِىُّ فَقَالَ : أَخَرَجَ إِلَيْكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَعْدُ؟ قُلْنَا : لاَ ، فَجَلَسَ مَعَنَا حَتَّى خَرَجَ ، فَلَمَّا خَرَجَ قُمْنَا إِلَيْهِ جَمِيعاً ، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنِّى رَأَيْتُ فِى الْمَسْجِدِ آنِفاً أَمْراً أَنْكَرْتُهُ ، وَلَمْ أَرَ وَالْحَمْدُ للهَّ إِلاَّ خَيْراً. قَالَ : فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ : إِنْ عِشْتَ فَسَتَرَاهُ - قَالَ - رَأَيْتُ فِى الْمَسْجِدِ قَوْماً حِلَقاً جُلُوساً يَنْتَظِرُونَ الصَّلاَةَ ، فِى كُلِّ حَلْقَةٍ رَجُلٌ ، وَفِى أَيْدِيهِمْ حَصًى فَيَقُولُ : كَبِّرُوا مِائَةً ، فَيُكَبِّرُونَ مِائَةً ، فَيَقُولُ : هَلِّلُوا مِائَةً ، فَيُهَلِّلُونَ مِائَةً ، وَيَقُولُ : سَبِّحُوا مِائَةً فَيُسَبِّحُونَ مِائَةً. قَالَ : فَمَاذَا قُلْتَ لَهُمْ؟ قَالَ : مَا قُلْتُ لَهُمْ شَيْئاً انْتِظَارَ رَأْيِكَ أَوِ انْتِظَارَ أَمْرِكَ. قَالَ : أَفَلاَ أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لاَ يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ. ثُمَّ مَضَى وَمَضَيْنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَى حَلْقَةً مِنْ تِلْكَ الْحِلَقِ ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ : مَا هَذَا الَّذِى أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالُوا : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَصًى نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ. قَالَ : فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لاَ يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَىْءٌ ، وَيْحَكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا أَسْرَعَ هَلَكَتَكُمْ ، هَؤُلاَءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ -ﷺ- مُتَوَافِرُونَ وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لَمْ تَبْلَ وَآنِيَتُهُ لَمْ تُكْسَرْ ، وَالَّذِى نَفْسِى فِى يَدِهِ إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِىَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ، أَوْ مُفْتَتِحِى بَابِ ضَلاَلَةٍ. قَالُوا : وَاللهَّ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَا أَرَدْنَا إِلاَّ الْخَيْرَ. قَالَ : وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ ، إِنَّ رَسُولَ اللهَّ -ﷺ- حَدَّثَنَا أَنَّ قَوْماً يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ ، وَايْمُ اللهَّ مَا أَدْرِى لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ. ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَلِمَةَ : رَأَيْنَا عَامَّةَ أُولَئِكَ الْحِلَقِ يُطَاعِنُونَا يَوْمَ النَّهْرَوَانِ مَعَ الْخَوَارِجِ. وهكذا ما وقع مشركي الصوفية والحلولية فيما وقعوا فيه إلا بالغلو في

الدين.

وهذا باب يطول الكلام فيه؛ لأنه من أعظم أبواب مداخل الشيطان على بني آدم، حتى قيل: من أوسع أودية الباطل الغلو في الأفاضل.

ويقابل كل هذه المذاهب والطرق التي تقدمت الجفاء الذي أدى بالمرجئة إلى ما هم فيه من الضلال والانحطاط، حتى قال بعضهم حين رأى جارية تغني هذه على إيمان مريم بنت عمران، ويزعمون أن المسلم إذا أقر بالشهادتين مع النطق بها أنه لا تضره معصية، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

وكذلك جفاء الفلاسفة في الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، حتى زعموا أنهم عبارة عن عقلاء، استطاعوا أن يجمعوا الناس على ما تخيلوه وما صور لهم، إلى غير ذلك.

فمن أحب أن يستمر خيره وتنتصر دعوته فليلزم الوسطية والاعتدال في أموره كلها.

ونسمع في هذه الأيام من ينادي بالوسطيةوالاعتدال لكن الواقع يشهد أنهم يريدون تمييع الدين وإدخال ما ليس منه فيه، فالحذر من الشعارات البراقة والكلمات الجوفاء، وإنما المطلوب أن نكون على دين رب العالمين الصراط القويم الذي جاء به النبي ﷺ الصادق الأمين، القائل: »فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي«.

فقد امتن الله عز وجل علينا بها بقوله: ﴿**مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾[الحج:٧٨]، وقوله: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ**

﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف:١٥٧].

وقال: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[البقرة:١٨٥].

ورسول الله ﷺ يقول كما في حديث بريدة: «عليكم هديًا قاصدًا، فإن من يشاور الدين يغلبه».

وفي حديث أبي هريرة عند البخاري: «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحدًا إلا غلبه».

ومن شدد على نفسه انقطع قبل نهاية الطريق.

السابعة والعشرون:

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرن** وإذا أفترقن تكسرت آحاد

ومن أعظم أسباب نصرة الدعوة السلفية هو الأخوة الدينية وترك التعصب، لما في الآخوة من النفع العظيم في الدنيا والدين، ولما في العصبية من العطب الجسيم في الدنيا والدين.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات:١٠]، وواجب الأخ على أخيه أن ينصره ولا يخذله، وأن يعينه ولا يتركه، وأن يحفظه ولا يسلمه، كما في الحديث: أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنه مَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»

ولما كانت الأخوة الدينية من أهم الأسباب في نصرة الحق وأهله، فكان الأخاء بين

المهاجرين والأنصار من أول الأولويات من حين وضع رسول الله ﷺ رحله في المدينة النبوية.

فعند أبي داود (٢٥٢٤): عَنْ عُبَيْدِ بْنِ خَالِدٍ السُّلَمِيِّ قَالَ آخَى رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَقُتِلَ أَحَدُهُمَا وَمَاتَ الْآخَرُ بَعْدَهُ بِجُمُعَةٍ أَوْ نَحْوِهَا فَصَلَّيْنَا عَلَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ مَا قُلْتُمْ فَقُلْنَا دَعَوْنَا لَهُ وَقُلْنَا اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَأَلْحِقْهُ بِصَاحِبِهِ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ فَأَيْنَ صَلَاتُهُ بَعْدَ صَلَاتِهِ وَصَوْمُهُ بَعْدَ صَوْمِهِ شَكَّ شُعْبَةُ فِي صَوْمِهِ وَعَمَلُهُ بَعْدَ عَمَلِهِ إِنَّ بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

وتقدم حديث أبي جحيفة أن النبي ﷺ أخا بين سلمان وأبي الدرداء رضي الله عنه ما.

وفي مسلم (٢٥٢٨) من حديث أنس: أن النبي ﷺ أخا بين أبي عبيدة بن الجراح وبين أبي طلحة.

وعند البخاري (٣٩٣٧)، ومسلم (١٤٢٧): عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ الْمَدِينَةَ، فَآخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُنَاصِفَهُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، دُلَّنِي عَلَى السُّوقِ، فَرَبِحَ شَيْئًا مِنْ أَقِطٍ وَسَمْنٍ، فَرَآهُ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ أَيَّامٍ وَعَلَيْهِ وَضَرٌ مِنْ صُفْرَةٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: »مَهْيَمْ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ« قَالَ: يَا رَسُولَ الله تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنْ الْأَنْصَارِ، قَالَ: »فَمَا سُقْتَ فِيهَا؟« فَقَالَ: وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: »أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ«.

ولعظم شأنها حرم الله عز وجل أمورًا كثيرة جدًا لسد ذريعة الفرقة والبعد عن الأخوة.

منها الغيبةوسوء الظن والتجسس والتحسس، لقول الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ**

آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

وقد تقدم الحديث وما فيه من مفسدات الأخوة والتحذير منها، ومنها الهجر، فقد تواترت الأحاديث في النهي عن الهجر، منها حديث أنس عند البخاري (٦٠٧٧)، ومسلم (٢٥٦٠)، وجاء عن غيره: «لا يحل للرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاثة ليال».

وحديث أبي حدرد: «من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه» أخرجه أبو داود.

وأمر رسول الله ﷺ بالأخوة وبين أنها من مكملات الدين، قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه».

والله عز وجل جعل من أسباب معونته للعبد المسلم أن يكون في معونة أخيه، كما في مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ.

بل قد جعل الجن المسلمين أخوة لنا مع اختلاف النوع والجنس، كما في حديث ابن مسعود عند مسلم (٤٥٠): «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام أخوانكم من الجن».

وأنت بأخيك منصور به ومهزوم به، وكما قيل: المرء كثير بأخيه.

وأعلم أن الأخوة في الله عز وجل تقوى إذا توفرت دواعيها، ومن أهم دواعيها الحب في الله عز وجل، كما في حديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: »سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ الله، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي الله اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ.

وقال ﷺ كما في حديث معاذ وعبادة بن الصامت عند مالك **وقال تعالى:** »وجبت محبتي للمتحابين فيّ«.

ورسول الله ﷺ كما في »المصنف« لعبد الرزاق من حديث أنس لما قال الرجل: قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ إِذْ مَرَّ رَجُلٌ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي لَأُحِبُّ هَذَا الرَّجُلَ، قَالَ: »هَلْ أَعْلَمْتَهُ ذَلِكَ؟« قَالَ: لَا، فَقَالَ: قُمْ فَأَعْلِمْهُ، قَالَ فَقَامَ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا هَذَا وَالله إِنِّي لَأُحِبُّكَ فِي الله، قَالَ: أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ،

والمحبة في الله من علامات الإيمان، كما في حديث أنس عند الشيخين: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: »ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ«.

ومن أعظم مفسدات الأخوة العصبية، فالحذر كل الحذر من هذا المرض العضال، فإنه يفسد الأمم والشعوب، ويفرق الخلان، ويوقع الشر بين الأخوان، فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، وليتبراء إلى الله عز وجل من كل ما يسبب الوحشة بين

المسلمين.

الثامنة والعشرون:

أشد على الكتيبة ولا أبالي** أحتفي كان فيها أم سواها

ومن وسائل نصر الدعوة الشجاعة هذه الخصلة العظيمة التي تجعل من المؤمن بركانًا زاحفًا على البدع والخرافات والمعاصي والزلات، وعلى المخالفات والشركيات، ولهذا ما بعث الله من نبي إلا وكان متصفًا بهذه الصفة، عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ من أشجع، وفي رواية أشجع الناس.

البخاري (٢٨٢٠)، ومسلم (٢٣٠٧) عن أبي هريرة.

والشجاعة من صفات المدح وضدها الجبن، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «شر ما في الرجل شح هالع أو جبن خالع» أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٢).

وكان يقول ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن» أخرجه البخاري عن أنس (٢٨٩٣) واللفظ له، ومسلم (٢٧٠٦) في أحاديث غير هذه.

وكما قيل: إن الإسلام ينصر بالمال والبدن.

ولذلك كان رسول الله ﷺ يستعيذ من البخل والجبن؛ لأنهما لا ينصران دينًا.

وقال ﷺ: «أَعْطُونِي رِدَائِي، فَلَوْ كَانَ عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاهِ نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لَا تَجِدُونِي بَخِيلًا وَلَا كَذُوبًا وَلَا جَبَانًا».

والجبان ينطبق عليه ما قال الاشهيني كما في «نظرة النعيم» (٩/ ٤٣٢١): الجبن خلق

مذموم قد استعاذ منه النبي ﷺ، ونحن نستعيذ بالله مما استعاذ منه سيد الخلق رسول الله ﷺ، ويكفي في ذمه أن يقال في وصف الجبان: إن أحس بعصفور طار فؤاده وإن طنت بعوضه، ظال سهاده يفزع من صرير الباب ويقلق من طنين الذباب، إن نظرت إليه شزرًا أغميَّ عليه شهرًا، يحسب خفوق الريح قعقعة رماح، قال الشاعر:

إذا صـــوت العصـــفور طـــار فـــؤاده		وليـــث حديـــد النـــاب عنـــد الثرائـــد

والجبن ميزة المنافقين: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾[المنافقون:٤].

وقال الله أيضًا عنهم: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾[الأحزاب:١٩].

ولننظر في هدي النبي ﷺ في هذه الخصلة حين دعوته، وفي قتاله وغير ذلك من المواطن.

أما في حال دعوته فقد تقدم حديث جابر وطارق المحاربي كيف كان يدعو الناس في الأسواق بين ظهراني الكفار: لا يخاف في الله لومة لائم ﷺ تسليمًا كثيرًا وقد تقدم أيضًا لما نزلت عليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، كيف قام يدعوهم من على الصفا بعد أن جمعهم إلى غير ذلك من المواطن وما جبن مرة واحدة في الصدع بالحق الذي أمره الله عز وجل به.

وأخرج رقم (٦٥٤) عن علي رضي الله عنه قال: لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا من العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا.

الحديث في «الصحيح المسند» (٩٧٣).

وأخرج البخاري (٤٣١٧)، ومسلم (١٧٧٦): حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ حَارِثَةَ بْنِ مُضَرِّبٍ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ أَصَبْنَا مِنْ ثِمَارِهَا فَاجْتَوَيْنَاهَا وَأَصَابَنَا بِهَا وَعْكٌ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَبَّرُ عَنْ بَدْرٍ، فَلَمَّا بَلَغَنَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ أَقْبَلُوا، سَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى بَدْرٍ وَبَدْرٌ بِئْرٌ، فَسَبَقَنَا الْمُشْرِكُونَ إِلَيْهَا فَوَجَدْنَا فِيهَا رَجُلَيْنِ مِنْهُمْ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ وَمَوْلًى لِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، فَأَمَّا الْقُرَشِيُّ فَانْفَلَتَ، وَأَمَّا مَوْلَى عُقْبَةَ فَأَخَذْنَاهُ فَجَعَلْنَا نَقُولُ لَهُ كَمْ الْقَوْمُ؟ فَيَقُولُ: هُمْ وَاللهِ كَثِيرٌ، عَدَدُهُمْ شَدِيدٌ بَأْسُهُمْ، فَجَعَلَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ قَالَ ذَلِكَ ضَرَبُوهُ حَتَّى انْتَهَوْا بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: كَمْ الْقَوْمُ؟ قَالَ: هُمْ وَاللهِ كَثِيرٌ، عَدَدُهُمْ شَدِيدٌ بَأْسُهُمْ، فَجَهَدَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُخْبِرَهُ كَمْ هُمْ فَأَبَى، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَهُ كَمْ يَنْحَرُونَ مِنْ الْجُزُرِ، فَقَالَ: عَشْرًا كُلَّ يَوْمٍ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: الْقَوْمُ أَلْفٌ كُلُّ جَزُورٍ لِمِائَةٍ وَتَبِعَهَا، ثُمَّ إِنَّهُ أَصَابَنَا مِنْ اللَّيْلِ طَشٌّ مِنْ مَطَرٍ فَانْطَلَقْنَا تَحْتَ الشَّجَرِ وَالْحَجَفِ نَسْتَظِلُّ تَحْتَهَا مِنْ الْمَطَرِ، وَبَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُو رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيَقُولُ: «اللهُمَّ إِنَّكَ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْفِئَةَ لَا تُعْبَدْ»، قَالَ: فَلَمَّا أَنْ طَلَعَ الْفَجْرُ نَادَى الصَّلَاةَ عِبَادَ اللهِ، فَجَاءَ النَّاسُ مِنْ تَحْتِ الشَّجَرِ وَالْحَجَفِ، فَصَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَحَرَّضَ عَلَى الْقِتَالِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ جَمْعَ قُرَيْشٍ تَحْتَ هَذِهِ الضِّلَعِ الْحَمْرَاءِ مِنْ الْجَبَلِ، فَلَمَّا دَنَا الْقَوْمُ مِنَّا وَصَافَفْنَاهُمْ إِذَا رَجُلٌ مِنْهُمْ عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَحْمَرَ يَسِيرُ فِي الْقَوْمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا عَلِيُّ نَادِ لِي حَمْزَةَ وَكَانَ أَقْرَبَهُمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ مَنْ صَاحِبُ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ، وَمَاذَا يَقُولُ لَهُمْ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحَدٌ يَأْمُرُ بِخَيْرٍ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ»، فَجَاءَ حَمْزَةُ فَقَالَ هُوَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَهُوَ يَنْهَى عَنْ الْقِتَالِ وَيَقُولُ لَهُمْ: يَا قَوْمُ إِنِّي أَرَى قَوْمًا مُسْتَمِيتِينَ لَا تَصِلُونَ إِلَيْهِمْ وَفِيكُمْ خَيْرٌ، يَا قَوْمُ اعْصِبُوهَا الْيَوْمَ بِرَأْسِي، وَقُولُوا جَبُنَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ

وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي لَسْتُ بِأَجْبَنِكُمْ، فَسَمِعَ ذَلِكَ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ: أَنْتَ تَقُولُ هَذَا وَاللهِ لَوْ غَيْرُكَ يَقُولُ هَذَا لَأَعْضَضْتُهُ، قَدْ مَلَأَتْ رِئَتُكَ جَوْفَكَ رُعْبًا، فَقَالَ عُتْبَةُ: إِيَّايَ تُعَيِّرُ يَا مُصَفِّرَ اسْتِهِ سَتَعْلَمُ الْيَوْمَ أَيُّنَا الْجَبَانُ، قَالَ فَبَرَزَ عُتْبَةُ وَأَخُوهُ شَيْبَةُ وَابْنُهُ الْوَلِيدُ حَمِيَّةً، فَقَالُوا: مَنْ يُبَارِزُ؟ فَخَرَجَ فِتْيَةٌ مِنْ الْأَنْصَارِ سِتَّةٌ، فَقَالَ عُتْبَةُ: لَا نُرِيدُ هَؤُلَاءِ وَلَكِنْ يُبَارِزُنَا مِنْ بَنِي عَمِّنَا مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »قُمْ يَا عَلِيُّ، وَقُمْ يَا حَمْزَةُ، وَقُمْ يَا عُبَيْدَةُ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ«، فَقَتَلَ اللهُ تَعَالَى عُتْبَةَ وَشَيْبَةَ ابْنَيْ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدَ بْنَ عُتْبَةَ وَجُرِحَ عُبَيْدَةُ، فَقَتَلْنَا مِنْهُمْ سَبْعِينَ وَأَسَرْنَا سَبْعِينَ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ قَصِيرٌ بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَسِيرًا، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ هَذَا وَاللهِ مَا أَسَرَنِي، لَقَدْ أَسَرَنِي رَجُلٌ أَجْلَحُ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا عَلَى فَرَسٍ أَبْلَقَ مَا أُرَاهُ فِي الْقَوْمِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: أَنَا أَسَرْتُهُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: اسْكُتْ فَقَدْ أَيَّدَكَ اللهُ تَعَالَى بِمَلَكٍ كَرِيمٍ، فَقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: فَأَسَرْنَا وَأَسَرْنَا مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الْعَبَّاسَ وعَقِيلًا وَنَوْفَلَ بْنَ الْحَارِثِ.

وعن العباس عند مسلم (١٧٧٥)، فالشَهدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَوْمَ حُنَيْنٍ فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَلَمْ نُفَارِقْهُ وَرَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَاءَ أَهْدَاهَا لَهُ فَرْوَةُ بْنُ نُفَاثَةَ الْجُذَامِيُّ فَلَمَّا الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الْكُفَّارِ قَالَ عَبَّاسٌ وَ أَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لاَ تُسْرِعَ وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « أَىْ عَبَّاسُ نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ ». فَقَالَ عَبَّاسٌ وَكَانَ رَجُلاً صَيِّتًا فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِى أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ قَالَ فَوَاللَّهِ لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِى عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلاَدِهَا. فَقَالُوا يَا لَبَّيْكَ يَا لَبَّيْكَ - قَالَ - فَاقْتَتَلُوا وَالْكُفَّارَ وَالدَّعْوَةُ فِى الأَنْصَارِ يَقُولُونَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ يَا

مَعْشَرَ الأَنْصَارِ فَالَ ثُمَّ فُصِرَتِ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِى الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ فَقَالُوا يَا بَنِى الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ يَا بَنِى الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ.

فَنَظَرَ رَسُولُ اللهَّ -ﷺ- وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ -ﷺ- « هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوَطِيسُ ». قَالَ ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللهَّ -ﷺ- حَصَيَاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ ثُمَّ قَالَ « انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ ». قَالَ فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى - قَالَ - فَوَاللهَّ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِهِ فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلاً وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا.

وعن سعد بن أبي وقال عند الحاكم (٣/ ٢٦) قال: ، لما جال الناس عن رسول الله ﷺ تلك الجولة يوم أحد ، تنحيت فقلت : أذود عن نفسي ، فإما أن أستشهد ، وإما أن أنجو حتى ألقى رسول الله ﷺ ، فبينا أنا كذلك إذا برجل مخمر وجهه ما أدري من هو فأقبل المشركون حتى قلت : قد ركبوه ، ملأ يده من الحصى ، ثم رمى به في وجوههم فنكبوا على أعقابهم القهقرى ، حتى يأتوا الجبل ففعل ذلك مرارا ، ولا أدري من هو وبيني وبينه المقداد بن الأسود ، فبينا أنا أريد أن أسأل المقداد عنه إذ قال المقداد : يا سعد ، هذا رسول الله ﷺ يدعوك ، فقلت : وأين هو ؟ فأشار لي المقداد إليه ، فقمت ، ولكأنه لم يصبني شيء من الأذى ، فقال رسول الله ﷺ : « أين كنت ليوم يا سعد ؟ » فقلت : حيث رأيت رسول الله فأجلسني أمامه ، فجعلت أرمي ، وأقول : اللهم سهمك فارم به عدوك ورسول الله ﷺ يقول : « اللهم استجب لسعد ، اللهم سدد لسعد رميته ، إيها سعد ، فداك أبي وأمي » فما من سهم أرمي به إلا ، وقال رسول الله ﷺ : « اللهم سدد رميته ، وأجب دعوته ، إيها سعد » حتى إذا فرغت من كنانتي ، نثر رسول الله ﷺ ما في كنانته ، فنبلني سهما نضيا ، قال : وهو الذي قد ريش ، وكان أشد من غيره قال الزهري :

« إن السهام التي رمى بها سعد يومئذ كانت ألف سهم » . « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه »

وأخرج مسلم في «صحيحه» (٨٤٣): عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ غَزْوَةً قِبَلَ نَجْدٍ، فَأَدْرَكَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَعَلَّقَ سَيْفَهُ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا قَالَ: وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْوَادِي يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »إِنَّ رَجُلًا أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ فَأَخَذَ السَّيْفَ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي، فَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَالسَّيْفُ صَلْتًا فِي يَدِهِ، فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: قُلْتُ اللهُ، ثُمَّ قَالَ فِي الثَّانِيَةِ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: قُلْتُ اللهُ، قَالَ: فَشَامَ السَّيْفَ، فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ، ثُمَّ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وأصحابه رضوان الله عليهم كانوا على طريقته سايرين، وبه مقتدين، ولنشر الحق مشمرين، وللباطل صادين، ونذكر من ذلك ما أخرجه مسلم (١٨٠٧) حديث سلمة الطويل عَنْ إِيَاسُ بْنُ سَلَمَةَ، حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: قَدِمْنَا الْحُدَيْبِيَةَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً وَعَلَيْهَا خَمْسُونَ شَاةً لَا تُرْوِيهَا، قَالَ: فَقَعَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى جَبَا الرَّكِيَّةِ، فَإِمَّا دَعَا وَإِمَّا بَصَقَ فِيهَا، قَالَ: فَجَاشَتْ فَسَقَيْنَا وَاسْتَقَيْنَا، قَالَ: ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَانَا لِلْبَيْعَةِ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ، قَالَ: فَبَايَعْتُهُ أَوَّلَ النَّاسِ، ثُمَّ بَايَعَ وَبَايَعَ، حَتَّى إِذَا كَانَ فِي وَسَطٍ مِنْ النَّاسِ قَالَ: بَايِعْ يَا سَلَمَةُ، قَالَ: قُلْتُ قَدْ بَايَعْتُكَ يَا رَسُولَ اللهِ فِي أَوَّلِ النَّاسِ، قَالَ: وَأَيْضًا، قَالَ: وَرَآنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ عَزِلًا يَعْنِي لَيْسَ مَعَهُ سِلَاحٌ، قَالَ: فَأَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ حَجَفَةً أَوْ دَرَقَةً، ثُمَّ بَايَعَ حَتَّى إِذَا كَانَ فِي آخِرِ النَّاسِ قَالَ: أَلَا تُبَايِعُنِي يَا سَلَمَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: قَدْ بَايَعْتُكَ يَا رَسُولَ اللهِ فِي أَوَّلِ النَّاسِ وَفِي أَوْسَطِ النَّاسِ، قَالَ: وَأَيْضًا، قَالَ:

فَبَايَعْتُهُ الثَّالِثَةَ، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا سَلَمَةُ أَيْنَ حَجَفَتُكَ أَوْ دَرَقَتُكَ الَّتِي أَعْطَيْتُكَ؟ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، لَقِيَنِي عَمِّي عَامِرٌ عَزِلًا فَأَعْطَيْتُهُ إِيَّاهَا، قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: إِنَّكَ كَالَّذِي قَالَ الْأَوَّلُ اللهُمَّ أَبْغِنِي حَبِيبًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، ثُمَّ إِنَّ الْمُشْرِكِينَ رَاسَلُونَا الصُّلْحَ حَتَّى مَشَى بَعْضُنَا فِي بَعْضٍ وَاصْطَلَحْنَا، قَالَ: وَكُنْتُ تَبِيعًا لِطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ أَسْقِي فَرَسَهُ وَأَحُسُّهُ وَأَخْدِمُهُ وَآكُلُ مِنْ طَعَامِهِ، وَتَرَكْتُ أَهْلِي وَمَالِي مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ قَالَ: فَلَمَّا اصْطَلَحْنَا نَحْنُ وَأَهْلُ مَكَّةَ وَاخْتَلَطَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ أَتَيْتُ شَجَرَةً، فَكَسَحْتُ شَوْكَهَا فَاضْطَجَعْتُ فِي أَصْلِهَا، قَالَ: فَأَتَانِي أَرْبَعَةٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَجَعَلُوا يَقَعُونَ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَبْغَضْتُهُمْ، فَتَحَوَّلْتُ إِلَى شَجَرَةٍ أُخْرَى وَعَلَّقُوا سِلَاحَهُمْ وَاضْطَجَعُوا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ نَادَى مُنَادٍ مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي يَا لِلْمُهَاجِرِينَ قُتِلَ ابْنُ زُنَيْمٍ، قَالَ: فَاخْتَرَطْتُ سَيْفِي ثُمَّ شَدَدْتُ عَلَى أُولَئِكَ الْأَرْبَعَةِ وَهُمْ رُقُودٌ، فَأَخَذْتُ سِلَاحَهُمْ فَجَعَلْتُهُ ضِغْثًا فِي يَدِي، قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ: وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ لَا يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَأْسَهُ إِلَّا ضَرَبْتُ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاهُ، قَالَ: ثُمَّ جِئْتُ بِهِمْ أَسُوقُهُمْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: وَجَاءَ عَمِّي عَامِرٌ بِرَجُلٍ مِنْ الْعَبَلَاتِ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزٌ يَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى فَرَسٍ مُجَفَّفٍ فِي سَبْعِينَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: »دَعُوهُمْ يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ وَثِنَاهُ« فَعَفَا عَنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَنْزَلَ اللهُ ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ**﴾ الْآيَةَ كُلَّهَا، قَالَ: ثُمَّ خَرَجْنَا رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَنِي لَحْيَانَ جَبَلٌ وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ، فَاسْتَغْفَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمَنْ رَقِيَ هَذَا الْجَبَلَ اللَّيْلَةَ كَأَنَّهُ طَلِيعَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، قَالَ سَلَمَةُ: فَرَقِيتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ثُمَّ قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِظَهْرِهِ مَعَ رَبَاحٍ

غُلَامِ رَسُولِ الله ﷺ وَأَنَا مَعَهُ، وَخَرَجْتُ مَعَهُ بِفَرَسِ طَلْحَةَ أُنَدِّيهِ مَعَ الظَّهْرِ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْفَزَارِيُّ قَدْ أَغَارَ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ الله ﷺ، فَاسْتَاقَهُ أَجْمَعَ وَقَتَلَ رَاعِيَهُ، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَبَاحُ خُذْ هَذَا الْفَرَسَ فَأَبْلِغْهُ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ الله، وَأَخْبِرْ رَسُولَ الله ﷺ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ أَغَارُوا عَلَى سَرْحِهِ، قَالَ: ثُمَّ قُمْتُ عَلَى أَكَمَةٍ فَاسْتَقْبَلْتُ الْمَدِينَةَ، فَنَادَيْتُ ثَلَاثًا يَا صَبَاحَاهْ، ثُمَّ خَرَجْتُ فِي آثَارِ الْقَوْمِ أَرْمِيهِمْ بِالنَّبْلِ وَأَرْتَجِزُ أَقُولُ: أَنَا ابْنُ الْأَكْوَعِ وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعِ فَأَلْحَقُ رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَصُكُّ سَهْمًا فِي رَحْلِهِ، حَتَّى خَلَصَ نَصْلُ السَّهْمِ إِلَى كَتِفِهِ، قَالَ: قُلْتُ خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْأَكْوَعِ وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعِ، قَالَ فَوَالله مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ وَأَعْقِرُ بِهِمْ، فَإِذَا رَجَعَ إِلَيَّ فَارِسٌ أَتَيْتُ شَجَرَةً فَجَلَسْتُ فِي أَصْلِهَا، ثُمَّ رَمَيْتُهُ فَعَقَرْتُ بِهِ حَتَّى إِذَا تَضَايَقَ الْجَبَلُ فَدَخَلُوا فِي تَضَايُقِهِ عَلَوْتُ الْجَبَلَ، فَجَعَلْتُ أُرَدِّيهِمْ بِالْحِجَارَةِ، قَالَ: فَمَا زِلْتُ كَذَلِكَ أَتْبَعُهُمْ حَتَّى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ بَعِيرٍ مِنْ ظَهْرِ رَسُولِ الله ﷺ إِلَّا خَلَّفْتُهُ وَرَاءَ ظَهْرِي، وَخَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَهُ ثُمَّ اتَّبَعْتُهُمْ أَرْمِيهِمْ حَتَّى أَلْقَوْا أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ بُرْدَةً وَثَلَاثِينَ رُمْحًا يَسْتَخِفُّونَ وَلَا يَطْرَحُونَ شَيْئًا إِلَّا جَعَلْتُ عَلَيْهِ آرَامًا مِنْ الْحِجَارَةِ يَعْرِفُهَا رَسُولُ الله ﷺ وَأَصْحَابُهُ، حَتَّى أَتَوْا مُتَضَايِقًا مِنْ ثَنِيَّةٍ فَإِذَا هُمْ قَدْ أَتَاهُمْ فُلَانُ بْنُ بَدْرٍ الْفَزَارِيُّ، فَجَلَسُوا يَتَضَحَّوْنَ يَعْنِي يَتَغَدَّوْنَ، وَجَلَسْتُ عَلَى رَأْسِ قَرْنٍ قَالَ الْفَزَارِيُّ: مَا هَذَا الَّذِي أَرَى؟ قَالُوا: لَقِينَا مِنْ هَذَا الْبَرْحَ وَالله مَا فَارَقَنَا مُنْذُ غَلَسٍ يَرْمِينَا حَتَّى انْتَزَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي أَيْدِينَا، قَالَ: فَلْيَقُمْ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْكُمْ أَرْبَعَةٌ، قَالَ: فَصَعِدَ إِلَيَّ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ فِي الْجَبَلِ، قَالَ: فَلَمَّا أَمْكَنُونِي مِنْ الْكَلَامِ قَالَ: قُلْتُ: هَلْ تَعْرِفُونِي؟ قَالُوا: لَا وَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَنَا سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا أَطْلُبُ رَجُلًا مِنْكُمْ إِلَّا أَدْرَكْتُهُ، وَلَا يَطْلُبُنِي رَجُلٌ مِنْكُمْ فَيُدْرِكَنِي قَالَ أَحَدُهُمْ أَنَا أَظُنُّ قَالَ فَرَجَعُوا، فَمَا بَرِحْتُ مَكَانِي حَتَّى رَأَيْتُ فَوَارِسَ

رَسُولِ الله ﷺ يَتَخَلَّلُونَ الشَّجَرَ، قَالَ: فَإِذَا أَوَّلُهُمْ الْأَخْرَمُ الْأَسَدِيُّ عَلَى إِثْرِهِ أَبُو قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيُّ، وَعَلَى إِثْرِهِ الْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ الْكِنْدِيُّ، قَالَ: فَأَخَذْتُ بِعِنَانِ الْأَخْرَمِ قَالَ: فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ، قُلْتُ: يَا أَخْرَمُ احْذَرْهُمْ لَا يَقْتَطِعُوكَ حَتَّى يَلْحَقَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَصْحَابُهُ، قَالَ: يَا سَلَمَةُ إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتَعْلَمُ أَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ فَلَا تَحُلْ بَيْنِي وَبَيْنَ الشَّهَادَةِ، قَالَ: فَخَلَّيْتُهُ فَالْتَقَى هُوَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، قَالَ: فَعَقَرَ بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ فَرَسَهُ وَطَعَنَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَقَتَلَهُ، وَتَحَوَّلَ عَلَى فَرَسِهِ، وَلَحِقَ أَبُو قَتَادَةَ فَارِسُ رَسُولِ الله ﷺ بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ، فَوَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَتَبِعْتُهُمْ أَعْدُو عَلَى رِجْلَيَّ حَتَّى مَا أَرَى وَرَائِي مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَلَا غُبَارِهِمْ شَيْئًا حَتَّى يَعْدِلُوا قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى شِعْبٍ فِيهِ مَاءٌ يُقَالُ لَهُ: ذَو قَرَدٍ لِيَشْرَبُوا مِنْهُ وَهُمْ عِطَاشٌ، قَالَ: فَنَظَرُوا إِلَيَّ أَعْدُو وَرَاءَهُمْ فَخَلَّيْتُهُمْ عَنْهُ يَعْنِي أَجْلَيْتُهُمْ عَنْهُ، فَمَا ذَاقُوا مِنْهُ قَطْرَةً قَالَ: وَيَخْرُجُونَ فَيَشْتَدُّونَ فِي ثَنِيَّةٍ، قَالَ: فَأَعْدُو فَأَلْحَقُ رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَصُكُّهُ بِسَهْمٍ فِي نُغْضِ كَتِفِهِ، قَالَ: قُلْتُ خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْأَكْوَعِ، وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعِ، قَالَ: يَا ثَكِلَتْهُ أُمُّهُ أَكْوَعُهُ بُكْرَةَ، قَالَ: قُلْتُ نَعَمْ يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ أَكْوَعُكَ بُكْرَةَ، قَالَ: وَأَرْدَوْا فَرَسَيْنِ عَلَى ثَنِيَّةٍ، قَالَ: فَجِئْتُ بِهِمَا أَسُوقُهُمَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ: وَلَحِقَنِي عَامِرٌ بِسَطِيحَةٍ فِيهَا مَذْقَةٌ مِنْ لَبَنٍ وَسَطِيحَةٍ فِيهَا مَاءٌ، فَتَوَضَّأْتُ وَشَرِبْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمَاءِ الَّذِي حَلَّأْتُهُمْ عَنْهُ، فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ قَدْ أَخَذَ تِلْكَ الْإِبِلَ وَكُلَّ شَيْءٍ اسْتَنْقَذْتُهُ مِنْ الْمُشْرِكِينَ، وَكُلَّ رُمْحٍ وَبُرْدَةٍ، وَإِذَا بِلَالٌ نَحَرَ نَاقَةً مِنْ الْإِبِلِ الَّذِي اسْتَنْقَذْتُ مِنْ الْقَوْمِ وَإِذَا هُوَ يَشْوِي لِرَسُولِ الله ﷺ مِنْ كَبِدِهَا وَسَنَامِهَا، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله خَلِّنِي، فَأَنْتَخِبُ مِنْ الْقَوْمِ مِائَةَ رَجُلٍ فَأَتَّبِعُ الْقَوْمَ فَلَا يَبْقَى مِنْهُمْ مُخْبِرٌ إِلَّا قَتَلْتُهُ، قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ فِي

ضَوْءِ النَّارِ، فَقَالَ: »يَا سَلَمَةُ أَتُرَاكَ كُنْتَ فَاعِلًا«، قُلْتُ: نَعَمْ وَالَّذِي أَكْرَمَكَ، فَقَالَ: »إِنَّهُمْ الْآنَ لَيُقْرَوْنَ فِي أَرْضِ غَطَفَانَ«، قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ غَطَفَانَ فَقَالَ: نَحَرَ لَهُمْ فُلَانٌ جَزُورًا، فَلَمَّا كَشَفُوا جِلْدَهَا رَأَوْا غُبَارًا فَقَالُوا: أَتَاكُمْ الْقَوْمُ فَخَرَجُوا هَارِبِينَ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »كَانَ خَيْرَ فُرْسَانِنَا الْيَوْمَ أَبُو قَتَادَةَ، وَخَيْرَ رَجَّالَتِنَا سَلَمَةُ«، قَالَ: ثُمَّ أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ سَهْمَيْنِ سَهْمَ الْفَارِسِ وَسَهْمَ الرَّاجِلِ، فَجَمَعَهُمَا لِي جَمِيعًا، ثُمَّ أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَاءَهُ عَلَى الْعَضْبَاءِ رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ، قَالَ فَبَيْنَمَا نَحْنُ نَسِيرُ قَالَ: وَكَانَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ لَا يُسْبَقُ شَدًّا، قَالَ: فَجَعَلَ يَقُولُ: أَلَا مُسَابِقٌ إِلَى الْمَدِينَةِ؟ هَلْ مِنْ مُسَابِقٍ؟ فَجَعَلَ يُعِيدُ ذَلِكَ، قَالَ: فَلَمَّا سَمِعْتُ كَلَامَهُ قُلْتُ: أَمَا تُكْرِمُ كَرِيمًا وَلَا تَهَابُ شَرِيفًا، قَالَ: لَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ بِأَبِي وَأُمِّي ذَرْنِي فَلِأُسَابِقَ الرَّجُلَ، قَالَ: إِنْ شِئْتَ قَالَ: قُلْتُ اذْهَبْ إِلَيْكَ وَثَنَيْتُ رِجْلَيَّ فَطَفَرْتُ فَعَدَوْتُ، قَالَ: فَرَبَطْتُ عَلَيْهِ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ أَسْتَبْقِي نَفَسِي ثُمَّ عَدَوْتُ فِي إِثْرِهِ، فَرَبَطْتُ عَلَيْهِ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ، ثُمَّ إِنِّي رَفَعْتُ حَتَّى أَلْحَقَهُ، قَالَ فَأَصُكُّهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، قَالَ: قُلْتُ قَدْ سُبِقْتَ وَاللهِ، قَالَ: أَنَا أَظُنُّ، قَالَ: فَسَبَقْتُهُ إِلَى الْمَدِينَةِ، قَالَ: فَوَاللهِ مَا لَبِثْنَا إِلَّا ثَلَاثَ لَيَالٍ حَتَّى خَرَجْنَا إِلَى خَيْبَرَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَجَعَلَ عَمِّي عَامِرٌ يَرْتَجِزُ بِالْقَوْمِ: تَاللهِ لَوْلَا اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا، وَنَحْنُ عَنْ فَضْلِكَ مَا اسْتَغْنَيْنَا، فَثَبِّتْ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا، وَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »مَنْ هَذَا؟« قَالَ: أَنَا عَامِرٌ، قَالَ: غَفَرَ لَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَمَا اسْتَغْفَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِإِنْسَانٍ يَخُصُّهُ إِلَّا اسْتُشْهِدَ، قَالَ: فَنَادَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَهُوَ عَلَى جَمَلٍ لَهُ: يَا نَبِيَّ اللهِ لَوْلَا مَا مَتَّعْتَنَا بِعَامِرٍ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا خَيْبَرَ قَالَ: خَرَجَ مَلِكُهُمْ مَرْحَبٌ يَخْطِرُ بِسَيْفِهِ، وَيَقُولُ: قد عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ، شَاكِي السِّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ، إِذَا

الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ، قَالَ: وَبَرَزَ لَهُ عَمِّي عَامِرٌ فَقَالَ: قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي عَامِرٌ، شَاكِي السِّلَاحِ بَطَلٌ مُغَامِرٌ، قَالَ: فَاخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ فَوَقَعَ سَيْفُ مَرْحَبٍ فِي تُرْسِ عَامِرٍ، وَذَهَبَ عَامِرٌ يَسْفُلُ لَهُ، فَرَجَعَ سَيْفُهُ عَلَى نَفْسِهِ فَقَطَعَ أَكْحَلَهُ فَكَانَتْ فِيهَا نَفْسُهُ، قَالَ سَلَمَةُ فَخَرَجْتُ فَإِذَا نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُونَ: بَطَلَ عَمَلُ عَامِرٍ قَتَلَ نَفْسَهُ، قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ بَطَلَ عَمَلُ عَامِرٍ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »مَنْ قَالَ ذَلِكَ؟« قَالَ: قُلْتُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِكَ، قَالَ: »كَذَبَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ؟ بَلْ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ« ثُمَّ أَرْسَلَنِي إِلَى عَلِيٍّ وَهُوَ أَرْمَدُ، فَقَالَ: »لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ أَوْ يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ«، قَالَ: فَأَتَيْتُ عَلِيًّا فَجِئْتُ بِهِ أَقُودُهُ وَهُوَ أَرْمَدُ حَتَّى أَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَبَسَقَ فِي عَيْنَيْهِ فَبَرَأَ وَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، وَخَرَجَ مَرْحَبٌ فَقَالَ: قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ، شَاكِي السِّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ، إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ، فَقَالَ عَلِيٌّ: أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ، كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمَنْظَرَهْ، أُوفِيهِمُ بِالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ، قَالَ: فَضَرَبَ رَأْسَ مَرْحَبٍ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ كَانَ الْفَتْحُ عَلَى يَدَيْهِ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ عَبْدِ الْوَارِثِ عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ عَمَّارٍ بِهَذَا الْحَدِيثِ بِطُولِهِ، و حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ الْأَزْدِيُّ السُّلَمِيُّ، حَدَّثَنَا النَّضْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ عَمَّارٍ بِهَذَا.

والشجاعة دأب العلماء والصالحين في كل مكان، فهاك عبد الله بن المبارك ذكر الذهبي في «السير» (٨/ ٤٠٨) عن عبد الله بن سنان قال: كنت مع ابن المبارك ومعتمر بن سليمان بطرسوس فصاح الناس النفير فخرج ابن المبارك والناس فلما اصطف الجمعان خرج رومي فطلب البراز فخرج اليه رجل فشد العلج عليه فقتله حتى قتل ستة من المسلمين وجعل يتبختر بين الصفين يطلب المبارزة ولايخرج إليه أحد فالتفت إلي ابن

المبارك فقال يا غلام إن قتلت فافعل كذا وكذا ثم حرك دابته وبرز للعلج فعالج معه ساعة فقتل العلج وطلب المبارزة فبرزله علج آخر فقتله حتى قتل ستة علوج وطلب البراز فكأنهم كاعوا عنه فضرب دابته وطرد بين الصفين ثم غاب فلم نشعر بشيء وإذا أنا به في الموضع الذي كان فقال لي يا عبدالله لئن حدثت بهذا أحدا وأنا حي فذكر كلمة

قال أبو صالح الفراء سألت ابن المبارك عن كتابة العلم فقال لولا الكتاب ما حفظنا وسمعته يقول الحبر في الثوب خلوق العلماء

وقال تواطؤ الجيران على شيء أحب إلي من شهادة عدلين

وقيل إن ابن المبارك مر براهب عند مقبرة ومزبلة فقال ياراهب عندك كنز الرجال وكنز الأموال وفيهما معتبر

وقد تفقه ابن المبارك بأبي حنيفة وهو معدود في تلامذته

وكان عبدالله غنيا شاكرا رأس ماله نحو الأربع مائة ألف قال حبان بن موسى رأيت سفرة ابن المبارك حملت على عجلة

وقال أبو إسحاق الطالقاني رأيت بعيرين محملين دجاجا مشويا لسفرة ابن المبارك

وروى عبدالله بن عبدالوهاب عن محمد بن عبدالرحمن بن سهم قال كنت مع ابن المبارك فكان يأكل كل يوم فيشوي له جدي ويتخذ له فالوذج فقيل له في ذلك فقال إني دفعت الى وكيلي ألف دينار وأمرته أن يوسع علينا .

قال الحسن بن حماد دخل أبو أسامة على ابن المبارك فوجد في وجه عبدالله أثر الضر فلما خرج بعث إليه أربعة آلاف درهم وكتب إليه:

وفتى خلا من ماله ... ومن المروءة غير حال

أعطـــــاك قبـــــل ســـــؤاله وكفـــــاك مكـــــروه الســـــؤال

وقال المسيب بن واضح أرسل ابن المبارك الى أبي بكر بن عياش أربعة آلاف درهم فقال سد بها فتنة القوم عنك.

قال علي بن خشرم: قلت لعيسى بن يونس كيف فضلكم ابن المبارك ولم يكن بأسن منكم قال كان يقدم ومعه الغلمة الخراسانية والبزة الحسنة فيصل العلماء ويعطيهم وكنا لا نقدر على هذا

قال نعيم بن حماد قدم ابن المبارك أيله على يونس بن يزيد ومعه غلام مفرغ العمل الفالوذج يتخذه للمحدثين.

قال الحسن بن الربيع لما احتضر ابن المبارك في السفر قال أشتهي سويقا فلم نجده إلا عند رجل كان يعمل للسلطان وكان معنا في السفينة فذكرنا ذلك لعبدالله فقال دعوه فمات ولم يشربه.

قال العلاء بن الأسود ذكر جهم عند ابن المبارك فقال:

عجبـت لشـيطان أتـى النـاس داعيـا إلى النـار وانشـق اسـمه مـن جهـنم

قال أحمد بن جميل المروزي: قيل لابن المبارك إن إسماعيل بن عليه قد ولي القضاء فكتب إليه:

يـــا جاعـــل العلـــم لـــه بازيـــا يصـــطاد أمـــوال المســـاكين

احتلـــت للـــدنيا ولـــذاتها بحيلـــة تـــذهب بالـــدين

فصـرت مجنونـا بهـا بعـدما كنـت دواء للمجـانين

أيـــن رواياتـــك في سردهـــا عـــن ابـــن عـــون وابـــن سريـــن

أيـــن رواياتـــك فـــيما مضى في تـــرك أبـــواب الســـلاطين

إن قلت أكرهت فيما ذا كذا ... زل حمار العلم في الطين

وروى عبدالله بن محمد قاضي نصيبين حدثنا محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة قال أملى علي ابن المبارك سنة سبع وسبعين ومئة وأنفذها معي الى الفضل بن عياض من طرسوس:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب جيده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي وغبار خيل الله في ... أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب

فلقيت الفضيل بكتابه في الحرم فقرأه وبكى ثم قال صدق أبو عبدالرحمن ونصح

قال ابن سهم الأنطاكي سمعت ابن المبارك ينشد:

فكيف قرت لأهل العلم أعينهم ... أو استلذوا لذيذ النوم أو هجعوا
والنار ضاحية لابد موردها ... وليس يدرون من ينجو ومن يقع
وطارت الصحف في الأيدي منشرة ... فيها السرائر والجبار مطلع
إما نعيم وعيش لا انقضاء له ... أو الجحيم فلا نبقي ولا تدع
تهوى بساكنها طورا وترفعه ... إذا رجوا مخرجا من غمها قمعوا
لينفع العلم قبل الموت عالمه ... قد سال قوم بها الرجعى فما رجعوا

وروى اسحاق بن سنين لابن المبارك:

إني امرؤ ليس في ديني لغامره لين ... ولست على الإسلام طعانا
فلا أسب أبا بكر ولا عمرا ... ولن أسب معاذ الله وعثمانا
ولا ابن عم رسول الله أشتمه ... حتى ألبس تحت الترب أكفانا
ولا الزبير حوارى الرسول ولا ... أهدي لطلحة شتما عز أوهانا
ولا أقول علي في السحاب إذا ... قد قلت والله ظلما ثم عدوانا
ولا أقول بقول الجهم إن له ... قولا يضارع أهل الشرك أحيانا
ولا أقول تخلى من خليقته ... رب العباد وولى الأمر شيطانا
ما قال فرعون هذا في تمرده ... فرعون موسى ولا هامان طغيانا
الله يدفع بالسطان معضلة ... عن ديننا رحمة منه ورضوانا
لولا الأئمة لم تأمن لنا سبل ... وكان أضعفنا نهبا لأقوانا

فيقال: إن الرشيد أعجبه هذا فلما أن بلغه موت ابن المبارك بهيت قال إنا لله وإنا أليه راجعون يا فضل إيذن للناس يعزونا في ابن المبارك وقال أما هو القائل الله يدفع بالسطان معضلة فمن الذي يسمع هذا من ابن المبارك ولايعرف حقنا.

ولابن المبارك:

جربت نفسي فما وجدتها لها ... من بعد تقوى الأله كالأدب
في كل حالاتها وإن كرهت ... أفضل من صمتها عن الكذب
أو غيبة الناس إن عيبتهم ... حرمها ذو الجلال في الكتب
قلت لها طائعا وأكرهها ... الحلم والعلم زين ذي الحسب
إن كان من فضة كلامك يا ... نفس فإن السكوت من ذهب

قال أبو العباس السراج أنشدني يعقوب بن محمد لابن المبارك:

أبـــإذن نزلـــت بي يـــا مشـــيب ... أي عـــيش وقـــد نزلـــت يطيـــب
وكفـــى الشـــيب واعظـــا غـــير أني ... آمـــل العـــيش والمـــمات قريـــب
وكـــم أنـــادي الشـــباب إذ بـــان وبـــه ... منـــي ونـــدائي موليـــا مـــا يجيـــب
ياعائـــــب الفقـــــر ألا تزدجـــــر ... عيـــب الغنـــى أكثـــر لـــو تعتـــبر
مـــن شرف الفقـــر ومـــن فضـــله ... عـــلى الغنـــى لـــو صـــح منـــك النظـــر
أنـــك تعصيـــ لتنـــال الغنـــى ... ولـــيس تعصيـــ الله كـــي تفتقـــر

قال حبان بن موسى سمعت ابن المبارك ينشد:

كيـف القـرار وكيـف يهـدأ مسـلم ... والمسـلمات مـع العـدو المعتـدي
الضـــاربات خـــدودهن برنـــة ... الـــداعيات نبـــيهن محمـــد
القـــائلات إذا خشـــين فضـــيحة ... جهـــد المقالـــة ليتنـــا لم نولـــد
مـــا تســـتطيع ومالهـــا مـــن حيلـــة ... الا التســـتر مـــن أخيهـــا باليـــد

وذكر (١٣/ ٣٨) قال إبراهيم بن شماس: كنت اكاتب أحمد بن إسحاق السرماري فكتب الي إذا اردت الخروج إلى بلاد الغزية في شراء الاسرى فاكتب الي فكتبت اليه فقدم سمرقند فخرجنا فلما علم جعبويه استقبلنا في عدة من جيوشه فاقمنا عنده فعرض يوما جيشه فمر رجل فعظمه وخلع عليه فسالني عنه السرماري فقلت هذا رجل مبارز يعد بالف فارس قال انا ابارزه فسكت فقال جعبويه ما يقول هذا قلت يقول كذا وكذا قال لعله سكران لا يشعر ولكن غدا نركب فلما كان الغد ركبوا فركب السرماري معه عمود في كمه فقام بازاء المبارز فقصده فهرب أحمد حتى باعده من الجيش ثم كر وضربه بالعمود قتله وتبع إبراهيم بن شماس لانه كان سبقه فلحقه وعلم جعبويه فجهز في طلبه خمسين فارسا نقاوة فادركوا فثبت تحت تل مختفيا حتى مروا كلهم واحدا بعد واحد

وجعل يضرب بعموده من ورائهم إلى ان قتل تسعة وأربعين وامسك واحدا قطع انفه واذنيه واطلقه ليخبر ثم بعد عامين توفي أحمد وذهب ابن شماس في الفداء فقال له جعبويه من ذاك الذي قتل فرساننا قال ذاك أحمد السرماري قال فلم لم تحمله معك قلت توفي فصك في وجهي وقال لو اعلمتني انه هو لكنت اعطيه خمس مئة برذون وعشرة الاف شاه .

وعن بكر بن منير قال رايت السرماري أبيض الراس واللحية ضخما مات بقريته فبلغ كراء الدابة اليها عشرة دراهم وخلف ديونا كثيرة فكان غرماؤه ربما يشترون من تركته حزمة القصب بخمسين درهما إلى مئة حبا له فما رجعوا حتى قضي دينه.

عن عمران بن محمد المطوعي سمعت أبي يقول كان عمود المطوعي السرماري وزنه ثمانية عشر منا فلما شاخ جعله اثني عشر منا وكان به يقاتل.

قال غنجار سمعت محمد بن خالد وأحمد بن محمد قالا سمعنا عبد الرحمن بن محمد بن جرير سمعت عبيد الله بن واصل سمعت أحمد السرماري يقول واخرج سيفه فقال اعلم يقينا أني قتلت به الف تركي وان عشت قتلت به الفا اخرى ولولا خوفي ان يكون بدعه لامرت ان يدفن معي.

وعن محمود بن سهل الكاتب قال كانوا في بعض الحروب يحاصرون مكانا ورئيس العدو قاعد على صفة فرمى السرماري سهما فغرزه في الصفة فأوما الرئيس لينزعه فرماه بسهم اخر خاط يده فتطاول الكافر لينزعه من يده فرماه بسهم ثالث في نحره فانهزم العدو وكان الفتح.

قلت: أخبار هذا الغازي تسر قلب المسلم.

قال الحافظ أبو القاسم الدمشقي توفي في شهر ربيع الاخر سنة اثنتين وأربعين ومئتين رحمه الله تعالى فانه كان مع فرط شجاعته من العلماء العاملين العباد

قال ولده أبو صفوان وهب المأمون لأبي ثلاثين الفا وعشرة أفراس وجارية فلم يقبلها.

وقد تقدمت ترجمة الإمام أحمد وما فيها من الصدع بالحق والشجاعة في أوجه كل من عاند الحق، فقد تأملت من ينصر الدين فرأيته من اجتمع فيه الشجاعة والغيرة، فشجاعة بدون غيره لا يبالي صاحبها بما حدث في الدين حاله نفسي نفسي.

وغيرة بلا شجاعة لا يستطيع أن يبث ما في قلبه خوفًا وخورًا، لكن إن اجتمعت الغيرة مع الشجاعة فحال الداعي إلى الله كما قال خبيب:

ولست أبالي حين اقتل مسلمًا		على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشاء		يبارك على أوصال شلوٍ ممزع

وقد تقدمت مناظرة شيخ الإسلام للأحمديه، وما فيها من البسالة والشجاعة فتأمل.

وما هذا إلا موقف من المواقف التي انتصر فيها الحق وأهله بسبب شجاعة هذا الإمام على نشر الحق والسنة.

وشيخنا مقبل رحمه الله لما خرج في بيئة شيعية هدد وسجن إلى غير ذلك، ولولا الله ثم اجتماع الشجاعة والغيره فيه ما أنتشر هذا الخير.

وقد تقدم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مواقف كثيرة عن سفيان يتبين بها شجاعته وإقدامه، بل اعلم أنه لا يستطيع أحد أن يغير منكرًا إلا إذا كان شجاعًا وأن ينصح إلا إذا كان شجاعًا، وإلا فإن الشيطان يبث الرعب في القلوب من أوليائه كما

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥].

التاسعة والعشرون: صيانة الأعراض وحفظ الحرمات.

تقدم في الفقرة السابقة الكلام عن الشجاعة ودورها في نشر دعوة الحق، وذكرنا وجه التلازم بينها وبين الغيرة في هذا الباب، وعلمنا أن الحق إنما ينصره الشجاع في دين الله، الغيور على محارم الله، ولذلك كان رسول الله ﷺ أشد غيرة من غيره كما عند البخاري (٧٤١٦)، ومسلم وفيه: عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ لَوْ رَأَيْتُ رَجُلاً مَعَ امْرَأَتِى لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفِحٍ عَنْهُ. فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ « أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ فَوَاللَّهِ لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّى مِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللَّهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ وَلاَ شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ اللَّهُ الْمُرْسَلِينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَلاَ شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْجَنَّةَ ».

وهي من أعظم منازل العبادة قال ابن القيم رحمه الله: ومن منازل إياك نعبد وإياك تستعين منزله الغيرة.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[لأعراف:٣٣]، وفي الصحيح عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود (٢٧٦٠) قال رسول الله ﷺ: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنْ اللهِ أَنْ يَرَى عَبْدَهُ أَوْ أَمَتَهُ تَزْنِي، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»، وفيه: وما أحد أحب إليه المدح من الله.

وفي الصحيح عن أبي سلمة عن أبي هريرة ومسلم (٢٧٦١) أن رسول الله ﷺ قال:

«إن الله يغار وإن المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي العبد ما حرم الله«.

وفي الصحيح أيضًا أن النبي ﷺ قال: «أتعجبون من غيرة سعد؛ لأنا أغير منه والله أغير مني«.

والغيرة منزلة شريفة عظيمة جليلة المقدار، والغيرة نوعان: غيرة العبد من نفسه على نفسه كغيرته من نفسه على قلبه، ومن تفرقته على جمعه، ومن إعراضه على إقباله، ومن صفاته المذمومة على صفاته الممدوحة، وهذه الغيرة خاصية النفس الشريفة الزكية العلوية، وما للنفس الدنية المهيمنة فيها نصيب، وعلى قدر شرف النفس وعلو همتها تكون هذه الغيرة.

ثم الغيرة أيضًا نوعان غيره الحق تعالى على عبده وغيره العبد لربه لا عليه.

فأما غيرة الرب على عبده فهي أن لا يجعله للخلق عبدًا، بل يتخذه لنفسه عبدًا فلا يجعل له فيه شركاء متشاكسين، بل يفرد يفرده لنفسه ويضن به على غيره وهذا أعلى الغيرتين.

قلت: يدل على ذلك ما تقدم من حديث ابن مسعود وحديث عائشة عند الشيخين البخاري (١٠٢٤)، ومسلم (٩٠١) قالت: ثم انصرف وقد تجلت الشمس فخطب الناس فحمد الله واثنى عليه.

ثم قال: »إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله، لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَادْعُوا اللهَ وَكَبِّرُوا وَتَصَدَّقُوا«، وفيه: »يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَالله مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرَ مِنْ الله أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَالله لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا«.

فحرمة الفواحش وقعت من الله عز وجل من شدة غيرته أن تنتهك محارمه عز وجل.

قال رحمه الله: وغيرة العبد لربه نوعان: غيرة من نفسه وغيره من غيره، فالتي من نفسه ألا يجعل شيئًا من أقواله وأعماله وأحواله وأوقاته وأنفاسه لغير ربه، والتي من غيره أن يغضب لمحارمه إذا انتهكها المنتهكون، والحقوق إذا تهاون بها المتهاونون.

قلت: وهذه هي الغيرة الحاملة للداعي إلى الله عز وجل على الغضب والنصح إذا انتهكت محارم الله عز وجل، فرسول الله ﷺ كما في حديث عائشة عند البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧) قالت: ما خير رسول الله بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله بها.

ومن حديثها عند مسلم (٢٣٢٨) قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قط بيده ولا امرأة ولا خادمًا إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما ينال منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله عز وجل.

فالغيرة صفة حميدة جميلة تحمل صاحبها على تغير المنكر، وبذل الحق ولو على حساب نفسه التي بين جنبيه كما في حديث أبي هريرة عند مسلم (١٩٥١): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »مَا تَعُدُّونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ؟« قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، قَالَ: »إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ«، قَالُوا: فَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: »مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ«، قَالَ ابْنُ مِقْسَمٍ: أَشْهَدُ عَلَى أَبِيكَ

فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ قَالَ: وَالْغَرِيقُ شَهِيدٌ.

ومن حديث سعيد بن زيد عند أبي داود (٤٧٧٢) قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ومن قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون عرضه فهو شهيد».

وهل يحصل هذا إلا لمن توفرت فيه الغيرة والشجاعة.

فعلى الدعاة إلى الله عز وجل إن لم يكن لدى أحدهم غيرة جبلية على حدود الله عز وجل ودينه أن ينمي هذه الغيرة بالنظر في كتب السلف وتراجمهم، كيف كان يقوم أحدهم لتغيير المنكر بضوابطه الشرعية، ومع ذلك لا ينظروا ولا يتقهقروا إلى الوراء.

الثلاثون: كانوا يقولون المداراة نصف العقل، وأنا أقول هي العقل كله، قاله الحسن.

قال الخطابي كما في «الآداب الشرعية»:

ما دمت حيًا فدار الناس كلهم		فإنما أنت في دار المداراة
من يدرِ داري ومن لم يدر سوف يرى		عما قليل نديمًا للندامات

قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾[هود: ٨٤-٨٦].

وقال في شأن إبراهيم ومداراته لأبيه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ

جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[مريم: ٤١-٤٧].

وقال الله عز وجل لموسى: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٢-٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[لقمان: ١٤-١٥].

وقال في شأن مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ * وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[غافر: ٢٨-٣٣].

وقال الله عز وجل آمرًا نبيه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ

﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[النحل:١٢٥]

ومن الحكمة المدارة.

وأخرج البخاري (٣٣٠٨)، ومسلم (٢٥٩١): عَنْ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ يَقُولُ: حَدَّثَتْنِي عَائِشَةُ أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: »ائْذَنُوا لَهُ فَلَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ، أَوْ بِئْسَ رَجُلُ الْعَشِيرَةِ«، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَلَانَ لَهُ الْقَوْلَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله قُلْتَ لَهُ الَّذِي قُلْتَ ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ الْقَوْلَ، قَالَ: »يَا عَائِشَةُ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ وَدَعَهُ أَوْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ«، حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ كِلَاهُمَا عَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ ابْنِ الْمُنْكَدِرِ فِي هَذَا الْإِسْنَادِ مِثْلَ مَعْنَاهُ، غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ: »بِئْسَ أَخُو الْقَوْمِ وَابْنُ الْعَشِيرَةِ«.

وأخرج في صحيحه (٦١٣١)، ومسلم (١٠٥٨): عَنْ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ أَنَّهُ قَالَ: قَسَمَ رَسُولُ الله ﷺ أَقْبِيَةً وَلَمْ يُعْطِ مَخْرَمَةَ شَيْئًا، فَقَالَ مَخْرَمَةُ: يَا بُنَيَّ انْطَلِقْ بِنَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ قَالَ: ادْخُلْ فَادْعُهُ لِي، قَالَ: فَدَعَوْتُهُ لَهُ فَخَرَجَ إِلَيْهِ وَعَلَيْهِ قَبَاءٌ مِنْهَا، فَقَالَ: خَبَأْتُ هَذَا لَكَ، قَالَ فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ رَضِيَ مَخْرَمَةُ.

فالمدارة للناس قد تكون بالابتسامة والإنت الجانب كما في حديث عائشة، وإن كان المداري فيه شر، ولكن كما قيل: هنانيك بعض الشر أهون من بعض، وكلما استطاع المراء أن يقلل اعدائه الظاهرين فليصنع ذلك فإنه من الدين كما سترى إن شاء الله، وقد تكون المدارة بالمال كما في قصة المسور.

فمن استطاع أن يدفع عن عرضه بماله، فعل مدارة للناس، فقد صحح الإمام الألباني حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «ذودوا عن أعراضكم بالمال«، وكم كان رسول الله ﷺ

يدارى المنافقين، وكذلك المؤلفة قلوبهم، حتى أنه أعطى الأقرع مئة من الأبل، وغيره مثله كما في حديث رافع بن خديج عند مسلم (١٠٦٠): عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ قَالَ: أَعْطَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وَصَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ وَعُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ وَالْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مِائَةً مِنْ الْإِبِلِ، وَأَعْطَى عَبَّاسَ بْنَ مِرْدَاسٍ دُونَ ذَلِكَ، فَقَالَ عَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ:

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعُبَيْدِ ... بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعِ

فَمَا كَانَ بَدْرٌ وَلَا حَابِسٌ ... يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ فِي الْمَجْمَعِ

وَمَا كُنْتُ دُونَ امْرِئٍ مِنْهُمَا ... وَمَنْ تَخْفِضْ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعِ

قَالَ: فَأَتَمَّ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِائَةً.

وفي حديث أنس عندهما البخاري (٣١٤٩)، ومسلم (١٠٥٧) واللفظ له عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَلَيْهِ رِدَاءٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً، نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عُنُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ.

وقد تكون المدارة بالقول كما في حديث عائشة المتقدم حيث قالت: وألان له الحديث.

وقد تكون مدارته بقبول شفاعته وإجابة دعوته وغير ذلك.

قال الحافظ رحمه الله (١٠/٥٤٥) قَالَ ابْن بَطَّال : الْمُدَارَاة مِنْ أَخْلَاق الْمُؤْمِنِينَ ، وَهِيَ خَفْض الْجَنَاح لِلنَّاسِ وَلِين الْكَلِمَة وَتَرْك الْإِغْلَاظ لَهُمْ فِي الْقَوْل وَذَلِكَ مِنْ أَقْوَى أَسْبَاب الْأُلْفَة . وَظَنَّ بَعْضهمْ أَنَّ الْمُدَارَاة هِيَ الْمُدَاهَنَة فَغَلَطَ ؛ لِأَنَّ

الْمُدَارَة مَنْدُوب إِلَيْهَا وَالْمُدَاهَنَة مُحَرَّمَة ، وَالْفَرْق أَنَّ الْمُدَاهَنَة مِنْ الدِّهَان وَهُوَ الَّذِي يَظْهَر عَلَى الشَّيْء وَيُسْتَر بَاطِنه ، وَفَسَّرَهَا الْعُلَمَاء بِأَنَّهُ مُعَاشَرَة الْفَاسِق وَإِظْهَار الرِّضَا بِمَا هُوَ فِيهِ مِنْ غَيْر إِنْكَار عَلَيْهِ ، وَالْمُدَارَاة هِيَ الرِّفْق بِالْجَاهِلِ فِي التَّعْلِيم وَبِالْفَاسِقِ فِي النَّهْي عَنْ فِعْله ، وَتَرْك الْإِغْلَاظ عَلَيْهِ حَيْثُ لَا يَظْهَر مَا هُوَ فِيهِ ، وَالْإِنْكَار عَلَيْهِ بِلُطْفِ الْقَوْل وَالْفِعْل ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا احْتِيجَ إِلَى تَأَلُّفه وَنَحْو ذَلِكَ .

وفي معلقه زهير:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة		يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

وقال ابن حبان في «روضة العقلاء» (٧١-٧٢) مبينًا فائدة من فوائد المدارة: من التمس رضا جميع الناس التمس ما لا يدرك، ولكن يقصد العاقل رضا من لا يجد من معاشرته بدا، وإن دفعه الوقت إلى استحسان أشياء من العادات كان يستقبحها، واستقباح أشياء كان يستحسنها ما لم يكن مأثمًا.

فإن ذلك من المداره، وما أكثر من دارى فلم يسلم، فكيف توجد السلامة لمن لا يداري. أهـ

وكذلك طالب العلم يجب عليه أن يداري شيخه ليستفيد منه.

والداعي يداري سلطانه حتى لا تقع بينهم الوحشة.

فقد قال أبو يوسف كما في «الأداب الشرعية» (٣/ ٤٧٧): خمسة يجب على الناس مدارتهم: الملك المسلط، والقاضي المتأول، والمريض، والمرأة، والعالم ليقبس من علمه. أهـ

قال الشافعي رحمه الله:

لما عفوت ولم أحقد على أحد		أرحت نفسي من هم العداوت
إني أحيي عدوي عند رؤيته		لأدفع الشر عني بالتحيات

وأظهر البشر للإنسان ابغضه		كأنما قد حشى قلبي محبات
الناس داءً وداء الناس قربهم		وفي اعتزالهم قطع المودات

«أدب الدنيا والدين» (٢٢٣).

وعلى الداعي إلى الله عز وجل أن يحذر من المداهنة ويظنها مداراة.

قال ابن القيم في «الروح» (٢٠٨): المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما أن المداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على باطله ويتركه على هواه، فالمدارة لأهل الإيمان والمداهنة لأهل النفاق. أهـ

وقال ابن حبان كما في «روضة العقلاء» (٧٠): الواجب على العاقل أن يلزم المدارة مع من دفع إليه في العشرة من غير مفارقة المداهنة، إذ المدارة من المداري صدقة له، والمداهنة من المداهن تكون خطيئة عليه.

والفصل بين المدارة والمداهنة هو أن يجعل المرء وقته في رياضة لإصلاح الوقت الذي هو له مقيم بلزوم المدارة، من غير ثلم في الدين من جهة من الجهات.

فمتى ما تخلق الإنسان بخلق شابه بعض ما كره الله منه في تخلقه، فهذه هي المداهنة؛ لأن عاقبتها تصير إلى قل، ويلازم المدارة لأنها تدعوا إلى إصلاح أحواله، ومن لم يدار الناس ملوه، وقد أنشد علي بن محمد البسامي:

دار من الناس ملالاتهم		من لم يدار الناس ملوه
ومكرم الناس حبيب لهم		من أكرم الناس أحبوه

فالواجب على العاقل أن يداري الناس مدارة الرجل السابح في الماء الجاري، ومن

ذهب إلى عشرة الناس من حيث هو كدر على نفسه عيشه، ولم تصف مودتهم؛ لأن ود الناس لا يستجلب إلا بمساعدتهم على ما هم عليه، إلا أن يكون مأثمًا، فإذا كانت حاله معصية فلا سمع ولا طاعة. أهـ

والملاحظ للساحة الدعوية اليوم يرى أن الدعاة في هذا الباب ثلاثة أصناف: طرفان ووسط، فصنف لا يداري ولا يداهن، ويكون شديد الوطئه على العباد والبلاد، بغلظته وفضاضته، لا يعرف السلم ولا الحلم، وغالبًا ما ينقطع صاحب هذا الفكر ويصل إلى الغلو والجفاء، فيُزدرى ويحتقر ويجفى فلا يشكر، فنعوذ بالله ممن كان هذا حاله، ترك هدي النبي ﷺ خلف ظهره، واتخذ من طريقة الخوارج ديدنًا فاللهم سلم.

وصنف يداهن ويظنها مدارة، وهو في غيه يسبح، صار مجالسًا لأهل البدع منافحًا ومدافعًا عنهم، من أجل أن يوضع له القبول، وهيهات كيف يُقبل بين الناس وهو مخالف لشرع الله وهدي نبيه، وطريقة السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وغالبًا على هذا الصنف أنه ينقطع بالتمييع وعدم ثقة الناس في دعوته، وما حصل له هذا إلا لأنه ما حفظ الله فلم يحفظه، وما نصر الله فلم ينصره، وجالس المبطلين فأتلفوه، وبالباطل غطوه ولحفوه، وعن الحق والهدى صرفوه، فحاله كما قيل: لا للحق نصر ولا للباطل كسر.

والوسط هم المنصورون الغالبون العالمون العاملون، داروا الناس اتباعًا لأسوتهم من الأنبياء والصالحين والعلماء المصلحين، وخالفوا الغلاة والجفاه فسلمهم الله من الأهواء المضلة والفتن المدلهمة، حالهم:

أرض عن المرء ما أصفي مودته		وليس شيء من البغضاء يرضيني

وهؤلاء هم السلفيون السائرون على طريقة النبي ﷺ وأصحابه الكرام ومن تبعهم من الأئمة الإعلام حريصون على هداية الخلق وإظهار الحق.

قال الشاطبي في الاعتصام - (ج ١ / ص ١١٣)

قال الإمام أبا بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي الحافظ الجرجاني : كنت أبغض الناس فيمن يقرأ علم الكلام فدخلت يوما إلى الري ودخلت جامعها أول دخولي واستقبلت سارية أركع عندها وإذا بجواري رجلان يتذكران علم الكلام فتطيرت بهما وقلت : أول ما دخلت هذا البلد سمعت فيه ما أكره وجعلت أخفف الصلاة حتى أبعد عنهما فعلق بي من قولهما : إن هؤلاء الباطنية أسخف خلق الله عقولا وينبغي للنحرير أن لا يتكلف لهم دليلا ولكن يطالبهم بلم فلا قبل لهم بها وسلمت مسرعا

وشاء الله بعد ذلك أن كشف رجل من الإسماعيلية القناع في الإلحاد وجعل يكاتب وشمكير الأمير يدعوه إليه ويقول له : إني لا أقبل دين محمد إلا بالمعجزة فإن أظهرتموها رجعنا إليكم وانجرت الحال إلى أن اختاروا منهم رجلا له دهاء ومنة (أي قوة) فورد على وشمكير رسولا فقال له : إنك أمير ومن شأن الأمراء والملوك أن تتخصص عن العلوم ولا تقلد أحدا في عقيدة وإنما حقهم أن يفصحوا عن البراهين فقال وشمكير : أختار رجلا من أهل مملكتي ولا أنتدب للمناظرة بنفسي فيناظرك بين يدي فقال له الملحد : اختر أبا بكر الإسماعيلي لعلمه بأنه ليس من أهل علم التوحيد وإنما كان إماما في الحديث ولكن كان وشمكير ـ لعاميه فيه ـ يعتقد أنه أعلم أهل الأرض بأنواع العلوم فقال وشمكير : ذلك مرادي فإنه رجل جيد فأرسل إلى أبي بكر الإسماعيلي بجرجان ليرحل إليه إلى غزنه فلم يبق من العلماء أحد إلا يئس من الدين وقال سيبهت الإسماعيلي

الكافر مذهبا الإسماعيلي الحافظ مذهبا ولم يمكنهم أن يقولوا للملك : إنه لا علم عنده بذلك لئلا يتهمهم فلجأوا إلى الله في نصر دينه

قال الإسماعيلي الحافظ : فلما جائني البريد وأخذت في المسير وتدانت لي الدار قلت : إنا لله وكيف أناظر فيما لا أدري ؟ هل أتبرأ عند الملك وأرشده إلى من يحسن الجدل ويعلم بحجج الله على دينه ؟ ندمت على ما سلف من عمري إذا لم أنظر في شيء من علم الكلام ثم أذكرني الله ما كنت سمعته من الرجلين بجامع الري فقويت نفسي وعولت على أن أجعل ذلك عمدتي وبلغت البلد فتلقاني الملك ثم جميع الخلق وحضر الإسماعيلي المذهب مع الإسماعيلي النسب وقال الملك للباطني : أذكر قولك يسمعه الإمام فلما أخذ في ذكره واستوفاه قال له الحافظ : لم ؟ سمعها الملحد قال : هذا إمام قد عرف مقالتي ففهمت قال الإسماعيلي : فخرجت من ذلك الوقت وأمرت بقراءة علم الكلام وعملت أنه عمدة من عمد الإسلام

قال ابن العربي : وأنا حين انتهى بي الأمر إلى ذلك قلت : إن كان في الأجل تنفس فهذا شبيه بيوم الإسماعيلي فوجهت إلى أبي الفتح الكلام وقلت له : لقد كنت في لا شيء ولو خرجت من عكا قبل أن أجتمع بهذا العالم ما رحلت إلا عريا عن نادرة الأيام ونظر إلى حذقه بالكلام ومعرفته حيق قال لي : أي شيء هو الله ؟ ولا يسأل بمثل هذا إلا مثله ولكن بقيت ها هنا نكتة لا بد من أن نأخذها اليوم عنه وتكون ضيافتنا عنده لم قلت : أي شيء هو الله فاقتصرت من حروف الاستفهام على أي وتركت الهمزة وهل وكيف وأنى وكم وما هي أيضا من ثواني حروف الاستفهام وعدلت عن اللام من حروفه وهذا سؤال ثان عن حكمة ثانية وهو أن لـ أي معنيين في الاستفهام فأي المعنيين قصدت بها ؟

ولم سألت بحرف محتمل ؟ ولم تسأل بحرف مصرح بمعنى واحد ؟ هل وقع ذلك بغير علم ولا قصد حكمة ؟ أم بقصد حكمة ؟ فبينها لنا

فما هو إلا أن افتتحت هذا الكلام وانبسطت فيه وهو يتغير حتى اصفر آخرا من الوجل كما اسود أولا من الحقد ورجع أحد أصحابه الذي كان عن يمينه إلى آخر كان بجانبه وقال له : ما هذا الصبي إلا بحر زاخر من العلم ما رأينا مثله قط وهم ما رأوا واحدا به رمق إلا أهلكوه لأن الدولة لهم ولولا مكاننا من رفعة دولة ملك الشام ووالي عكا كان يحظينا ما تخلصت منهم في العادة أبدا

وحين سمعت تلك الكلمة من إعظامي قلت : هذا مجلس عظيم وكلام طويل يفتقر إلى تفصيل ولكن نتواعد إلى يوم آخر وقمت وخرجت فقاموا كلهم معي وقالوا : لا بد أن تبقى قليلا فقلت : لا وأسرعت حافيا وخرجت على الباب أعدو حتى أشرفت على قارعة الطريق وبقيت هناك مبشرا نفسي بالحياة حتى خرجوا بعدي وأخرجوا لي (لا يكي) ولبستها ومشيت معهم متضاحكا ووعدوني بمجلس آخر فلم اوف لهم وخفت وفاتي في وفائي

الواحدة والثلاثون: من ثبت نبت.

قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[الفرقان:٣٢].

وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢].

وقال: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ

الْحَقُّ﴾[هود:١٢٠].

وقال تعالى مبينًا حال الكفار مع رسول الله ﷺ ومحاولتهم زعزعته عن العقيدة الحقة، عقيدة التوحيد: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ [الاسراء: ٧٣-٧٥].

وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[ابراهيم:٢٧].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧].

فالثبات شعيرة مرغب فيها أيما ترغيب، فكما ترى أنزل الله الكتاب مفرقًا منجمًا من أجل تثبيت المؤمنين على دينهم الحق.

وكذلك القصص التي ذكرها في القرآن من أحوال الأنبياء مع قومهم المراد منه تثبيت أهل الحق على دينهم وصبرهم على الأذى فيه، سواءً في تعلمه والعمل به أو في تبليغه.

وبين الله عز وجل مكر الماكرين من الكافرين وغيرهم في زحزحة المؤمن والسلفي عن عقيدته الحقة بشتى الوسائل، وإن سار الداعي في صفهم واقتفى سيرهم، فبشراه بالمقت والخزي.

ثم بين الله عز وجل أن الثبات منه وحده، فله الحمد والمنة على تسديده وإلهامه وتوفيقه.

واعلم أيها الداعي إلى الله عز وجل على بصيرة ونور أنه ما دعى إلى الله عز وجل أحد إلا وكثر خُذَّاله، وكذا المترصدين له، والمتربصين به فإن سلم منهم وثبت على الدين الحق وصل:

لا تقـــل قـــد ذهبـــت أربابـــه		كـل مـن سـار عـلى الـدرب وصـل

ومن صدقهم في باطلهم واستسلم لشرورهم انقطع، ولكن المثبت من ثبته الله عز وجل.

أسباب الزيغ

وأكبر المترصدين للمؤمنين عمومًا وللدعاة خصوصًا هو الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً * لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾ [النساء: ١١٧-١١٨].

وقال الله عز وجل مبينًا حرص الشيطان وترصده لزعزعة المؤمنين عن دينه: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الاسراء:٦٢].

وقال مقسمًا بربه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [صّ: ٨٢-٨٣].

وله طرق في هزيمة الناس وزعزعتهم عن دينهم، إما بالتخويف، وإما بالعجب والرياء، وإما بالسائمة، وإما وإما ... فعلى المؤمن الداعي وغيره أن يكون حذرًا من هذا العدو الذي قال الله آمرًا بالحذر منه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً﴾[فاطر:٦].

وكذلك مما يصرف الإنسان عن الثبات الركون إلى المبطلين من الكافرين والمبتدعين،

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦].

فإن عجزوا عن إزاغة صاحب الحق بالمال لمزوه بالألقاب البذيئة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[الحجر: ١٠-١١].

وقال كذلك: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذريات:٥٢]، ومع ذلك لو صبر الداعي إلى الله عز وجل لوصل.

وما انقطع أبدًا لأن ترصدهم ما هو إلا أذية وابتلاء.

قال تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً﴾[آل عمران:١١١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾[محمد:٤].

قال ابن كثير رحمه الله: فكل من قام بحق أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر، فلا بد أن يؤذى، فمآله دواء إلا الصبر في الله والاستعانة به والرجوع إليه. أهـ

ومع هذه الأذية فإن صبر المؤمن ولجاء إلى ربه، واعتصم بكتابه وسنة نبيه بعيدًا عن الحزبيات والبدع والخرافات فإنه منصور، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾[آل عمران:١١١].

قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦].

وقد تقدم الكلام على الصبر ودوره في نصرة الحق ودوامه، فلا داعي للتكرار.

ومن أسباب عدم الثبات أيضًا الجهل، فإن الجاهل لا يثبت على شيءٍ لكثرة الشبهه والتخطفات الداخلية والخارجية، قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (٢٥/ ١٢٩): وكثير ما يضيع الحق بين الجهال والأميين.أهـ

ومن أسباب عدم الثبات التفريط في تحري الحق.

قال المعلمي في «الأنوار الكاشفة» (٣٤): والعالم الراسخ هو الذي إذا حصل له العلم الشافي بقضية لزمها ولم يبال بما قد يشكك فيها، بل إما أن يعرض عن المتشككات وإما أن يتأملها في ضوء ما قد ثبت.

قال شيخ الإسلام كما في »المجموع« (٣/ ٣١٤): . لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ عَامَّةَ مَنْ ضَلَّ فِي هَذَا الْبَابِ أَوْ عَجَزَ فِيهِ عَنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ : فَإِنَّمَا هُوَ لِتَفْرِيطِهِ فِي اتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَتَرَكَ النَّظَرَ وَالِاسْتِدْلَالَ الْمُوَصِّلَ إلَى مَعْرِفَتِهِ فَلَمَّا أَعْرَضُوا عَنْ كِتَابِ اللَّهِ ضَلُّوا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } { وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ أَنْ لَا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ .

وقال في «الجواب الصحيح» (٣/ ٨٥): وإنما دخل في البدع من قصر في اتباع الأنبياء علمًا وعملًا.أهـ

ومن أسباب الزيغ والضلال وعدم الثبات على المنهج الحق هو الخوف بأنواعه الكثيرة، هذا يخاف على مستقبله من الفقر وغير ذلك، فربما قدم التنازلات سواءً للجمعيات أو لغيرها طمعًا في الدنيا، وربما ترك الدعوة وذهب للعمل من بلدٍ إلى بلد،

ومن منطقة إلى أخرى.

وهذا لا يصدع بالحق ولا يقوله، ولا يلازم الحق خوفًا من كلام الناس وازدرائهم له.

وهذا خوفًا على نفسه وماله وهلم جر.

قال الله تعالى مبينًا هذا الصارف عن الثبات والحق: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس:٨٣].

وأخرج البخاري من حديث ابن عباس الذي يرويه عن أبي سفيان، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و { يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون }) قال أبو سفيان فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا فقلت لأصحابي حين أخرجنا لقد أمر ابن أبي كبشة إنه يخافه ملك نبي الأصفر . فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام وكان ابن الناطور صاحب إيلياء وهرقل أسقفا على نصارى الشأم يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يوما خبيث النفس فقال بعض بطارقته قد استنكرنا هيئتك قال ابن الناطور وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم فقال لهم حين سألوه إني رأيت الليلة حين

نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر فمن يختن من هذه الأمة ؟ قالوا ليس يختتن إلا اليهود فلا يهمنك شأنهم واكتب إلى مداين ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود فبينما هم على أمرهم أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخر عن خبر رسول الله صلى الله عليه و سلم فلما استخبره هرقل قال أذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا ؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن وسأله عن العرب فقال هم يختتنون فقال هرقل هذا ملك هذه الأمة قد ظهر . ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان نظيره في العلم وسار هرقل إلى حمص فلم يروم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق راي هرقل على خروج النبي صلى الله عليه و سلم وأنه نبي فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم اطلع فقال يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال ردوهم علي وقال إني قلت مقالتي آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت فسجدوا له ورضوا عنه فكان ذلك آخر شأن هرقل

قال ابن القيم في «هداية الحيارى» (١٨): فإن هرقل عرف الحق وهم بالدخول في الإسلام فلم يطاوعه قومه، وخافهم على نفسه فاختار الكفر على الإسلام من بعدما تبين له الهدى. أهـ

ومن الأسباب المزعزة للثبات حب الظهور والجاه والرئاسة، قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه. أخرجه الترمذي عن أبي بن كعب. وهو في الصحيح المسند.

قال شيخ الإسلام الشوكاني في «أداب الطلب» (٤١): وقد يترك التكلم بالحق

محافظة على حظ قد ظفر به من تلك الدولة من مال أو جاه، وقد يترك التكلم بالحق الذي هو خلاف ما عليه الناس استجلابًا لخواطر العوام ومخافة من نفورهم عنه.

وقد يترك التكلم بالحق لطمع يظنه ويرجو حصوله من تلك الدولة أو من سائر الناس في مستقبل الزمان. أهـ

وكم من داعي إلى الله عز وجل ترك السنة وانقطع عن الحق والخير، وصار مع المبطلين لحب رئاسة أو سيارة أو يا شيخ إلى غير ذلك، وهذا ما لاحظناه في كثير من الدعاة؛ لأن الحزبيين والمبتدعة إذا رأوا الطالب النجيب والداعية المبرز نصبوا له وأتوه من نقطة ضعفه.

قال ابن رجب في شرح الحديث السابق كما في «مجموع الرسائل» (٨٩): وقد تبين أن حب المال والرياسة والحرص عليهما يفسد دين المرء، حتى لا يبقى منه إلا ما شاء الله.

وأعلم أن النفس تحب الرفعة والعلو على أبناء جنسها، ومن هنا نشأ الكبر والحسد، ولكن العاقل ينافس في العلو الدائم الباقي، الذي فيه رضوان الله وقربه وجواره، ويرغب عن العلو الفاني الزائل الذي يعقبه غضب الله وسخطه وانحطاط العبد وسفوله، وبعده عن الله وطرده عنه. أهـ

ومن أسباب الزيغ ومجانبة الثبات العجب، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر:٨٣].

قال الذهبي رحمه الله في «السير» (١٨/ ١٩٢): فكم من رجل نطق بالحق وأمر بالمعروف فيسلط الله عليه من يؤذيه لسوء قصده وحبه للرئاسة الدنيئة، فهذا داء خطير سار في نفوس الفقهاء. أهـ

ومن أسباب الزيغ الكفر، فإن إبليس كما هو معلوم إنها حمله على الزيغ إلى أن أصبح فيما هو فيه، إلا هذا الداء العضال والسم الناقح والزلقه الفالجة، قال تعالى: ﴿اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص:٧٤].

وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٤٦].

قال شيخ الإسلام كما في «الفتاوى الكبرى» (٥/ ١٢٥): وانتقال الإنسان من قول إلى قول لأجل ما تبين له من الحق هو محمود فيه، بخلاف إصراره على قول لا حجة معه عليه، وترك القول الذي توضحت له حجته أو الانتقال عن قول إلى قول لمجرد عادة واتباع هو فهو مذموم. أهـ

والحسد وما أدراك ما الحسد العدو القاتل والسيف الصائل على أهله، حتى قيل: لله در الحسد ما أعدله؛ بدأ بصاحبه فقتله.

فكم من الدعاة تهاووا في مهالك البدعة والدنيا والردى بسبب الحسد، أعاذنا الله منه، والحسد هو تمني زوال النعمة عن الغير.

قال الماوردي في «أدب الدنيا والدين» (٢٦٠): اعلم أن الحسد خلق ذميم مع إضراره بالبدن وإفساده للدين، حتى لقد أمر الله بالاستعاذة من شره فقال: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:٥].

وناهيك بحاله ذلك شرًا، ولو لم يكن من ذم الحسد إلا أنه خلق دنيء يتوجه نحو الأكفاء والأقارب ويختص بالمخالط والصاحب لكانت النزاهة عنه كرامة والسلامة منه

مغنمًا، فكيف وهو بالنفس مضر، وعلى الهمم مصر حتى ربما أفضى بصاحبه إلى التلف من غير نكاية في عدوه ولا ضرر بمحسود. أهـ

والحسد من صفات إبليس، حيث ما منعه من السجود لآدم إلا هو.

وهو من صفات اليهود، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٠٩].

ويا لله العجب ماذا فعل الحسد بأبي عبيده الزاوي! كيف أخذ بمقاتيله حتى أوداه في مهاوي الحزبية المقيتة مع قرينه في الحسد أبي الحسن المصري المأربي.

ولا غرو مما يحصل، فمن سلك سبيل النبي ﷺ وطريقه لا بد بأنه محسود، حتى قيل: كل ذي نعمة محسود، والاستقامة والعلم النافع من أجل وأفضل النعم على الإطلاق، لكن يعالج الحسدة بالإحسان إليهم تارة، وبالصبر أخرى.

وقد قيل:

اصبر على كيد الحسود ... فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله

وقال بعضهم:

يا حاسدًا لي على نعمتي ... أتدري على من أسأت الأدب

أسأت على الله في حكمه ... لأنك لم ترض لي ما وهب

فأخزاك ربي بأن زارني ... وسد عليك وجوه الطلب

والحسد قد حمل على الكفر بالله عز وجل، كما حصل لليهود، فمن باب أولى أن يحمل

على الزيغ عن السنة وعدم الثبات عليها.

ومن أهم الصوارف عن الثبات إلى البدعة والزيغ هو سلوك سبيل المتحزبين والركون إليهم، وقال تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢].

فيقع الزيغ في من تحزب أو قاربه وميع بأمور:

منها: المجالسة للمبطلين من أهل البدع.

ومنها: السكوت عن المنكرات.

ومنها: عدم نصر الحق وأهل الحق.

ومنها: المداهنة.

إلى غير ذلك خوفًا على الحزب أو نفقة، وطمعًا في نصرته بالباطل.

ورحم الله مالك إذا يقول: الدنو من الباطل هلكة، والقول بالباطل يصدك عن الحق.

فينتقم الله من صاحب الحزبية أو من جالسهم بأن يحرمه الثبات على الحق ويخذله ولا يوفقه.

ويقطعه ولا يوصله فاللهم سلم.

ولهم قواعد يلبسون بها على أصحاب القلوب الضعيفة، يعرفها كل مستبصر، ومن كان بالله مستنصر منها: نصحح ولا نهدم.

وقوله صواب يحتمل الخطأ، وقولك خطأ يحتمل الصواب، ومنها نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه.

ومنها: لا تثير الغبار من الخارج، ولا تمزق الصف من الداخل، ومنها الأمه فيما هي فيه، وأنتم فلان حزبي، فلان سروري، وهل أضعف المسلمين إلا مثل هذه القواعد البطالة، والمهم أن تعلم أن كثيرًا ممن تركوا جادة السلف وانحرفوا عن الحق هم الحزبيون ومن تأثر بهم، خصوصًا في أزماننا المتأخرة.

ومن أسباب الانحراف وعدم الثبات: كثرة الذنوب والمعاصي مع الأصرار وعدم التوبة.

قال ابن القيم مبينًا كيف يؤول الأمر بالسني إلى البدعة في «الجواب الكافي» (٨٣-٨٤): فإن الطاعة نور والمعصية ظلمة، وكلما قويت الظلمة أزدادت حيرته حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر، كأعمى خرج في ظلمة الليل مشى وحده. أهـ

وقال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (١٤/ ١٥٢): والله سبحانه جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى والعلم النافع، **قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾** [البقرة:٨٨]، **﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾**[الصف:٥].

ومن أسباب الزيغ وعدم الثبات عدم اللجوء إلى الله عز وجل بالدعاء، فرسول الله ﷺ كان كثيرًا ما يقول: «يا مقلب القلوب صرف قلبي على طاعتك»، كما في مسلم عن ابن عمرو، وعلم علي رضي الله عنه أن يقول كما في مسلم: «اللهم أهدني وسددني ... » في غير ذلك.

وعبد الله بن عمر كان يقول: اللهم لا تنزع مني الإيمان بعد أن اعطيتنيه كما أخرجه

الطبراني في الدعاء.

وكذلك الرجوع إلى العلماء من أسباب الثبات؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [النساء:٨٣].

وإن ترك السؤال أو عدم العمل بنصيحة العلماء ضل وزل، وفي الباطل حل.

ومن أسباب الانحراف عدم الدعوة إلى العلم.

قال ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٧٢): فإن من خزن علمه ولم ينشره ولم يعلمه؛ ابتلاه الله بنسيانه وذهابه منه جزاءً من جنس عمله، وهذا أمر يشهد به الحس والوجود.أهـ

ومن وسائل الزيغ وعدم الثبات المجالسة، قال ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ» الحديث في الصحيحين عن أبي هريرة.

فمن جالس جانس، وقد تقدم الكلام عليه في وسيلة مستقلة من وسائل نصر الدعوة.

ومن أسباب الانحراف الأخذ ببعض الدين ورد البعض، مع أن الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[البقرة:٢٠٨].

قال الإمام أحمد كما في «الصوارف عن الخير» للعثمان (٧٤): لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء فيزيغ الله قلبه فيهلكه.أهـ

وأرفع منه قول أبي بكر عند مسلم: إني أخشى إن تركت شيئًا من أمر رسول الله ﷺ

أن أزيغ.

ومن أسباب الانحراف الجدال، لحديث: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل».

وأنها الجهل بطريقة أهل الباطل، يدل على ذلك حديث حذيفة في الصحيحين: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ الله ﷺ عَنْ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنْ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ»، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ»، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله صِفْهُمْ لَنَا، فَقَالَ: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا»، قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ، قَالَ: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ»، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ».

قال شيخ الإسلام كما في «الفتاوى» (٥/ ١١٨): وكل من كان بالباطل أعلم كان للحق أشد تعظيمًا.

وقال كما في «الفتاوى الكبرى» (٥/ ٢٦٤): الخبير بالشر وأسبابه إذا كان حسن القصد، عنده من الاحتراز عنه، ومنع أهله والجهاد لهم ما ليس عند غيره. أهـ

ومن أسباب الانحراف عن طريق الحق والسنة إلى طريق الزيغ والبدعة عدم تصور الباطل، فربما سمع السامع أقوال مجملة لأهل البدع ظنها حقًا، كمن يسمع من الحزبيين

إرادة إقامة الدولة الإسلامية والحكم بما أنزل الله ونصرة الدين، إلى غير ذلك من دعاويهم التي ظاهرها الرحمة، لكن البصراء من العلماء والدعاة يرون فيها العذاب؛ لأنهم ما سلكوا سبيل المؤمنين الموحدين، ولا سبيل المصلحين الناصحين، فزلوا وحادوا عن الطريق، وزل بسببهم جموع من الجهال والملبس عليهم.

ومن أسباب الانحراف والزيغ عن طريق المصلحين إلى طريق الهالكين الحايرين إلتزام أصول فاسدة ليس عليها دليل من كتاب ولا سنة، ولا يؤيدها فهم صاحب ولا فعل سلف، ومن المعلوم أن الله عز وجل إنما ضمن للأمة العصمة على لسان رسوله ﷺ بشرطين، وهما: التمسك بالكتاب والسنة، كما في حديث زيد ابن أرقم: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي: أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنْ الْآخَرِ، كِتَابُ اللهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا« قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وحديث العرباض عند الترمذي قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: »أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ«، قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (٥/ ١٢٠): من ابتغى الهدى في غير الكتاب والسنة لم يزدد من الله إلا بعدًا.

وما سبب انحراف أبي الحسن المصري مع حبه للدنيا ولهوثه ورأها إلا هذه الأصول الفاسدة التي ظنها صخرة صماء يقف عليها ثابتًا معنقًا، وإذا بها عبارة عن سراب يحسبه الظمأن ماء، فضل وأضل، ومن هذه الأصول الفاسدة:

نصحح ولا نهدم.

كلامك صواب يحتمل الخطأ، وكلامي خطأ يحتمل الصواب.

لا أقبل الخبر حتى أقف عليه بنفسي.

ومنهج أهل السنة والجماعة منهج واسع أفيح يسع الأمة، ويسع أهل السنة.

وحمل المجمل على المفصل في كلام غير الله ورسوله.

ومن أسباب الزيغ والانحراف الفتن، ولذا أمر رسول الله ﷺ بالاستعاذة من الفتن ما ظهر منها وما بطن، كما في حديث زيد بن ثابت عند مسلم، وسيأتي الكلام عليها في وسيلة مستقلة إن شاء الله عز وجل.

ومن أسباب عدم الثبات هو التقليد، فقد يكون الداعي إلى الله عز وجل مقلدًا لشيخه أو الشخص من الأشخاص، فيزل بزلته، ويأخذ بفلجته، وقد قال معاذ كما عند أبي داود: وإياك وزلة الحكيم.

فكثير من الناس إنما زاغوا بسبب هذا الداء العضال، وهل كان سبب ضلال المشركين إلا هو، قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿**بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ**﴾ [الزخرف:٢٢].

ودين هؤلاء الذي به يدينون وطريقتهم التي هم لها سالكون:

إذا قالت حذام فصدقوها ... فإن القول ما قلت حذام

ومن أسباب نصرة الحق وأهله المشاورة كما تقدم، وضدها ترك المشاورة، والركون إلى النفس من أسباب الانحراف وعدم الثبات.

قال بعض البلغاء: من حق العاقل أن يضيف إلى رأيه آراء العلماء، ويجمع إلى عقله عقول الحكماء، فالرأي الفذ ربما زل والعقل الفرد ربما ضل.

وراجع لهذه الأسباب وغير الصوارف عن الحق للشيخ حمد بن إبراهيم العثمان ط دار الإمام أحمد، وللشيخنا يحيى حفظه الله رسالة قريبة من ذلك، تراجع بعنوان: «التحذير من أهم الصوارف عن الخير».

وسائل الثبات

ونذكر هنا أيضًا من باب الفائدة أهم وسائل الثبات على المنهج الحق.

اعلم وفقك الله عز وجل أن وسائل الثبات هي ضد وسائل الزيغ، فمن حيث الإجمال في اللفظ كل وسيلة من وسائل الزيغ أعمل بضدها من الوسائل تجده من وسائل الثبات.

وعلى وجه التفصيل من أهم هذه الوسائل العلم بالمنهج الحق الذي أنت عليه، فإن ذلك يورثك تمسكًا وقوة وثباتًا بما أنت عليه.

ولما كان الأنبياء هم أعلم الناس بالله عز وجل وبدينه وشرعه لا تجد منهم منحرفًا، ثبتهم الله عز وجل بسبب ما عندهم من الخير والحق الذي شرعه لهم.

ثم من بعدهم الصحابة الكرام، أحرص الناس على الخير، وأبعدهم من وسائل الشر والضير، وذلك بسبب علمهم بدين الله الحق.

قال الشاطبي رحمه الله في «الاعتصام» (٢/ ٢٣٥): أصل حدوث الفرق إنما هو الجهل

بمواقع السنة، وهو الذي نبه عليه الحديث بقوله: «اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا. أهـ

ومن وسائل الثبات الاستسلام والانقياد لأمر الله وشرعه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

قال الطحاوي: ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام.

ومن وسائل الثبات العمل بالعلم، وقد تقدم الكلام عليه، وكل ما سأذكره إن شاء الله في هذا المؤلف هي من أسباب الثبات، فلا داعي للتكرار والحشو.

الثانية والثلاثون: ما وجدنا أبرك على الدعوة من العلم والعمل بالعلم والصدع بالحق.

كلمة عظيمة تدعمها الأدلة القرآنية والشواهد الإيمانية والسير السلفية، نطق بها أحد أعلام الإسلام ودعاة الأنام، إلا وهو الشيخ الهمام يحيى بن علي الحجوري أبو عبد الرحمن في بعض دروسه الحسان، فقيدتها منه وكان العزم في ذلك الوقت على شرحها في كتاب مستقل؛ لأنها عبارة مستقاة من كلام الله وكلام رسوله ﷺ، فحق لها أن تسطر وتشهر، وفي المحافل تذكر، وقد تقدم الكلام على فقرتين منها وهو العلم والعمل بالعلم، وبقى علينا أن نتكلم في هذا الموضع عن الصدع بالحق وأثره في نصر الدعوة.

وقال تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر:٩٤].

وما أمر الله عز وجل نبيه بهذه الوسيلة وحثه عليها إلا لأنها من أعظم الوسائل لنشر الحق والخير.

قال الذهبي رحمه الله في السير (١١/ ٢٣٤) في ترجمة أحمد: الصدع بالحق عظيم يحتاج إلى

قوة وإخلاص، فالمخلص بلا قوة يعجز عن القيام، والقوي بلا إخلاص يخذل، فمن قام بهما كاملاً فهو صديق، ومن ضعف فلا أقل من التألم والإنكار بالقلب، ليس وراء ذلك إيمان، فلا قوة إلا بالله. أهـ

ومن أمثال هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[المائدة:٦٧].

ولما أنزلت على رسول الله ﷺ آية الحجر أظهر الدعوة ولم يبال بمن خالف وعارض، وما شرع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة إلا من باب الصدع بالحق والجهر به، فإذا على صوت الحق نُكس صوت الباطل، وإذا أرتفع الحق خمد الباطل، والحق والشر في صراع إلى يوم القيامة، فاسلك هذا السبيل تفلح، وإياك والمداهنات وكتمان الحق.

والكلام عن هذه الوسيلة داخل في الآمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة، وقد تُكلم عليها بما يكفي ويشفي إن شاء الله.

الثالثة والثلاثون: «فر من المجذوم فرارك من الأسد».

لما كانت الريبة حاصلة في مجالسة المجذوم خشية انتقال المرض؛ فقد أمر رسول الله ﷺ أن تفر منه فرارك من الأسد.

وباب دفع الريب مطلوب شرعًا؛ لأن الريبة إذا حصلت في المرء اسيئت به الظنون، وزهد الناس فيه، وخصوصًا إذا كان من منتحلي العلوم والدعاة إلى الحي القيوم؛ لأن الناس يظنون في الداعي الرجل الذي لا يخطأ، والنقي الذي لا يلوث.

ومما يدل على وجوب دفع الريبة: ما أخرجه البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٤) من حديثِ صفية زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ: أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ تَزُورُهُ فِي اعْتِكَافِهِ فِي الْمَسْجِدِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَهَا يَقْلِبُهَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ مَرَّ رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَارِ فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ: »عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ«، فَقَالَا: سُبْحَانَ الله يَا رَسُولَ الله وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: »إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنْ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا«.

قال القرطبي في «المفهم» (٥/ ٥٠٥): فكأنه قال هذه صفية لا غيرها حسمًا لذريعة التهم، ورد لتسويل الشيطان ووسوسته، كما قد نص عليه، وإذا كان النبي ﷺ يتقي مواقع التهم، مع قيام الأدلة القاطعة على عصمته، كان غيره بذلك أولى. أهـ

وقال الحافظ في شرح الحديث: وفيه التحرز من التعرض لسوء الظن والاحتفاظ من كيد الشيطان والاعتذار.

قال ابن دقيق العيد: وهذا متأكد في حق العلماء ومن يقتدي بهم، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلًا يوجب الظن بهم، وإن كان لهم فيه مخلص؛ لأن ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم. أهـ

والمتأمل لحديث أنس بن مالك رضي الله عنه عندهما البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣) واللفظ للبخاري: عَنْ عِتْبَانَ بْنَ مَالِكٍ وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنْ الْأَنْصَارِ، أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله قَدْ أَنْكَرْتُ بَصَرِي وَأَنَا أُصَلِّي لِقَوْمِي، فَإِذَا كَانَتْ الْأَمْطَارُ سَالَ الْوَادِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ آتِيَ مَسْجِدَهُمْ

فَأُصَلِّيَ بِهِمْ، وَوَدِدْتُ يَا رَسُولَ الله أَنَّكَ تَأْتِينِي فَتُصَلِّيَ فِي بَيْتِي فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّى، قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: »سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللهُ«، قَالَ عِتْبَانُ: فَغَدَا رَسُولُ الله ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ حِينَ ارْتَفَعَ النَّهَارُ، فَاسْتَأْذَنَ رَسُولُ الله ﷺ فَأَذِنْتُ لَهُ، فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ؟ قَالَ: فَأَشَرْتُ لَهُ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنْ الْبَيْتِ، فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ فَكَبَّرَ، فَقُمْنَا فَصَفَّنَا فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ، قَالَ: وَحَبَسْنَاهُ عَلَى خَزِيرَةٍ صَنَعْنَاهَا لَهُ، قَالَ: فَآبَ فِي الْبَيْتِ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ ذَوُو عَدَدٍ فَاجْتَمَعُوا فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: أَيْنَ مَالِكُ بْنُ الدُّخَيْشِنِ أَوِ ابْنُ الدُّخْشُنِ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ مُنَافِقٌ لَا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: »لَا تَقُلْ ذَلِكَ أَلَا تَرَاهُ قَدْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ الله«، قَالَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَإِنَّا نَرَى وَجْهَهُ وَنَصِيحَتَهُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: »فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله«.

فهذا مالك بن الدخشن لما كان مجالسًا ومجاورًا وملازمًا للمنافقين اتهم بتهمتهم، وظن الصحابة به ظن السوء، فكذلك من جالس أهل البدع يوشك أن يلحق بهم، ومن جالس أهل المعاصي كذلك.

فعلى طالب العلم أن يدع جميع الريب حتى لا تشوه سمعته، ويكون من المنكوبين والعياذ بالله.

ومما يدل على دفع الريبة أيضًا ما أخرجه البخاري (٢٢١٨)، ومسلم (١٤٥٧) من حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: اخْتَصَمَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَعَبْدُ بْنُ زَمْعَةَ فِي غُلَامٍ، فَقَالَ سَعْدٌ: هَذَا يَا رَسُولَ الله ابْنُ أَخِي عُتْبَةُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، عَهِدَ إِلَيَّ أَنَّهُ ابْنُهُ انْظُرْ إِلَى شَبَهِهِ، وَقَالَ عَبْدُ بْنُ زَمْعَةَ: هَذَا أَخِي يَا رَسُولَ الله، وُلِدَ عَلَى فِرَاشِ أَبِي مِنْ وَلِيدَتِهِ، فَنَظَرَ

رَسُولُ الله ﷺ إِلَى شَبَهِهِ فَرَأَى شَبَهًا بَيِّنًا بِعُتْبَةَ فَقَالَ: »هُوَ لَكَ يَا عَبْدُ بْنَ زَمْعَةَ، الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ، وَاحْتَجِبِي مِنْهُ يَا سَوْدَةُ بِنْتَ زَمْعَةَ« فَلَمْ تَرَهُ سَوْدَةُ قَطُّ.

فهذا رسول الله ﷺ قد حكم بالولد للفراش والحقه بزمعه والد سودة، ومع ذلك أمرها بالاحتجاب منه ودفعًا للريبة.

ومن الأحاديث الدالة على الأمر بدفع الريب حديث النعمان بن بشير عند البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩): أن رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: »الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى الله فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ«.

الشاهد من الحديث أن الشبهات حصلت فيها الريبة والشك، فالأولى تركها والبعد عنها صيانة للدين والنفس.

وأيضًا يستدل بحديث عدي بن حاتم عند البخاري (٥٤٨٤)، ومسلم (١٩٢٩) واللفظ له: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: »إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ وَسَمَّيْتَ فَأَمْسَكَ، وَقَتَلَ فَكُلْ، وَإِنْ أَكَلَ فَلَا تَأْكُلْ فَإِنَّمَا أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ، وَإِذَا خَالَطَ كِلَابًا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ الله عَلَيْهَا فَأَمْسَكْنَ وَقَتَلْنَ فَلَا تَأْكُلْ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَيُّهَا قَتَلَ، وَإِنْ رَمَيْتَ الصَّيْدَ فَوَجَدْتَهُ بَعْدَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ لَيْسَ بِهِ إِلَّا أَثَرُ سَهْمِكَ فَكُلْ، وَإِنْ وَقَعَ فِي الْمَاءِ فَلَا تَأْكُلْ«، وَقَالَ عَبْدُ الْأَعْلَى عَنْ دَاوُدَ عَنْ عَامِرٍ عَنْ عَدِيٍّ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَرْمِي الصَّيْدَ فَيَقْتَفِرُ أَثَرَهُ الْيَوْمَيْنِ وَالثَّلَاثَةَ ثُمَّ يَجِدُهُ مَيِّتًا وَفِيهِ سَهْمُهُ قَالَ يَأْكُلُ إِنْ شَاءَ.

والشاهد من الحديث أنه لما حصلت الريبة في وجود الكلبين معًا من حيث اشتراكها في القتل، وإنما سمى على كلبه حرم الأكل دفعًا للريبة وسدًا للذريعة.

وأيضًا رسول الله ﷺ لما كان داعيًا إلى الله عز وجل على بصيرة ونور يحصل من أحد الناس ما يوجب قتله، فيتركه خشية أن يتحدث الناس أنه يقتل أصحابه فيرتابون، وربما تمردوا على الدين وعاندوا وجحدوا.

يدل على ذلك الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٩٠٠)، ومسلم (٢٥٨٢)، وفيه: عَنْ جَابِرِ بْنَ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه مَا قَالَ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ قَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً فِي جَيْشٍ: فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: »مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟« قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ فَقَالَ: فَعَلُوهَا، أَمَا وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: »دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ«، وَكَانَتْ الْأَنْصَارُ أَكْثَرَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، ثُمَّ إِنَّ الْمُهَاجِرِينَ كَثُرُوا بَعْدُ.

ويدل على البعد عن مواطن الريب وعما يريب حديث عقبة بن الحارث عند البخاري (٨٨)، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ أَنَّهُ تَزَوَّجَ ابْنَةً لِأَبِي إِهَابِ بْنِ عَزِيزٍ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: إِنِّي قَدْ أَرْضَعْتُ عُقْبَةَ وَالَّتِي تَزَوَّجَ، فَقَالَ لَهَا عُقْبَةُ: مَا أَعْلَمُ أَنَّكِ أَرْضَعْتِنِي وَلَا أَخْبَرْتِنِي، فَرَكِبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ فَسَأَلَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »كَيْفَ وَقَدْ قِيلَ«، فَفَارَقَهَا عُقْبَةُ وَنَكَحَتْ زَوْجًا غَيْرَهُ.

وأيضًا لما حصلت الريبة لدى ذلك الرجل في أن الولد ليس بولدٍ له دفع رسول الله ﷺ تلك الريبة كما في حديث أبي هريرة عند البخاري (٧٣١٤)، ومسلم (١٥٠٠)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلَامًا أَسْوَدَ وَإِنِّي أَنْكَرْتُهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟« قَالَ: نَعَمْ قَالَ: »فَمَا أَلْوَانُهَا؟« قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: »هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟« قَالَ: إِنَّ فِيهَا لَوُرْقًا، قَالَ: »فَأَنَّى تُرَى ذَلِكَ جَاءَهَا؟« قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ عِرْقٌ نَزَعَهَا، قَالَ:»وَلَعَلَّ هَذَا عِرْقٌ نَزَعَهُ« وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُ فِي الِانْتِفَاءِ مِنْهُ.

فالريبة سبب لخراب البيوت، وسبب لهدم الداعي إلى الله، وسبب للشر المستطير، فدفعها من الواجبات والبعد عن الريب من المتحمات الضروريات.

وقد أمرنا شرعًا ترك كل ما يحصل بسببه الريبة، كما في حديث الحسن بن علي عند الترمذي، وفيه: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ر يبة.

وأخرج مسلم في «صحيحه» (٢١٧٣) من حديث بن عمرو: أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ حَدَّثَهُ: أَنَّ نَفَرًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ دَخَلُوا عَلَى أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَهِيَ تَحْتَهُ يَوْمَئِذٍ، فَرَآهُمْ فَكَرِهَ ذَلِكَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالَ: لَمْ أَرَ إِلَّا خَيْرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »إِنَّ اللهَ قَدْ بَرَّأَهَا مِنْ ذَلِكَ«، ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: »لَا يَدْخُلَنَّ رَجُلٌ بَعْدَ يَوْمِي هَذَا عَلَى مُغِيبَةٍ إِلَّا وَمَعَهُ رَجُلٌ أَوْ اثْنَانِ«.

وأخرج البخاري (٤٣٢٤)، ومسلم (٢١٨٠) واللفظ له عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ مُخَنَّثًا كَانَ عِنْدَهَا وَرَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فِى الْبَيْتِ فَقَالَ لأَخِى أُمِّ سَلَمَةَ يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِى أُمَيَّةَ إِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الطَّائِفَ غَدًا فَإِنِّى أَدُلُّكَ عَلَى بِنْتِ غَيْلاَنَ

فَإِنَّهَا تُقْبِلُ بِأَرْبَعٍ وَتُدْبِرُ بِثَمَانٍ. فَالَ فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- فَقَالَ « لاَ يَدْخُلْ هَؤُلاَءِ عَلَيْكُمْ ».

وأيضًا مما يدل على دفع الريبة النهي عن التناجي إذا كانوا اثنين دون الثالث، كما في حديث ابن مسعود عند البخاري (٦٢٠)، ومسلم (٢١٨٤)، وفيه: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختطلوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه».

فإذا تناجيا دون صاحبهما ربما حصل في قلبه الخوف منهما، أو كذلك سوء الظن بهما، فدفعت هذه الريبة بهذا الأمر النبوي.

وإذا حصلت الريبة ولو من بعيد جدًا جعل المتربصون ينمونها حتى تقع الفتنة والعياذ بالله، والتشويه لأهل الحق والخير.

وما حصل لعائشة ﵂ من المنافقين ومن اغتر بقولهم إلا لما وجدوا ما يتشبثون به من الريب، فقد أخرج البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠): عَنْ عَائِشَةَ ﵂ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا فَبَرَّأَهَا اللهُ مِنْهُ، قَالَ الزُّهْرِيُّ وَكُلُّهُمْ، حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنْ حَدِيثِهَا وَبَعْضُهُمْ أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ وَأَثْبَتُ لَهُ اقْتِصَاصًا وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ الْحَدِيثَ الَّذِي حَدَّثَنِي عَنْ عَائِشَةَ وَبَعْضُ حَدِيثِهِمْ يُصَدِّقُ بَعْضًا زَعَمُوا أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَهُ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجٍ وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ، وَدَنَوْنَا مِنْ الْمَدِينَةِ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ أَظْفَارٍ قَدْ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، فَأَقْبَلَ

الَّذِينَ يَرْحَلُونَ لِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَثْقُلْنَ وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، وَإِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ مِنْ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرْ الْقَوْمُ حِينَ رَفَعُوهُ ثِقَلَ الْهَوْدَجِ، فَاحْتَمَلُوهُ وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا، فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنْزِلَهُمْ وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ، فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونَنِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَأَتَانِي وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ يَدَهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَ مَا نَزَلُوا مُعَرِّسِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الْإِفْكَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ بِهَا شَهْرًا وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ مِنْ قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ، وَيَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَرَى مِنْ النَّبِيِّ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَمْرَضُ، إِنَّمَا يَدْخُلُ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ: »كَيْفَ تِيكُمْ؟« لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ مُتَبَرَّزُنَا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ فِي الْبَرِّيَّةِ أَوْ فِي التَّنَزُّهِ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ أَبِي رُهْمٍ نَمْشِي، فَعَثَرَتْ فِي مِرْطِهَا فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا، فَقَالَتْ: يَا هَنْتَاهْ أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالُوا؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَلَّمَ فَقَالَ: »كَيْفَ تِيكُمْ؟« فَقُلْتُ: ائْذَنْ لِي إِلَى أَبَوَيَّ، قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَتَيْتُ أَبَوَيَّ، فَقُلْتُ

لِأُمِّي: مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ؟ فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَى نَفْسِكِ الشَّأْنَ فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا أَكْثَرْنَ عَلَيْهَا، فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ وَلَقَدْ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهَذَا، قَالَتْ: فَبِتُّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ مِنْ الْوُدِّ لَهُمْ، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلَكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَلَا نَعْلَمُ وَاللهِ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لَمْ يُضَيِّقْ اللهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ وَسَلْ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَرِيرَةَ فَقَالَ: »يَا بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتِ فِيهَا شَيْئًا يَرِيبُكِ؟« فَقَالَتْ بَرِيرَةُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنْ رَأَيْتُ مِنْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا قَطُّ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ الْعَجِينِ فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »مَنْ يَعْذُرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي«، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا وَاللهِ أَعْذُرُكَ مِنْهُ، إِنْ كَانَ مِنْ الْأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنْ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا فِيهِ أَمْرَكَ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا وَلَكِنْ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ لَا تَقْتُلُهُ وَلَا تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ وَاللهِ لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنْ الْمُنَافِقِينَ، فَثَارَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ فَنَزَلَ فَخَفَّضَهُمْ حَتَّى سَكَتُوا، وَسَكَتَ وَبَكَيْتُ يَوْمِي لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، فَأَصْبَحَ عِنْدِي أَبَوَايَ وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا حَتَّى أَظُنُّ أَنَّ

الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، قَالَتْ: فَبَيْنَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي إِذْ اسْتَأْذَنَتْ امْرَأَةٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ رَسُولُ الله ﷺ فَجَلَسَ وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مِنْ يَوْمٍ قِيلَ فِيَّ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ مَكَثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قَالَ: »يَا عَائِشَةُ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ«، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ الله ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، وَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: وَالله مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ الله ﷺ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ الله ﷺ فِيمَا قَالَ، قَالَتْ: وَالله مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ الله ﷺ، قَالَتْ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنْ الْقُرْآنِ، فَقُلْتُ: إِنِّي وَالله لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ وَوَقَرَ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنِّي لَبَرِيئَةٌ لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، وَالله مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ إِذْ قَالَ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ، ثُمَّ تَحَوَّلْتُ عَلَى فِرَاشِي وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُبَرِّئَنِي اللهُ، وَلَكِنْ وَالله مَا ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزِلَ فِي شَأْنِي وَحْيًا وَلَأَنَا أَحْقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ فِي أَمْرِي، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ الله ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ، فَوَالله مَا رَامَ مَجْلِسَهُ وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنْ الْبُرَحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنْ الْعَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ لِي: »يَا عَائِشَةُ احْمَدِي اللهَ فَقَدْ بَرَّأَكِ اللهُ«، فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقُلْتُ: لَا وَالله لَا أَقُومُ إِلَيْهِ وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللهَ:

فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ الْآيَاتِ فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ: وَاللهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا إِلَى قَوْلِهِ: غَفُورٌ رَحِيمٌ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي: فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ الَّذِي كَانَ يُجْرِي عَلَيْهِ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْأَلُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ: يَا زَيْنَبُ مَا عَلِمْتِ مَا رَأَيْتِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي فَعَصَمَهَا اللهُ بِالْوَرَعِ، قَالَ: وَحَدَّثَنَا فُلَيْحٌ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ مِثْلَهُ، قَالَ: وَحَدَّثَنَا فُلَيْحٌ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَيَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ مِثْلَهُ.

فهذه عائشة الصديقة بنت الصديق وزوجة النبي الحبيب يحصل لها ما حصل، وسلقتها ألسنة المنافقين طعنًا في النبي ﷺ ودعوته، حتى برأها الله عز وجل مما قالوا في شأنها.

وقد تقدمت قصة كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة ابن الربيع حين تخلفوا، ووقعت فيهم الريبة أن يكونوا من المنافقين، أمر رسول الله ﷺ بهجرهم حتى أنزل الله عز وجل توبتهم.

ولما أعطى رسول الله ﷺ المؤلفة قلوبهم من قريش وغيرهم وترك الأنصار حصل في قلوب بعضهم ما حصل، وقال ما قال، فدفع رسول الله ﷺ هذه الريبة، كما في حديث أنس عند البخاري (٤٣٣٣)، ومسلم (١٠٥٩) واللفظ له: عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا كَانَ

يَوْمُ حُنَيْنٍ الْتَقَى هَوَازِنُ وَمَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَشَرَةُ آلَافٍ وَالطُّلَقَاءُ فَأَدْبَرُوا قَالَ: »يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ«، قَالُوا: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ، لَبَّيْكَ نَحْنُ بَيْنَ يَدَيْكَ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: »أَنَا عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ«، فَانْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ فَأَعْطَى الطُّلَقَاءَ وَالْمُهَاجِرِينَ وَلَمْ يُعْطِ الْأَنْصَارَ شَيْئًا فَقَالُوا: فَدَعَاهُمْ فَأَدْخَلَهُمْ فِي قُبَّةٍ فَقَالَ: »أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ الله ﷺ«، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: »لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَاخْتَرْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ«.

فانظر كيف جمع رسول الله ﷺ الأنصار دافعًا ما وقع في قلوب أحداثهم من الريبة في رسول الله ﷺ أنه ربما فضل غيرهم عليهم.

فكذلك الداعي إلى الله عز وجل يدفع كل ما يشين سمعته ويلوث دعوته إن رام النصر والظفر.

الرابعة والثلاثون: «وما تواضع أحد للّه إلا رفعه«.

من وسائل نشر الدعوة وانتصارها التواضع من قبل حملتها، فإن ذلك مع ما في التواضع من الخير العظيم والنفع الجسيم، فإن فيه سبب المحبة والألفة، وسبب لقبول ما يفعله الداعي أو يقول.

ولذلك كان رسول الله ﷺ الذي أمرنا الله باقتفاء أثره بقوله: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾[الأحزاب:٢١].

الغاية في التواضع لله رب العالمين، فحين خير أن يكون ملكًا كريم أو نبي كريم، قال جبريل: يا محمد تواضع لربك، ومع تواضعه لله رب العالمين الذي هو خالقه ومالكه فإنه

كان في غاية التواضع مع أصحابه ومع الناس حتى استولى على ألبابهم.

والتواضع ثلاث درجات كما قال ابن القيم في «المدارج» (٢/ ٣٤٨-٣٥١):

الأولى: التواضع للدين.

وهو أن لا يعارض بمعقول منقولًا، ولا يتهم للدين دليلًا، ولا يرى إلى الخلاف سبيلًا، والتواضع للدين هو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ، والاستسلام له والإذعان.

الدرجة الثانية: أن ترضي بما رضي الحق به لنفسه عبدًا ومن المسلمين أخًا، وأن لا ترد على عدوك حقًا، وأن تقبل من المعتذر معاذيره.

ومعنى أن ترد لعدوك حقًا: أي لا تصبح لك درجة التواضع حتى تقبل الحق ممن تحب وممن تبغض، فتقبله من عدوك كما تقبله من وليك.

الدرجة الثالثة: أن تتواضع للحق، ومعنى ذلك أن تعبد الحق سبحانه بما أمر به، على مقتفى أمره لا على ما تراه من رأيك، ولا يكون الباعث لك داعي العادة.

وقال عروة بن الورد كما في «علو الهمة» (٥/ ٤٢٠): التواضع أحد مصائد الشرف، وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع.

وقال مصعب بن الزبير: التواضع أحد مصايد الشرف.

وهذه الميزة الحسنة والوسيلة العظيمة لنصرة الدعوة دل عليها القرآن، **قال تعالى:** ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ [آل عمران:١٥٩].

فالتواضع واللين سبب لاجتماع الناس حولك، والاستفادة من منقولك وقولك.

وقال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٥٤] .

وقال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[الحجر:٨٨].

وقال في وصف عباده عز وجل: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾ [الفرقان:٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:١٨].

وقال ﷺ كما في حديث عياض بن حمار عند مسلم (٢٨٦٥)، في ذكر ما أمر الله عز وجل أن يعلم به أمته: «إلا إن الله أمرني أن أعلمكم ما جهلتم، فما علمني».

وفيه: إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد.

وقال ﷺ كما في حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٥٨٨): «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

قال القرطبي في «المفهم» (٦/ ٥٧٥): التواضع الانكسار والتذلل، ونقيضه التكبر والترفع، والتواضع يقتضي متواضعًا له، فإن كان المتواضع له هو الله تعالى، أو من أمر الله بالتواضع له، كالرسول، والإمام، والحاكم، والوالد، والعالم، فهو التواضع الواجب المحمود الذي يرفع الله تعالى به صاحبه في الدنيا والآخرة.

فالتواضع خلق جميل يحمل المتصف به على رحمة الضعفاء والمساكين والنصر بهم، كما

في حديث أبي الدرداء عند الترمذي (١٧٠٢): «أبغوني الضعفاء، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم».

وأما التواضع لسائر الخلق فالأصل فيه أنه محمود ومندوب إليه، ومرغب فيه إذا قصد به وجه الله، ومن كان كذلك رفع الله تعالى قدره في القلوب، وطيب ذكره في الأفواه، ورفع درجته في الآخرة.

وأما التواضع لأهل الدنيا ولأهل الظلم فذلك هو الذل الذي لاعز معه، والخسة التي لا رفعة معها، بل يترتب عليه ذل الآخرة وكل صفة خاسرة.

وكما تقدم ضد التواضع الكبر والتعالي، وصاحبهما متوعد بالخزي الدنيوي والأخروي.

قال العثيمين في «شرح رياض الصالحين»: والكبر نوعان: كبر على الحق، وكبر على الخلق، وقد بينهما النبي ﷺ في قوله: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»، فبطر الحق يعني رده والإعراض عنه، وعدم قبوله، وغمط الناس يعني احتقارهم وازدراءهم، وألا يرى الناس شيئًا ويرى أنه فوقهم.

والناظر في سيرة النبي ﷺ يجد المثل الأعلى في ذلك، فكان ﷺ يسلم على الصبيان كما في «الصحيحين».

وقالت له جارية: أريدك في حاجة، فقال: «أنظري أي أسلك حتى اقضي لك حاجتك»، الحديث في «الصحيحين» عن أنس، وكان يردف خلفه على الحمار، فقد ردف ابن عباس والفضل ومعاذ وأسامة وعبد الله بن جعفر والحسن والحسين، وكان يكون في مهنة أهله وهو مع ذلك رسول الله ﷺ، وكان يكره أن يقام له كما عند الترمذي عن

أنس.

وجاء عن عبد الله بن أبي أوفى عند النسائي: كان يكثر الذكر، ويقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، وكان لا يأنف، ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين والعبد حتى يقضي له حاجته.

وأمرهم بترك الإطراء، فقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»، إلى غير ذلك.

توضع عند التعليم، فقد أخرج مسلم من حديث أبي رفاعة: فأتى بكر من أحب قوائمه حديد...

وما أحسن ما قال الشاعر:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات الماء وهو رفيع

ولا تك كالدخان يعلو بنفسه ... إلى طبقات الجو وهو وضيع

وقال آخر:

تواضع إذا ما نلت في الناس رفعة ... فإن رفيع القوم من يتواضع

ويعزي إلى يوسف بن أسباط:

وكفى بملتمس التواضع رفعة ... وكفى بملتمس العلو سفالًا

وقال آخر:

إن التواضع من صفات المتقي ... وبه التقى إلى المعالي يرتقي

الخامسة والثلاثون: «جاهدوا المشركين بأنفسكم وأموالكم وألسنتكم»

دعنـــا نســـافر في دروب إبائنـــا ... ولنـــا مـــن الهمـــم العظيمـــة زاد
ميعادنـــا النصر المبـــين فـــإن يكـــن ... مـــوت فعنـــد إلهنـــا الميعـــاد
دعنـــا نمـــت حتـــى ننـــال شـــهادة ... فـــالموت في درب الهـــدى مـــيلاد

الجهاد عز المؤمنين، وسبب نصرهم وظهورهم، تفانا فيه أناس فرفعهم الله في سنوات قليلات، وتخاذل عنه آخرون فأذلهم الله أعوامًا مديدات،ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

قال ابن المناصف في كتاب «الانجاد في أبواب الجهاد» (١/ ١١): والجهاد في الشرع يقع على ثلاثة أنحاء: جهاد بالقلب، وجهاد باللسان، وجهاد باليد.

والدليل على هذه القسمة وتسمية كل واحد منهما جهادًا ما أخرجه مسلم (٥٠) عن عبد الله بن مسعود قال: قال ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ.

فالقول أولًا في معنى جهاد القلب، وذلك راجع إلى مغالبة الهوى ومدافعة الشيطان وكراهية ما خالف حدود الشرع والعقد على إنكاره ذلك، حيث لا يستطيع القيام في تغييره بقول ولا فعل، وهذا الضرب واجب على كل مسلم إجماعًا، وهو مما يتناوله قوله

تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾[الحج:٧٨]، وقوله: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾[العنكبوت:٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾[النازعات:٤٠]، وقوله ﷺ: «ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن».

الثاني: الجهاد باللسان، وسيأتي الكلام فيه.

الثالث: الجهاد باليد. أهـ

فهذا يجاهد بنفسه التي بين جنبيه بالطعان والضراب.

وهذا يجاهد بماله دعمًا لكل خير وحربًا لكل ضير.

وهذا مسخر لسانه وقلمه بيانًا لحال المبطلين، ودعوة إلى طريقة المصلحين المؤمنين أتباع المرسلين. ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[التوبة:٧٣].

والجهاد أقسام ومراتب بينها شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله في كتابه «زاد المعاد» (٣/ ١٨٠٥): لما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة كما لهم الرفعة في الدنيا فهم الأعلون في الدنيا والآخرة كان رسول الله ﷺ في الذروة العليا منه واستولى على أنواعه كلها فجاهد في الله حق جهاده بالقلب والجنان والدعوة والبيان والسيف والسنان وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده ولهذا كان أرفع العالمين ذكرا وأعظمهم عند الله قدرا

وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه وقال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا * فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾[الفرقان: ٥١-٥٢]، فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام فال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ

﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[التحريم:٩]، فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرسل والقائمون به أفراد في العالم والمشاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عددا فهم الأعظمون عند الله قدرا، ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه كان للرسل صلوات الله عليهم وسلامه من ذلك الحظ الأوفر وكان لنبينا صلوات الله وسلامه عليه من ذلك أكمل الجهاد وأتمه، ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعا على جهاد العبد نفسه في ذات الله كما قال النبي ﷺ المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه كان جهاد النفس مقدما على جهاد العدو في الخارج وأصلا له فإنه ما لم يجاهد نفسه أولا لتفعل ما أمرت به وتترك ما نهيت عنه ويحاربها في الله لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج فكيف يمكنه جهاد عدوه والإنتصاف منه وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له متسلط عليه لم يجاهده ولم يحاربه في الله بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج.

فهذان عدوان قد امتحن العبد بجهادهما وبينهما عدو ثالث لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده وهو واقف بينهما يثبط العبد عن جهادهما ويخذ له ويرجف به ولا يزال يخيل له ما في جهادهما من المشاق وترك الحظوظ وفوت اللذات والمشتهيات ولا يمكنه أن يجاهد ذينك العدوين إلا بجهاده فكان جهاده هو الأصل لجهادهما وهو الشيطان **قال تعالى:** ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[فاطر:٦] والأمر باتخاذه عدوا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته كأنه عدو لا يفتر ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس فهذه ثلاثة أعداء أمر العبد بمحاربتها وجهادها وقد بلي بمحاربتها في هذه

الدار وسلطت عليه امتحانا من الله له وابتلاء فأعطى الله العبد مددا وعدة وأعوانا وسلاحا لهذا الجهاد وأعطى أعداءه مددا وعدة وأعوانا وسلاحا وبلا أحد الفريقين بالآخر وجعل بعضهم لبعض فتنة ليبلو أخبارهم ويمتحن من يتولاه ويتولى رسله ممن يتولى الشيطان وحزبه كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾[الفرقان:٢٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾[محمد:٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾[محمد:٣١]، فأعطى عباده الأسماع والأبصار والعقول والقوى وأنزل عليهم كتبه وأرسل إليهم رسله وأمدهم بملائكته وقال لهم: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[الأنفال: ١٢]، وأمرهم من أمره بما هو من اعظم العون لهم على حرب عدوهم وأخبرهم أنهم إن امتثلوا ما أمرهم به لم يزالوا منصورين على عدوه وعدوهم وأنه إن سلطه عليهم فلتركهم بعض ما أمروا به ولمعصيتهم له ثم لم يؤيسهم ولم يقنطهم بل أمرهم أن يستقبلوا أمرهم ويداووا جراحهم ويعودوا إلى مناهضة عدوهم فينصرهم عليهم ويظفرهم بهم فأخبرهم أنه مع المتقين منهم ومع المحسنين ومع الصابرين ومع المؤمنين وأنه يدافع عن عباده المؤمنين ما لا يدافعون عن أنفسهم، بل بدفاعه عنهم انتصروا على عدوهم ولولا دفاعه عنهم لتخطفهم عدوهم واجتاحهم.

وهذه المدافعة عنهم بحسب إيمانهم وعلى قدره فإن قوى الإيمان قويت المدافعة فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته وكما أن حق تقاته أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر فحق جهاده أن يجاهد العبد نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه

لله فيكون كله لله وبالله لا لنفسه ولا بنفسه ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده ومعصية أمره وارتكاب نهيه فإنه يعد الأماني ويمني الغرور ويعد الفقر ويأمر بالفحشاء وينهى عن التقى والهدى والعفة والصبر وأخلاق الإيمان كلها فجاهده بتكذيب وعده ومعصية أمره فينشأ من هذين الجهادين قوة وسلطان وعدة يجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله لتكون كلمة الله هي العليا.

واختلف عبارات السلف في حق الجهاد فقال ابن عباس هو استفراغ الطاقة فيه وألا يخاف في الله لومة لائم وقال مقاتل اعملوا لله حق عمله واعبدوه حق عبادته وقال عبدالله ابن المبارك هو مجاهدة النفس والهوى ولم يصب من قال إن الآيتين منسوختان لظنه أنهما تضمنتا الأمر بما لا يطاق وحق تقاته وحق جهاده هو ما يطيقه كل عبد في نفسه وذلك يختلف باختلاف أحوال المكلفين في القدرة والعجز والعلم والجهل فحق التقوى وحق الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالم شيء وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء وتأمل كيف عقب الأمر بذلك بقوله: ﴿ **هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾[الحج: ٧٨]، والحرج الضيق بل جعله واسعا يسع كل أحد كما جعل رزقه يسع كل حي وكلف العبد بما يسعه العبد ورزق العبد ما يسع العبد فهو يسع تكليفه ويسعه رزقه وما جعل على عبده في الدين من خرج بوجه ما قال النبي ﷺ بعثت بالحنيفية السمحة أي بالملة فهي حنيفية قي التوحيد سمحة في العمل.

وقد وسع الله سبحانه وتعالى على عباده غاية التوسعة في دينه ورزقه وعفوه ومغفرته وبسط عليهم التوبة ما دامت الروح في الجسد وفتح لهم بابا لها لا يغلقه عنهم إلى أن تطلع الشمس من مغربها وجعل لكل سيئة كفارة تكفرها من توبة أو صدقة أو حسنة

ماحية أو مصيبة مكفرة وجعل بكل ما حرم عليهم عوضا من الحلال أنفع لهم منه وأطيب وألذ فيقوم مقامه ليستغني العبد عن الحرام ويسعه الحلال فلا يضيق عنه وجعل لكل عسر يمتحنهم به يسرا قبله ويسرا بعده فلن يغلب عسر يسرين فاذا كان هذا شأنه سبحانه مع عباده فكيف يكلفهم ما لا يسعهم فضلا عما لا يطيقونه ولا يقدرون عليه.

فصل

إذا عرف هذا فالجهاد أربع مراتب جهاد النفس وجهاد الشيطان وجهاد الكفار وجهاد المنافقينفجهاد النفس أربع مراتب أيضًا:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به ومتى فاتها عمله شقيت في الدارين

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد عمله وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيا حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه فمن علم وعمل وعلم فذاك يدعى عظيما في ملكوت السماوات.

فصل

وأما جهاد الكفار والمنافقين فأربع مراتب بالقلب واللسان والمال والنفس وجهاد الكفار أخص باليد وجهاد المنافقين أخص باللسان

فصل

وأما جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات فثلاث مراتب الأولى باليد إذا قدر فإن عجز انتقل إلى اللسان فإن عجز جاهد بقبله فهذه ثلاثة عشر مرتبة من الجهاد و من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق.

فصل

وقت هجرة إلى الله عز وجل بالتوحيد والإخلاص والإنابة والتوكل والخوف والرجاء والمحبة والتوبة وهجرة إلى رسوله بالمتابعة والإنقياد لأمره والتصديق بخبره وتقديم أمره وخبره على أمره غيره وخبره فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه وفرض عليه جهاد نفسه في ذات الله وجهاد شيطانه فهذا كله فرض عين لا ينوب فيه أحد عن أحد .

وأما جهاد الكفار والمنافقين فقد يكتفى فيه ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصود الجهاد .

فصل

وأكمل الخلق عند الله من كمل مراتب الجهاد كلها والخلق متفاوتون في منازلهم عند

الله تفاوتهم في مراتب الجهاد ولهذا كان أكمل الخلق وأكرمهم على الله خاتم أنبيائه ورسله فإن كمل مراتب الجهاد وجاهد في الله حق جهاده وشرع في الجهاد من حين بعث إلى أن توفاه الله عز وجل فإنه لما نزل عليه: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[المدثر:١-٤]، شمر عن ساق الدعوة وقام في ذات الله أتم قيام ودعا إلى الله ليلا ونهارا وسرا وجهارا ولما نزل عليه: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[الحجر:٩٤]، فصدع بأمر الله لا تأخذه فيه لومة لائم فدعا إلى الله الصغير والكبير والحر والعبد والذكر والأنثى والأحمر والأسود والجن والإنس.

ولما صدع بأمر الله وصرح لقومه بالدعوة وناداهم بسب آلهتهم وعيب دينهم اشتد أذاهم له ولمن استجاب له من أصحابه ونالوه ونالوهم بأنواع الأذى وهذه سنة الهل عز وجل في خلقه كما قال تعالى: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾[فصلت: ٤٣]، وقال: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾[الأنعام: ١١٢]، وقال: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾[الذاريات: ٥٢-٥٣].

فعزى سبحانه نبيه بذلك وأن له أسوة بمن تقدمه من المرسلين وعزى أتباعه بقوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[البقرة:٢١٤].

وقوله: ﴿ الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ

يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾[العنكبوت: ١-١١].

فليتأمل العبد سياق هذه الآيات وما تضمنته من العبر وكنوز الحكم فإن الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين إما أن يقول أحدهم آمنا وإما ألا يقول ذلك بل يستمر على السيئات والكفر فمن قال آمنا امتحنه ربه وابتلاه وفتنه والفتنة الابتلاء والاختبار ليتبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل آمنا فلا يحسب أنه يعجز الله وبقوته ويسبقه فإنه إنما يطوي المراحل في يديه:

وكيف يفر المرء عنه بذنبه ... إذا كان تطوى في يديه المراحل

فمن آمن بالرسل وأطاعهم عاداه أعداؤهم وآذوه فابتلي بما يؤلمه وإن لم يؤمن بهم ولم يطعهم عوقب في الدنيا والآخرة فحصل له ما يؤلمه وكان هذا المؤلم له أعظم ألما وأدوم من ألم اتباعهم فلا بد من حصول الألم لكل نفس آمنت أو رغبت عن الإيمان لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداء ثم يصير إلى الألم الدائم وسئل الشافعي رحمه الله أيما أفضل للرجل أن

يمكن أو يبتلى فقال لا يمكن حتى يبتلى والله تعالى ابتلى أولي العزم من الرسل فلما صبروا مكنهم فلا يظن أحد أنه يخلص من الألم البتة وإنما يتفاوت أهل الآلام في العقول فأعقلهم من باع ألما مستمرا عظيما بألم منقطع يسير وأشقاهم من باع الألم المنقطع اليسير بالألم العظيم المستمر، فإن قيل كيف يختار العاقل هذا قيل الحامل له على هذا النقد والنسيئة: (والنفس موكلة بحب العاجل)، ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ ﴾[القيامة: ٢٠-٢١]، ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾[الإنسان:٢٧]، وهذا يحصل لكل أحد فإن الإنسان مدني بالطبع لا بد له أن يعيش مع الناس والناس لهم إرادات وتصورات فيطلبون منه أن يوافقهم عليها فإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب تارة منهم وتارة من غيرهم كمن عنده دين وتقى حل بين قوم فجار ظلمة ولا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم أو سكوته عنهم فإن وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرهم في الإبتداء ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم وخالفهم وإن سلم منهم فلا بد أن يهان ويعاقب على يد غيرهم فالحزم كل الحزم في الأخذ بما قالت عائشة أم المؤمنين لمعاوية من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا.

ومن تأمل أحوال العالم رأى هذا كثيرا فيمن يعين الرؤساء على أغراضهم الفاسدة وفيمن يعين أهل البدع على بدعهم هربا من عقوبتهم فمن هداه الله وألهمه رشده ووقاه شر نفسه امتنع من الموافقة على فعل المحرم وصبر على عدوانهم ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة كما كانت للرسل وأتباعهم كالمهاجرين والأنصار ومن ابتلي من العلماء

والعباد وصالحي الولاة والتجار وغيرهم.

ولما كان الألم لا محيص منه البتة عزى الله سبحانه من اختار الألم اليسير المنقطع على الألم العظيم المستمر بقوله: ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[العنكبوت:٥]، فضرب لمدة هذا الألم أجلا لا بد أن يأتى وهو يوم لقائه فيلتذ العبد أعظم اللذة بما تحمل من الألم من أجله وفي مرضاته وتكون لذته وسروره وابتهاجه بقدر ما تحمل من الألم في الله ولله وأكد هذا العزاء والتسلية برجاء لقائه ليحمل العبد اشتياقه إلى لقاء ربه وروليه على تحمل مشقة الألم العاجل بل ربما غيبه الشوق إلى لقائه عن شهود الألم والإحساس به ولهذا سأل النبي ﷺ ربه الشوق إلى لقائه فقال في الدعاء الذي رواه أحمد وابن حبان اللهم إني أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني إذا كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضي وأسألك القصد في الفقر والغني وأسألك نعيما لا ينفد وأسألك قرة عين لا تنقطع وأسألك الرضى بعد القضاء وأسألك برد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر إلى وجهك وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين.

فالشوق يحمل المشتاق على الجد في السير إلى محبوبه ويقرب عليه الطريق ويطوي له البعيد ويهون عليه الآلام والمشاق وهو من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده ولكن لهذه النعمة أقوال وأعمال هما السبب الذي تنال به والله سبحانه سميع لتلك الأقوال عليم بتلك الأفعال وهو عليم بمن يصلح لهذه النعمة ويشكرها ويعرف قدرها ويحب المنعم عليه فتصلح عنده هذه النعمة ويصلح بها كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ

بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾[الأنعام:٥٣]، فإذا فاتت العبد نعمة من نعم ربه فيلقرأ على نفسه: ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾.

ثم عزاهم تعالى بعزاء آخر وهو أن جهادهم فيه إنما هو لأنفسهم وثمرته عائدة عليهم وأنه غنى عن العالمين ومصلحة هذا الجهاد ترجع إليهم لا إليه سبحانه ثم أخبر أنه يدخلهم بجهادهم وإيمانهم في زمرة الصالحين، ثم أخبر عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة وأنه إذا أوذي، في الله جعل فتنة الناس له كعذاب الله وهي أذاهم له ونيلهم إياه بالمكروه والألم الذي لا بد أن يناله الرسل وأتباعهم ممن خالفهم جعل ذلك في فراره منهم وتركه السبب الذي ناله كعذاب الله الذي فر منه المؤمنون بالإيمان فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فروا من ألم عذاب الله إلى الإيمان وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قريب وهذا لضعف بصيرته فر من ألم عذاب أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم ففر من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله فجعل ألم فتنة الناس في الفرار منه بمنزلة ألم عذاب الله وغبن كل الغبن إذ استجار من الرمضاء بالنار وفر من ألم ساعة إلى ألم الأبد وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال إني كنت معكم والله عليم بما انطوى عليه صدره من النفاق.

والمقصود أن الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لا بد أن يمتحن النفوس ويبتليها فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها ومن يصلح لموالاته وكراماته ومن لا يصلح وليمحص النفوس التي تصلح له ويخلصها بكير الامتحان كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه إلا بالامتحان إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية فإن خرج في هذه الدار وإلا

ففي كير جهنم فإذا هذب العبد ونقي أذن له في دخول الجنة. أهـ

فيا باغي الخير أقبل، ويا طالب النصر عجل بامتثال أمر الله عز وجل، وأمر رسوله، وإعلاء هذه الشعيرة التي فتر عنها المسلمون وضيعوها.

كـأن لم يكـن بـين الحجـون إلى الصـفا أنـيس ولم يسـمر بمكـه سـامر

ولو لم يكن من فضائل الجهاد غير كون صاحبه حي في برزخه لكفى به شرفًا، قال تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٥٤].

والجهاد هو لمن اشترى الآخرة بالدنيا، قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء:٧٤].

وكيف يترك الجهاد والاستضعاف للمسلمين موجود: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾ [النساء:٧٥].

الكفار يقاتلون لإعزاز أنفسهم والمسلمون ينامون في ذل عميق، وترك سبيل أسلافهم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء:٧٦].

وعاتب الله عز وجل المخبتين إلى الدنيا والتاركين لشعيرة الجهاد بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا

﴿أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء:٧٧].

شراء نفوس المؤمنين يتولاه الله بنفسه محبة لما هم عليه من الخير، فهل من مشر، وهل من مدركر: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١].

من هم هؤلاء يا ترى؟ هم النائمون؟ هم الجبناء؟ هم الساكتون على الباطل والشر؟ ولا ولكنهم: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١١٢].

محبة الله التي بحث عنها العباد في محاريبهم، والعلماء في محابرهم، والتجار بأموالهم تنال بالوقوف في الصفوف أمام الأعداء بانتظار النصر أو الحتوف: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف:٤].

تجارة خير من كل تجارة، ليس فيها أخذ ولا عطاء، ولا مساوة ولا استجداد، وإنما هي النفوس والدماء، وكانت جنة عدن هي الجزاء، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الصف: ١٠-١٣].

عـش عزيـزًا أو مـت وأنـت كـريمًا ... بـين طعـن القنـا وضرب البنـود

شتان بين مجاهد في ذات الله وبين متوان عن ذلك.

وكما قيل:

فشتان ما بين اليزيدين في الندى يزيد سليم والمثنى بن خالد

وأحسن من هذا قول الله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء:٩٥].

وجهاد الأعداء سبب للبقاء.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٥٤].

وقال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[الأنفال:٣٩].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال:٦٥].

ما هذا التثاقل والسبات؟! قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ

وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لانْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ * إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلاّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِلاّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ

اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ * لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[التوبة:٤٧].

والكفار عليهم لعائن الله عز وجل، يتربصون بالمؤمنين الدوائر، ولا يكفون عن أذيتهم وأذلالهم بما استطاعوا، ولا سبيل إلى كف شرهم إلا بالجهاد، قال الله تعالى مخبرًا عنهم: ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة:١٠] ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:١١] ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة:١٢] ﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١٣] ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١٤] ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:١٥] ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:١٦].

والجهاد بأنواع سبب للهداية إلى الحق والصواب، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا

فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[العنكبوت:٦٩].

وجهاد الأعداء دليل على صدق الإيمان، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ * يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٦-٢١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

والجهاد ذروة سنام الإسلام كما في حديث معاذ عند أحمد وغيره، وقد خرجته والحمد لله في تحقيقي على «الإيمان» لأبن أبي شيبة»: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد».

فلا قوة للمسلمين ولا عزة ولا سؤدد ولا نصر ولا تمكين إلا بإحياء هذه الشعيرة العظيمة والطريق المستقيمة، طريقة الذل والصغار للكافرين: «وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري، وجعل رزقي تحت ظل رمحي».

وقال ﷺ: «ونصرت بالرعب».

فواسفاه على تعطيل أفضل الأعمال بسبب الخلود إلى الأرض وتقليد الكافرين، ومما

يدل على ذلك حديث أبي ذر عند البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤): «أفضل العمل الإيمان بالله والجهاد في سبيله».

وفي البخاري عن أبي هريرة وهو في مسلم عن أبي سعيد قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: »مَنْ آمَنَ بِالله وَبِرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهَدَ فِي سَبِيلِ الله أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا« فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: »إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ الله، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ«، وعن أبي هريرة عند البخاري (٣١٢٣)، ومسلم (١٨٧٦): عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: »تَكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ وَتَصْدِيقُ كَلِمَتِهِ بِأَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ«.

عملٌ عجز العاملون أن يعدلوا أصحابه في شيء، دل على ذلك حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٧٨٥): أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، قَالَ: »تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ«، قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا، فَلَمَّا وَلَّى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: »مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا«، حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ عَنْ يَحْيَى عَنْ أَبِي حَيَّانَ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو زُرْعَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ بِهَذَا.

والمجاهد خير الناس كما في حديث أبي سعيد عند البخاري (٦٤٩٤): قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ: حَدَّثَنَا الْأَوْزَاعِيُّ، حَدَّثَنَا الزُّهْرِيُّ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ

اللَّيْثِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: رَجُلٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، وَرَجُلٌ فِي شِعْبٍ مِنْ الشِّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ»، تَابَعَهُ الزُّبَيْدِيُّ وَسُلَيْمَانُ بْنُ كَثِيرٍ وَالنُّعْمَانُ عَنْ الزُّهْرِيِّ، وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ عَطَاءٍ أَوْ عُبَيْدِ الله عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ يُونُسُ وَابْنُ مُسَافِرٍ وَيَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ.

وفي لفظ (٢٧٨٦): أي الناس أفضل؟

ولا مجال لاستيفاء أحاديثه وفضائله في هذه العجالة، فهل كانت حياة رسول الله ﷺ وأقواله وأفعاله إلا جهاد.

ها هو يدمى بأبي هو وأمي في بعض المشاهد، فجعل يقول:

هل أنت إلا أصبع دميت ... وفي سبيل الله ما لقيت

متفق عليه عن جندب رضي الله عنه.

وفي يوم أحد تكسر رباعيته وتكسر البيضة على رأسه وهو جاهد مجاهد، كما في البخاري (٤٠٧٥)، ومسلم (١٧٩٠): عَنْ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ وَهُوَ يُسْأَلُ عَنْ جُرْحِ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: أَمَا وَالله إِنِّي لَأَعْرِفُ مَنْ كَانَ يَغْسِلُ جُرْحَ رَسُولِ الله ﷺ وَمَنْ كَانَ يَسْكُبُ الْمَاءَ وَبِمَا دُووِيَ، قَالَ: كَانَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَام بِنْتُ رَسُولِ الله ﷺ تَغْسِلُهُ وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَسْكُبُ الْمَاءَ بِالْمِجَنِّ، فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ أَنَّ الْمَاءَ لَا يَزِيدُ الدَّمَ إِلَّا كَثْرَةً أَخَذَتْ قِطْعَةً مِنْ حَصِيرٍ فَأَحْرَقَتْهَا وَأَلْصَقَتْهَا فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَوْمَئِذٍ وَجُرِحَ وَجْهُهُ وَكُسِرَتْ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ.

وبلغت ﷺ غزواته تسع عشرة غزوة كما في مسلم (١٨١٤) عن بريدة.

وإليك بعض أقوال العلماء في هذه الشعيرة العظيمة:

قال ابن دقيق العيد كما في «الفتح» (٦/ ٨): الجهاد أفضل الأعمال مطلقًا؛ لأنه وسيلة إلى إعلان الدين ونشره، وإخماد الكفر ودحضه، ففضيلته بحسب فضيلة ذلك والله أعلم. أهـ

وقال ابن دقيق العيد في «أحكام الجهاد وفضله» (٦٨): إذا كانت مشقة الغبار عاصمة من عذاب النار، فما الظن بمن بذل ماله وغرر بنفسه في قتال الكفار. أهـ

هذا في الجهاد بالنفس، وهو قتال المشركين والبغاة المارقين، رفع لكلمة الله عز وجل، وإعلاءً لراية التوحيد.

وإما الجهاد بالمال فبه ينصر دين الله عز وجل، فمنزلته رفيعة ومقامه محمود.

وكم من أناس أشتهروا به فبلغوا الدرجات العلى والنعيم المقيم.

والأمر بهذا النوع من الجهاد قرن بالأمر بالجهاد بالنفس، فهما سواء.

وقد أخرج الإمام مسلم (١٨٩٣) من حديث أبي مسعود قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أبدع بي فأحملني، فقال: «ما عندي»، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أدله على من يحمله، فقال صلىالله عليه وسلم: «من دل على الخير فله مثل أجر فاعله».

واتفق البخاري (٢٨٤٣)، ومسلم (١٨٩٥) من حديث زَيْدُ بْنُ خَالِدٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا».

وأخرج مسلم (١٨٩٢) عن أبي مسعود: جاء رجل بناقة مخطومة، فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة مختومة».

وهذا النوع من الجهاد يكون بالأنفاق أيضًا في نشر العلم والخير، وبعث الدعاة والمصلحين.

قال ابن القيم في «الزاد» (٣/ ٧٢): وأما الجهاد بالمال ففي وجوبه قولان والصحيح وجوبه؛ لأن الأمر بالجهاد به وبالنفس في القرآن سواء كما قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٤١]، وعلق النجاة من النار به ومغفرة الذنب ودخول الجنة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[الصف: ١٠-١٢].

وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم ما يحبون من النصر والفتح القريب فقال: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الصف:١٣] أي: ولكم خصلة أخرى تحبونها في الجهاد وهي: ﴿نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾[الصف:١٣] وأخبر سبحانه أنه: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١٠] وأعاضهم عليها الجنة وأن هذا العقد والوعد قد أودعه أفضل كتبه المنزلة من السماء وهي التوارة والإنجيل والقرآن ثم أكد ذلك بإعلامهم أنه لا أحدا أوفى بعهده منه تبارك وتعالى ثم أكد ذلك بأن أمرهم بأن يستبشروا ببيعهم الذي عاقدوه عليه ثم أعملهم أن ذلك هو الفوز العظيم

فليتأمل العاقد ربه عقد هذا التبايع ما أعظم خطره وأجله فإن الله عز وجل هو

المشترى والثمن جنات النعيم والفوز برضاه والتمتع برؤيته هناك والذي جرى على يده هذا العقد أشرف رسله وأكرمهم

عليه من الملائكة والبشر وإن سلعة هذا شأنها لقد هيئت لأمر عظيم وخطب جسيم:

قد هيؤوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

مهر المحبة والجنة بذل النفس والمال لمالكهما الذي اشتراهما من المؤمنين فما للجبان المعرض المفلس وسوم هذه السلعة بالله ما هزلت فيستامها المفلسون ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون لقد أقيمت للعرض في سوق من يريد فلم يرض ربها لها بثمن دون بذل النفوس فتأخر البطالون وقام المحبون ينتظرون أيهم يصلح أن يكون نفسه الثمن فدارت السلعة بينهم ووقعت في يد: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[المائدة:٥٤].

والنوع الثالث من الجهاد الذي أشار إليه الحديث وسار عليه العلماء كما تقدم في تقسيم ابن المناصف: هو الجهاد باللسان، وهذا يكون للكافرين والمنافقين والمبطلين بإنكار ما هم فيه من الباطل.

وهذا النوع من الجهاد له ضوابط وأحكام، فإن أخذ بها صار الجهاد مشروعًا منصورًا بأذن الله عز وجل.

ويدخل في هذا الباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة والصدع بالحق، والجرح لأهل البدع والأهواء وما يشبه ذلك.

ويدخل في الجهاد باللسان الجهاد بالقلم والكتابة، فإنها تقوم مقام الخطابة في كثير من الأوقات والأزمان.

وهذا الضرب واجب على المكلف بشروط كما قال ابن المناصف (١/ ١٣):

منها: أن يكون عالمًا بطريق الإنكار ووجه القيام في ذلك، مع الترفق تارة والغلظة أخرى، بحسب المنكر في نفسه والأحوال التي تعترض، فإن لم يكن كذلك لم يجب، بل قد يحرم عليه القيام؛ لأنه ربما وقع في أشد مما أنكر، وقال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾[النساء:١٣٥]، وقال سبحانه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

ومنها: أن تكون له قوة نفسية وحالة يأمن معها أن يطاع ذلك، فإن لم يكن كذلك لم يجب عليه لكنه إن فعل صابرًا محتسبًا قيامه في ذلك عند الله صح.

ويجب عليه القول وإن كان يائسًا من كف ذلك المنكر؛ لأن الإنكار أخص فريضة لا يسقطه عدم تأثر المنكر عليه.

ألا ترى أن إنكار القلب حيث لا يستطاع الإنكار بالقول واجب، وهو لا أثر له في دفع المنكر، فكذلك يجب القول إذا أمكنه وإن لم يؤثر، وايضًا ففي إعلان الإنكار تقرير معالم الشرع، فلو وقع التمالؤ في مثل هذا على الشرك حيث لا يغني الكف والإقلاع لأوشك دروسها، وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[آل عمران:١٠٤].

فالقول: إن قدر عليه واجب أثر أو لم يؤثر. أهـ

وهذا القول الذي ارتضاه هو رواية عن الإمام أحمد، وهو أختيار شيخ الإسلام وعزاه ابن رجب إلى أكثر العلماء كما في «لوامع الأنوار» (٢/ ٤٣٥).

وهو أختيار النووي في «شرح مسلم» (٢/ ٢٣) وغيرهم كثير.

وجهاد المنافقين المأمور به في قوله تعالى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾[التوبة:٧٣] يكون

بالقول والزجر والوعيد والتهديد وما أشبه ذلك؛ لأنه ﷺ لم يؤمر بقتالهم لما كانوا يظهرون الإسلام.

فائدة: أقسام الجهاد من حيث الأحكام الشرعية:

أعلم وفقك الله عز وجل لطاعته أن للجهاد ثلاث حالات:

الأولى: فرض كفاية إن قام به بعض سقط عن الآخرين.

فواجب على المسلمين في الجملة غزو الكفار ابتداءً وجهادهم على الإيمان، ولتكون كلمة الله هي العليا حتى يقهروهم ويضطروهم إلى أوكس الأحوال المرة بعد المرة، وأقله مرة في العام.

قال ابن المناصف: وهو عندي صحيح، وهو قول بدر ابن جماعة.

وقول النووي، انظر «الأنجاد» (١/ ٤٢)، و«تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام» (١٥٥)، «روضة الطالبين» (١٠/ ٢٠٨)، «المهذب» (٢/ ٢٢٧).

الحالة الثانية: وجوب الجهاد على الأعيان بشروطه، وهو إذا أظل العدو بلدًا أو جانبًا من ثغور المسلمين مقاتلًا لهم فيتعين فرض الجهاد حينئذ على كل واحد ممن هنالك من المسلمين في خاصته وعلى قدر طاقته، إلى أن تقع الكفاية، ويقع الاستقلال بقتال العدو ودفعه، فإن قصر عدد من هنالك أو قوتهم عن دفاعهم وجب كذلك على كل من صاقبهم وقرب منهم من المسلمين إعانتهم والنفير إليهم، ثم كذلك أبدًا إذا غارهم العدو حتى يعم الفرض جميع المسلمين، أو يقع الاستغناء من دون ذلك بمقاومتهم ودفعهم.

وهذا النوع يسمى جهاد الدفع، قال ابن القيم في «الفروسية»: وهو أصعب من

جهاد الطلب، فإن جهاد الدفع يشبه باب دفع الصائل ولهذا أبيح للمظلوم أن يدفع عن نفسه

كما وقال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾[الحج:٣٩] وقال النبي ﷺ: »من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد«؛ لأن دفع الصائل على الدين جهاد وقربة ودفع الصائل على المال والنفس مباح ورخصة فإن قتل فيه فهو شهيد

فقتال الدفع أوسع من قتال الطلب وأعم وجوبا ولهذا يتعين على كل أحد يقم ويجاهد فيه العبد بإذن سيده وبدون إذنه والولد بدون إذن أبويه والغريم بغير إذن غريمه وهذا كجهاد المسلمين يوم أحد والخندق، ولا يشترط في هذا النوع من الجهاد أن يكون العدو ضعفي المسلمين فما دون فإنهم كانوا يوم أحد والخندق أضعاف المسلمين فكان الجهاد واجبا عليهم لأنه حينئذ جهاد ضرورة ودفع لا جهاد اختيار ولهذا تباح فيه صلاة الخوف بحسب الحال في هذا النوع وهل تباح في جهاد الطلب إذا خاف فوت العدو ولم يخف كرته فيه قولان للعلماء هما روايتان عن الإمام أحمد.

ومعلوم أن الجهاد الذي يكون فيه الإنسان طالبا مطلوبا أوجب من هذا الجهاد الذي هو فيه طالب لا مطلوب والنفوس فيه أرغب من الوجهين.

وأما جهاد الطلب الخالص فلا يرغب فيه إلا أحد رجلين إما عظيم الإيمان يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله وإما راغب في المغنم والسبي.

فجهاد الدفع يقصده كل أحد ولا يرغب عنه إلا الجبان المذموم شرعا وعقلا وجهاد الطلب الخالص لله يقصده سادات المؤمنين وأما الجهاد الذي يكون فيه طالبا مطلوبا فهذا يقصده خيار الناس لإعلاء كلمة الله ودينه ويقصده أوساطهم للدفع ولمحبة الظفر.

راجع «الأنجاد» (١/ ٤٥-٤٧)، «تفسير القرطبي» (٨/ ٥١)، «أحكام القرآن» للجصاص (٤/ ٣١٢).

قلت: ويلتحق بهذه الحالة حالتان:

الأولى: عند التقاءالصفوف فلا يجوز عندئذ الفرار، لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾[الأنفال:٤٥].

الحالة الثانية: عند استنفار إمام المسلمين لطائفة من الناس، فيكون الجهاد عينيًا عليهم، وكذلك إذا استنفر أهل بلد أو قرية لقول رسول الله ﷺ كما في حديث عائشة وابن عباس: «وإذا استنفرتم فانفروا» البخاري (٢٨٢٥)، ومسلم (١٣٥٣)، راجع «المغني» (١٣/ ٨).

وزاد ابن المناصف في كتابه «الإنجاد» (١/ ٤٧-٤٨): حالة رابعة وهي حالة استنقاذ الأسرى إذا حازهم العدو وكان بالمسلمين قدرة على استنقاذهم بالقتال، **وقال تعالى:** ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾ [النساء:٧٥].

وقال ﷺ: «فكوا العاني».

وقال: وهم يد على من سواهم، أخرجه البخاري (٣٠٤٦)، قال: ولا خلاف في

ذلك أعلمه، قيل: فإن لم تكن لهم قدرة على استنقاذهم بالقتال وكانت هنالك أموال يفدون بها وجب فداؤهم بالمال، وإن كانت لهم قدرة، وهنالك أموال كانوا بالخيار بين القتال والفداء واجب عليهم أن يمتثلوا أحد الأمرين. أهـ

الحالة الثالثة: هي ما وراء القيام بالفريضة في الحالتين، فمن جاهد بعد ذلك والكفاية، وتم الدفاع عن المسلمين فهو له نافلة، وفيه فضل كبير وأجر عظيم، وهو من أفضل أعمال البر وأعلى درجات الطاعة، **وقال تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾** [النساء:٩٥].

فعلى هذا تقدم معرفة الجهاد الشرعي، لكن بقي الجهاد المحرم.

وهو جهاد جماعة التكفير، ومن استقى أفكارهم من قطبيه وأخوان، فإنهم حرب على شعوب المسلمين وحكامهم، وجروا لهم الويلات والنكبات، سواءً في السعودية، أو في الجزائر، أو في المغرب، أو اليمن، أو غيرها من الدول.

وسواء من ذلك التفجيرات التي تقع على ممتلكات المسلمين وأنفسهم، أو على ممتلكات الكافرين المستأمنين من قبل حكام المسلمين، أو كذلك أحداث تفجيرات في بلاد الكفار التي لا تتقيد بالضوابط الشرعية، حيث لا راية إسلامية يقاتل تحتها، ولا مصلحة للمسلمين من ورأها، بل الضرر متحقق فيها من تشويه المسلمين إلى غير ذلك من الأضرار الخطيرة التي قد حدثت وتحدث في كل وقت وحين من جراء سفهاء الأحلام أحداث الأسنان، الذين لا يتقيدون بعلم ولا حلم.

حيث ومن المعلوم لدى كثير من طلاب العلم أن الجهاد له أربع مراحل:

الأولى: مرحلة الكف عن القتال، يدل عليها قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾[النساء:٧٧] .

قال ابن القيم في «الزاد» (٣/ ٧٠-٧١): إن الله لم يأذن بمكه لهم في القتال، ولا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة.

وقال: ولا ريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأما جهاد الحجة فأمر به في مكة بقوله: ﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ [الفرقان:٥٢].

فهذه سورة مكية والجهاد فيها هو التبليغ وجهاد الحجة.

الحالة الثانية: ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم، قال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾[البقرة:١٩٠].

المرحلة االثالثة: فرض قتال المشركين كافة وكان محرمًا ثم مأذونًا به، ثم مأمور به لمن بدأهم بقتال، ثم مأمور به لجميع المشركين. أهـ من «الزاد» (٣/ ٧٠-٧٢).

فعلى هذا عُلم أن قتال الكفار إنما وجب أبان قوة المسلمين أما أيام الضعف فعلى المسلمين أن يلزموا حالة عدم الابتداء بالقتال، لما في ذلك من الضرر الحاصل على الإسلام وأهله.

قال شيخ الإسلام في «الصارم المسلول» (٢/ ٢٠٨): إن المسلمين كانوا ممنوعين قبل الهجرة من الابتداء بالقتال، وكان قتل الكفار حينئذ محرمًا، وهو من قتل النفس بغير حق، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا

﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء:٧٧].

وقال (ص٤١٣-٤١٤): فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف فليعمل بآية الصبر والصفح عمن يؤذي الله ورسوله، من الذين أوتوا الكتاب والمشركين.

وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. أهـ

فعلم من هذا أن ما يقوم به هؤلاء المفجرون التكفيريون ليس للإسلام فيه مصلحة ولا للمسلمين فيه منفعه، ولكن:

ومن جعل الغراب له دليلًا ... يمر به على جيف الكلاب

فمن جعل من أسامة بن لادن ، أو أيمن الظواهري، أو أبا حمزة المصري، أو سلمان وسفر، أو المسعري وغيرهم أدلة لهم أودوا بهم إلى الهاوية، بفتاويهم المخالفة للحق والدليل، وتحمل في طياتها التخرص والتهويل.

ولن تكون طريقتهم ناصرة للإسلام وأهله يوم من الدهر؛ لأنها طريقة بنيت على مذهب الخلف من الخوارج المارقة: «كلاب النار».

ولم تبن على طريقة النبي ﷺ وأصحابه الكرام، وتابعيهم بإحسان.

حالهم كالشجرة الخبيثة التي أجتثبت من فوق الأرض مالها من قرار.

فعلى من أراد أن الله عز وجل ينصره وينصر دعوته وخيره بملازمة الضوابط الشرعية للجهاد بجميع أنواعه:

* جهاد بالقلب.

* جهاد باللسان.

* جهاد بالنفس.

* جهاد بالمال.

ولنقف مع بعض أهل الإيمان في نشرهم الخير والإحسان بجميع أنواع الجهاد.

وقد تقدم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيء من ذلك.

عمير بن الحمام بطل من الأبطال وفارس من الفرسان.

أخرج مسلم (١٩٠١): عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ بُسَيْسَةَ عَيْنًا يَنْظُرُ مَا صَنَعَتْ عِيرُ أَبِي سُفْيَانَ، فَجَاءَ وَمَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: لَا أَدْرِي مَا اسْتَثْنَى بَعْضَ نِسَائِهِ، قَالَ: فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ فَتَكَلَّمَ فَقَالَ: »إِنَّ لَنَا طَلِبَةً فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا«، فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي ظُهْرَانِهِمْ فِي عُلْوِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ: لَا إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا، فَانْطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ، وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: »لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ«، فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: »قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ«، قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ يَا رَسُولَ الله جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: »نَعَمْ«، قَالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: »مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟« قَالَ: لَا وَالله يَا رَسُولَ الله إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: »فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا«، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ.

زاد ابن الأثير في «أسد الغابة» (٣/ ٤١٤) أنه كان يقول:

ركضًا إلى الله بغير زاد ... إلا التقى وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد ... إن التقى من أعظم السداد

وخير ما قاد إلى الرشاد ... وكل حي فإلى النفاد

وأخرج البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣): عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ لَئِنْ اللهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ قَالَ: اللهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ يَعْنِي أَصْحَابَهُ، وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ الْجَنَّةَ، وَرَبِّ النَّضْرِ إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ، قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا صَنَعَ قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ، قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نُرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَقَالَ: إِنَّ أُخْتَهُ وَهِيَ تُسَمَّى الرُّبَيِّعَ كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ امْرَأَةٍ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْقِصَاصِ، فَقَالَ أَنَسٌ: يَا رَسُولَ اللهِ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا، فَرَضُوا بِالْأَرْشِ وَتَرَكُوا الْقِصَاصَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ».

الإمام أبو إسحاق أحمد بن إسحاق السرماري شيخ البخاري وشجاعته بها يضرب المثل.

قال الذهبي في «السير» (١٣/ ٣٨-٣٩): كنت اكاتب أحمد بن إسحاق السرماري

فكتب الي إذا اردت الخروج إلى بلاد الغزية في شراء الاسرى فاكتب الي فكتبت اليه فقدم سمرقند فخرجنا فلما علم جعبويه استقبلنا في عدة من جيوشه فاقمنا عنده فعرض يوما جيشه فمر رجل فعظمه وخلع عليه فسالني عنه السرماري فقلت هذا رجل مبارز يعد بالف فارس قال انا ابارزه فسكت فقال جعبويه ما يقول هذا قلت يقول كذا وكذا قال لعله سكران لا يشعر ولكن غدا نركب فلما كان الغد ركبوا فركب السرماري معه عمود في كمه فقام بازاء المبارز فقصده فهرب أحمد حتى باعده من الجيش ثم كر وضربه بالعمود قتله وتبع إبراهيم بن شماس لانه كان سبقه فلحقه وعلم جعبويه فجهز في طلبه خمسين فارسا نقاوة فادركوا فثبت تحت تل مختفيا حتى مروا كلهم واحدا بعد واحد وجعل يضرب بعموده من ورائهم إلى ان قتل تسعة وأربعين وامسك واحدا قطع انفه واذنيه واطلقه ليخبر ثم بعد عامين توفي أحمد وذهب ابن شماس في الفداء فقال له جعبويه من ذاك الذي قتل فرساننا قال ذاك أحمد السرماري قال فلم لم تحمله معك قلت توفي فصك في وجهي وقال لو اعلمتني انه هو لكنت اعطيه خمس مئة برذون وعشرة الاف شاه

وعن بكر بن منير قال رايت السرماري أبيض الراس واللحية ضخما مات بقريته فبلغ كراء الدابة اليها عشرة دراهم وخلف ديونا كثيرة فكان غرماؤه ربما يشترون من تركته حزمة القصب بخمسين درهما إلى مئة حبا له فما رجعوا حتى قضي دينه

عن عمران بن محمد المطوعي سمعت أبي يقول كان عمود المطوعي السرماري وزنه ثمانية عشر منا فلما شاخ جعله اثني عشر منا وكان به يقاتل

قال غنجار سمعت محمد بن خالد وأحمد بن محمد قالا سمعنا عبد الرحمن بن محمد

بن جرير سمعت عبيد الله بن واصل سمعت أحمد السرماري يقول واخرج سيفه فقال اعلم يقينا أني قتلت به الف تركي وان عشت قتلت به الفا اخرى ولولا خوفي ان يكون بدعه لامرت ان يدفن معي

وعن محمود بن سهل الكاتب قال كانوا في بعض الحروب يحاصرون مكانا ورئيس العدو قاعد على صفة فرمى السرماري سهما فغرزه في الصفة فاوما الرئيس لينزعه فرماه بسهم اخر خاط يده فتطاول الكافر لينزعه من يده فرماه بسهم ثالث في نحره فانهزم العدو وكان الفتح، قلت: اخبار هذا الغازي تسر قلب المسلم.

قال الحافظ أبو القاسم الدمشقي توفي في شهر ربيع الاخر سنة اثنتين وأربعين ومئتين رحمه الله تعالى فانه كان مع فرط شجاعته من العلماء العاملين العباد

قال ولده أبو صفوان وهب المامون لأبي ثلاثين الفا وعشرة افراس وجارية فلم يقبلها.

وذكر الذهبي عنه هذه المقولة الجميلة (١٣/ ٣٧-٣٨): ينبغي لقائد الغزاة ان يكون فيه عشر خصال ان يكون في قلب الاسد لا يجبن وفي كبر النمر لا يتواضع وفي شجاعه الدب يقتل بجوارحه كلها وفي حملة الخنزير لا يولي دبره وفي غارة الذئب إذا أيس من وجه أغار من وجه وفي حمل السلاح كالنملة تحمل أكثر من وزنها وفي الثبات كالصخرة وفي الصبر كالحمار وفي الوقاحة كالكلب لو دخل صيده النار لدخل خلفه وفي التماس الفرصة كالديك .

ثم قاتل رحمه الله قتال الأبطال حتى قتل كما تقدم الحديث من البخاري.

وأخرج البخاري ومسلم عن جابر رضى الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - « مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ ». فَقَالَ مُحَمَّدُ

بْنُ مَسْلَمَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَهُ قَالَ « نَعَمْ ». قَالَ ائْذَنْ لِى فَلأَقُلْ قَالَ « قُلْ ». فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ وَذَكَرَ مَا بَيْنَهُمَا وَقَالَ إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ أَرَادَ صَدَقَةً وَقَدْ عَنَّانَا. فَلَمَّا سَمِعَهُ قَالَ وَأَيْضًا وَاللَّهِ لَتَمَلُّنَّهُ. قَالَ إِنَّا قَدِ اتَّبَعْنَاهُ الآنَ وَنَكْرَهُ أَنْ نَدَعَهُ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى أَىِّ شَىْءٍ يَصِيرُ أَمْرُهُ - قَالَ - وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ تُسْلِفَنِى سَلَفًا قَالَ فَمَا تَرْهَنُنِى قَالَ مَا تُرِيدُ. قَالَ تَرْهَنُنِى نِسَاءَكُمْ قَالَ أَنْتَ أَجْمَلُ الْعَرَبِ أَنَرْهَنُكَ نِسَاءَنَا قَالَ لَهُ تَرْهَنُونِى أَوْلاَدَكُمْ. قَالَ يُسَبُّ ابْنُ أَحَدِنَا فَيُقَالُ رُهِنَ فِى وَسْقَيْنِ مِنْ تَمْرٍ. وَلَكِنْ نَرْهَنُكَ اللأْمَةَ - يَعْنِى السِّلاَحَ - قَالَ فَنَعَمْ. وَوَاعَدَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ بِالْحَارِثِ وَأَبِى عَبْسِ بْنِ جَبْرٍ وَعَبَّادِ بْنِ بِشْرٍ قَالَ فَجَاءُوا فَدَعَوْهُ لَيْلاً فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ قَالَ سُفْيَانُ قَالَ غَيْرُ عَمْرٍو قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ إِنِّى لأَسْمَعُ صَوْتًا كَأَنَّهُ صَوْتُ دَمٍ قَالَ إِنَّمَا هَذَا مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ وَرَضِيعُهُ وَأَبُو نَائِلَةَ إِنَّ الْكَرِيمَ لَوْ دُعِىَ إِلَى طَعْنَةٍ لَيْلاً لأَجَابَ. قَالَ مُحَمَّدٌ إِنِّى إِذَا جَاءَ فَسَوْفَ أَمُدُّ يَدِى إِلَى رَأْسِهِ فَإِذَا اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ فَدُونَكُمْ قَالَ فَلَمَّا نَزَلَ نَزَلَ وَهُوَ مُتَوَشِّحٌ فَقَالُوا نَجِدُ مِنْكَ رِيحَ الطِّيبِ قَالَ نَعَمْ تَحْتِى فُلاَنَةُ هِىَ أَعْطَرُ نِسَاءِ الْعَرَبِ. قَالَ فَتَأْذَنُ لِى أَنْ أَشَمَّ مِنْهُ قَالَ نَعَمْ فَشُمَّ. فَتَنَاوَلَ فَشَمَّ ثُمَّ قَالَ أَتَأْذَنُ لِى أَنْ أَعُودَ قَالَ فَاسْتَمْكَنَ مِنْ رَأْسِهِ ثُمَّ قَالَ دُونَكُمْ. قَالَ فَقَتَلُوهُ.

هذا غيظ من فيض وقليل من كثير وقطرة من مطرة.

ذكرناها شحذًا للهمم وتقوية للعزائم، وأيقاظًا للنائم من أراد الزيادة فليرجع إلى كتب السيرَّ والتواريخ فسيرى العجب العجاب الذي لا يتسع له كتاب، بل هو بحر ثجاج فيه مأثر المسلمين وبطولتهم وقصصهم وحكايتهم أبان عزهم ونصرهم.

وأما ذكر العبر من المجاهدين بالألسن، فقد تقدم الكلام بما يشفى الكلام والله المستعان.

السادسة والثلاثون

ومن يشكر الله يلقى المزيد**ومن يكفر الله يلقى الغير

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... علي له في مثلها يجب الشكر
فكيف وقوع الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسراء عم سرورها ... وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
وما منهما إلا له فيه منة ... تضيق بها الأوهام والبر والبحر

هكذا قال محمود الوراق كما في «الشكر» لابن أبي الدنيا (٨٢)، فالشكر منة من الله عز وجل يجب أن يشكر عليها مع ما له من الميزات الجلية والعطايا الجزيلة، **وقال تعالى:** ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[ابراهيم:٧]، **وقال تعالى:** ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٥].

وهؤلاء آل لوط نجاهم الله بالشكر، كما قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾[القمر: ٣٣-٣٥].

و**قال تعالى:** ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠].

في آيات كثيرة تحث على هذه العبادة الجلية، ولعظم شأنها كان رسول الله ﷺ يصلي من الليل حتى تتفطر قدماه، فقيل له في ذلك فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورا» كما في «الصحيحين» من حديث عائشة والمغيرة رضي الله عنهم في (١١٣٠)، وسلم (٢٨١٩).

وقال معلمًا معاذ بن جبل: يَا مُعَاذُ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، فَقَالَ لَهُ مُعَاذٌ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ وَأَنَا أُحِبُّكَ، قَالَ: «أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»، قَالَ: وَأَوْصَى بِذَلِكَ مُعَاذٌ الصُّنَابِحِيَّ، وَأَوْصَى الصُّنَابِحِيُّ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَأَوْصَى أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ عُقْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ.

أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، وأحمد (٥/ ٤٥).

وبين رسول الله ﷺ عظم الشكر في قوله: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير: أن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر» الحديث عند مسلم (٢٩٩٩).

وأخرج أحمد (١/ ٢٢٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقول: «رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ الْهُدَى إِلَيَّ، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا، لَكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي».

قال ابن القيم في «عدة الصابرين» (١١٨-١٢١): وقرن سبحانه الشكر بالإيمان وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به فقال: ﴿**مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ**﴾[النساء:١٤٧] أي: إن وفيتم ما خلقتم له وهو الشكر والايمان فما أصنع بعذابكم.

هذا وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده فقال: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾[الأنعام:٥٣]، وقسم الناس إلى شكور وكفور فأبغض الأشياء اليه الكفر وأهله وأحب الأشياء اليه الشكر وأهله قال تعالى في الانسان: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[الإنسان:٣].

وقال نبيه سليمان: ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾[النمل:٤٠]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[إبراهيم:٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[الزمر:٧]،

شكر لله عز وجل وشكر لعباده المؤمنين.

قال ابن القيم في «عدة الصابرين» (٢٧٩-٢٨٠): وأما شكر الرب تعالى فله شأن آخر كشأن صبره فهو أولى بصفة الشكر من كل شكور بل هو الشكور على الحقيقة فإنه يعطى العبد ويوفقه لما يشكره عليه ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقله أن يشكره ويشكر الحسنة بعشر أمثالها الى أضعاف مضاعفة ويشكر عبده بقوله بأن يثنى عليه بين ملائكته وفى ملئه الأعلى ويلقى له الشكر بين عباده ويشكره بفعله فإذا ترك له شيئا أعطاه أفضل منه وإذا بذل له شيئا رده عليه أضعافا مضاعفة وهو الذى وفقه للترك والبذل وشكره على هذا وذاك ولما عقر نبيه سليمان الخيل غضبا له اذ شغلته عن ذكره فاراد ألا تشغله مرة أخرى أعاضه عنها متن الريح ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها فى مرضاته أعاضهم عنها أن ملكهم الدنيا وفتحها عليهم ولما احتمل يوسف

الصديق ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكن له فى الارض يتبوأ منها حيث يشاء ولما بذل الشهداء أبدانهم له حتى مزقها أعداؤه شكر لهم ذلك بأن أعاضهم منها طيرا خضرا أقر أرواحهم فيها ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها الى يوم البعث فيردها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأبهاه ولما بذل رسله أعراضهم فيه لأعدائهم فنالوا منهم وسبوهم أعاضهم من ذلك بأن صلى عليهم هو وملائكته وجعل لهم أطيب الثناء فى سمواته وبين خلقه فأخلصهم بخالصة ذكرى الدار.

ومن شكره سبحانه أنه يجازى عدوه بما يفعله من الخير والمعروف فى الدنيا ويخفف به عنه يوم القيامة فلا يضيع عليه ما يعمله من الاحسان وهو من أبغض خلقه اليه ومن شكره أنه غفر للمرأة البغى بسقيها كلبا كان قد جهده العطش حتى أكل الثرى وغفر لآخر بتنحيته غصن شوك عن طريق المسلمين فهو سبحانه يشكر العبد على احسانه لنفسه والمخلوق انما يشكر من أحسن اليه وأبلغ من ذلك أنه سبحانه هو الذى أعطى العبد ما يحسن به الى نفسه وشكره على قليله بالاضعاف المضاعفة التى لا نسبة لإحسان العبد اليها فهو المحسن بإعطاء الاحسان وإعطاء الشكر فمن أحق باسم الشكور منه سبحانه.

وتأمل قوله سبحانه: ﴿ **مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا** ﴾[النساء:١٤٧]، كيف تجد فى ضمن هذا الخطاب أن شكره تعالى يأبى تعذيب عباده سدى بغير جرم كما يأبى اضاعة سعيهم باطلا فالشكور لا يضبع أجر محسن ولا يعذب غير مسئ وفى هذا رد لقول من زعم أنه سبحانه يكلفه مالا يطيقه ثم يعذبه على مالا يدخل تحت قدرته تعالى الله عن هذا الظن الكاذب والحسبان الباطل علوا كبيرا

فشكره سبحانه اقتضى أن لا يعذب المؤمن الشكور ولا يضيع عمله وذلك من لوازم هذه الصفة فهو منزه عن خلاف ذلك كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص التى تنافى كماله وغناه وحمده.

ومن شكر سبحانه أنه يخرج العبد من النار بأدنى مثقال ذرة من خير ولا يضيع عليه هذا القدر ومن شكره سبحانه أن العبد من عباده يقوم له مقاما يرضيه بين الناس فيشكره له وينوه بذكره ويخبر به ملائكته وعباده المؤمنين كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام وأثنى به عليه ونوه بذكره بين عباده وكذلك شكره لصاحب يس مقامه ودعوته اليه فلا يهلك عليه بين شكره ومغفرته الا هالك.

وللشكر قواعد وأركان.

قال ابن القيم في «المدارج» (٢/ ٢٤٤): الشكر مبني على خمس: قواعد خضوع الشاكر للمشكور وحبه له، واعترافه بنعمته وثناؤه عليه بها،وأن لا يستعملها فيما يكره، فهذه الخمس هي أساس الشكر وبناؤه عليها، فمتى عدم منها واحدة اختل من قواعد الشكر قاعدة، وكل من تكلم بالشكر وحده، فكلامه إليها يرجع وعليها يدور.

والشكر يجب أن يكون على جميع نعم الله عز وجل، وأعظمها الإسلام والتوحيد، قال ابن القيم: شكر العامة على المطعم والمشرب والملبس وقوت الأبدان وشكر الخاصة على التوحيد والإيمان وقوت القلوب. أهـ

ويا لله كم من أناس تفانوا في هذه العبادة فمكنوا، وكم من أناس ضيعوها فضيعوا والجزاء من جنس العمل، نسوا الله فنسيهم.

فهذا نوح عليه السلام أول رسول الله إلى أهل الأرض يقول الله عنه: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ

﴿حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ [الاسراء:٣].

قال ابن القيم في «عدة الصابرين» (١١٣): وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على أول رسول بعثه إلى أهل الارض بالشكر فقال ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبدا شكورا وفي تخصيص نوح ها هنا بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته اشارة إلى الاقتداء به فانه أبوهم الثانى فان الله تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلا الا من ذريته كما قال تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر فانه كان عبدا شكورا .

وأنزل الله عز وجل التوراة على موسى واصطفاه بكلامه ليكون من الشاكرين، وكان كما أراد الله منه، **قال تعالى:** ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [لأعراف:١٤٤].

وداود وسليمان كانا من الشاكرين، **وقال تعالى:** ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً﴾[سبأ:١٣]، إلى قوله: ﴿فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[النمل:١٩].

وأعلم أن نعم الله عز وجل عليك كثيرة، وآلآه جزيلة، **قال تعالى:** ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوهَا﴾[ابراهيم:٣٤].

فإذا كان الإحصاء متعذر فكيف بشكرها، لكن على المسلم أن يشكر ربه فلا يكفره، ويذكره فلا ينساه، ويطيعه فلا يعصيه.

وأعلم أن الحمد والشكر بينهما عموم وخصوص، فهما يجتمعان في آلة اللسان والقلب، يبقى على حاله ويجتمعان في الثناء على المتعدي من الأفعال.

ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح قيامه بذلك الدعاء العظيم، الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو مِنْ اللَّيْلِ:

»اللهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، قَوْلُكَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ لِي غَيْرُكَ، حَدَّثَنَا ثَابِتُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بِهَذَا وَقَالَ أَنْتَ الْحَقُّ وَقَوْلُكَ الْحَقُّ.

وقال ﷺ كما في حديث أنس عند مسلم: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الآكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها«.

والحمد لله من أحب الكلام إلى الله عز وجل، روي ذلك من أوجه متكاثرة، منها ما أخرجه مسلم (٢١٣٧) عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « أَحَبُّ الْكَلاَمِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ. لاَ يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ.

والكلام عن الحمد يطول، لكن نذكر هنا المواطن التي يشرع فيها الحمد على وجه الإشارة لا استكمال الموضوع، عل الله عز وجل أن ينفعني وكل من قرأ ذلك:

١- منها عند الاستيقاظ من النوم: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور«.

٢- ومنها عند الدخول في الصلاة كما في مسلم (٢٩٥) عن أبي هريرة: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: »مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ ثَلَاثًا غَيْرُ تَمَامٍ«، فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ فَقَالَ: اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: »**وقال تعالى:** قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَى حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَالَ اللهُ تَعَالَى أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ قَالَ مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ قَالَ هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ قَالَ هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.

٣- ومنها عند الرفع من الركوع: عَنْ ابْنَ عَبَّاسٍ ﷺ مَا قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ: »اللهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ لَا إِلَهَ غَيْرُكَ، قَالَ سُفْيَانُ: وَزَادَ عَبْدُ الْكَرِيمِ أَبُو أُمَيَّةَ: وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، قَالَ سُفْيَانُ: قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ أَبِي مُسْلِمٍ: سَمِعَهُ مِنْ طَاوُسٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ مَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ

وحديث رفاعة بن رافع عند البخاري (٧٩٩)عن رفاعة بن رافع الزرقي قال

: كنا يوما نصلي وراء النبي ﷺ فلما رفع رأسه من الركعة قال (سمع الله لمن حمده) .

قال رجل وراءه ربنا ولك الحمد حمدا طيبا مباركا فيه . فلما انصرف قال (من المتكلم) .

قال أنا قال (رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أول)

٤- ومنها عند الانتهاء من الصلاة كما في حديث كعب بن عجرة في «الصحيحين»: عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «مُعَقِّبَاتٌ لَا يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ أَوْ فَاعِلُهُنَّ: دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَسْبِيحَةً، وَثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَحْمِيدَةً، وَأَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ تَكْبِيرَةً».

٥- عند العطاس لحديث أبي هريرة عند البخاري (٦٢٢٣)، ومسلم (٢٩٩٤) واللفظ للبخاري: «إن الله يحب العطاس».

٦- عند الانتهاء من الأكل حديث أنس عند مسلم: «إن الله ليرض عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها» الحديث.

٧- عند النوم حديث: «الحمد لله الذي كفانا وأوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مأوي» الحديث.

٨- عند ركوب الدابة كما في حديث علي عند الترمذي: عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبِيعَةَ قَالَ: رَأَيْتُ عَلِيًّا رضي الله عنه أُتِيَ بِدَابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا، فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ قَالَ: بِسْمِ الله، فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَيْهَا قَالَ: الْحَمْدُ للهِ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ، ثُمَّ حَمِدَ اللهَ ثَلَاثًا وَكَبَّرَ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي، ثُمَّ ضَحِكَ فَقُلْتُ: مِمَّ ضَحِكْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلْتُ ثُمَّ ضَحِكَ، فَقُلْتُ: مِمَّ ضَحِكْتَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «يَعْجَبُ الرَّبُّ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَيَقُولُ عَلِمَ عَبْدِي أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي».

٩- عند الدعاء لحديث أنس عند الترمذي (٤٨١): جاءت أم سليم فقالت: يا رسول الله علمني كلمات أدعوا الله بهن، قال: «تسبحين الله عشرًا، وتحمدنيه عشرًا،

وتكبرينه عشرًا، ثم سلي حاجتك فإنه يقول: قد فعلت، قد فعلت«.

١٠- عند قيام الليل حديث ابن عباس وقد تقدم: «اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض«.

١١- عند فقد الولد والمصيبة.

وخلاصة الكلام أنه يحمد على كل حال.

السابعة والثلاثون: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]

هذه صفة النبي الكريم صلى الله عليه وعلى آله وسلم، الذي أمرنا بالأخذ عنه والسير على سيره، والأخذ بأقواله وأفعاله في باب الدعوة وغيرها، فمن سلك سبيله واقتفى أثره وصل، ومن خالف طريقه انقطع وغفل.

ولهذا قال: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحاسنهم خلقًا« كما في حديث أبي هريرة عند الترمذي (١١٦٢)، وأحمد٤٧)، وعائشة رضي الله عنها ما.

وإذا كمل إيمانه كان الله مؤيده وناصره، وإذا نصره الله عز وجل فمن ذا الذي يستطيع مواجته وهزيمته، أخرج البخاري: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: »إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ«.

والعمل بالقرآن والسنة هما الخلق العظيم الذي بعث به النبي الكريم، قالت عائشة حين سئلت عن خلق رسول الله ﷺ كما في مسلم (٧٤٦): فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن.

وقال ﷺ كما في حديث عائشة: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق» أخرجه أحمد (٢/ ٣٨١).

وله النصر في الدنيا والنصر في الآخرى: عَنْ جَابِرٍ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: «الْمُتَكَبِّرُونَ» قَالَ أَبُو عِيسَى: وَفِي الْبَاب عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَرَوَى بَعْضُهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ الْمُبَارَكِ بْنِ فَضَالَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ عَنْ جَابِرٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ عَنْ عَبْدِ رَبِّهِ بْنِ سَعِيدٍ وَهَذَا أَصَحُّ وَالثَّرْثَارُ هُوَ الْكَثِيرُ الْكَلَامِ، وَالْمُتَشَدِّقُ الَّذِي يَتَطَاوَلُ عَلَى النَّاسِ فِي الْكَلَامِ وَيَبْذُو عَلَيْهِمْ، أخرجه الترمذي (٢٠١٨).

وقال ﷺ كما عند الترمذي (٢٠٠٤) حين سئل: ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: «تقوى الله وحسن الخلق».

وكم كان الناس الذين دخلوا في الدعوة بسبب حسن خلق حملتها، كما في حديث ابن عباس عند البخاري (٣٨٦١)، ومسلم (٢٤٧٤)، قَالَ: لَمَّا بَلَغَ أَبَا ذَرٍّ مَبْعَثُ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لِأَخِيهِ: ارْكَبْ إِلَى هَذَا الْوَادِي فَاعْلَمْ لِي عِلْمَ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، يَأْتِيهِ الْخَبَرُ مِنْ السَّمَاءِ وَاسْمَعْ مِنْ قَوْلِهِ ثُمَّ ائْتِنِي، فَانْطَلَقَ الْأَخُ حَتَّى قَدِمَهُ وَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ

ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَبِي ذَرٍّ فَقَالَ لَهُ: رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَكَلَامًا مَا هُوَ بِالشِّعْرِ، فَقَالَ: مَا شَفَيْتَنِي مِمَّا أَرَدْتُ، فَتَزَوَّدَ وَحَمَلَ شَنَّةً لَهُ فِيهَا مَاءٌ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ، فَأَتَى الْمَسْجِدَ فَالْتَمَسَ النَّبِيَّ ﷺ وَلَا يَعْرِفُهُ، وَكَرِهَ أَنْ يَسْأَلَ عَنْهُ حَتَّى أَدْرَكَهُ بَعْضُ اللَّيْلِ، فَاضْطَجَعَ فَرَآهُ عَلِيٌّ فَعَرَفَ أَنَّهُ غَرِيبٌ، فَلَمَّا رَآهُ تَبِعَهُ، فَلَمْ يَسْأَلْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أَصْبَحَ، ثُمَّ احْتَمَلَ قِرْبَتَهُ وَزَادَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَظَلَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَلَا يَرَاهُ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَمْسَى، فَعَادَ إِلَى مَضْجَعِهِ فَمَرَّ بِهِ عَلِيٌّ فَقَالَ: أَمَا نَالَ لِلرَّجُلِ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَهُ فَأَقَامَهُ، فَذَهَبَ بِهِ مَعَهُ لَا يَسْأَلُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ شَيْءٍ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الثَّالِثِ فَعَادَ عَلِيٌّ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ، فَأَقَامَ مَعَهُ ثُمَّ قَالَ: أَلَا تُحَدِّثُنِي مَا الَّذِي أَقْدَمَكَ، قَالَ: إِنْ أَعْطَيْتَنِي عَهْدًا وَمِيثَاقًا لَتُرْشِدَنِّي فَعَلْتُ، فَفَعَلَ فَأَخْبَرَهُ، قَالَ: فَإِنَّهُ حَقٌّ وَهُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَاتْبَعْنِي، فَإِنِّي إِنْ رَأَيْتُ شَيْئًا أَخَافُ عَلَيْكَ قُمْتُ كَأَنِّي أُرِيقُ الْمَاءَ، فَإِنْ مَضَيْتُ فَاتْبَعْنِي حَتَّى تَدْخُلَ مَدْخَلِي فَفَعَلَ، فَانْطَلَقَ يَقْفُوهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَدَخَلَ مَعَهُ فَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ وَأَسْلَمَ مَكَانَهُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: »ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَأَخْبِرْهُمْ حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي«، قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى الْمَسْجِدَ فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ قَامَ الْقَوْمُ فَضَرَبُوهُ حَتَّى أَضْجَعُوهُ، وَأَتَى الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيْهِ قَالَ: وَيْلَكُمْ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ مِنْ غِفَارٍ، وَأَنَّ طَرِيقَ تِجَارِكُمْ إِلَى الشَّأْمِ فَأَنْقَذَهُ مِنْهُمْ، ثُمَّ عَادَ مِنَ الْغَدِ لِمِثْلِهَا فَضَرَبُوهُ وَثَارُوا إِلَيْهِ فَأَكَبَّ الْعَبَّاسُ عَلَيْهِ.

وقال أنس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقًا.

ومن الأخلاق التي ينبغي أن يتحلى بها الداعي إلى الله عز وجل:

أولًا: طاعة الله عز وجل ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

الثاني: طلب العلم والعمل بالعلم.

الثالث: الصبر.

الرابع: التواضع.

الخامس: الحلم.

السادس: التؤده.

السابع: الكرم.

الثامن: الحكمة.

التاسع: الشجاعة.

العاشر: الجود.

الحادي عشر: الغيرة المحمودة.

الثانية عشرة: السمت الحسن.

إلى غير ذلك مما جاء به النبي ﷺ.

وكما قيل:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

قال الماوردي رحمه الله في «أدب الدنيا والدين» (٢٣٧): إذا حسنت أخلاق الإنسان كثر مصافوه وقل معادوه، فتسهلت عليه الأمور الصعاب، لانت له القلوب الغضاب. أهـ

قال ابن القيم في «الفوائد» (٧٥): جمع النبي ﷺ بين تقوى الله وحسن الخلق؛ لأن تقوى الله تصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعوا الناس إلى محبته. أهـ

وإذا أحبه الناس قبلوا خيره وأشادوا ذكره ونشروا علمه، بينما إن كان سيء الخلق نفروا عنه ونفروا منه.

الثامنة والثلاثون: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ المائدة:١٣،

قال الفيروز آبادي في »بصائر ذوي التمييز«: والصفح أبلغ من العفو.

وقد يعفو الإنسان ولا يصفح، وصفحت عنه أوليته صفحة جميلة معرضًا عن ذنبه، أو ألقيت صفحته متحاميًا عنه، أو تجاوزت الصفحة التي أثبت فيها ذنبه. أهـ

وقد قال الله عز وجل آمرًا نبيه بالصفح عن المؤمنين والتجاوز عنهم: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[الحجر:٨٥].

وقال تعالى مرغبًا لأبي بكر والمؤمنين في الصفح: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور:٢٢].

وأيضًا قال تعالى أمرًا نبيه بالإعراض وعدم المبالاة من كفر الكافرين: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٩].

ولا استمرار للحياة السعيدة إلا بالعمل بهذه الوسيلة الجميلة المفيدة في نصر الإنسان على مخالفيه، ونصر الدعوة وتجاوز المشكلات والعثرات والزلات، **قال تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤-١٥].

وأخبر الله عز وجل أن الجنة للمؤمنين، ومن صفاتهم العفو والصفح، حيث قال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

فالعفو والصفح سبب للإحسان الذي يحبه الله عز وجل ويثيب عليه، وقد كتب الإحسان على كل شيء، فيجب على الداعي إلى الله عز وجل أن يكون محسنًا في القول والفعل والاعتقاد، حتى ينصر وبالخير يذكر.

والداعي إلى الله عز وجل تواجهه المنغصات من المجتمع وممن حوله، ولو شدد عليهم واغلظ لهم القول والفعل لنفروا عنه واشمئزوا منه، ومن أفعاله وإن كان ما يأتي به حسنًا.

ولذلك حث الله رسوله ﷺ على هذا الأمر، مع ما هو عليه من الرفق والخير، **قال تعالى:** ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[البقرة:٢٣٧].

وقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

ومع ذلك المتصف بصفتي الصفح والعفو مع أنه مطيع لربه عز وجل، ومتابع لنبيه ﷺ يبرد قلبه ويقل حساده، ويكثر محبوه وينتشر خيره، ولولا أن الله عز وجل يأخذنا بالعفو لأهلكنا جميعًا، دعاة وعلماء وأمة، **وقال تعالى:** ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:٥٢]، وقال: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾[البقرة:١٨٧].

ومن الدعاء العظيم الذي أنزله الله على نبيه: «واعف عنا واغفر لنا وارحمنا».

فاللهم عفوًا وصفحًا لما يحدث منا من زلاتٍ وتفريطات.

وانظر إلى حياة نبيك ﷺ، فلما علم من نفسه الغضب، وعلم أن المجتمع فيه شيء من ذلك، دعا الله عز وجل أن لا يؤاخذ أصحابه بدعائه إلا من كان له أهل، كما في حديث أبي هريرة وعائشة وأنس وغيرهم في الصحيح والألفاظ متقاربة: «اللهم إني اتخذ عندك عهدًا لن تخلفنيه، فإنما أنا بشر، فآي المؤمنين آذيته، شتمته، لعنته، جلدته، فاجعلها له صلاةوزكاة وقربه تقربه بها إليك يوم القيامة».

وأخرج البخاري (٦٢٠٧)، ومسلم (١٧٩٨): أَنَّ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رضي الله عنه مَا قال: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ رَكِبَ عَلَى حِمَارٍ عَلَيْهِ قَطِيفَةٌ، فَدَكِيَّةٌ وَأُسَامَةُ وَرَاءَهُ يَعُودُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فِي بَنِي حَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَسَارَا حَتَّى مَرَّا بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ، فَإِذَا فِي الْمَجْلِسِ أَخْلَاطٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَالْيَهُودِ، وَفِي الْمُسْلِمِينَ عَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ، فَلَمَّا غَشِيَتْ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ خَمَّرَ ابْنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ وَقَالَ: لَا تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا، فَسَلَّمَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَيْهِمْ ثُمَّ وَقَفَ فَنَزَلَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الله وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ: أَيُّهَا الْمَرْءُ لَا أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ إِنْ كَانَ حَقًّا فَلَا تُؤْذِنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا، فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْصُصْ عَلَيْهِ، قَالَ عَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ: بَلَى يَا رَسُولَ الله فَاغْشَنَا فِي مَجَالِسِنَا فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ، فَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ حَتَّى كَادُوا يَتَثَاوَرُونَ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ الله ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا، ثُمَّ رَكِبَ رَسُولُ الله ﷺ دَابَّتَهُ فَسَارَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ

رَسُولُ الله ﷺ: »أَيْ سَعْدُ أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ«، يُرِيدُ عَبْدَ الله بْنَ أُبَيٍّ قَالَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: أَيْ رَسُولَ الله بِأَبِي أَنْتَ اعْفُ عَنْهُ وَاصْفَحْ، فَوَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَقَدْ جَاءَ اللهُ بِالْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ وَلَقَدْ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبَحْرَةِ عَلَى أَنْ يُتَوِّجُوهُ وَيُعَصِّبُوهُ بِالْعِصَابَةِ، فَلَمَّا رَدَّ اللهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَ شَرِقَ بِذَلِكَ فَذَلِكَ فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ، فَعَفَا عَنْهُ رَسُولُ الله ﷺ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا أَمَرَهُمْ اللهُ وَيَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى، **وقال تعالى:** وَلَتَسْمَعُنَّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ الْآيَةَ وَقَالَ: وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَتَأَوَّلُ فِي الْعَفْوِ عَنْهُمْ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ حَتَّى أَذِنَ لَهُ فِيهِمْ فَلَمَّا غَزَا رَسُولُ الله ﷺ بَدْرًا فَقَتَلَ اللهُ بِهَا مَنْ قَتَلَ مِنْ صَنَادِيدِ الْكُفَّارِ وَسَادَةِ قُرَيْشٍ، فَقَفَلَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَصْحَابُهُ مَنْصُورِينَ غَانِمِينَ مَعَهُمْ أُسَارَى مِنْ صَنَادِيدِ الْكُفَّارِ وَسَادَةِ قُرَيْشٍ، قَالَ ابْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ فَبَايِعُوا رَسُولَ الله ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمُوا.

وأخرج البخاري (٢٠٧٨)، ومسلم (١٥٦٢): عَنْ عَبْدُ الله: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، فَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: »رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ«.

وعن أنس رضي الله عنه عندهما في (٦٠٨٨)، ومسلم (١٠٥٧): عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ الله ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ الله ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ الله الَّذِي عِنْدَكَ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ

اللهِ ﷺ ثُمَّ ضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ.

وعن جابر رضي الله عنه عند الشيخين: البخاري (٢٩١)، ومسلم (٨٤٣): أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَفَلَ مَعَهُ، فَأَدْرَكَتْهُمْ الْقَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ وَنِمْنَا نَوْمَةً، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُونَا وَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فَقُلْتُ: »اللهُ« ثَلَاثًا وَلَمْ يُعَاقِبْهُ وَجَلَسَ.

وانظر أيضًا إلى أبي بكر رضي الله عنه لما قال مسطح في شأن عائشة الزكية المبرأة ما قال، وأقسم أبو بكر أن لا ينفق عليه، فأنزل الله: ﴿**وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [النور:٢٢].

فقال: بلى وأجرى عليه النفقة.

وقد تقدم الحديث بطوله فلا داعي للإعادة.

وجاء عَنْ ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنه مَا قَالَ: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنْ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ الْقُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ؟ قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاسْتَأْذَنَ الْحُرُّ لِعُيَيْنَةَ فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِيْ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ فَوَاللهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزْلَ وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ

إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ وَإِنَّ هَذَا مِنْ الْجَاهِلِينَ، وَاللهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ.

وأيضًا لما قتل رضي الله عنه كما في البخاري (٤٨٨٨) وهو في سياقه الموت يوصي الخليفة من بعده بالعفو والصفح والتجاوز عن المؤمنين، وأوصى الخليفة بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم، وأوصى الخليفة بالأنصار الذي تبوءوا الدار والإيمان من قبل أن يهاجر النبي ﷺ أن يقبل من محسنهم ويعفوا عن مسيئهم.

ومن الكلام المنسوب إلى الشاعفي كما في «دليل الفالحين» (٣/ ٩٩):

قالوا سكت وقد خوصمت قلت لهم ... إن الخصام لباب الشر مفتاح
فالعفو عن جاهل أو أحمق أدب ... نعم وفيه لصون العرض إصلاح
إن الأسود لتخشى وهي صامتة ... والكلب يخشى ويرمى وهو نباح

ومع ذلك أعلم أن الصفح والعفو يكون محمودًا إذا كان سببه ظلم العبد، فأما إن كان المذنب خطئه مع الشرع والدين فلا.

قال الأصفهاني الراغب في «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (٢٣٤): والعفو إنما يستحب فيما إذا كانت الإساءة مخصوصة بالعافي، كمن أخذ ماله وشتم عرضه، فأما إذا كانت الإساءة عائدة بالضرر على الشرع فإنه إن كان فيها أدنى شبهة فللسلطان العفو، فإن لم تكن ذات شبهة فليس عفو. أهـ

قال أبو حاتم ابن حبان في «روضة العقلاء» (٢٠١): الواجب على العاقل توطين النفس على لزوم العفو عن الناس كافة، وترك الخروج لمجازاة الإساءة، إذ لا سبب لتسكين الإساءة أحسن من الإحسان، ولا سبب لنماء الإساءة وتهيجها أشد من

الاستعمال بمثلها.

قال: ولقد أنشدني منصور بن محمد الكريزي:

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنبٍ ... وإن كثرة منه إلي الجرائم

فما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثل مقاوم

فأما الذي فوقي فأعرف فضله ... واتبع فيه الحق والحق لازم

وأما الذي دوني فإن قال صنت ... عن إجابته عرضي وإن لام لائم

وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا ... تفضلت إن الحكم للفضل حاكم

وأخرج مسلم (٢٥٥٨): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ: »لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمْ الْمَلَّ، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنْ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ«.

قال أبو حاتم في »الروضة« في شرح هذا الحديث (٢٠٢): من أراد الثواب الجزيل واسترهان الود الأصيل، وتوقع الذكر الجميل فليتحمل من ورد ثقل الردى، ويتجرع مرارة مخالفة الهوى باستعمال السنة التي ذكرناها في الصلة عند القطع، والإعطاء عند المنع، والحلم عند الجهل، والعفو عند الظلم؛ لأنه من أفضل أخلاق أهل الدين والدنيا. أهـ

وقال (ص٢٠٣): الواجب على العاقل لزوم الصفح عند ورود الإساءة عليه من العالم بأسرهم رجاء عفو الله عز وجل عن جنايته التي ارتكبها في سالف أيامه؛ لأن صاحب الصفح إنما يتكلف الصفح بإيثار الجزاء، وصاحب العقاب وإن انتقم كان إلى

الندم أقرب. أهـ

وإذكر هنا موقف حصل مع شيخنا أبي عبد الرحمن الحجوري حفظه الله عز وجل ورفع قدره وقمع حاسديه فهو متميز بهذه الصفة الحميدة وهي صفة العفو والصفح إذا كان الخطأ على ذاته، وكم يكرر ونحن نسمع حين يتسامحون منه إنه لا يؤاخذ في عرضه وفي الطعن فيه من أجل ذاته، ولكن غضبه لسنة رسول الله ﷺ، وجاء مرة من المرات أخ أعرفه جيدًا، وهو الآن طالب في الدار قد اشتهر بالكلام في الشيخ يحيى حفظه الله حتى زهد فيه الناس، قال: فجئت دماج لأحسن سمعتي فقط لا غير، فلما وصل ذهب أصحاب بلده إلى الشيخ وقالوا: يا شيخ هذا فلان الذي صنع وصنع، وبعد درس العصر مر الأخ على الشيخ حفظه الله وهو يقول: يا شيخ سامحني، فقال له الشيخ: أما عرضي فسهل، لكن انتهيت من فتنة أبي الحسن؟ فقال الأخ: نعم، قال: واليوم الدار والشيخ من أحب الناس إليَّ.

التاسعة والثلاثون: «إن جاءكم فاسق بنباءٍ فتثبتوا»

هكذا قرأها حمزةوالكسائي، وقرأها الجمهور: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات:٦].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له لئلا يحكم بقوله فيكون في نفس الأمر كاذبا أو مخطئا فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين ومن ها هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر وقبلها آخرون لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند

خبر الفاسق وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ [النساء:٩٤].

والداعي إلى الله عز وجل يحتاج إلى هذا الجانب حاجة ماسة، حتى لا يقع منه التسرع في الأحكام وغير ذلك، فيقع الضرر عليه وعلى دعوته، فربما انقطع، وربما تشوه إلى غير ذلك من معوقات الدعوة.

مع ما يقوم به المثبطون من الوشايات، فهم سيفرحون بهذا الأمر أكثر من غيره.

إن يسمعوا زلة طاروا بها فرحًا مني ومما سمعوا من صالح دفنوا

أمر الله عز وجل عند ذلك بالتثبت حتى لا يقع الضرر.

أخرج أحمد (٤-ص٢٧٩)

وأخرج البخاري (٤٥٩١)، ومسلم عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمَعَهُ غَنَمٌ لَهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، قَالُوا: مَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا لِيَتَعَوَّذَ مِنْكُمْ، فَقَامُوا فَقَتَلُوهُ وَأَخَذُوا غَنَمَهُ، فَأَتَوْا بِهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا.

وأهل السنة يتهمون من أعدائها بعدم التثبت، مع أنهم من أشد الناس تثبتًا بحمد الله سبحانه وتعالى، ولكن ذكرت هذا الباب من باب التناصح، وحتى لا تؤخذ الدعوة من قبل العجلة، فإن العجل زلل كما قيل، وقد قال ﷺ: «التأني من الله والعجلة من

الشيطان« أخرجه أبو يعلى (٣/ ١٠٥٤) وهو في «الصحيحة« (٤/ ٤٠٤).

وكما قيل:

يـــا صـــاحبي تلومـــا لا تعجـــلا إن النجـــاح رهـــين أن لا تعجـــلا

الأربعون: التوحيد والعدل هما جماع صفات الكمال.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:٩٠].

وقال عن نبيه: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[الشورى:١٥].

وقال: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[النساء:٥٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾[الأنعام:١٥٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾[النساء:١٣٥].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾[المائدة:٨].

فمن أراد أن ينشر الله عز وجل خيره ويرفع ذكره فليلزم العدل في الرضى والغضب، مع القريب والبعيد، مع العدو والصديق، فإن فعل ذلك ساد وقاد.

بالعدل قامت الممالك، وبالظلم دمرت الأمم، فقد ذكر أهل السير وهو في «صحيح السيرة« للألباني رحمه الله عن الزهري في «السير« (١/ ٤٢٩-٤٣٠) قال: حدثت عروة بن الزبير بحديث أبي بكر بن عبد الرحمن، عن أم سلمة بقصة النجاشي وقوله لعمرو بن

العاص: فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، وما أطاع الناس في فأطيع الناس فيه، فقال عروة: أتدري ما معناه؟ قلت: لا، قال: إن عائشة حدثتني أن أباه كان ملك قومه ولم يكن له ولد إلا النجاشي، وكان للنجاشي عم له من صلبه اثنا عشر رجلًا وكانوا أهل بيت مملكة الحبشة، فقالت الحبشة بينها: لو أنا قتلنا أبا النجاشي وملكنا أخاه فإنه لا ولد له غير هذا الغلام، وإن لاخيه اثني عشرة ولدًا فتوارثوا ملكه من بعده فبقيت الحبشة بعده دهرًا فعدوا على أبي النجاشي فقتلوه وملكوا أخاه، فمكثوا على ذلك ونشأ النجاشي مع عمه وكان لبيبا حازمًا من الرجال فغلب على أمر عمه ونزل منه بكل منزلة، فلما رأت الحبشة مكانه منه قالت: بينها والله إنا لنتخوف أن يملكه ولئن ملكه علينا ليقتلنا أجمعين، لقد عرف أنا نحن قتلنا أباه فمشوا إلى عمه فقالوا له: إما أن تقتل هذا الفتى وإما أن تخرجه من بين أظهرنا فإنا قد خفنا على أنفسنا منه، قال: ويلكم قتلتم أباه بالأمس وأقتله اليوم، بل أخرجوه من بلادكم فخرجوا به فباعوه من رجل تاجر بست مئة درهم، ثم قذفه في سفينة فانطلق به حتى إذا المساء من ذلك اليوم هاجت سحابة من سحاب الخريف، فخرج عمه يستمطر تحتها فأصابته صاعقة فقتلته، ففزعت الحبشة إلى ولده فإذا هم حمقى ليس في ولده خير فمرج على الحبشة أمرهم فلما ضاق عليهم ما هم فيه من ذلك قال بعضهم لبعض: تعلمون والله أن ملككم الذي لا يقيم أمركم غيره الذي بعتموه غدوة، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه، قال: فخرجوا في طلبه حتى أدركوه فأخذوه من التاجر، ثم جاؤوا به فعقدوا عليه التاج وأقعدوه على سرير الملك وملكوه فجائهم التاجر فقال: إما أن تعطوني مالي وإما أن أكلمه في ذلك فقالوا: لا نعطيك شيئًا قال: إذن والله لاكلمنه، قالوا: فدونك فجاءه فجلس بين يديه فقال: أيها

الملك، ابتعت غلامًا من قوم بالسوق بست مئة درهم فأسلموه إلي وأخذوا دراهمي حتى إذا سرت بغلامي أدركوني فأخذوا غلامي ومنعوني دراهمي، فقال لهم النجاشي: لتعطنه دراهمه أو ليسلمن غلامه في يديه فليذهبن به حيث يشاء، قالوا: بل نعطيه دراهمه قالت: فلذلك يقول: ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه، وكان ذلك أول ما خبر من صلابته في دينه وعدله في حكمه.

قال الراغب في «مكارم الشريعة» (٢٤١): والإنسان في تحري فعل العدل يكون تام الفضيلة إذا حصل مع فعله هيئة متنزه لتعاطيه.

والعدالة تارة يقال هي الفضائل كلها من حيث لا يخرج شيء من الفضائل عنها.

وتارة يقال هي أجمل الفضائل من حيث أن صاحبها يقدر أن يستعملها في نفسه وفي غيره.

وهي ميزان الله المبرأ من كل زلة، وبها يستتب أمر العالم، ولذلك قال الله: ﴿**اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ**﴾[الشورى:١٧]، وقال: ﴿**وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ**﴾ [الرحمن:٧]. أهـ

والعدل مطلوب من السلطان الذي يدبر أمور الناس، حتى لا يقع في الظلم والجور وأخافة العباد وأخذ الأموال وترك الحدود وغير ذلك، وعدل العلماء مطلوب لأنهم بأمرهم تقام الحدود، وبفتاويهم تقع الألفة والتهاجر وتستباح الأموال والأعراض، فعلى الداعي إلى الله عز وجل أن يكون ملازمًا للعدل في نفسه ومع غيره.

قال الماوردي في «أدب الدنيا والدين» (١٤١): أما عدله في نفسه فيكون بحملها على المصالح وكفها عن القبائح، ثم بالوقوف في أحوالها على أعدل الأمرين، من تجاوز أو

تقصير، فإن التجاوز فيه جور والتقصير فيه ظلم، ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم، ومن جار عليها على غيره أجور. أهـ

وقد قالت عائشة رضي الله عنها: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أختار أيسرهما ما لم يكن آثمًا، فإن كان إثمًا كان من أبعد الناس منه.

الحديث في الصحيح.

وقال كما في حديث عبد الله بن عمرو في «الصحيحين»: «إن لنفسك عليك حقًا ... » الحديث.

وجاء عن البخاري عَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: آخَى رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَبَيْنَ أَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ: مَا شَأْنُكِ مُتَبَذِّلَةً؟ قَالَتْ: إِنَّ أَخَاكَ أَبَا الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، قَالَ: فَلَمَّا جَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ قَرَّبَ إِلَيْهِ طَعَامًا فَقَالَ: كُلْ فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لِيَقُومَ، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: نَمْ فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ لَهُ: نَمْ فَنَامَ، فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ قَالَ لَهُ سَلْمَانُ: قُمْ الْآنَ فَقَامَا فَصَلَّيَا، فَقَالَ: إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَيَا النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَا ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ: «صَدَقَ سَلْمَانُ».

ومما يبين أيضًا دخول ظلم النفس في ذلك ما أخرجه البخاري (٢٤٦٣)، ومسلم (١١٣): عَنْ الْحَسَنَ يَقُولُ: إِنَّ رَجُلًا مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ خَرَجَتْ بِهِ قُرْحَةٌ، فَلَمَّا آذَتْهُ انْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ فَنَكَأَهَا فَلَمْ يَرْقَأْ الدَّمُ حَتَّى مَاتَ، قَالَ رَبُّكُمْ: قَدْ حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَقَالَ: إِي وَاللهِ لَقَدْ حَدَّثَنِي بِهَذَا الْحَدِيثِ جُنْدَبٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي هَذَا

الْمَسْجِدِ.

وحديث جابر رضي الله عنه عند مسلم (١١٦): عَنْ جَابِرٍ: أَنَّ الطُّفَيْلَ بْنَ عَمْرٍو الدَّوْسِيَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ لَكَ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ وَمَنْعَةٍ، قَالَ: حِصْنٌ كَانَ لِدَوْسٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَبَى ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ لِلَّذِي ذَخَرَ اللهُ لِلْأَنْصَارِ، فَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ هَاجَرَ إِلَيْهِ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، وَهَاجَرَ مَعَهُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ فَاجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ، فَمَرِضَ فَجَزِعَ، فَأَخَذَ مَشَاقِصَ لَهُ فَقَطَعَ بِهَا بَرَاجِمَهُ فَشَخَبَتْ يَدَاهُ حَتَّى مَاتَ، فَرَآهُ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فِي مَنَامِهِ فَرَآهُ وَهَيْئَتُهُ حَسَنَةٌ وَرَآهُ مُغَطِّيًا يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: مَا صَنَعَ بِكَ رَبُّكَ؟ فَقَالَ: غَفَرَ لِي بِهِجْرَتِي إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ، فَقَالَ: مَا لِي أَرَاكَ مُغَطِّيًا يَدَيْكَ؟ قَالَ: قِيلَ لِي: لَنْ نُصْلِحَ مِنْكَ مَا أَفْسَدْتَ: فَقَصَّهَا الطُّفَيْلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »اللهُمَّ وَلِيَدَيْهِ فَاغْفِرْ«.

وهل العذاب حاصل على الكفار وغيرهم من العصاة إلا بسبب الظلم بنوعيه، لأنفسهم ولغيرهم، ويدخل في ظلم النفس ظلمها بالشرك، **قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**[لقمان:١٣].

والقسم الثاني من العدل هو العدل مع الغير.

قال ابن القيم رحمه الله في »الصواعق المرسلة« (٤/ ١٣٩٣) نقلًا عن »بدائع التفسير« (٢/ ٨١-٨٢) في تفسير قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾**[النساء:١٣٥] : فأمر سبحانه بالقيام بالقسط وهو العدل في هذه الآية.

وهذا أمر بالقيام به في حق كل أحد عدوًا كان أو وليًا، وأحق ما قام له العبد بقصد الأقوال والآراء والمذاهب، إذ هي متعلقة بأمر الله وخبره.

فالقيام فيها بالهوى والعصبية مضاد لأمر الله مناف لما بعث به رسوله ﷺ.

والقيام فيها بالقسط وظيفة خلفاء الرسول ﷺ في أمته وأمنائه بين أتباعه، ولا يستحق اسم الأمانة إلا من قام فيها بالعدل المحض نصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولعباده.

وأولئك هم الوارثون حقًا.

وقال في «البدائع» (٢/ ١٦٥-١٦٦): فإذا كان قد نهى عباده أن يحملهم بغضهم لأعدائه أن لا يعدلوا عليهم مع ظهور عداوتهم ومخالفتهم وتكذيبهم لله ورسوله ﷺ فكيف يسوغ لمن يدعي الإيمان أن يحمله بغضه لطائفة منتسبة إلى الرسول تصيب وتخطئ على أن لا يعدل فيهم، بل يجرد لهم العداوة وأنواع الأذى. أهـ

فمن هنا تلخص لنا أن العدل مطلوب شرعًا وعقلًا لاستمرارية الخير، وأن الظلم مذمومًا شرعًا وعقلًا بجميع أنواعه وأفراده، فعلى الداعي إلى الله تعالى أن يلازم العدل في نفسه ومع غيره إن رام الوصول، وإلا حرم المأمول وحصل له الأفول.

الحادية والأربعون:

فإننا نحمد الله سبحانه وتعالى على ما يسر من انتشار سنة رسول الله ﷺ، والفضل في هذا لله سبحانه وتعالى، فليس ذلك بحولنا ولا بقوتنا ولا بشجاعتنا ولا بفصاحتنا، ولا بكثرة مالنا ولكن أمر أراده الله فكان.

هذا كلمة عظيمة كنا نسمعها من في شيخنا الإمام مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله في كثير من خطبه ودروسه ومحاضراته، كلمة فيها الاعتراف لله عز وجل بالنعمة، فيها إسناد الأمر إلى الله عزوجل وعدم العجب بما حصل للدعوة من الخير، فكله بيد الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾[التكوير:٢٩].

وهذا الأمر ليس بمستغرب من عالم رباني، فهو على طريقة إسلافه سائر ولسنة محمد ﷺ ناصر، ولكل بدعي قاهر فلله الحمد والمنة.

وأعلم أخي وفقك الله عز وجل أن التوكل على الله عز وجل والبعد عن العجب والركون إلى النفس والشيطان من أعظم أسباب انتشار الخير والدعوات.

فحين بين الله عز وجل لنبيه مكر الماكرين أمره بالإعراض عنهم والسير في طريق الحق مع ملازمة التوكل، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ [النساء:٨١].

والله عز وجل قد كفى أولياءه الكافرين بسبب توكلهم واعتمادهم على ربهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ

فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة:١١].

ومع ذلك إن قدر الله بحصول شيء من الأرهاصات فهو من الله: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:٥١].

وقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٢٣].

وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[الشعراء: ٢١٧-٢١٦].

فتبين أن الدعوة التي يلازمها التوكل منصورة وغالبه.

ولما وصف النبي ﷺ بالبشارة والدعوة والشهادة حذره ونهاه عن طاعة الكافرين، وأمره بالتوكل، والاعتماد على الله عز وجل، فهو الناصر المعين والقوي المتين، الذي لا يخلف وعده ولا يهزم جنده: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً * وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٨].

والتوكل عصمة من الفشل، قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٢٢].

وإذا اعتمدت على الله عز وجل في دعوتك وجميع شؤونك فأبشر بالنصر العظيم والفتح المبين، قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٦٠].

فيا باغي الخير أقبل أنصر نفسك ينصرك الله.

أعتمد على الله يمكنك ويؤيدك، وإياكوالركون إلى النفس فهي سبب الهوان وبريد الخسران، ومغصب للديان وصاحبه من أولياء الشيطان.

وهو من أعظم أسباب الانحراف إلى سبيل الشيطان، فإن أردت أن لا يكون له عليك سلطان فلازم سبيل المتوكلين، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[النحل: ٩٨-٩٩].

وكيف مكن الله عز وجل لمن لا وطن لهم ولا دار حين لازموا هذه الشعيرة العظيمة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١-٤٢]، إلى غير ذلك مما ورد في القرآن في الحث على هذا الأمر العظيم.

قال ابن القيم في «المدارج» (٢/ ١٢٥): التوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب ويندفع بها المكروه. أهـ

ولما كان الرسل صلوات ربي وسلامه عليهم في غاية من التوكل نصرهم الله عز وجل، وقد تقدم في وسائل ماضية عن ذكر أحوالهم ما يغني عن الإعادة.

وهذا رسولنا ﷺ يخرج مهاجرًا إلى ربه عز وجل طريدًا من مكة، فيحفظه الله ويحوطه بسبب توكله واعتماده على الله عز وجل مع فعله بالأسباب الشرعية، كالدعاء وأخذ المؤن وغير ذلك.

أخرج البخاري (٣٦٥٢)، ومسلم (٢٠٠٩): حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُعَاذٍ الْعَنْبَرِيُّ،

حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ أَبِي إِسْحَقَ عَنْ الْبَرَاءِ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: لَمَّا خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ مَرَرْنَا بِرَاعٍ وَقَدْ عَطِشَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: فَحَلَبْتُ لَهُ كُثْبَةً مِنْ لَبَنٍ فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتُ.

ولما جمعت الأحزاب جموعها وجاءت بعدتها كلهم صوب المدينة سائرين، وببغض الحق مجاهرين، وللباطل ناصرين، قال المؤمنون حين سمعوا بقدومهم، وما هم عليه من الأهبة: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**﴾[آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

فصرفهم الله عز وجل عن المؤمنين في أحد بعد ما فعله رسول الله ﷺ من التأهب لحمراء الأسد.

وغير ذلك من المواطن فهل من مدكر.

يخرج من بين أظهرهم ليلة الهجرة ويضع الحصى على رؤوسهم، يقفون على باب الغار فلا يرونه.

يرسلون في طلبه فتغوص قوائم فرس سراقة فيرجع مؤمنًا.

يخرجون يوم بدر فيرجعون منهزمين ويؤيده الله بالملائكة المكرمين.

ويوم الأحزاب ينصره الله بالريح.

ويوم حنين يحصبهم بالحصى فيرجع منصورًا هو ومن معه.

وذللهم له في فتح مكة إلى غير ذلك من المواطن والمواقف.

وأما صحابته الكرام ورفقته الأعلام فقد حازوا السبق، فحصل لهم المراد، قال ابن

القيم في «المدارج» (٢/ ١٣٥): وهم أولوالتوكل حقًا، وأكمل المتوكلين بعدهم هو من اشتم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة، أو لحق أثرًا من غبارهم، فحال النبي وحال أصحابه محك الأحوال وميزانها بها يعلم صحيحها من سقيمها فإن هممهم كانت في التوكل أعلى من همم من بعدهم، فإن توكلهم كان في فتح بصائر القلوب، وأن يعبد الله في جميع البلاد وأن يوحده جميع العباد وأن تشرق شموس الدين الحق على قلوب العباد فملؤا بذلك التوكل القلوب هدى وإيمانا وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان وهبت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم فملأتها يقينا وإيمانا، فكانت همم الصحابة رضى الله عنهم أعلى وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله في شيء يحصل بأدنى حيلة وسعى فيجعله نصب عينيه ويحمل عليه قوى توكله. أهـ

عكاشة يدخل الجنة بغير حاسب ما السبب؟ إنه التوكل على الله والأعتماد عليه.

أخرج البخاري (٣٤١٠)، ومسلم (٢٢٠): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه مَا قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ وَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ فَقِيلَ هَذَا مُوسَى فِي قَوْمِهِ».

إلى غير ذلك، وأحب أن أذكر هنا قصة إبراهيم الخليل صلوات الله عليه واعتماده على الله عز وجل في وضع ولده الرضيع وأمه في مكة القفراء التي لا ماء فيها ولا غذاء، حتى يعلم الجهول ويذكر العالم أن الله عز وجل إذا أراد شيئًا أمضاه، أخرج البخاري (٣٣٦٤): عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ

يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: أَاللهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا، قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، حَتَّى بَلَغَ يَشْكُرُونَ، وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا فَهَبَطَتْ مِنْ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا، وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: »فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا«، فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا فَقَالَتْ: صَهٍ تُرِيدُ نَفْسَهَا، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ فَسَمِعَتْ أَيْضًا فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنْ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ أَوْ قَالَ: »لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنْ الْمَاءِ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا«، قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ: لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللهِ يَبْنِي هَذَا الْغُلَامُ

وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنْ الْأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ تَأْتِيهِ السُّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي، وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ فَرَجَعُوا، فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا، قَالَ: وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ: فَقَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: »فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الْإِنْسَ فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ وَشَبَّ الْغُلَامُ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ وَأَثْنَتْ عَلَى اللهِ، فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتْ: اللَّحْمُ، قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ: الْمَاءُ، قَالَ: اللهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي

اللَّحْمِ وَالْمَاءِ«، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: »وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ«، قَالَ: فَهُمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي: كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ، قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ، قَالَتْ: نَعَمْ هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ، ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي، قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَهُمَا يَقُولَانِ: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، قَالَ: فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

ومن المنكسات المزيغات التي ينقطع صاحبها قبل أن يصل إلى المراد هو الاعتماد على النفس مع الأعجاب، فإن النصر مع هذين الأمرين دونه خرط القتاد، والبحر الثجاج، فعلى من أراد الوصول أن يحارب النفس والشيطان من غرس هذه البذرة القبيحة، فإنها سبب الهوان والذل والخسران.

الصحابة أطهر الناس قلوبًا وأعظمهم توكلًا، وأكثرهم شجاعة وأكرمهم على الله

قال أحد المؤلفة قلوبهم يوم حنين: لن نهزم اليوم عن قلة، فكان الفرار، ولم يبق إلا رسول الله ﷺ من مجموعة في الأنفار، قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة:٢٥].

وقال رحمه الله: وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة وتمهدت أمورها وأسلم عامة أهلها وأطلقهم رسول الله ﷺ فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه وأن أميرهم مالك بن عوف النضري ومعه ثقيف بكمالها وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بني هلال وهم قليل وناس من بني عمرو بن عامر وعون بن عامر وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم وجاءوا بقضهم وقضيضهم فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في ألفين فسار بهم إلى العدو فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم فعند ذلك ولي المسلمون مدبرين كما قال الله عز وجل وثبت رسول الله ﷺ وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر يثقلانها لئلا تسرع السير وهو ينوه باسمه عليه الصلاة والسلام ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول إلي عباد الله إلي أنا رسول الله ويقول في تلك الحال:

أنا النبي لاكذب أنا بن عبد المطلب

وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ومنهم من قال ثمانون فمنهم أبو بكر وعمر ﷺ ما والعباس وعلي والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم ﷺ م ثم أمر ﷺ عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادي بأعلى صوته يا أصحاب الشجرة يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على أن لا يفروا عنه فجعل ينادي بهم يا أصحاب السمرة ويقول تارة يا أصحاب سورة البقرة فجعلوا يقولون يالبيك يالبيك وانعطف الناس فتراجعوا إلى رسول الله ﷺ حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول الله ﷺ أمرهم عليه السلام أن يصدقوا الحملة وأخذ قبضة من تراب بعد مادعا ربه واستنصره وقال اللهم أنجز لي ماوعدتني ثم رمى القوم بها فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله.

وأخرج النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٣٦٧) وهو عند أحمد (١٦/٦) عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا صَلَّى هَمَسَ شَيْئًا لَا أَفْهَمُهُ وَلَا يُخْبِرُنَا بِهِ قَالَ أَفَطِنْتُمْ لِي قُلْنَا نَعَمْ قَالَ إِنِّي ذَكَرْتُ نَبِيًّا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ أُعْطِيَ جُنُودًا مِنْ قَوْمِهِ فَقَالَ مَنْ يُكَافِئُ هَؤُلَاءِ أَوْ مَنْ بِقَوْمِ لِهَؤُلَاءِ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ الْكَلَامِ فَأُوحِيَ إِلَيْهِ أَنْ اخْتَرْ لِقَوْمِكَ إِحْدَى ثَلَاثٍ إِمَّا أَنْ نُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ أَوْ الْجُوعَ أَوْ الْمَوْتَ فَاسْتَشَارَ قَوْمَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالُوا أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ فَكُلُّ ذَلِكَ إِلَيْكَ خِرْ لَنَا فَقَامَ إِلَى الصَّلَاةِ وَكَانُوا إِذَا فَزِعُوا فَزِعُوا إِلَى الصَّلَاةِ فَصَلَّى

مَا شَاءَ اللَّهُ فَالَ ثُمَّ فَالَ أَيْ رَبِّ أَمَّا عَدُوٌّ مِنْ غَيْرِهِمْ فَلَا أَوْ الْجُوعُ فَلَا وَلَكِنْ الْمَوْتُ فَسُلِّطَ عَلَيْهِمْ الْمَوْتُ فَمَاتَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا فَهَمْسِي الَّذِي تَرَوْنَ أَنِّي أَقُولُ اللَّهُمَّ بِكَ أُقَاتِلُ وَبِكَ أُصَاوِلُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ

قال الوادعي رحمه الله: هذا حديث صحيح.

وقارون عليه لعنة الله عز وجل كان من قوم موسى، فلما بغى واعتمد على نفسه انظر ما حلت به من النقمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنِدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص: ٧٦-٨٣].

وأخبر الله عز وجل أيضًا في كتابه عن حال الرجلين الفقير، وصاحب الجنة ما دخل بصاحب الجنة بسبب بغيه وعدم توكله، وقال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ

أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً * وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً﴾[الكهف: ٣٢-٤٣].

فنسأل الله العون والسداد والتوفيق والرشاد، إنه على ذلك قادر وهو حسبي ونعم الوكيل.

الثانية والأربعون: حرب الشائعات.

ما أن تظهر للداعي إلى الله عز وجل دعوة إلا وبدأت حرب الإشاعات عليه من القريب قبل البعيد، وهذه سنة الله عز وجل في خلقه، علمت بأدلة الكتاب والسنة كما هي معلومة في الواقع الملموس.

وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذريات:٥٢].

قال الله عز وجل مخبرًا عن قوم نوح: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ

فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[الأعراف: ٥٩-٦٠].

يعتبرونه ضالًا واشاعوا هذا بين العام والخاص تحذيرًا من دعوته وحربًا لعقيدته، فكان ﷺ نافيًا لهذه الشائعة التي يراد بها الصد عن الحق: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦١-٦٢].

وعاد يتهمون هود عليه السلام بأنه سفيه، حيث قالوا: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٥-٦٦].

ففندها بقوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[الأعراف: ٦٧-٦٨].

فانظر وفقك الله عز وجل إلى طريقة هؤلاء الرسل في رد الإشاعة برفق ولين، وبيان أن ما ذكر عنهم هو محض الباطل، والحق هو أنهم يدعون إلى عبادة الله عز وجل وحده لا شريك له، فكانت عاقبة الذين كفروا خسرًا.

وهذا فرعون لعنه الله حين جاءه موسى عليه السلام بالدعوة إلى الله عز وجل وأراه الآيات البينات أرسل إلى السحرة وإلى الملاء من قومه مشيعًا أن موسى ساحر، **فال تعالى:** ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى * قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكَاناً سُوَىً * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحىً * قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ

وَأَسَرُّوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ [طه: ٥٦-٧٦].

فانظر كيف أشاع فرعون وملائه، ومع ذلك كبتهم الله عز وجل وبين عوار ما هم عليه، ونصر الحق وأهله فلله الحمد.

وإبراهيم عليه السلام أشيع عنه الضلال، وهكذا في كل وقت وحين ولكن العاقبة للمتقين.

وأما رسولنا ﷺ فقد ناله القسط الأكبر من حرب الشايعات، فها هو من أول يوم وهو في مكة يزعمون أنه مجنون.

أخرج الإمام مسلم (٨٦٨): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ ضِمَادًا قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ، وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَقَالَ لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ قَالَ: فَلَقِيَهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، وَإِنَّ اللهَ يَشْفِي عَلَى يَدِي مَنْ شَاءَ، فَهَلْ لَكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »إِنَّ الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَمَّا بَعْدُ: قَالَ: فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ وَقَوْلَ السَّحَرَةِ وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ، قَالَ: فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ: فَبَايَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »وَعَلَى قَوْمِكَ«، قَالَ: وَعَلَى قَوْمِي، قَالَ: فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيَّةً فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ: هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ شَيْئًا؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ: أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً، فَقَالَ: رُدُّوهَا فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمُ ضِمَادٍ.

فهذه شائعة جعلت من وصل مكة وهو لا يعرف النبي ﷺ يظنه مجنون، فلا يقبل منه حقًا ولا يصدق له خبرًا، ولا يبذل له نصرًا؛ لأن المجنون يتكلم بما لا يدري، ويهرف بما لا يعرف، لكن رسول الله ﷺ سرعان ما رد تلك الشائعة ببث شيء من الحق، فهدى الله ضمادًا وحصل الخير له ولقومه والحمد لله.

وفي حديث أبي ذر عند مسلم (٢٤٧٣) قَالَ: خَرَجْنَا مِنْ قَوْمِنَا غِفَارٍ وَكَانُوا يُحِلُّونَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ، فَخَرَجْتُ أَنَا وَأَخِي أُنَيْسٌ وَأُمُّنَا، فَنَزَلْنَا عَلَى خَالٍ لَنَا فَأَكْرَمَنَا خَالُنَا وَأَحْسَنَ إِلَيْنَا، فَحَسَدَنَا قَوْمُهُ فَقَالُوا: إِنَّكَ إِذَا خَرَجْتَ عَنْ أَهْلِكَ خَالَفَ إِلَيْهِمْ أُنَيْسٌ، فَجَاءَ خَالُنَا

فَنَثَا عَلَيْنَا الَّذِي قِيلَ لَهُ، فَقُلْتُ: أَمَّا مَا مَضَى مِنْ مَعْرُوفِكَ فَقَدْ كَدَّرْتَهُ وَلَا جِمَاعَ لَكَ فِيمَا بَعْدُ، فَقَرَّبْنَا صِرْمَتَنَا فَاحْتَمَلْنَا عَلَيْهَا وَتَغَطَّى خَالُنَا ثَوْبَهُ فَجَعَلَ يَبْكِي، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى نَزَلْنَا بِحَضْرَةِ مَكَّةَ فَنَافَرَ أُنَيْسٌ عَنْ صِرْمَتِنَا وَعَنْ مِثْلِهَا، فَأَتَيَا الْكَاهِنَ فَخَيَّرَ أُنَيْسًا فَأَتَانَا أُنَيْسٌ بِصِرْمَتِنَا وَمِثْلِهَا مَعَهَا، قَالَ: وَقَدْ صَلَّيْتُ يَا ابْنَ أَخِي قَبْلَ أَنْ أَلْقَى رَسُولَ اللهِ ﷺ بِثَلَاثِ سِنِينَ، قُلْتُ: لِمَنْ؟ قَالَ: للهِ، قُلْتُ، فَأَيْنَ تَوَجَّهُ؟ قَالَ: أَتَوَجَّهُ حَيْثُ يُوَجِّهُنِي رَبِّي أُصَلِّي عِشَاءً، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ أُلْقِيتُ كَأَنِّي خِفَاءٌ حَتَّى تَعْلُوَنِي الشَّمْسُ، فَقَالَ أُنَيْسٌ: إِنَّ لِي حَاجَةً بِمَكَّةَ فَاكْفِنِي، فَانْطَلَقَ أُنَيْسٌ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ فَرَاثَ عَلَيَّ، ثُمَّ جَاءَ فَقُلْتُ: مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: لَقِيتُ رَجُلًا بِمَكَّةَ عَلَى دِينِكَ يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ، قُلْتُ: فَمَا يَقُولُ النَّاسُ؟ قَالَ: يَقُولُونَ شَاعِرٌ، كَاهِنٌ، سَاحِرٌ، وَكَانَ أُنَيْسٌ أَحَدَ الشُّعَرَاءِ، قَالَ أُنَيْسٌ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ فَمَا هُوَ بِقَوْلِهِمْ، وَلَقَدْ وَضَعْتُ قَوْلَهُ عَلَى أَقْرَاءِ الشِّعْرِ فَمَا يَلْتَئِمُ عَلَى لِسَانِ أَحَدٍ بَعْدِي أَنَّهُ شِعْرٌ، وَاللهِ إِنَّهُ لَصَادِقٌ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، قَالَ: قُلْتُ: فَاكْفِنِي حَتَّى أَذْهَبَ فَأَنْظُرَ، قَالَ: فَأَتَيْتُ مَكَّةَ فَتَضَعَّفْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ فَقُلْتُ: أَيْنَ هَذَا الَّذِي تَدْعُونَهُ الصَّابِئَ؟ فَأَشَارَ إِلَيَّ فَقَالَ الصَّابِئَ: فَمَالَ عَلَيَّ أَهْلُ الْوَادِي بِكُلِّ مَدَرَةٍ وَعَظْمٍ حَتَّى خَرَرْتُ مَغْشِيًّا عَلَيَّ، قَالَ: فَارْتَفَعْتُ حِينَ ارْتَفَعْتُ كَأَنِّي نُصُبٌ أَحْمَرُ، قَالَ: فَأَتَيْتُ زَمْزَمَ فَغَسَلْتُ عَنِّي الدِّمَاءَ وَشَرِبْتُ مِنْ مَائِهَا، وَلَقَدْ لَبِثْتُ يَا ابْنَ أَخِي ثَلَاثِينَ بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلَّا مَاءُ زَمْزَمَ فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُكَنُ بَطْنِي، وَمَا وَجَدْتُ عَلَى كَبِدِي سُخْفَةَ جُوعٍ، قَالَ: فَبَيْنَا أَهْلِ مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ قَمْرَاءَ إِضْحِيَانَ إِذْ ضُرِبَ عَلَى أَسْمِخَتِهِمْ، فَمَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ أَحَدٌ وَامْرَأَتَيْنِ مِنْهُمْ تَدْعُوَانِ إِسَافًا وَنَائِلَةَ، قَالَ: فَأَتَتَا عَلَيَّ فِي طَوَافِهِمَا، فَقُلْتُ: أَنْكِحَا أَحَدَهُمَا الْأُخْرَى، قَالَ: فَمَا تَنَاهَتَا عَنْ قَوْلِهِمَا، قَالَ: فَأَتَتَا عَلَيَّ فَقُلْتُ: هَنٌ مِثْلُ الْخَشَبَةِ غَيْرَ أَنِّي لَا أَكْنِي،

فَانْطَلَقَتَا تُوَلْوِلَانِ وَتَقُولَانِ: لَوْ كَانَ هَاهُنَا أَحَدٌ مِنْ أَنْفَارِنَا، قَالَ: فَاسْتَقْبَلَهُمَا رَسُولُ الله ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَهُمَا هَابِطَانِ، قَالَ: »مَا لَكُمَا؟« قَالَتَا: الصَّابِئُ بَيْنَ الْكَعْبَةِ وَأَسْتَارِهَا، قَالَ: »مَا قَالَ لَكُمَا؟« قَالَتَا: إِنَّهُ قَالَ لَنَا كَلِمَةً تَمْلَأُ ،الْفَمَ وَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى اسْتَلَمَ الْحَجَرَ وَطَافَ بِالْبَيْتِ هُوَ وَصَاحِبُهُ، ثُمَّ صَلَّى فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ قَالَ أَبُو ذَرٍّ: فَكُنْتُ أَنَا أَوَّلَ مَنْ حَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ، قَالَ: فَقُلْتُ السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ: »وَعَلَيْكَ وَرَحْمَةُ الله«، ثُمَّ قَالَ: »مَنْ أَنْتَ؟« قَالَ: قُلْتُ: مِنْ غِفَارٍ، قَالَ: فَأَهْوَى بِيَدِهِ فَوَضَعَ أَصَابِعَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: كَرِهَ أَنْ انْتَمَيْتُ إِلَى غِفَارٍ، فَذَهَبْتُ آخُذُ بِيَدِهِ فَقَدَعَنِي صَاحِبُهُ، وَكَانَ أَعْلَمَ بِهِ مِنِّي، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ: »مَتَى كُنْتَ هَاهُنَا؟« قَالَ: قُلْتُ: قَدْ كُنْتُ هَاهُنَا مُنْذُ ثَلَاثِينَ بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ، قَالَ: »فَمَنْ كَانَ يُطْعِمُكَ؟« قَالَ: قُلْتُ: مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلَّا مَاءُ زَمْزَمَ فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُكَنُ بَطْنِي وَمَا أَجِدُ عَلَى كَبِدِي سُخْفَةَ جُوعٍ، قَالَ: »إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ، إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ«، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ الله ائْذَنْ لِي فِي طَعَامِهِ اللَّيْلَةَ، فَانْطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، وَانْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، فَفَتَحَ أَبُو بَكْرٍ بَابًا فَجَعَلَ يَقْبِضُ لَنَا مِنْ زَبِيبِ الطَّائِفِ، وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ طَعَامٍ أَكَلْتُهُ بِهَا، ثُمَّ غَبَرْتُ مَا غَبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: »إِنَّهُ قَدْ وُجِّهَتْ لِي أَرْضٌ ذَاتُ نَخْلٍ لَا أُرَاهَا إِلَّا يَثْرِبَ« فَهَلْ أَنْتَ مُبَلِّغٌ عَنِّي قَوْمَكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ بِكَ وَيَأْجُرَكَ فِيهِمْ، فَأَتَيْتُ أُنَيْسًا فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: صَنَعْتُ أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ، قَالَ: مَا بِي رَغْبَةٌ عَنْ دِينِكَ فَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ، فَأَتَيْنَا أُمَّنَا فَقَالَتْ: مَا بِي رَغْبَةٌ عَنْ دِينِكُمَا، فَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ، فَاحْتَمَلْنَا حَتَّى أَتَيْنَا قَوْمَنَا غِفَارًا فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمْ، وَكَانَ يَؤُمُّهُمْ أَيْمَاءُ بْنُ رَحَضَةَ الْغِفَارِيُّ، وَكَانَ سَيِّدَهُمْ وَقَالَ نِصْفُهُمْ إِذَا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ الْمَدِينَةَ أَسْلَمْنَا، فَقَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ الْمَدِينَةَ فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمْ

الْبَاقِي، وَجَاءَتْ أَسْلَمُ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِخْوَتُنَا نُسْلِمُ عَلَى الَّذِي أَسْلَمُوا عَلَيْهِ فَأَسْلَمُوا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »غِفَارُ غَفَرَ اللهُ لَهَا، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ«، حَدَّثَنَا إِسْحَقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْحَنْظَلِيُّ، أَخْبَرَنَا النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، حَدَّثَنَا حُمَيْدُ بْنُ هِلَالٍ بِهَذَا الْإِسْنَادِ وَزَادَ بَعْدَ قَوْلِهِ: قُلْتُ: فَاكْفِنِي حَتَّى أَذْهَبَ فَأَنْظُرَ، قَالَ: نَعَمْ، وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَإِنَّهُمْ قَدْ شَنِفُوا لَهُ وَتَجَهَّمُوا، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى الْعَنَزِيُّ، حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ، قَالَ: أَنْبَأَنَا ابْنُ عَوْنٍ عَنْ حُمَيْدِ بْنِ هِلَالٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ: يَا ابْنَ أَخِي صَلَّيْتُ سَنَتَيْنِ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: قُلْتُ: فَأَيْنَ كُنْتَ تَوَجَّهُ؟ قَالَ: حَيْثُ وَجَّهَنِيَ اللهُ وَاقْتَصَّ الْحَدِيثَ بِنَحْوِ حَدِيثِ سُلَيْمَانَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ: فَتَنَافَرَا إِلَى رَجُلٍ مِنْ الْكُهَّانِ قَالَ: فَلَمْ يَزَلْ أَخِي أُنَيْسٌ يَمْدَحُهُ حَتَّى غَلَبَهُ، قَالَ: فَأَخَذْنَا صِرْمَتَهُ فَضَمَمْنَاهَا إِلَى صِرْمَتِنَا، وَقَالَ أَيْضًا فِي حَدِيثِهِ قَالَ: فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَطَافَ بِالْبَيْتِ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَلْفَ الْمَقَامِ، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ فَإِنِّي لَأَوَّلُ النَّاسِ حَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ، قَالَ: قُلْتُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ مَنْ أَنْتَ؟ وَفِي حَدِيثِهِ أَيْضًا فَقَالَ: مُنْذُ كَمْ أَنْتَ هَاهُنَا؟ قَالَ: قُلْتُ: مُنْذُ خَمْسَ عَشَرَةَ، وَفِيهِ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَتْحِفْنِي بِضِيَافَتِهِ اللَّيْلَةَ.

ومع ذلك الأشاعة الباطلة يجب أن تجلى حتى لا يقع اللبس والظن الفاسد في الداعي إلى الله عز وجل، ولهذا حين قالوا: ﴿**وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**﴾ [الحجر:٦]، ﴿**مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ**﴾ [القلم:٢].

وأشاعوا عنه الجنون والسحر، وهم على معرفة تامة بكون ما اتهموه به كذب وبهتان، لكن حملهم على ذلك المكر بالدعوة.

وكانوا يشيعون عنه الكذب: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[ص:٤] ، مع علمهم بأنه الصادق الذي لا يكذب، والأمين الذي لا يخون، لكنه المنكر بالدعوة.

وزعموا أن هذا القرآن الذي يمليه عليهم ويدعوهم إليه تلقاه من بعض النصارى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان:٥]، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾[النحل:١٠٣]، فرد الله عز وجل عليهم هذه الشائعة بقوله: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣].

فهذه طرق عدة استخدموها لتشويه الدين، ومع ذلك: ﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[الصف:٨]، ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[المجادلة:٢١] .

لكن يجب على المؤمن الداعي إلى الله عز وجل أن يرد الإشاعة ويبين عوارها وكذبها وزيفها حتى لا يتأثر بها متأثر، ويستغلها كل كذاب أشر.

ولما سكن الوحي في فترته زعموا وأشاعوا أن الله عز وجل قال: أي ترك محمد ﷺ كما في البخاري (٤٩٥٠) مع تصويرهم أن الذي يأتي النبي ﷺ هو شيطان لا ملك كريم: عَنْ جُنْدُبَ بْنِ سُفْيَانَ رضي الله عنه قَالَ: اشْتَكَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى قَوْلُهُ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى تُقْرَأُ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ بِمَعْنًى وَاحِدٍ مَا تَرَكَكَ رَبُّكَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا تَرَكَكَ وَمَا أَبْغَضَكَ.

وكم الاشاعات التي استخدمها كذلك اليهود والمنافقون بعد قدوم النبي ﷺ المدينة طعنًا في الدعوة، وهدمًا لرجالها، ولكن الله لهم بالمرصاد، فمن هذه إشاعة الأفك عن أم

المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وقد تقدم الحديث وقام رسول الله ﷺ محذرًا من هذه الشائعة، وقد تقدم الحديث مرار فلا داعي للتكرار.

ومع ذلك أنزل الله عز وجل قرآنًا يتلى لصد هذه الشائعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ * لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ * وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ١١-٢١].

ولما أشيع بين المسلمين يوم أحد أن النبي ﷺ قتل، وكان القائم بهذه الشائعة إبليس عليه لعنة الله حصل بالمسلمين ما الله به عليم من الهم والحزن، حتى جاء الفرج بعد ذلك، قال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ

﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:١٥٣].

والإشاعة مستمرة على الحق في كل زمان ومكان، ولكن الله عز وجل يبطلها.

فبعد ظهور البدع اتهمت المعتزلة ومن يأخذ بأقوال الجهمية والأشاعرة أهل السنة بأنهم حشوية ممثله.

قال الصابوني في «عقيدة السلف أصحاب الحديث» (٢٩٩): وعلامات أهل البدع على أهلها ظاهرة بادية، وأظهر آياتهم وعلاماتهم شدة معاداتهم لحملة أخبار النبي ﷺ.

واحتقارهم لهم وتسميتهم إياهم حشوية وجهلة وظاهرية ومشبهه.

وقال أبو حاتم الحنظلي كما في «عقيدة السلف أصحاب الحديث (٣٠٤): علامة الزنادقة تسميتهم أهل الأثر حشوية، يريدون بذلك إبطال الآثار.

وعلامة القدرية تسميتهم أهل السنة مجبرة، وعلامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة، وعلامة الرافضة تسمية أهل السنة نابته وناصبة.

وهذه الألقباب التي يسمون بها أهل السنة ثم يشيعونها هي للتحذير مما هم عليه، ولكن الحق منصور والباطل مقهور، والحق أبلج والباطل لجلج.

وفي زمننا هذا يشيعون ويلمزون أن أهل السنة السلفيين يحرمون حلب البقرة من قبل المرأة، وشراء الجزر والموز والخيار، ويحرمون الأكل بالملاعق وأنهم سبابه شتامة جهلاء بفقه الواقع، أو عملاء جواسيس، أو علماء حيض ونفاس، وهكذا دواليك.

فيجب حرب هذه الشائعات وإبراز الحقائق للناس بالحجة والبرهان، حتى يظهر الحق ويستبان، ولا تكون للناس حجة في عدم قبوله ورده.

الثالثة والأربعون: الرجوع إلى الحق.

الله عز وجل يقول: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [لأعراف:٣].

ويقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[الحشر:٧].

ويقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾[الاسراء:٨٥].

ويقول: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الانبياء: ٧٨-٧٩].

مما تقدم يتبين أن الله عز وجل أمرنا بطاعته ونهانا عن معصيته، وأمرنا بالإتباع وحذرنا من المخالفة والابتداع، إلا أن الإنسان قد يخالف الحق والصواب لسبب أو لآخر، إما لجهل أو تأويل أو ذهول وغير ذلك من الأمور التي تعتري البشر وتوقعهم في الشر، فشرع عز وجل التوبة والإنابة والرجوع عن الدليل، وأمر به لأن الحق واحد، ولذلك قال ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد وأخطأ فله أجر» أخرجه مسلم عن عمرو بن العاص.

ورسول الله ﷺ كان إمام المتقين في هذا الباب وفي غيره، فقد جاء من حديث عبد الله بن مسعود في «الصحيحين» وغيرهما، البخار ي(٤٠١)، ومسلم (٧٢): صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: لَا أَدْرِي زَادَ أَوْ نَقَصَ، فَلَمَّا سَلَّمَ قِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ الله أَحَدَثَ فِي الصَّلَاةِ شَيْءٌ؟ قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالُوا: صَلَّيْتَ كَذَا وَكَذَا فَثَنَى رِجْلَيْهِ وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ، فَلَمَّا أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ قَالَ: «إِنَّهُ لَوْ حَدَثَ فِي الصَّلَاةِ شَيْءٌ لَنَبَّأْتُكُمْ بِهِ

وَلَكِنْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي، وَإِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ فَلْيَتَحَرَّ الصَّوَابَ فَلْيُتِمَّ عَلَيْهِ ثُمَّ لِيُسَلِّمْ ثُمَّ يَسْجُدُ سَجْدَتَيْنِ«.

فلما ذكر رجع ﷺ.

وأخرج مسلم (٥٧٣) (٥٧٤): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِحْدَى صَلَاتَيْ الْعَشِيِّ إِمَّا الظُّهْرَ وَإِمَّا الْعَصْرَ، فَسَلَّمَ فِي رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ أَتَى جِذْعًا فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ فَاسْتَنَدَ إِلَيْهَا مُغْضَبًا وَفِي الْقَوْمِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَهَابَا أَنْ يَتَكَلَّمَا، وَخَرَجَ سَرَعَانُ النَّاسِ قُصِرَتْ الصَّلَاةُ، فَقَامَ ذُو الْيَدَيْنِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَقُصِرَتْ الصَّلَاةُ أَمْ نَسِيتَ؟ فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ يَمِينًا وَشِمَالًا فَقَالَ: »مَا يَقُولُ ذُو الْيَدَيْنِ؟« قَالُوا: صَدَقَ لَمْ تُصَلِّ إِلَّا رَكْعَتَيْنِ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ وَسَلَّمَ ثُمَّ كَبَّرَ ثُمَّ سَجَدَ ثُمَّ كَبَّرَ فَرَفَعَ ثُمَّ كَبَّرَ وَسَجَدَ ثُمَّ كَبَّرَ وَرَفَعَ.

فما إن ذكر حتى رجع للحق صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وإنما الاستمرار على الباطل وترك الحق من سيماء المبطلين البطالين، ويكفي في ذمهم ما قاله الله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦].

وأخرج مسلم (٢٣٦٣) من حديث أنس وجاء بنحوه من حديث طلحة بن عبيد الله ورافع بن خديج: عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ فَقَالَ: »لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ« قَالَ: فَخَرَجَ شِيصًا فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: مَا لِنَخْلِكُمْ؟ قَالُوا: قُلْتَ: كَذَا وَكَذَا، قَالَ: »أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ«.

وجاء من حديث قتيلة رضي الله عنها عند أحمد (٦/ ٣٧١) وغيره: أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ

فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُنَدِّدُونَ وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ وَيَقُولُونَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ.

والشاهد من هذا كله وما سيأتي أن الرجوع إلى الحق منقبة لا مذمة، ورفعة لا منقصة، وهدى لا ضلال، وسنة لا بدعة، وحق لا باطل، ولا يقوم بهذا الأمر إلا الأفذاذ الأبطال الذين همهم الحق أين وجد وكيف وجد.

والذي ينظر في حال رجال زماننا في هذه الأيام يرى العجب العجاب، ومخالفة الصواب ومع ذلك يسقط الداعي تلو الداعي، والخطيب تلو الخطيب، وتموت دعوته ويخمد ذكره، ويوصف بالبدعة ويلحق بأهلها لا لشيءٍ إلا لأن نفسه الإمارة مع شيطانه المريد نفخا في روعيه عدم الرجوع إلى الحق ظنًا أن هذه نقيصة ولا والله.

ولنذكر بعض ما جرى للسلف من المسائل التي خالفوا فيها الدليل ثم رجعوا إلى سواء السبيل بدون غضاضة ولا تهويل.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كتابه إلى أبي موسى المشهور: لا يمنعك فضاءً قضيته بالأمس راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع فيه إلى الحق، فإن الحق قديم والرجوع إلى الحق أولى من التمادي في الباطل، أخرجه البيهقي في «الكبرى» (١٠/ ١١٩) وسنده صحيح.

وقال الآجري في «أخلاق العلماء»: إن افتى بمسألة فعلم أنه أخطأ لم يستنكف أن يرجع عنها، وإن قال قولًا فرده عليه غيره ممن هو أعلم منه أو مثله أو دونه رجع عن قوله وحمده على ذلك وجزاه خيرًا.

وأخرج ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١١٤٢) عن أبي العتاهية قوله:

إذا اتضح الصواب فلا تدعه ... فإنك كلما ذقت الصواب

وجدت له على اللهوات بردًا ... كبرد الماء حين صفا وطابا

وليس بحاكم من لم يبالي ... أأخطأ في الحكومة أم أصابا

ورحم الله الشافعي إذ يقول: نحن قوم نقول القول اليوم ونرجع عنه غدًا، أي قد يتبين لنا الحق في خلاف هذا القول، والحق هو المأمور به فيتعين الرجوع.

ولما مات رسول الله ﷺ أنكر عمر موته كما في البخاري (١٢٤١): عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ قَالَتْ: أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه عَلَى فَرَسِهِ مِنْ مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ حَتَّى نَزَلَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَلَمْ يُكَلِّمْ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ رضي الله عنها، فَتَيَمَّمَ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُسَجًّى بِبُرْدِ حِبَرَةٍ فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ ثُمَّ بَكَى، فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ يَا نَبِيَّ اللهِ لَا يَجْمَعُ اللهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ، أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا، قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: فَأَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه خَرَجَ وَعُمَرُ رضي الله عنه يُكَلِّمُ النَّاسَ فَقَالَ: اجْلِسْ فَأَبَى، فَقَالَ اجْلِسْ فَأَبَى فَتَشَهَّدَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَمَالَ إِلَيْهِ النَّاسُ وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ: أَمَّا بَعْدُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ قَالَ اللهُ تَعَالَى وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ إِلَى الشَّاكِرِينَ، وَاللهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَهَا حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٌ إِلَّا يَتْلُوهَا.

ولما أراد أبو بكر قتال أهل الردة كان قول عمر غير قول أبي بكر، ثم رجع رحمه الله لما

عرف أن الحق في جانب أبي بكر، يدل على ذلك حديث أبي هريرة ﷺ عند البخاري (١٣٩٩)، ومسلم (٢٠): عَنْ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنْ الْعَرَبِ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ فَقَالَ وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهَا قَالَ عُمَرُ ﷺ فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَدْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ.

فهذا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين من أكابر علماء الصحابة ﷺم المحدث، لا يسوؤه الرجوع إلى الحق ولم يقل أنا عمر الذي قال عني رسول الله ﷺ: «لو سلك عمر فجًا لسلك الشيطان غير فجك».

وأما أهل زماننا وإلى الله المشتكى فيكون قد زُكيَّ من قبل عالم من علماء السنة أبان استقامته، ثم تظهر منه الشطحات والزلقات و الهفوات والزلات في جانبه العقدي، فإذا ما نوصح ودعي إلى الحق والهدى إذ به يتنمر ويظهر تلك التزكيات وأنا وأنا وهلم جر، ألا إن الرجوع عزيز.

ولا غرو أن يرجع المؤمن إلى الحق، وإن كان الذي أظهر له الحق صغيرًا أم كبيرًا تلميذًا أم شيخًا.

فقد تتلمذ ابن عباس على زيد بن ثابت، وراجع زيدًا فرجع، أخرج مسلم (١٣٢٨) عَنْ طَاوُسٍ قَالَ كُنْتُ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ إِذْ قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ تُفْتِي أَنْ تَصْدُرَ الْحَائِضُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِرُ عَهْدِهَا بِالْبَيْتِ.

فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ إِمَّا لاَ فَسَلْ فُلاَنَةَ الأَنْصَارِيَّةَ هَلْ أَمَرَهَا بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَالَ فَرَجَعَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ يَضْحَكُ وَهُوَ يَقُولُ مَا أَرَاكَ إِلاَّ قَدْ صَدَقْتَ.

رجوع زيد بن صوحان «السير» (٤/ ١٩٢).

عن قتادة قال: حدثنا مطرف قال: كنا نأتي زيد بن صوحان فكان يقول: يا عباد الله، أكرموا وأجملوا، فإنما وسيلة العباد إلى الله بخصلتين: الخوف والطمع.

فأتيته ذات يوم وقد كتبوا كتابا، فنسقوا كلاما من هذا النحو: إن الله ربنا، ومحمد نبينا، والقرآن إمامنا، ومن كان معنا كنا وكنا.

ومن خالفنا كانت يدنا عليه وكنا وكنا.

قال: فجعل يعرض الكتاب عليهم رجلا رجلا، فيقولون: أقررت يا فلان ؟ حتى انتهوا إلي فقالوا: أقررت يا غلام ؟ قلت: لا، قال يعني زيدا: لا تعجلوا على الغلام، ما تقول يا غلام ؟ قلت: إن الله قد أخذ علي عهدا في كتابه، فلن أحدث عهدا سوى العهد الذي أخذه علي.

فرجع القوم من عند آخرهم ما أقر منهم أحد.وقد تقدمت مناظرة ابن عباس للخوارج وكم رجع منهم.

إلى غير ذلك مما جرى للعلماء ويجري على مر العصور وتقلبات الدهور.

ومن رجع نصره الله وأعزه، وأعلى ذكره، فكم من مسائل رجع عنها شيخنا مقبل رحمه الله وأحاديث يقبل من الصغير والكبير والحمد لله.

الرابعة والرابعون: «إن السعيد لمن جنب الفتن».

الفتنة تحصل إما بشبهة والآخر تحصل بشهوة، والأولى أشد وهي من أعظم

الصوارف عن الخير وعن الحق والهدى والسنة والدين.

قال ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٦٠-١٦٢): فصل والفتنة نوعان فتنة الشبهات وهي أعظم الفتنتين وفتنة الشهوات: وقد يجتمعان للعبد وقد ينفرد بإحداهما

ففتنة الشبهات من ضعف البصيرة وقلة العلم ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد وحصول الهوى فهنالك الفتنة العظمى والمصيبة الكبرى فقل ما شئت في ضلال سيء القصد الحاكم عليه الهوى لا الهدى مع ضعف بصيرته وقلة علمه بما بعث الله به رسوله فهو من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ﴾ وقد أخبر الله سبحانه أن اتباع الهوى يضل عن سبيل الله فقال: ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾[ص:٢٦].

وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق وهي فتنة المنافقين وفتنة أهل البدع على حسب مراتب بدعهم فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل والهدى بالضلال.

ولا ينجى من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول وتحكيمه في دق الدين وجله ظاهره وباطنه عقائده وأعماله حقائقه وشرائعه فيتلقى عنه حقائق الإيمان وشرائع الإسلام وما يثبته لله من الصفات والأفعال والأسماء وما ينفيه عنه كما يتلقى عنه وجوب الصلوات وأوقاتها وأعدادها ومقادير نصب الزكاة ومستحقيها ووجوب الوضوء والغسل.

من الجنابة وصوم رمضان فلا يجعله رسولا في شيء دون شيء من أمور الدين بل هو رسول في كل شيء تحتاج إليه الأمة في العلم والعمل لا يتلقى إلا عنه ولا يؤخذ إلا

منه فالهدى كله دائر على أقواله وأفعاله وكل ما خرج عنها فهو ضلال فإذا عقد قلبه على ذلك وأعرض ما سواه ووزنه بما جاء به الرسول فإن وافقه قبله لا لكون ذلك القائل قاله بل لموافقته للرسالة وإن خالفه رده ولو قاله من قاله فهذا الذي ينجيه من فتنة الشبهات وإن فاته ذلك أصابه من فتنتها بحسب ما فاته منه.

وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد وتارة من نقل كاذب وتارة من حق ثابت خفى على الرجل فلم يظفر به وتارة من غرض فاسد وهوى متبع فهي من عمى في البصيرة وفساد في الإرادة.

فصل وأما النوع الثاني من الفتنة ففتنة الشهوات وقد جمع سبحانه بين ذكر الفتنتين في قوله: ﴿ **كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ**﴾ أي تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها والخلاق هو النصيب المقدر ثم قال:﴿ **وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا**﴾ فهذا الخوض بالباطل وهو الشبهات.

فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان من الاستمتاع بالخلاق والخوض بالباطل لأن فساد الدعين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكم به أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح فالأول هو البدع وما والاها والثاني فسق الأعمال فالأول فساد من جهة الشبهات والثاني من جهة الشهوات.

ولهذا كان السلف يقولون احذروا من الناس صنفين صاحب هوى قد فتنه هواه وصاحب دنيا أعمته دنياه.

وكانوا يقولون احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون

وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع والهوى على العقل فالأول أصل فتنة الشبهة والثاني أصل فتنة الشهوة ففتنة الشبهات تدفع باليقين وفتنة الشهوات تدفع بالصبر ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة:٢٤]، فدل على أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

وجمع بينهما أيضا في قوله: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[العصر:٣] فتواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات وبالصبر الذي يكف عن الشهوات وجمع بينهما في قوله واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار فالأيدي القوى والعزائم في ذات الله والأبصار البصائر في أمر الله وعبارات السلف تدور على ذلك قال ابن عباس: أولى القوة في طاعة الله والمعرفة بالله، وقال الكلبي: أولى القوة في العبادة والبصر فيها، وقال مجاهد: الأيدي القوة في طاعة الله والأبصار البصر في الحق.

وقال سعيد بن جبير الأيدي القوة في العمل والأبصار بصرهم بما هم فيه من دينهم

وقال جاء في حديث مرسل إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات فبكمال العقل والصبر تدفع فتنة الشهوة وبكمال البصيرة واليقين تدفع فتنة الشبهة والله المستعان. أهـ

والفتنة قلي الدين أشد على المرء من إزهاق روحه وإراقة دمه، **وقال تعالى:** ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾[البقرة:١٩١]، وقال رسول الله ﷺ: «اثنان يكرهما ابن آدم: يكره الموت والموت خيرًا للمؤمن من الفتنة، ويكره قلة المال وقلة المال أقل عند الحساب»، أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٧-٤٢٨) وهو في «الصحيحة» (٢/ ٤٧) من حديث محمود بن

لبيد.

ولعظم فتنة الدينا أمر رسول الله ﷺ بالاستعاذة منها، حيث قال: «إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال «. الحديث في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه، وجاء عن ابن عباس عند مسلم واتفق عليه عن عائشة من فعله ﷺ.

وقد قام رسول الله ﷺ محذرًا لأصحابه من الفتن جميعها، سواءً فتنة الدنيا أو المال أو الشهوات أو الشبهات.

فقد قال كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: »بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا«.

وأخرج (٢٨٨٧) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: »إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ أَلَا ثُمَّ تَكُونُ فِتْنَةٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْمَاشِي فِيهَا، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنْ السَّاعِي إِلَيْهَا، أَلَا فَإِذَا نَزَلَتْ أَوْ وَقَعَتْ فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِهِ«، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِبِلٌ وَلَا غَنَمٌ وَلَا أَرْضٌ؟ قَالَ: »يَعْمِدُ إِلَى سَيْفِهِ فَيَدُقُّ عَلَى حَدِّهِ بِحَجَرٍ، ثُمَّ لِيَنْجُ إِنْ اسْتَطَاعَ النَّجَاءَ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ«، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ أُكْرِهْتُ حَتَّى يُنْطَلَقَ بِي إِلَى أَحَدِ الصَّفَّيْنِ أَوْ إِحْدَى الْفِئَتَيْنِ فَضَرَبَنِي رَجُلٌ بِسَيْفِهِ، أَوْ يَجِيءُ سَهْمٌ فَيَقْتُلُنِي قَالَ: »يَبُوءُ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ وَيَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ«.

وفتن هذه الأمة كثيرة جدًا، ولا خلاص منها إلا بسلوك سبيل المؤمنين في البعد عنها والحذر منها والحرب لها، ومن هذه الفتنة ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أسامة البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠) قال رسول الله ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء».

ومنها: فتنة المال كما في حديث كعب بن مالك عند الترمذي قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال» والحديث في «الصحيح المسند» لشيخنا الوادعي.

ومنها فتنة الحرص على الجاه، كما في حديث أبي بن كعب: «ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه».

ومنها فتن المعاصي والسيئات والبدع والخرافات، ومن سلم من الفتن نال المقصود، وحصل المراد، ومن وقع فيها سقط على أم رأسه، ومن أعظم فتن هذا الزمان التي تساقط فيها كثير من الدعاة: فتنة الحزبيات والجمعيات التي تفسد دين العبد فسادًا لا يعادله فساد، تجد من هذا حاله يكذب، يمكر، يدلس، يلهث وراء الدنيا، يزهد من أهل السنة، ويلتمس الاعذار لأهل البدعة، مشابهًا للكافرين في لباسهم ومعتقداتهم، ويرجعون النصر وهيهات وفتنة التشبه بالكافرين في هذه الأزمان قد عظم شرها وتطاير شررها، وتفاقهم خطرها، فوقع ما حذر النبي ﷺ منه: «لتتبعن سنن من كان قبلكم ... » الحديث في الصحيح.

مع أنه معلوم من الدين بالضرورة أن الدين ينهى عن مشابهة الكافرين، حتى قال رسول الله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم» أخرجه أحمد من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

ومما علمه الكفار قبل غيرهم حتى قال اليهود كما عند مسلم من حديث أنس: «ما

يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه«.

خالفهم في القبلة، في اللباس، كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عند مسلم، حين رأى عليه ثوبين معصفرين فقال: «أحرقهما إنهما من لباس الكفار«.

إلى غير ذلك مما وقع فيه الناس الآن في فتنة التشبه بالكافرين والله المستعان وعليه التكلان.

والفتن تدمر الداعي إلى الله عز وجل، وتفتك به فتك الأسود الضاربة الجائعة بالفريسة الضعيفة، فعلى طالب العلم والداعي إلى الله عز وجل كما يجب على جميع المسلمين البعد عن الفتن، **قال تعالى:** واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، وقال ﷺ: «تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن«، كما في حديث زيد بن ثابت عند مسلم، وللنجاة والسلامة من الفتن على الداعي إلى الله عز وجل أن يسلك كل طريق يباعد بينه وبين الفتنة، ومن هذه السبل على سبيل المثال لا الحصر:

١- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد تقدم الكلام عليه.

٢- مجالسة الصالحين والبعد عن مجالسة الأشرار، وقد تقدم الكلام بما يغني عن الإعادة.

٣- اللجوء إلى الله عز وجل والاعتصام بحبله والتوكل عليه ودعاؤه عز وجل.

٤- عزلة الشر وأهل الشر، لحديث أبي سعيد عند البخاري قال: قال رسول الله ﷺ: »يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ«، الحديث.

وبوب عليه البخاري باب من الدين الفرار من الفتن، فيبتعد عن الفتنة ولا يقربنها،

فقد جاء في حديث أبي هريرة في الصحيح: «من تشرف لها تستشرفه».

وكذلك جاء في حديث عمران: «من سمع بالدجال فلينأ عنه، والله إن أحدكم ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن».

فيتبعه لما يلقي من الشبهات.

فالبعد عن أهل الفتنة سلامة، والقرب منهم ندامة، ومنها العودة إلى العلماء فإنهم أعرف الناس بالفتن، فإذا حذروك منها فالزم غرزهم تفلح.

وقد ذكرنا بعض وسائل السلامة من الفتن في مقدمة تحذير العقال من فتنة المسيح الدجال.

الخامسة والأربعون: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»

وقد قيل قديمًا:

وكم دقت ورقت واسترقت فضول الرزق أعناق الرجال

والطمع في الدنيا وزخرفها رأس المهالك، فقد أخبر الله عز وجل عن كثير من الناس بقوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

فالإنسان بطبيعته يغره الحاضر وإن كان الغائب أفضل منه.

وأخبر الله عز وجل أنه أعد الآخرة لمن زهد في هذه الدنيا الفانية: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

وهي متاع زائل وإن فرح بها، قال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي

﴿الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾[الرعد:٢٦].

وهي القليل: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[النساء:٧٧].

ومما يدل على حقارتها أن رسول الله ﷺ بالسوق، فوجد جديًا أسك ميتًا، فأخذ بأذنه، فقال: «أيكم يحب أن هذا له بدرهم» الحديث أخرجه مسلم (٢٩٥٧) عن جابر رضي الله عنه.

وأخرج (٢٨٥٨) من حديث المستورد رضي الله عنه قول النبي ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في البحر فلينظر بما يرجع».

وهي سجن المؤمنين وجنة الكافرين، فالسجن لا راحة فيه ولا اطمئنان وإن تنوعت فيه المطاعم والمشارب.

فمن زهد في الدنيا من المؤمنين سارع في مرضاة ربه وعظم نفعه يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر وينصح ويصدع بالحق ويصبر في الله عز وجل ويتعلم ويعمل.

وقد حذر منها رسول الله ﷺ كما في مسلم عن أبي سعيد: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فأتقوا الدنيا وأتقوا النساء، فإن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

ولا ينبغي أن يخدع بها لبيب ولاذ وعقل سديد.

قال الحسن البصري رحمه الله وقد ذكرت عنده الدنيا:

أحلام نوم أو كظل زائل إن اللبيب بمثلها لا يخدع

ويروى عن الحسن بن علي قوله:

يـــا أهـــل لـــذات دنيـــا لا بقـــاء لهـــا إن اغـــــترار بظـــــل زائـــــف حمـــــق

فأجعل الدنيا طريقك إلى الجنة لا طريقك إلى النار، وقد قال عامر الهمذاني:

إنـــما الـــدنيا إلى الجنـــة ولنـــا طريـــق والليالي متجر الإنسـان والأيـام سـوق

وهي في أواخر أيامها فلا تغتر أيها المؤمن بها، أخرج مسلم في «صحيحه»: عَنْ خَالِدِ بْنِ عُمَيْرٍ الْعَدَوِىِّ قَالَ خَطَبَنَا عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ فَحَمِدَ اللهَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِصُرْمٍ وَوَلَّتْ حَذَّاءَ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاَّ صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ يَتَصَابُّهَا صَاحِبُهَا وَإِنَّكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لاَ زَوَالَ لَهَا فَانْتَقِلُوا بِخَيْرِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفَةِ جَهَنَّمَ فَيَهْوِى فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا لاَ يُدْرِكُ لَهَا قَعْرًا وَوَاللهَّ لَتُمْلأَنَّ أَفَعَجِبْتُمْ وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ وَلَقَدْ رَأَيْتُنِى سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللهَّ -ﷺ- مَا لَنَا طَعَامٌ إِلاَّ وَرَقُ الشَّجَرِ حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا فَالْتَقَطْتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُهَا بَيْنِى وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ فَاتَّزَرْتُ بِنِصْفِهَا وَاتَّزَرَ سَعْدٌ بِنِصْفِهَا فَمَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ أَصْبَحَ أَمِيرًا عَلَى مِصْرٍ مِنَ الأَمْصَارِ وَإِنِّى أَعُوذُ بِاللهَّ أَنْ أَكُونَ فِى نَفْسِى عَظِيمًا وَعِنْدَ اللهَّ صَغِيرًا وَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ قَطُّ إِلاَّ تَنَاسَخَتْ حَتَّى يَكُونَ آخِرُ عَاقِبَتِهَا مُلْكًا فَسَتَخْبُرُونَ وَتُجَرِّبُونَ الأُمَرَاءَ بَعْدَنَا.

واسلك سبيل نبيك في التعامل معها، قال عمرو بن العاص ت: لَقَدْ أَصْبَحْتُمْ وَأَمْسَيْتُمْ تَرْغَبُونَ فِيمَا كَانَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ يَزْهَدُ فِيهِ أَصْبَحْتُمْ تَرْغَبُونَ فِي الدُّنْيَا وَكَانَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ يَزْهَدُ فِيهَا وَاللهَّ مَا أَتَتْ عَلَى رَسُولِ اللهَّ ﷺ لَيْلَةٌ مِنْ دَهْرِهِ إِلَّا كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِمَّا لَهُ قَالَ فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهَّ ﷺ قَدْ رَأَيْنَا رَسُولَ اللهَّ ﷺ يَسْتَسْلِفُ الحديث أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٤).

والله عز وجل يقول: ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾[لقمان:٣٣]، مع أنه خالقها والعالم بها فإنه لمن الحمق أن نركن إليها بعد تحذيرها منها.

وعَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ اضْطَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ فَأَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ جَعَلْتُ أَمْسَحُ جَنْبَهُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا آذَنْتَنَا حَتَّى نَبْسُطَ لَكَ عَلَى الْحَصِيرِ شَيْئًا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ . أخرجه أحمد

فإذا كان هذا حال الدنيا فشمر في طاعة الله عز وجل وأتباع طريقة النبي ﷺ تسلم، وتغنم وتسعد ولا تندم، فإن الله عز وجل قد أعد لك الجنان ووعدك بالقصور والحوريات الحسان، حيث قال: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

وقال كما في حديث سهل بن سعد قال رسول ﷺ: «**وقال تعالى:** أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا اذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

والدنيا وحب الخلود فيها والركون إليها سبب للإنقطاع، كما في قصة عالم بني إسرائيل.

وهل أزاغ قلب عقيل المقطري بعد أن تعلم العلم السنوات الطوال في مركز الشيخ مقبل إلا هي!.

وكذلك محمد بن موسى البيضاني.

ومحمد المهدي.

وعبد الله بن غالب الحميري.

ومصطفى بن سليمان أبو الحسن المصري، وفي هذه الأيام نحن نعايش فتنة ابني

مرعي عبدالله وعبدالرحمن العدنيين، والمتأمل لها يجد أنها فتنة قامت على الدنيا والهلع وراءها والحرص على تحصيلها بأي طريقة ليس إلا، وأضافوا إليها تعصبًا وطعنًا ووخزًا وتزهيدًا من حملة السنة الصحيحة في دار الحديث بدماج وعل رأسهم فضيلة الشيخ الناصح الأمين أبي عبدالرحمن يحيى بن علي الحجوري، وهذه هي طريقة أهل البدع ولنا بحمد الله رسالة مطبوعة في بيان ما عليه هذه الشرذمة الخائنة بعنوان [الخيانة الدعوية حجر عثرة في طريق السلفية] والحمد لله.

فهولاء مع معرفتهم بالمنهج القديم والصراط المستقيم ما أزاغ قلوبهم إلا هي وهي سبب الهلاك، كما في حديث عوف بن مالك في «الصحيحين»: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِى بِجِزْيَتِهَا وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- هُوَ صَالَحَ أَهْلَ الْبَحْرَيْنِ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمُ الْعَلاَءَ بْنَ الْحَضْرَمِىِّ فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ فَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِى عُبَيْدَةَ فَوَافَوْا صَلاَةَ الْفَجْرِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- انْصَرَفَ فَتَعَرَّضُوا لَهُ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- حِينَ رَآهُمْ ثُمَّ قَالَ « أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَىْءٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ ». فَقَالُوا أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « « فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ. وَلَكِنِّى أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ ».

وليس معنى ذلك أن تسلك سبيل أهل التصوف، فتحرم الحلال وتلبس الصوف وتهيم في الفيافي والقفار وتترك عيالك في فاقة وفقر، وإنما أسلك فيها مسلك النبي الكريم ﷺ، خذها من حلالها ودع حرامها، وكما قال أبو مسلم الخولاني: « ليس الزهادة في الدنيا

بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، إنما الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يدي الله أوثق مما في يديك ، وإذا أصبت بمصيبة كنت أشد رجاء لأجرها وذخرها من أنها لو بقيت لك »

أخرجه أحمد في «الزهد» (٢٥).

قال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٥٤٩-٥٥٠): واعلم أنَّ الذمَّ الوارد في الكتاب والسُّنَّة للدُّنيا ليس هو راجعاً إلى زمانها الذي هو اللَّيل والنَّهار ، المتعاقبان إلى يوم القيامة ، فإنَّ الله جعلهما خِلفَةً لمن أراد أنْ يذَّكَّرَ أو أراد شكوراً . وليس الذمُّ راجعاً إلى مكان الدُّنيا الذي هو الأرض التي جعلها الله لبني آدم مِهاداً وسكناً ، ولا إلى ما أودعه الله فيها من الجبال والبحار والأنهار والمعادن ، ولا إلى ما أنبته فيها من الشَّجر والزرع ، ولا إلى ما بثَّ فيها من الحيوانات وغير ذلك ، فإنَّ ذلك كُلَّه مِنْ نعمة الله على عباده بما لهم فيه من المنافع ، ولهم به من الاعتبار والاستدلال على وحدانيَّة صانعه وقُدرته وعَظَمَتِهِ ، وإنَّما الذَّمُّ راجعٌ إلى أفعال بني آدم الواقعة في الدُّنيا ؛ لأنَّ غالبها واقعٌ على غير الوجه الذي تُحمَدُ عاقبتُه ، بل يقعُ على ما تضرُّ عاقبتُه ، أو لا تنفع ، كما قال – عز وجل – : {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ} .أهـ

فالزاهد في الدنيا الزهد الشرعي يصل إلى مطلوبه ويتحصل على مرغوبه لأنه طائع لله عز وجل، وقد وعد الله الطائع بالتمكين: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[المجادلة:٢١]، ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[لأعراف:١٢٨].

ومن هذا الأرث أن يكون الداعي إلى الله عز وجل ممكنًا منصورًا مسموعًا مطاعًا في طاعة الله ورسوله ﷺ.

وكذلك من الزهد في الدنيا الياس مما في أيدي الناس وعدم الطمع فيهم، وكما في الحديث: «وازهد فيما عند الناس يحبك الناس»، وإذا حبوك قبولوا منك وأخذوا عنك، وإذا ابغضوك قلوك وهجروك.

قال أبو حاتم ابن حبان في «روضة العقلاء» (١٧) الواجب على العاقل ترك الطمع ترك الطمع إلى الناس كافة بكمال الإياس عنهم؛ إذ الطمع فيما لا يشك في وجوده فقر حاضر، فكيف بما أنت شاَك في وجوده أو عدمه؟.

ولقد أحسن الذي يقول:

لأجعلنَّ سبيل اليأس لي سبُلا ... ما عشت منك، ودار اُلهمّ أوطانا

والصبرُ أجعله غرماً أنال به ... في الناس قرباً، وعند الله رضوانا

فالنفس قانعة، والأرضُ واسعة ... والدار جامعة مثنى ووُحدانا

وأنشدني عمرو بن محمد بن عبد الله النسائي قال: أنشدني الحسين بن أحمد ابن عثمان:

اليأسُ أدبني ورفَّع همتي ... واليأس خير مؤدب للناس

إني رأيت مواضع الطمع الذي ... يضع الشريف مواضع الأخساس

وأنشدني محمد بن عبد الله البغدادي:

فأجمعت يأسا لا لُبانة بعده ... ولليأس أدنى للعفاف من الطمع

والنفس تطمع هشة إن أطمعت ... وتنال باليأس السلوَّ فتقنع

واوأنشدني محمد بن عبد الله البغدادي:

فأجمعت يأسا لا لُبانة بعده ... ولليأس أدنى للعفاف من الطمع

والنفس تطمع هشة إن أطمعت ... وتنال باليأس السلوَّ فتقنعلناس يغترون بالداعي

الذي لا يسألهم أموالهم، ويبخلون وينفرون عمن يسألهم أموالهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾[محمد:٣٦].

فرسول الله ﷺ كان يعطي ويتألف الناس بالمال ولا يسأل أحدًا ماله.

وفي قصة سلمان الفارسي عند أحمد (٥/ ٤٤١): في هذا الباب كما سترى في قصة الراهب الذي يكتنز الأموال له كيف مقت وابغض بعد موته وترك من الدفن، فكيف سيصنعون به لو كان حيًا.

عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ حَدَّثَنِي سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ حَدِيثَهُ مِنْ فِيهِ قَالَ كُنْتُ رَجُلًا فَارِسِيًّا مِنْ أَهْلِ أَصْبَهَانَ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ مِنْهَا يُقَالُ لَهَا جَيٌّ وَكَانَ أَبِي دِهْقَانَ قَرْيَتِهِ وَكُنْتُ أَحَبَّ خَلْقِ اللهَّ إِلَيْهِ فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حُبُّهُ إِيَّايَ حَتَّى حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ أَيْ مُلَازِمَ النَّارِ كَمَا تُحْبَسُ الْجَارِيَةُ وَأَجْهَدْتُ فِي الْمَجُوسِيَّةِ حَتَّى كُنْتُ قَطَنَ النَّارِ الَّذِي يُوقِدُهَا لَا يَتْرُكُهَا تَخْبُو سَاعَةً قَالَ وَكَانَتْ لِأَبِي ضَيْعَةٌ عَظِيمَةٌ قَالَ فَشُغِلَ فِي بُنْيَانٍ لَهُ يَوْمًا فَقَالَ لِي يَا بُنَيَّ إِنِّي قَدْ شُغِلْتُ فِي بُنْيَانِ هَذَا الْيَوْمَ عَنْ ضَيْعَتِي فَاذْهَبْ فَاطَّلِعْهَا وَأَمَرَنِي فِيهَا بِبَعْضِ مَا يُرِيدُ فَخَرَجْتُ أُرِيدُ ضَيْعَتَهُ فَمَرَرْتُ بِكَنِيسَةٍ مِنْ كَنَائِسِ النَّصَارَى فَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ فِيهَا وَهُمْ يُصَلُّونَ وَكُنْتُ لَا أَدْرِي مَا أَمْرُ النَّاسِ لِحَبْسِ أَبِي إِيَّايَ فِي بَيْتِهِ فَلَمَّا مَرَرْتُ بِهِمْ وَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُونَ قَالَ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ أَعْجَبَنِي صَلَاتُهُمْ وَرَغِبْتُ فِي أَمْرِهِمْ وَقُلْتُ هَذَا وَاللهَّ خَيْرٌ مِنْ الدِّينِ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ فَوَاللهَّ مَا تَرَكْتُهُمْ حَتَّى غَرَبَتْ الشَّمْسُ وَتَرَكْتُ ضَيْعَةَ أَبِي وَلَمْ آتِهَا فَقُلْتُ لَهُمْ أَيْنَ أَصْلُ هَذَا الدِّينِقَالُوا بِالشَّامِ قَالَ ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى أَبِي وَقَدْ بَعَثَ فِي طَلَبِي وَشَغَلْتُهُ عَنْ

عَمَلِهِ كُلِّهِ قَالَ فَلَمَّا جِئْتُهُ قَالَ أَيْ بُنَيَّ أَيْنَ كُنْتَ أَلَمْ أَكُنْ عَهِدْتُ إِلَيْكَ مَا عَهِدْتُ قَالَ

قُلْتُ يَا أَبَتِ مَرَرْتُ بِنَاسٍ يُصَلُّونَ فِي كَنِيسَةٍ لَهُمْ فَأَعْجَبَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْ دِينِهِمْ فَوَاللَّهِ مَازِلْتُ عِنْدَهُمْ حَتَّى غَرَبَتْ الشَّمْسُ قَالَ أَيْ بُنَيَّ لَيْسَ فِي ذَلِكَ الدِّينِ خَيْرٌ دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ خَيْرٌ مِنْهُ قَالَ قُلْتُ كَلَّا وَاللَّهِ إِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ دِينِنَا قَالَ فَخَافَنِي فَجَعَلَ فِي رِجْلَيَّ قَيْدًا ثُمَّ حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ قَالَ وَبَعَثْتُ إِلَيَّ النَّصَارَى فَقُلْتُ لَهُمْ إِذَا قَدِمَ عَلَيْكُمْ رَكْبٌ مِنْ الشَّامِ تُجَّارٌ مِنْ النَّصَارَى فَأَخْبِرُونِي بِهِمْ قَالَ فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ رَكْبٌ مِنْ الشَّامِ تُجَّارٌ مِنْ النَّصَارَى قَالَ فَأَخْبَرُونِي بِهِمْ قَالَ فَقُلْتُ لَهُمْ إِذَا قَضَوْا حَوَائِجَهُمْ وَأَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلَادِهِمْ فَآذِنُونِي بِهِمْ قَالَ فَلَمَّا أَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلَادِهِمْ أَخْبَرُونِي بِهِمْ فَأَلْقَيْتُ الْحَدِيدَ مِنْ رِجْلَيَّ ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُمْ حَتَّى قَدِمْتُ الشَّامَ فَلَمَّا قَدِمْتُهَا قُلْتُ مَنْ أَفْضَلُ أَهْلِ هَذَا الدِّينِ قَالُوا الْأَسْقُفُّ فِي الْكَنِيسَةِ قَالَ فَجِئْتُهُ فَقُلْتُ إِنِّي قَدْ رَغِبْتُ فِي هَذَا الدِّينِ وَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ مَعَكَ أَخْدُمُكَ فِي كَنِيسَتِكَ وَأَتَعَلَّمُ مِنْكَ وَأُصَلِّي مَعَكَ قَالَ فَادْخُلْ فَدَخَلْتُ مَعَهُ قَالَ فَكَانَ رَجُلَ سَوْءٍ يَأْمُرُهُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُهُمْ فِيهَا فَإِذَا جَمَعُوا إِلَيْهِ مِنْهَا أَشْيَاءَ اكْتَنَزَهُ لِنَفْسِهِ وَلَمْ يُعْطِهِ الْمَسَاكِينَ حَتَّى جَمَعَ سَبْعَ قِلَالٍ مِنْ ذَهَبٍ وَوَرِقٍ قَالَ وَأَبْغَضْتُهُ بُغْضًا شَدِيدًا لِمَا رَأَيْتُهُ يَصْنَعُ ثُمَّ مَاتَ فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ النَّصَارَى لِيَدْفِنُوهُ فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ هَذَا كَانَ رَجُلَ سَوْءٍ يَأْمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُكُمْ فِيهَا فَإِذَا جِئْتُمُوهُ بِهَا اكْتَنَزَهَا لِنَفْسِهِ وَلَمْ يُعْطِ الْمَسَاكِينَ مِنْهَا شَيْئًا قَالُوا وَمَا عِلْمُكَ بِذَلِكَ قَالَ قُلْتُ أَنَا أَدُلُّكُمْ عَلَى كَنْزِهِ قَالُوا فَدُلَّنَا عَلَيْهِ قَالَ فَأَرَيْتُهُمْ مَوْضِعَهُ قَالَ فَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ سَبْعَ قِلَالٍ مَمْلُوءَةٍ ذَهَبًا وَوَرِقًا قَالَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا وَاللَّهِ لَا نَدْفِنُهُ أَبَدًا فَصَلَبُوهُ ثُمَّ رَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ ثُمَّ جَاءُوا بِرَجُلٍ آخَرَ فَجَعَلُوهُ بِمَكَانِهِ قَالَ يَقُولُ سَلْمَانُ فَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا لَا يُصَلِّي الْخَمْسَ أَرَى أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْهُ أَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا وَلَا أَرْغَبُ فِي الْآخِرَةِ وَلَا أَدْأَبُ لَيْلًا وَنَهَارًا مِنْهُ قَالَ فَأَحْبَبْتُهُ حُبًّا لَمْ أُحِبَّهُ مَنْ قَبْلَهُ وَأَقَمْتُ مَعَهُ زَمَانًا ثُمَّ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ

فَقُلْتُ لَهُ يَا فُلَانُ إِنِّي كُنْتُ مَعَكَ وَأَحْبَبْتُكَ حُبًّا لَمْ أُحِبَّهُ مَنْ قَبْلَكَ وَقَدْ حَضَرَكَ مَا تَرَى مِنْ أَمْرِ اللهِ فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي وَمَا تَأْمُرُنِي قَالَ أَيْ بُنَيَّ وَاللهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا الْيَوْمَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ لَقَدْ هَلَكَ النَّاسُ وَبَدَّلُوا وَتَرَكُوا أَكْثَرَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا رَجُلًا بِالْمَوْصِلِ وَهُوَ فُلَانٌ فَهُوَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ فَالْحَقْ بِهِ قَالَ فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ الْمَوْصِلِ فَقُلْتُ لَهُ يَا فُلَانُ إِنَّ فُلَانًا أَوْصَانِي عِنْدَ مَوْتِهِ أَنْ أَلْحَقَ بِكَ وَأَخْبَرَنِي أَنَّكَ عَلَى أَمْرِهِقَالَ فَقَالَ لِي أَقِمْ عِنْدِي فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ فَوَجَدْتُهُ خَيْرَ رَجُلٍ عَلَى أَمْرِ صَاحِبِهِ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قُلْتُ لَهُ يَا فُلَانُ إِنَّ فُلَانًا أَوْصَى بِي إِلَيْكَ وَأَمَرَنِي بِاللُّحُوقِ بِكَ وَقَدْ حَضَرَكَ مِنْ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا تَرَى فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي وَمَا تَأْمُرُنِي قَالَ أَيْ بُنَيَّ وَاللهِ مَا أَعْلَمُ رَجُلًا عَلَى مِثْلِ مَا كُنَّا عَلَيْهِ إِلَّا بِنَصِيبِينَ وَهُوَ فُلَانٌ فَالْحَقْ بِهِ وَقَالَ فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ نَصِيبِينَ فَجِئْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِي وَمَا أَمَرَنِي بِهِ صَاحِبِي قَالَ فَأَقِمْ عِنْدِي فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ فَوَجَدْتُهُ عَلَى أَمْرِ صَاحِبَيْهِ فَأَقَمْتُ مَعَ خَيْرِ رَجُلٍ فَوَاللهِ مَا لَبِثَ أَنْ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَلَمَّا حَضَرَ قُلْتُ لَهُ يَا فُلَانُ إِنَّ فُلَانًا كَانَ أَوْصَى بِي إِلَى فُلَانٍ ثُمَّ أَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَيْكَ فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي وَمَا تَأْمُرُنِي قَالَ أَيْ بُنَيَّ وَاللهِ مَا نَعْلَمُ أَحَدًا بَقِيَ عَلَى أَمْرِنَا آمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ إِلَّا رَجُلًا بِعَمُّورِيَّةَ فَإِنَّهُ بِمِثْلِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ فَإِنْ أَحْبَبْتَ فَأْتِهِ قَالَ فَإِنَّهُ عَلَى أَمْرِنَا قَالَ فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ عَمُّورِيَّةَ وَأَخْبَرْتُهُ خَبَرِي فَقَالَ أَقِمْ عِنْدِي فَأَقَمْتُ مَعَ رَجُلٍ عَلَى هَدْيِ أَصْحَابِهِ وَأَمْرِهِمْ قَالَ وَاكْتَسَبْتُ حَتَّى كَانَ لِي بَقَرَاتٌ وَغُنَيْمَةٌ قَالَ ثُمَّ نَزَلَ بِهِ أَمْرُ اللهِ فَلَمَّا حَضَرَ قُلْتُ لَهُ يَا فُلَانُ إِنِّي كُنْتُ مَعَ فُلَانٍ فَأَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ وَأَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ ثُمَّ أَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَيْكَ فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي وَمَا تَأْمُرُنِي قَالَ أَيْ بُنَيَّ وَاللهِ مَا أَعْلَمُهُ أَصْبَحَ عَلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ آمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ أَظَلَّكَ زَمَانُ نَبِيٍّ هُوَ مَبْعُوثٌ بِدِينِ

إِبْرَاهِيمَ يَخْرُجُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ مُهَاجِرًا إِلَى أَرْضٍ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ بَيْنَهُمَا نَخْلٌ بِهِ عَلَامَاتٌ لَا تَخْفَى يَأْكُلُ الْهَدِيَّةَ وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ بَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْحَقَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ فَافْعَلْ قَالَ ثُمَّ مَاتَ وَغُيِّبَ فَمَكَثْتُ بِعَمُّورِيَّةَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ أَمْكُثَ ثُمَّ مَرَّ بِي نَفَرٌ مِنْ كَلْبٍ تُجَّارًا فَقُلْتُ لَهُمْ تَحْمِلُونِي إِلَى أَرْضِ الْعَرَبِ وَأُعْطِيكُمْ بَقَرَاتِي هَذِهِ وَغُنَيْمَتِي هَذِهِ قَالُوا نَعَمْ فَأَعْطَيْتُهُمُوهَا وَحَمَلُونِي حَتَّى إِذَا قَدِمُوا بِي وَادِي الْقُرَى ظَلَمُونِي فَبَاعُونِي مِنْ رَجُلٍ مِنْ يَهُودَ عَبْدًا فَكُنْتُ عِنْدَهُ وَرَأَيْتُ النَّخْلَ وَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ الْبَلَدَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي وَلَمْ يَحِقْ لِي فِي نَفْسِي فَبَيْنَمَا أَنَا عِنْدَهُ قَدِمَ عَلَيْهِ ابْنُ عَمٍّ لَهُ مِنْ الْمَدِينَةِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ فَابْتَاعَنِي مِنْهُ فَاحْتَمَلَنِي إِلَى الْمَدِينَةِ فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُهَا فَعَرَفْتُهَا بِصِفَةِ صَاحِبِي فَأَقَمْتُ بِهَا وَبَعَثَ اللهُ رَسُولَهُ فَأَقَامَ بِمَكَّةَ مَا أَقَامَ لَا أَسْمَعُ لَهُ بِذِكْرٍ مَعَ مَا أَنَا فِيهِ مِنْ شُغْلِ الرِّقِّ ثُمَّ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَوَاللهِ إِنِّي لَفِي رَأْسِ عَذْقٍ لِسَيِّدِي أَعْمَلُ فِيهِ بَعْضَ الْعَمَلِ وَسَيِّدِي جَالِسٌ إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ عَمٍّ لَهُ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ فُلَانٌ قَاتَلَ اللهُ بَنِي قَيْلَةَ وَاللهِ إِنَّهُمْ الْآنَ لَمُجْتَمِعُونَ بِقُبَاءَ عَلَى رَجُلٍ قَدِمَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَكَّةَ الْيَوْمَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ قَالَ فَلَمَّا سَمِعْتُهَا أَخَذَتْنِي الْعُرَوَاءُ حَتَّى ظَنَنْتُ سَأَسْقُطُ عَلَى سَيِّدِي قَالَ وَنَزَلْتُ عَنْ النَّخْلَةِ فَجَعَلْتُ أَقُولُ لِابْنِ عَمِّهِ ذَلِكَ مَاذَا تَقُولُ مَاذَا تَقُولُ قَالَ فَغَضِبَ سَيِّدِي فَلَكَمَنِي لَكْمَةً شَدِيدَةً ثُمَّ قَالَ مَا لَكَ وَلِهَذَا أَقْبِلْ عَلَى عَمَلِكَ قَالَ قُلْتُ لَا شَيْءَ إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَسْتَثْبِتَ عَمَّا قَالَ وَقَدْ كَانَ عِنْدِي شَيْءٌ قَدْ جَمَعْتُهُ فَلَمَّا أَمْسَيْتُ أَخَذْتُهُ ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِقُبَاءَ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُ إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ وَمَعَكَ أَصْحَابٌ لَكَ غُرَبَاءُ ذَوُو حَاجَةٍ وَهَذَا شَيْءٌ كَانَ عِنْدِي لِلصَّدَقَةِ فَرَأَيْتُكُمْ أَحَقَّ بِهِ مِنْ غَيْرِكُمْ قَالَ فَقَرَّبْتُهُ إِلَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ كُلُوا وَأَمْسَكَ يَدَهُ فَلَمْ يَأْكُلْ قَالَ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي هَذِهِ وَاحِدَةٌ ثُمَّ

انْصَرَفْتُ عَنْهُ فَجَمَعْتُ شَيْئًا وَتَحَوَّلَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ ثُمَّ جِئْتُ بِهِ فَقُلْتُ إِنِّي رَأَيْتُكَ لَا تَأْكُلُ الصَّدَقَةَ وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أَكْرَمْتُكَ بِهَا قَالَ فَأَكَلَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ مِنْهَا وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَأَكَلُوا مَعَهُ قَالَ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي هَاتَانِ اثْنَتَانِ ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللهَّ ﷺ وَهُوَبِبَقِيعِ الْغَرْقَدِ قَالَ وَقَدْ تَبِعَ جَنَازَةً مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ شَمْلَتَانِ لَهُ وَهُوَ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَدَرْتُ أَنْظُرُ إِلَى ظَهْرِهِ هَلْ أَرَى الْخَاتَمَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي فَلَمَّا رَآنِي رَسُولُ اللهَّ ﷺ اسْتَدْرْتُهُ عَرَفَ أَنِّي أَسْتَثْبِتُ فِي شَيْءٍ وُصِفَ لِي قَالَ فَأَلْقَى رِدَاءَهُ عَنْ ظَهْرِهِ فَنَظَرْتُ إِلَى الْخَاتَمِ فَعَرَفْتُهُ فَانْكَبَبْتُ عَلَيْهِ أُقَبِّلُهُ وَأَبْكِي فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهَّ ﷺ تَحَوَّلْ فَتَحَوَّلْتُ فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ حَدِيثِي كَمَا حَدَّثْتُكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ فَأَعْجَبَ رَسُولَ اللهَّ ﷺ أَنْ يَسْمَعَ ذَلِكَ أَصْحَابُهُ ثُمَّ شَغَلَ سَلْمَانَ الرِّقُّ حَتَّى فَاتَهُ مَعَ رَسُولِ اللهَّ ﷺ بَدْرٌ وَأُحُدٌ قَالَ ثُمَّ قَالَ لِي رَسُولُ اللهَّ ﷺ كَاتِبْ يَا سَلْمَانُ فَكَاتَبْتُ صَاحِبِي عَلَى ثَلَاثِ مِائَةِ نَخْلَةٍ أُحْيِيهَا لَهُ بِالْفَقِيرِ وَبِأَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ أَعِينُوا أَخَاكُمْ فَأَعَانُونِي بِالنَّخْلِ الرَّجُلُ بِثَلَاثِينَ وَدِيَّةً وَالرَّجُلُ بِعِشْرِينَ وَالرَّجُلُ بِخَمْسَ عَشْرَةَ وَالرَّجُلُ بِعَشْرٍ يَعْنِي الرَّجُلُ بِقَدْرِ مَا عِنْدَهُ حَتَّى اجْتَمَعَتْ لِي ثَلَاثُ مِائَةِ وَدِيَّةٍ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهَّ ﷺ اذْهَبْ يَا سَلْمَانُ فَفَقِّرْ لَهَا فَإِذَا فَرَغْتَ فَأْتِنِي أَكُونُ أنا أَضَعُهَا بِيَدَيَّ فَفَقَّرْتُ لَهَا وَأَعَانَنِي أَصْحَابِي حَتَّى إِذَا فَرَغْتُ مِنْهَا جِئْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ فَخَرَجَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ مَعِي إِلَيْهَا فَجَعَلْنَا نُقَرِّبُ لَهُ الْوَدِيَّ وَيَضَعُهُ رَسُولُ اللهَّ ﷺ بِيَدِهِ فَوَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ مَا مَاتَتْ مِنْهَا وَدِيَّةٌ وَاحِدَةٌ فَأَدَّيْتُ النَّخْلَ وَبَقِيَ عَلَيَّ الْمَالُ فَأُتِيَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ بِمِثْلِ بَيْضَةِ الدَّجَاجَةِ مِنْ ذَهَبٍ مِنْ بَعْضِ الْمَغَازِي فَقَالَ مَا فَعَلَ الْفَارِسِيُّ الْمُكَاتَبُ قَالَ فَدُعِيتُ لَهُ فَقَالَ خُذْ هَذِهِ فَأَدِّ بِهَا مَا عَلَيْكَ يَا سَلْمَانُ فَقُلْتُ وَأَيْنَ تَقَعُ هَذِهِ يَا رَسُولَ اللهَّ مِمَّا عَلَيَّ قَالَ خُذْهَا فَإِنَّ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ سَيُؤَدِّي بِهَا عَنْكَ

قَالَ فَأَخَذْتُهَا فَوَزَنْتُ لَهُمْ مِنْهَا وَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً فَأَوْفَيْتُهُمْ حَقَّهُمْ وَعُتِقْتُ فَشَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْخَنْدَقَ ثُمَّ لَمْ يَفُتْنِي مَعَهُ مَشْهَدٌ وقال ابن القيم رحمه الله في «الفوائد» (٢٤٣-٢٤٨): فصل ليحذر العالم الدنيا والركون إليها.

كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها فلا بد أن يقول علي الله غير الحق فى فتواه وحكمه فى خبره والزامه لان أحكام الرب سبحانه كثيرا ما تأتي على خلاف أغراض الناس ولا سيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشبهات فانهم لا تتم لهم أغراضهم الا بمخالفة الحق ودفعه كثيرا فاذا كان العالم والحاكم محبين للرياسة متبعين للشهوات لم يتم لما ذلك الا بدفع ما يضاده من الحق ولا سيما اذا قامت له شبهة فتتفق الشبهة والشهوة ويثور الهوى فيخفى الصواب وينطمس وجه الحق وان كان الحق ظاهرا لا خفاء به ولا شبة فيه أقدم على مخالفته وقال لي مخرج بالتوبة وفى هؤلاء وأشباههم **قال تعالى:** ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا** ﴾[مريم:٥٩]، **وقال تعالى:** فيهم أيضا: ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾[الأعراف:١٦٩]، فاخبر سبحانه أنهم اخذوا العرض الأدني مع علمهم بتحريمه عليهم وقالوا سيغفر لنا وان عرض لهم عرض آخر أخذوه فهم مصرون على ذلك وذلك هو الحامل لهم على ان يقولوا على الله غير الحق فيقولون هذا حكمه وشرعه ودينه وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك أولا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه فتارة يقولون على الله مالا يعلمون وتارة يقولون عليه ما

يعلمون بطلانه، وأما الذين يتقون فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا فلا يحملهم، حب الرياسة والشهوة على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة وطريق ذلك أن يتمسكوا بالكتاب والسنة ويستعينوا بالصبر والصلاة ويتفكروا في الدنيا وزوالها وخستها والآخرة واقبالها ودوامها وهؤلاء لا بد أن يبتدعوا فى الدين مع الفجور في العمل فيجتمع لهم الأمران فان اتباع الهوى يعمى عين القلب فلا يميز بين السنة والبدعة أو ينكسه فيرى البدعة سنة والسنة بدعة فهذه آفة العلماء اذا آثروا الدنيا واتبعوا الرياسات والشهوات وهذه الآيات فيهم قال تعالى :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾[الأعراف: ١٧٥-١٧٦] فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه، وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمة وذلك من وجوه أحدها انه ضل بعد العلم واختار الكفر على الايمان عمدا ولا جهلا وثانيها أنه فارق الايمان مفارقه من لا يعود اليه أبدا فانه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها ولو بقى معه منها شيء لم ينسلخ منها وثالثها أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه ولهذا قال فاتبعه الشيطان ولم يقل تبعه فان فى معنى اتبعه أدركه ولحقه وهو أبلغ من تبعه لفظا ومعنى ورابعها أنه غوى بعد الرشد والغى الضلال فى العلم والقصد وهو أخص بفساد القصد والعمل كما أن الضلال أخص فساد العلم والاعتقاد فاذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر وإن اقترنا فالفرق ما ذكر وخامسها أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه لأنه لم رفع به فصار وبالا عليه فلو لم يكن عالما كان خيرا له وأخف لعذابه

وسادسها انه سبحانه اخبر عن خسة همته وأنه اختار الاسفل الادني على الاشرف الاعلى وسابعها أن اختياره للادني لم يكن عن خاطر وحديث نفس ولكنه كان عن اخلاد الى الارض وميل بكليته الى ما هناك وأصل الاخلاد اللزوم على الدوام، كأنه قيل لزم الميل الى الارض ومن هذا يقال أخلد فلان بالمكان اذا لزم الاقامة به قال مالك بن نويرة، بأبناء حى من قبائل مالك:

(وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا)

وعبر عن ميله الى الدنيا باخلاده الى الارض لان الدنيا هي الارض وما فيها وما يستخرج منها من الزينة والمتاع وثامنها أنه رغب عن هداه واتبع هواه فجعل هواه اماما له يقتدي به ويتبعه وتاسعها أنه شبهه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همه وأسقطها نفسا وأبخلها وأشدها كلبا ولهذا سمى كلبا وعاشرها أنه شبه لهثه على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدها وحرصه على تحصيلها بلهث الكلب فى حالتي تركه والحمل عليه بالطرد وهكذا هذا ان ترك فهو لهثان على الدنيا وان وعظ وزجر فهو كذلك فاللهث لا يفارقه فى كل حال كلهث الكلب قال ابن قتيبة كل شيء يلهث فانما يلهث من اعياء أو عطش الا الكلب فانه يلهث فى حال الكلال وحال الراحة وحال الري وحال العطش فضربه الله مثلا لهذا الكافر فقال ان وعظته فهو ضال وان تركته فهو ضال كالكلب ان طردته لهث وان تركته على حاله لهث وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب وانما وقع بالكلب اللاهث وذلك أخس ما يكون وأشنعه ، فصل فهذا حال العالم المؤثر الدنيا علي الآخرة وأما العابد الجاهل ، فآفته من إعراضه عن العلم وأحكامه وغلبة خياله وذوقه ووجده وما تهواه نفسه ولهذا قال سفيان ابن عيينة وغيره احذروا فتنة العالم الفاجر وفتنة العابد

الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون فهذا بجهله يصد عن العلم وموجبه وذاك بغية يدعو الى الفجور وقد ضرب الله سبحانه مثل النوع الآخر بقوله: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا﴾[الحشر: ١٦-١٧].

أنهما فى النار خلدين فيها وذلك جزاء الظالمين وقصته معروفة فانه بنى أساس أمره على عبادة الله بجهل فاوقعه الشيطان بجهله وكفره بجهله، فهذا امام كل عابد جاهل يكفر ولا يدري وذاك امام كل عالم فاجر يختار الدنيا على الآخرة وقد جعل سبحانه رضى العبد بالدنيا وطمأنينته وغفلته عن معرفة آياته وتدبرها والعمل بها سبب شقائه وهلاكه ولا يجتمع هذان أعنى الرضى بالدنيا والغفلة عن آيات الرب الا في قلب من لا يؤمن بالمعاد ولا يرجو لقاء رب العباد والا فلو رسخ قدمه فى الايمان بالمعاد لما رضى الدنيا ولا اطمأن اليها ولا أعرض عن آيات الله وأنت اذا تأملت احوال الناس وجدت هذا الضرب هو الغالب علي الناس وهم عمار الدنيا وأقل الناس عددا من هو على خلاف ذلك وهو من أشد الناس غربة بينهم لهم شان وله شأن علمه غير علومهم وإرادته غير إرادتهم وطريقه غير طريقهم فهو فى واد وهم فى واد **قال تعالى:** ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[يونس: ٧-٨].

ثم ذكر وصف ضد هؤلاء ومآلهم وعاقبتهم بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾[يونس:٩]، فهؤلاء ايمانهم بلقاء الله أورثهم عدم الرضا بالدنيا والطمأنينة اليها ودوام ذكر آياته فهذه

مواريث الايمان بالمعاد وتلك مواريث عدم الايمان به والغفلة عنه

ونختم بهذه الأبيات في وصفها، قالها ابن الوردي رحمه الله في لاميته:

اطـــرح الـــدنيا فمـــن عاداتهـــا	تخفـض العـالي وتعـلي مـن سـفل
عيشـــة الراغـــب في تحصـــيلها	عيشـــة الجاهـــد فيهـــا بـــل أقـــل
كـــم جهـــول بـــات فيهـــا مكثـــرًا	وعلـــيم بـــات منهـــا في علـــل
كـــم شـــجاع لم ينـــل فيهـــا المنـــى	وجبـــان نـــال غايـــات الأمـــل

السادسة والأربعون: «إياك وعثرات الشباب».

التؤدة وعدم الطيشان من أسباب نصرة الدعوة، والعجلة والطيشان من أسباب خذلان الدعوة، ولذلك رسول الله ﷺ يكل الأمور إلى ذويها حتى لا يقع ما لا يحمد عقباه، فحين أرسل إلى نجران أرسل أبا عبيدة ابن الجراح الأمين حقًا كما في حديث حذيفة في «الصحيحين»: «لأبعثن عليكم رجلًا أمين حق أمين».

وأرسل أبا موسى ومعاذ ابن جبل رضي الله عنه ما إلى اليمن وأوصاهما بالتطاوع وعدم الاختلاف، وبالتيسير وعدم التعسير، فإنه كلما كان الداعي ملازمًا للتطاوع كان أبعد عن الطيش والعثرات.

وكلما لازم التيسير والدخول في الأمور برفق كلما حالفه الوصول.

وقد أخرج الحاكم (٣/ ٣١٠): عن عبد الملك بن عمير ، عن قبيصة بن جابر الأسدي قال : كنت محرما فرأيت ظبيا فرميته فأصبته ، فهات فوقع في نفسي من ذلك ، فأتيت عمر بن الخطاب أسأله ، فوجدت إلى جنبه رجلا أبيض رقيق الوجه ، فإذا هو عبد الرحمن بن

عوف فسألت عمر فالتفت إلى عبد الرحمن ، فقال : ترى شاة تكفيه ، قال : « نعم » ، فأمرني أن أذبح شاة ، فلما قمنا من عنده ، قال : صاحب لي : إن أمير المؤمنين لم يحسن أن يفتيك حتى سأل الرجل ، فسمع عمر بعض كلامه ، فعلاه عمر بالدرة ضربا ، ثم أقبل علي ليضربني فقلت : يا أمير المؤمنين ، إني لم أقل شيئا ، إنما هو قاله ، قال : فتركني ، ثم قال : « أردت أن تقتل الحرام ، وتتعد بالفتيا » ، ثم قال أمير المؤمنين رضي الله عنه : « إن في الإنسان عشرة أخلاق ، تسعة حسنة ، وواحد سيئ ، ويفسدها ذلك السيئ » ، ثم قال : « إياك وعثرة الشباب » « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه »

يرحمك الله يا عمر كيف بك لو كنت في هذا الزمن الذي تطاول فيه أحداث الأسنان سفهاء على العلماء الربانيين والدعاة المصلحين لمزًا وتحذيرًا وتخطئة، كأنهم قد فضوا في ذلك، مع أننا لو نظرنا في حصيلتهم لرأينها حصيلة الحنفاري.

والطيش خلق مستقبح، وفي العالم والسلطان أعظم قبحًا لما يجر على المجتمع من الويلات، فقد يحل بسببه أو يحرم الحلال، أو يبدع السني البدعي بالسنة، وهو سبب للنفرة لما يقارنه من السب الفاحش والخلق الدني.

وقد ذم رسول الله ﷺ هذا الصنف، حيث قال: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا خَيْثَمَةُ، حَدَّثَنَا سُوَيْدُ بْنُ غَفَلَةَ، قَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَدِيثًا فَوَاللهِ لَأَنْ أَخِرَّ مِنْ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكْذِبَ عَلَيْهِ، وَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فَإِنَّ الْحَرْبَ خِدْعَةٌ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: »سَيَخْرُجُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَحْدَاثُ الْأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ،

فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ«، الحديث أخرجه البخاري (٣٦١١)، ومسلم .

والحديث يدل دلالة واضحة أن الطيشان في الغالب يلازم أحداث الأسنان؛ لأنهم لم يهذبوا بعد، ولم يتمرون على السكينة والتؤدة والرفق، فيحل منهم ما لا تحمد عقباه.

وما يحصل من تفجيرات من قبل الجهاديين أتباع أسامة بن لادن وأيمن الظواهري وعبد الله عزام وغيرهم إلا بسبب هذا الطيش وعدم السكينة والعودة إلى العلماء.

ومعلوم أن الطيش يحصل من شدة الغضب، والغضب في نفسه ينقسم إلى قسمين: غضب محمود وهو الغضب إذا أنتهكت محارم الله عز وجل، وصاحب هذا الغضب يجب عليه أن لا يتجاوز الشرع في تغييره للمنكر.

وغضب مذموم، وهو الغضب لأسباب تافهة.

المهم أن الطيش من أسباب الصد عن الحق لما فيه من تزهيد، ولما فيه من جفاء، ولما فيه من عدم الإنصاف، ولما فيه من تهويل، وكفى بها مذمة أن يقال فلان طائش.

وكما قيل:

ولا خـــير في حلـــم إذا لم يكـــن لـــه بـــوادر تحمـــى صـــفه أن يكـــدر

ولا خـــير في جهـــل إذا لم يكـــن لـــه حلـــيم إذا مـــا أورد الأمـــر أحـــدر

ورسول الله ﷺ يقول لجارية ابن قدامة حين قال له: أوصني، قال: «لا تغضب« فردد مرارًا، قال: «لا تغضب«.

قال ابن القيم في «الفوائد« (٥٩): دخل الناس النار من ثلاثة أبواب باب شبهة اورثت شكا في دين الله وباب شهوة اورثت تقديم الهوى على طاعته ومرضاته وباب

غضب أورث العدوان على خلقه، أصول الخطايا كلها ثلاثة الكبر وهو الذى أصار ابليس الي ما أصاره والحرص وهو الذى أخرج آدم من الجنة والحسد وهو الذى جرأ أحدا بني آدم علي أخيه فمن وقى شر هذه الثلاثة فقد وقى الشر فالكفر من الكبر والمعاصى من الحرص والبغى والظلم من الحسد، جعل الله بحكمته كل جزء من أجزاء ابن آدم ظاهرة وباطنة آلة لشيء اذا استعمل فيه فهو كماله فالعين آلة للنظر والاذن آلة للسماع والأنف آلة للشم واللسان آلة للنطق والفرج للنكاح واليد للبطش والرجل للمشى والقلب للتوحيد والمعرفة والروح للمحبه والعقل آلة للتفكر والتدبر لعواقب الامور الدينية والدنيويه وايثار ما ينبغى ايثاره وأهمال ما ينبغى اهماله، أخسر الناس صفقة من اشتغل عن الله بنفسه بل أخسر منه من اشتغل عن نفسه بالناس فى السنن من حديث أبي سعيد يرفعه اذا أصبح ابن آدم فان الأعضاء كلها تكفر اللسان تقول اتق الله فأنما نحن بك فان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا قوله تكفر اللسان قيل معناه تخضع له وفى الحديث ان الصحابة لما دخلوا علي النجاشي لم يكفروا له أى لم يسجدوا ولم يخضعوا ولذلك قال له عمرو بن العاص أيها الملك انهم لا يكفرون لك وانما خضعت للسان لانه بريد القلب وترجمانه والواسطة بينه وبين الأعضاء وقولها انما نحن بك أي نجاتنا بك وهلاكنا بك ولهذا قالت فان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا.

وكما تقدم أن الطيشان يؤدي إلى النفرة، والنفرة تؤدي إلى الهزيمة النفسية والمعنوية والحسية، فيحصل الفشل للداعي إلى الله عز وجل.

قال الكريزي كما في «روضة العقلاء» (١٦٧):

ولم أر فضـــــلًا تـــــم إلا بشـــــيمة ولم أر عقـــلًا صـــح إلا عـــلى أدب
ولم أر في الأعـــداء حـــين اختـــبرتهم عدوًا لعقل المـرء أعـدى مـن الغضـب

وكم نرى ممن يتهاوى في هذه الأيام بسبب الطيشان، فهذا يخرج على العلماء، وآخر على الأمراء، وهذا متبع لشهواته، وهذا لشبهاته، فالسكينة السكينة.

السابعة والأربعون: «أنزلوا الناس منازلهم»

وهذه أيضًا من أعظم الوسائل نصرًا للدعوة السلفية وهزيمة للبدعة الخَلَفِيةِ: «أنزال الناس منازلهم».

قال الله عز وجل: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[المائدة:٥٤].

وأعظم الناس منزلة هم أهل التقوى.

قال ابن رجب في «شرح الأربعين فهذه الوصية وصيةٌ عظيمةٌ جامعة لحقوق الله وحقوق عباده ، فإنَّ حقَّ الله على عباده أنْ يتقوه حقَّ تقاته ، والتقوى وصيةُ الله للأوّلين والآخرين . قال تعالى : { وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ } .

وأصلُ التّقوى : أنْ يجعل العبدُ بينَه وبينَ ما يخافُه ويحذره وقايةً تقيه منه ، فتقوى العبد لربه أنْ يجعل بينه وبينَ ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقايةً تقيه من ذلك وهو فعلُ طاعته واجتنابُ معاصيه . وتارة تُضافُ التقوى إلى اسم الله – عز وجل – ، كقوله تعالى : { وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } ، وقوله : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } ، فإذا أضيفت

التقوى إليه – سبحانه وتعالى –، فالمعنى : اتقوا سخطه وغضبه ، وهو أعظم ما يتقى ، وعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوي والأخروي ، قال تعالى : { وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ } ، وقال تعالى : { هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ } ، فهو سبحانه أهل أنْ يُخشى ويُهاب ويُجَلَّ ويُعَظَّمَ في صدورِ عباده حتَّى يعبدوه ويُطيعوه ، لما يستحقُّه من الإجلالِ والإكرامِ ، وصفاتِ الكبرياءِ والعظمة وقوَّةِ البطش ، وشِدَّةِ البأس . وتارةً تُضافُ التقوى إلى عقاب الله وإلى مكانه ، كالنار ، أو إلى زمانه ، كيوم القيامة ، كما قال تعالى : { وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } ، وقال تعالى : { فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } ، وقال تعالى : { وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ } ، وقال تعالى : { وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } ، { وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئا } .

ويدخل في التقوى الكاملة فعلُ الواجبات ، وتركُ المحرمات والشبهات ، وربما دَخَلَ فيها بعد ذلك فعلُ المندوبات ، وتركُ المكروهات ، وهي أعلى درجات التقوى ، قال الله تعالى : { الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } قال الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران:١٠٢].

ففي هذه الآية دلالة من رب العالمين عز وجل على أن ملازمة التقوى والطاعة سبب للموت على دين الإسلام الحق، الذي أكمله الله ورضيه ، كما **قال تعالى:** ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً**﴾[المائدة:٣]، ومعلوم أن من لازم رضا الله عز وجل أعين ووصل إلى مراده، فإن كان من الدعاة انتشر

خيره وعلمه وهكذا.

قال ابن عادل في «اللباب في علم الكتاب» (٥/ ٤٢٩): فقوله: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[آل عمران:١٠٢]، إشارة إلى التخويف من عقاب الله ، ثم جعله سبباً للتمسك بدين الله والاعتصام بحبله ، ثم أَرْدَفَه بالرغبة ، فقال : { واذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ } فكأنه قال : خَوْف الله يوجب ذلك ، وكثرة نعم الله توجب ذلك ، فلم تَبْقَ جهة من الجهات الموجبة للفعل إلا وهي حاصلة في وجوب انقيادكم لأمر الله تعالى ، ووجوب طاعتكم لحكمه . وقال: فصل قال بعض العلماء: هذه الآية منسوخة لأن حق تقاته أن يطاع، فلا يعصى طرفه عين، وأن يشكر فلا يكفر، وإن يذكر فلا ينسى، والعباد لا طاقة لهم بذلك، فنزل: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن:١٦]، فنسخت أول هذه الآية ولم ينسخ آخرها وهو قوله: ﴿وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢].

وقال جمهور المحققين: إن القول بهذا النسخ باطل، لما روي عن معاذ أنه ﷺ قال: «أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله»، فقلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا»، الحديث أخرجه البخاري (٧٣٧٣)، ومسلم (٥٠).

وهذا لا يجوز أن ينسخ، وإن معنى قوله: اتقوا الله حق تقاته أي كما يحق أن يتقى، وذلك بأن تجتنب جميع معاصيه، ومثل هذا لا يجوز أن ينسخ؛ لأنه إباحة لبعض المعاصي، وإذا كان كذلك صار معنى هذه الآية ومعنى قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن:١٦] واحد؛ لأن من اتقى الله ما استطاع فقد اتقاه حق تقاته، ولأن حق تقاته ما استطاع من التقوى؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، والوسع دون الطاقة، ونظير هذه الآية قوله

تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾[الحج:٧٨].

قوله: ﴿وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، المراد دوامهم على الإسلام، وذلك لأن الموت لا بد منه، وكأنه قال: دوموا على الإسلام إلى الموت.

وقال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [لأنفال:٢٩].

فالدلالة من الآية إن ملازمة الطاعة والبعد عن المعصية يجعل الله عز وجل لصاحبها بصيرة في التفريق بين الحق والباطل، فإذا كان هذا حاله لزم طريق المتقين وهو الحق، وخالف طريق المبطلين، فإن تم له ذلك وصل، وحصل له النصر والتمكين والعز المبين.

قال الآلوسي في «روح المعاني» (٥/ ٥٠٧): قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ﴾[لأنفال:٢٩] في كل ما تأتون وما تذرون يجعل لكم بسبب ذلك الإتقاء فرقانًا، أي هداية ونور في قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل، كما روى ابن جريج وابن زيد أو نصرًا يفرق بين المحق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين كما قال الفراء، أو نجاة في الدارين كما هو ظاهر كلام السدي، أم مخرجًا من الشبهات كما جاء عن مقاتل أو ظهورًا يشهر أمركم وينشر صيتكم كما يشعر به كلام محمد بن إسحاق، وكل المعاني ترجع إلى الفرق بين أمرين. أهـ

وقال ابن القيم كما في «بدائع التفسير» (٢/ ٣٣٥): وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة والنصر والعلم والنور الفارق بين الحق والباطل وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب وذلك غاية التيسير. أهـ

قال ابن القيم رحمه الله في «الفوائد» (١٤٧): فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى

فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى وكلما فوت خطا من التقوى فاته حظ من الهداية بحسبه فكلما اتقى زاد هداه وكلما اهتدى زادت تقواه **قال تعالى:** ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[المائدة: ١٥-١٦]، **وقال تعالى:** ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾[الشورى:١٣]، وقال: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾[الأعلى:١٠]، وقال: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾[غافر:١٣]، وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾، فهداهم أولا للإيمان فلما آمنوا هداهم للإيمان هداية بعد هداية ونظير هذا قوله: ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾، ومن الفرقان ما يعطيهم من لنور الذي يفرقون به بين الحق والباطل والنصر والعز الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل فسر الفرقان بهذا وبهذا. أهـ

وقال (صـ٢٠١) حقيقة التقوى: والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح **قال تعالى:** ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[الحج:٣٢]، وقال: ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ وقال النبي التقوى ههنا وأشار إلى صدره فالكيس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة وتجريد القصد وصحة النية مع العمل القليل أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق فان العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتطيب السير.

وقال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ * وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾[الطلاق: ٢-٤].

هذه آيات عظيمات فيها بيان من الله عز وجل أن أعظم أسباب المخارج في الجوانب الدينية والدنيوية، وملاك ذلك هو تقوى الله عز وجل وملازمة طاعته في السر والعلن.

وقال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨]، وقال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه:١٣٢].

ولهذا لما كان الأنبياء هم الأتقياء الأصفاء الأتقياء فقد أبقى الله ذكرهم وأعز قدرهم، وايدهم ونصرهم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣]، سواءً كان ذلك في الحروب أو في غيرها، وقد تقدم بما يغني عن الإعادة الكلام حول نصر الله عز وجل للمؤمنين وتأييدهم وتسديدهم.

وأسباب زيادة الإيمان والهداية متوفرة في هذه الصنف، فرب العزة يقول: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨]، ويقول: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ١-٢]، ثم ذكر صفاتهم عز وجل فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[البقرة:٣].

وهي سبب للرحمة قال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [لأعراف:٦٣].

ومعلوم أن الله عز وجل قال: »مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ«، الحديث عن أبي

هريرة عند البخاري.

ومن أسباب المحبة التقوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[التوبة:٧]، وفي حديث سعد بن أبي وقاص عند مسلم (٢٩٦٥) قال: قال رسول ﷺ: «أن الله يحب العبد التقي الغني والخفي».

وأخبر الله عز وجل في آيات كثيرات عما أعد للمتقين.

وما ذلك إلا لأنهم استمروا في هذا الطريق حتى آتاهم الموت.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٥].

وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات:٤١].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً﴾ [مريم:٦٣].

وقال: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾[الفرقان:١٥].

وقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء:٩٠].

وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان:٥١] ... الآيات.

وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[القمر: ٥٤-٥٥]، في آيات كثيرات جدًا.

وأخرج الترمذي (٦١٦): عَنْ أَبِي أُمَامَةَ يَقُولُ: سَمِعْتَ رَسُولَ الله ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ فَقَالَ: «اتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ

أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ«، قَالَ: فَقُلْتُ لِأَبِي أُمَامَةَ: مُنْذُ كَمْ سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ هَذَا الْحَدِيثِ؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ وَأَنَا ابْنُ ثَلَاثِينَ سَنَةً.

وهي من أفضل الأعمال المؤدية إلى دخول الجنة، قال ﷺ حين سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: «تقوى الله وحسن الخلق«، أخرجه الترمذي (٦١٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والمتقون هم أهل الكرامة، **قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾** [الحجرات:١٣].

وقال رسول الله ﷺ كما في حديث أبي هريرة في (٣٣٧٤)، ومسلم ( ): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قِيلَ: يَا رَسُولَ الله مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: أَتْقَاهُمْ، فَقَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: فَيُوسُفُ نَبِيُّ الله ابْنُ نَبِيِّ الله ابْنِ نَبِيِّ الله ابْنِ خَلِيلِ الله، قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: »فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِ؟ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا«، قَالَ أَبُو أُسَامَةَ وَمُعْتَمِرٌ عَنْ عُبَيْدِ الله عَنْ سَعِيدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ.

قال ابن حبان في «روضة العقلاء« (٣٧-٣٨): أنشدني عبد العزيز يعني سليمان الأبرش:

إذا أنتسب الناس كان التقي ... بتقواه أفضل من ينتسب

ومن يتق الله يكسب به ... من الحظ أفضل ما يكتسب

ومن يتخذ سببًا للنجاة ... فإن تقوى الله خير سبب

وكان رسول الله ﷺ يوصي بها ويشدد عليها في كثير من مواعظه، كما في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه عند أبي داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦): عَنْ الْعِرْبَاضِ

بْنِ سَارِيَةَ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: »أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ«.

وكان رسول الله ﷺ يلازم سؤال الله عز وجل إيها كما عند مسلم (٢٧٢١) من حديث ابن مسعود: »اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغني«.

وهو وصية الله عز وجل للأولين والآخرين، **قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾**[النساء:١٣١].

قال ابن رجب في »شرح الأربعين« (١/ ٣٩٨): فهذه الوصية وصية عظيمة جامعة لحقوق الله وحقوق عباده.أهـ

وهي هدى النبي ﷺ قال: »والله إني لأتقاكم لله وأعلمكم بما أتقي« الحديث في الصحيح.

ورحم الله ابن الوردي إذ يقول في لاميته:

اتق الله فتقوى الله ما ... جاورت قلب امرئ إلا وصل

ليس من يقطع طرقًا بطلًا ... إنما من يتقى الله البطل

وما أجمل ما ينسب إلى عمير بن الحمام:

ركضًا إلى الله بغير زاد ... إلا التقى وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد ... وكل زاد عرضة النفاد

غير التقى والبر والرشاد

»الإصابة« (٢/ ٤٥٧).

وقال: طلق ابن جيب كما في »جامع العلوم والحكم« (١/ ٤٠٥): التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجوا ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله. أهـ

وتمام التقوى أن تكون كما قال ابن المعتز:

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها فهو التقى

وأصنع كماش فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى

أهـ من »جامع العلوم والحكم« (١/ ٤٠٢).

ولقد أحسن من قال:

من عرف الله فلم تغنه ... معرفة الله لذاك الشقى

ما يصنع العبد بعز الغني ... والعز كل العز للمتقي

. أهـ

الثامنة والأربعون

بذكر الله ترتاح القلوب**ودنيانا بذكراه تطيب

هو ديدن الأنبياء والصالحين ومؤنس الوحيد وأكبر من كل شيء، ولذكر الله أكبر: إنه الطمئنينة: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[الرعد:٢٨]، إنه السكينة وسبب النصر

والثبات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [لأنفال:٤٥].

به ترفع الغفلة: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [لأعراف:٢٠٥].

وصاحبه محروس من الشيطان: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

وكم يحاول الشيطان في الصد عنه وغيره من الطاعات.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١].

وأخرج الإمام التارمذي (٢٨٦٣): عَنِ الْحَارِثَ الْأَشْعَرِيَّ حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: »إِنَّ اللهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا فَقَالَ عِيسَى: إِنَّ اللهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ وَإِمَّا أَنْ آمُرَهُمْ، فَقَالَ يَحْيَى: أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَامْتَلَأَ الْمَسْجِدُ وَتَعَدَّوْا عَلَى الشُّرَفِ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ: أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ، فَقَالَ هَذِهِ دَارِي وَهَذَا عَمَلِي فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ، فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا فَإِنَّ اللهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، وَآمُرُكُمْ

بِالصِّيَامِ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ فَكُلُّهُمْ يَعْجَبُ أَوْ يُعْجِبُهُ رِيحُهَا، وَإِنَّ رِيحَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ الْعَدُوُّ فَأَوْثَقُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ فَقَالَ أَنَا أَفْدِيهِ مِنْكُمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ فَفَدَى نَفْسَهُ مِنْهُمْ، وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا، حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ«، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: »وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، وَالْجِهَادُ، وَالْهِجْرَةُ، وَالْجَمَاعَةُ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ، وَمَنِ ادَّعَى دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ«، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟ قَالَ: »وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ فَادْعُوا بِدَعْوَى اللهِ الَّذِي سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللهِ«.

وهل بنيت المساجد إلا للذكر، **قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** [البقرة:١١٤].

وأخرج مسلم رحمه الله (٢٨٥): عَنْ أَنَسِ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: مَهْ مَهْ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »لَا تُزْرِمُوهُ دَعُوهُ« فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: »إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلَا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ«، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: فَأَمَرَ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ.

ودوام الذكر للرب عز وجل هو طريقة أصحاب العقول السليمة والفطر المستقيمة، والاعتقادات القومية، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

والذي يتأثر بالذكر ويوجل قلبه هو المؤمن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[الأنفال:٢-٤].

وصاحب الذكر من المؤمنين حقًا كما تقدم في الآية.

وكم من الأجور العظيمة التي أعدها الله عز وجل لذاكرين قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب:٣٥].

والنفور منه علامة النفاق، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾ [الاسراء: ٤٥-٤٦].

شرعه الله عز وجل بعد العبادات، وما شرعت العبادات إلا لذكره، قال تعالى:

﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾[طه:١٤].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾ [النساء:١٠٣].

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ١٩٨-٢٠٣].

قال ابن القيم في «المدارج» (٢/ ٤٤٠-٤٤١): وهي منزلة القوم الكبرى التي منها يتزودون وفيها يتجرون وإليها دائما يترددون

و الذكر منشور الولاية الذي من أعطيه اتصل ومن منعه عزل وهو قوت قلوب القوم الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبورا وعمارة ديارهم التى إذا تعطلت عنه صارت بورا وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطريق ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب والسبب الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب

إذا مرضنا تداوينا بذكركم فنترك الذكر أحيانا فننتكس به يستدفعون الآفات

ويستكشفون الكربات وتهون عليهم به المصيبات إذا أظلمهم البلاء فإليه ملجؤهم وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم فهو رياض جنتهم التي فيها يتقبلون ورءوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون يدع القلب الحزين ضاحكا مسرورا ويوصل الذاكر إلى المذكور بل يدع الذاكر مذكورا

وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة و الذكر عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة بل هم يأمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال قياما وقعودا وعلى جنوبهم فكما أن الجنة قيعان وهو غراسها فكذلك القلوب بور وخراب وهو عمارتها وأساسها

وهو جلاء القلوب وصقالها ودواؤها إذا غشيها اعتلالها وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقا ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقا وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه نسي في جنب ذكره كل شيء وحفظ الله عليه كل شيء وكان له عوضا من كل شيء

به يزول الوقر عن الأسماع والبكم عن الألسن وتنقشع الظلمة عن الأبصار زين الله به ألسنة الذاكرين كما زين بالنور أبصار الناظرين فاللسان الغافل كالعين العمياء والأذن الصماء واليد الشلاء وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته

والذاكر منصور بنصر الله عز وجل، ومحفوظ بحفظ الله عز وجل، وتضاعف له الأجور العظيمة والعطايا الجزيلة من رب كريم وملك عظيم.

وأخرج الترمذي (٣٣٧٧): عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: »أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟« قَالُوا:

بَلَى، قَالَ: »ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى«، قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه: مَا شَيْءٌ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ.

وأخرج الإمام الترمذي (٣٣٧٥): عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ: »لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ«.

وأخرج البخاري (٦٤٠٨) واللفظ له ومسلم (٢٦٨٩): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »إِنَّ للهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ، قَالَ: فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ: مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يَقُولُونَ يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ لَا وَاللهِ مَا رَأَوْكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: يَقُولُونَ لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا، قَالَ: يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟ قَالَ: يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ: يَقُولُ فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً، قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قَالَ: يَقُولُونَ مِنَ النَّارِ، قَالَ: يَقُولُ وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ: يَقُولُ فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً، قَالَ: فَيَقُولُ فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، قَالَ: يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: هُمُ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ«.

وأخرج مسلم ( ): عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: الله مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟ قَالُوا: الله مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ الله ﷺ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي، وَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ:»مَا أَجْلَسَكُمْ؟« قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ وَمَنَّ عَلَيْنَا بِكَ، قَالَ: »الله مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ«، قَالُوا: الله مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَلِكَ، قَالَ: »أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَإِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ«.

ولعظم شأنه كان رسول الله ﷺ يسأل الله عز وجل أن يجعله من أهله، كما في حديث ابن عباس عند الترمذي (٣٥٥١)، وأبي داود (١٥١٠) واللفظ له: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو يَقُولُ: »رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ الْهُدَى لِي، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، لَكَ مُخْبِتًا، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي«.

وقال لمعاذ: »والله إني لأحبك، فلا تدع تبدر كل الصلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك« أخرجه أبو داود (١٥٢٢) من حديث معاذ رضي الله عنه.

وصاحبه يظل بظل الله عز وجل في يوم المعاد، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: »سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللهُ

فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ«.

وملازميه هم السابقون لحديث أبي هريرة ﷺ عند مسلم (٢٦٧٦) قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فمر على جبل يقال له جمدان، فقال: »سيروا هذا جمدان سبق المفردون«، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: »الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات«.

وهو داب النبي ﷺ قالت عائشة ﷺا: كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه.

أخرج مسلم (٣٧٣).

وأهله محفوفون بالملائكة محاطون بالسكينة مرحومون بالرحمة،: « عَنِ الأَغَرِّ أَبِى مُسْلِمٍ أَنَّهُ قَالَ أَشْهَدُ عَلَى أَبِى هُرَيْرَةَ وَأَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى النَّبِىِّ -ﷺ- أَنَّهُ قَالَ « لاَ يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ إِلاَّ حَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ اللهَّ فِيمَنْ عِنْدَهُ ».

« الحديث أخرجه مسلم (٢٧٠٠).

وأخرج أبو داود (٣٦٦٧): عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »لَأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللهَ تَعَالَى مِنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتِقَ أَرْبَعَةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَعِيلَ، وَلَأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللهَ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ

الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ مَنْ أَنْ أَعْتِقَ أَرْبَعَةً«، والذاكر حي من الأحياء والغافل ميت.

قال ﷺ: »مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت« أخرجه البخاري (٦٤٠٧) واللفظ له، ومسلم (٧٧٩)، عن أبي موسى رضي الله عنه.

وأخرج مسلم (٢٧٥٠): عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ قَالَ: وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ الله مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله ﷺ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَالله إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: »وَمَا ذَاكَ؟« قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: »وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً« ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

ولو لم يكن من فضله إلا أن يذكرك الله عز وجل فكفى بها مزية، وكفى بها مرغبة، وكفى بها عونًا في الوصول إلى المطلوب، حيث يكون الله معك ناصرًا ومعينًا، ومؤيدًا وموفقًا، قال رسول الله ﷺ: »أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً«، أخرجه مسلم ( ) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه البخاري (٧٥٣٦) من

حديث أنس رضي الله عنه.

فلازم أيها المسلم الذكر، فإنه أمر الله عز وجل لي ولك، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].

قال ابن القيم في «الفوائد» (٤/ ٤): (فصل أهمية الذكر والشكر): فصل مبنى الدين على قاعدتين الذكر والشكر قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ﴾[البقرة:١٥٢]، وقال النبي لمعاذ والله اني لأحبك فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة اللهم أعني علي ذكرك وشكرك وحسن عبادتك وليس المراد بالذكر مجرد الذكر اللسان بل الذكر القلبى واللسانى وذكره يتضمن ذكر أسمائه وصفاته وذكر أمره ونهيه وذكره بكلامه وذلك يستلزم معرفته والايمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله والثناء عليه بأنواع المدح وذلك لا يتم الا بتوحيده فذكره الحقيقى يستلزم ذلك كله ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه الي خلقه، وأما الشكر فهو القيام بطاعته والتقرب اليه بأنواع محابه ظاهرا وباطنا وهذان الأمران هما جماع الدين فذكره مستلزم لمعرفته وشكره متضمن لطاعته وهذان هما الغاية التي خلق لأجلها الجن والانس والسموات والارض ووضع لاجلها الثواب والعقاب وأنزل الكتب وارسل الرسل وهى الحق الذي به خلقت السماوات والأرض وما بينهما وضدها هو الباطل والعبث الذي يتعالى ويتقدس عنه وهو ظن أعدائه به قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ وقال بعد ذكر آياته في أول سورة يونس: ﴿ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وقال: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾[القيامة:٣٦]، وقال ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا

وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾[المؤمنون:١١٥]، وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات:٥٦]، ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾[الطلاق:١٢]، وقال: ﴿ جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[المائدة:٩٧]، فثبت بما ذكر أن غاية الخلق والأمر أن يذكر وأن يشكر يذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر وهو سبحانه ذاكر لمن ذكره شاكر لمن شكره فذكره سبب لذكره وشكره سبب لزيادته من فضله فالذكر للقلب واللسان والشكر للقلب محبة وإنابة وللسان ثناد وحمد وللجوارح طاعة وخدمة، وأعلم أن أفضل الذكر ما توطأ عليه القلب واللسان.

قال ابن القيم في «الفوائد» (٣٠): من الذاكرين من يبتدئ بذكر اللسان وإن كان على غفلة ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطئا على الذكر ومنهم من لا يرى ذلك ولا يبتدى ء على غفلة بل يسكن حتى يحضر قلبه فيشرع في الذكر بقلبه فإذا قوى استتبع لسانه فتواطئا جميعا فالأول ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه والثاني ينتقل من قلبه إلى لسانه من غير أن يخلو قلبه منه بل يسكن أولا حتى يحس بظهور الناطق فيه فإذا أحس بذلك نطق قلبه ثم انتقل النطق القلبي إلى الذكر اللساني ثم يستغرق في ذلك حتى يجد كل شيء منه ذاكرا وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان، وكان من الأذكار النبوية وشهد الذاكر معانيه ومقاصده. أهـ

الذكر أفضل من الدعاء

وقال رحمه الله تعالى في «الوابل الصيب» (١٨٢-١٨٩): (فصل في بيان أن الذكر أفضل

من الدعاء؛ لأن الذكر ثناء على الله عز وجل بجميل اوصافه والائه واسمائه والدعاء سؤال العبد حاجته فاين هذا من هذا ولهذا جاء في الحديث من شغله ذكري عن مسالتي اعطيته افضل ما اعطي السائلين ولهذا كان المستحب في الدعاء ان يبدا الداعي بحمد الله تعالى والثناء عليه بين يدي حاجته ثم يسال حاجته كما في حديث فضالة بن عبيد ان رسول الله ﷺ سمع رجلا يدعو في صلاته لم يحمد الله تعالى ولم يصلي على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ عجل هذا ثم دعاه فقال له او لغيره اذا صلى احدكم فليبدا بتمجيد ربه عز وجل والثناء عليه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يدعو بعد بما شاء رواه الامام احمد والترمذي وقال حديث حسن صحيح ورواه الحاكم في صحيحه وهكذا دعاء ذي النون عليه السلام قال فيه النبي ﷺ دعوة اخي ذي النون ما دعا بها مكروب الا فرج الله كربته لااله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين.

وفي الترمذي دعوة اخي ذي النون اذ دعا وهو في بطن الحوت:) لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين (فانه لم يدع بها مسلم قط الا استجاب له .

وهكذا عامة الادعية النبوية على قائلها افضل الصلاة والسلام ومنه قوله ﷺ في دعاء الكرب لا اله الا الله العظيم الحليم لا اله الا الله رب العرش العظيم لااله الا رب السموات ورب الارض ورب العرش الكريم ومنه حديث بريدة الاسلمي الذي رواه اهل السنن وابن حبان في صحيحه ان رسول الله ﷺ سمع رجلا يدعو وهو يقول اللهم اني اسالك باني اشهد انك انت الله لا اله الا انت الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد فقال والدي نفسي بيده لقد سال الله باسمه الاعظم الذي دعي به اجاب واذا سئل به اعطى وروى ابو داود والنسائي من حديث انس انه كان مع النبي

ﷺ جالسا ورجل يصلي ثم دعا اللهم اني اسالك بان لك الحمد ولا اله الا انت المنان بديع السموات والارض ياذا الجلال والاكرام يا حي ياقيوم فقال للنبي ﷺ لقد دعا الله باسمه الاعظم الذي دعي به اجاب وإذا سئل به اعطى فاخبر النبي ﷺ ان الدعاء يستجاب اذا تقدمه هذا الثناء والذكر وانه اسم الله الاعظم فكان ذكر الله عز وجل والثناء عليه انجح ما طلب به العبد حوائجه

وهذه فائدة اخرى من فوائد الذكر والثناء انه يجعل الدعاء مستجابا فالدعاء الذي تقدمه الذكر والثناء افضل واقرب الى الاجابة من الدعاء المجرد فان انضاف الى ذلك اخبار العبد بحاله ومسكنته وافتقاره واعترافه كان ابلغ في الاجابة وافضل فانه يكون قد توسل المدعو بصفات كماله واحسانه وفضله

وعرض بل صرح بشدة حاجته وضرورته وفقره ومسكنته فهذا المقتضى منه واوصاف المسؤول مقتضى من الله فاجتمع المقتضي من السائل والمقتضي من المسؤول في الدعاء وكان ابلغ وألطف موقعا واتم معرفة وعبودية

وانت ترى في المشاهد ولله المثل الاعلى ان الرجل اذا توسل الى ما يريد معروفة بكرمة وجوده وبره وذكر حاجته هو وفقره ومسكنته كان اعطف لقلب المسؤول واقرب لقضاء حاجته فاذا قال له انت جودك قد سارت به الركبان وفضلك كالشمس لاتنكر ونحو ذلك وقد بلغت بي الحاجة والضرورة مبلغا لا صبر معه ونحو ذلك كان ابلغ في قضاء حاجته من ان يقول ابتداء اعطني كذا وكذا فاذا عرفت هذا فتامل قول موسى ﷺ في دعائه) رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير (وقول ذي النون ﷺ في دعائه: ﴿**لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[الأنبياء:٨٧]، وقول ابينا ادم ﷺ: ربنا ظلمنا انفسنا

وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكون من الخاسرين وفي الصحيحين ان ابا بكر الصديق قال يارسول الله علمني دعاء ادعو به في صلاتي فقال قل اللهم اني ظلمت نفسي ظلما كثيرا وانه لا يغفر الذنوب الا انت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني انك انت الغفور الرحيم فجمع في هذا الدعاء الشريف العظيم القدر بين الاعتراف بحالة والتوسل الى ربه عز وجل بفضله وجوده وانه المنفرد بغفران الذنوب ثم سال حاجته بعد التوسل بالامرين معا فهكذا ادب الدعاء واداب العبودية

الفصل الثالث قراءة القرءان افضل من الذكر والذكر افضل من الدعاء هذا من حيث النظر لكل منهما مجردا وقد يعرض للمفضول ما يجعله اولى من الفاضل بل يعينه فلا يجوز ان يعدل عنه الى الفاضل وهذا كالتسبيح في الركوع والسجود فانه افضل من قراءة القران فيهما بل القراءة فيهما منهي عنها

تحريم او كراهة وكذلك التسميع والتحميد في محلهما افضل من القراءة وكذلك التشهد وكذلك رب اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني بين السجدتين افضل من القراءة وكذلك الذكر عقيب السلام من الصلاة ذكر التهليل والتسبيح والتكبير والتحميد افضل من الاشتغال عنه بالقراءة وكذلك اجابة المؤذن والقول كما يقول افضل من القراءة

وان كان فضل القران على كل كلام كفضل الله تعالى على خلقه لكن لكل مقام مقال متى فات مقاله فيه وعدل عنه الى غيره اختلت الحكمة وفقدت المصلحة المطلوبة منه

وهكذا الاذكار المقيدة بمحال مخصوصة افضل من القراءة المطلقة والقراءة المطلقة افضل من الاذكار المطلقة اللهم الا ان يعرض للعبد مايجعل الذكر او الدعاء انفع له من

قراءة القران مثاله ان يتفكر في ذنوبه فيحدث ذلك له توبة من استغفار او يعرض له ما يخاف اذاه من شياطين الانس والجن فيعدل الى الاذكار والدعوات التي تحصنه وتحطه وكذلك ايضا قد يعرض للعبد حاجة ضرورية اذا اشتغل عن سؤالها او ذكر لم يحضر قلبه فيهما واذا اقبل على سؤالها والدعاء اليها اجتمع قلبه كله على الله تعالى واحدث له تضرعا وخشوعا وابتهالا فهذا يكون اشتغاله بالدعاء والحالة هذه انفع وان كان كل من القراءة والذكر افضل واعظم اجرا

وهذا باب نافع يحتاج الى فقه نفس وفرقان بين فضيلة الشئ في نفسه وبين فضيلته العارضة فيعطي موضع وللرجل موضع وللماء موضع وللحم موضع وحفظ المراتب هو من تمام الحكمة التي هي نظام الامر والنهي والله تعالى الموفق

وهكذا الصابون والاشنان انفع للثوب في وقت والتجمير وماء الورد وكيه انفع له في وقت وقلت لشيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يوما سئل بعض اهل العلم ايما انفع للعبد التسبيح او الاستغفار فقال اذا كان الثوب نقيا فالبخور وماء الورد انفع له وان كان دنسا فالصابون والماء الحار انفع له فقال لي رحمه الله تعالى فكيف والثياب لا تزال دنسة ومن هذا الباب أن سورة: ﴿**قل هو الله أحد**﴾ تعدل ثلث القران ومع هذا فلا تقوم مقام ايات المواريث والطلاق والخلع والعدد ونحوها بل هذه الايات في وقتها وعند الحاجة اليها انفع من تلاوة سورة الاخلاص.

ولما كانت الصلاة مشتملة على القراءة والذكر والدعاء وهي جامعة لاجزاء العبودية على اتم الوجوه كانت افضل من كل من القراءة والدكر والدعاء بمفرده لجمعها ذلك كله مع عبودية سائر الاعضاء فهذا اصل نافع جدا يفتح للعبد باب معرفة مراتب

الاعمال وتنزيلها منازلها لئلا يشتغل بمفضولها عن فاضلها فيربح ابليس الفضل الذي بينهما او ينظر الى فاضلها فيشتغل به عن مفضولها ان كان ذلك وقته فتفوته مصلحته بالكلية لظنه ان اشتغاله بالفاضل اكثر ثوابا واعظم اجرا وهذا يحتاج الى معرفة بمراتب الاعمال وتفاوتها ومقاصدها وفقه في اعطاء كل عمل منها حقه وتنزله في مرتبته وتفويته لما هو اهم منه او تفويت ما هو اولى منه وافضل لامكان تداركه والعود اليه وهذا المفضول ان فات لا يمكن تداركه فالاشتغال به اولى وهذا كترك القراءة لرد السلام وتشميت العاطس وان كان القران افضل لانه يمكنه الاشتغال بهذا المفضول والعود الى الفاضل بخلاف ما اذا اشتغل بالقراءة فاتته مصلحة رد السلام وتشميت العاطس وهكذا سائر الاعمال اذا تزاحمت والله تعالى الموفق.

أنواع الذكر

قال ابن القيم في «الوابل الصيب» (١٧٨-١٨١): الذكر نوعان احدهما ذكر اسماء الرب تبارك وتعالى وصفاته والثناء عليه بها وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق به تبارك وتعالى وهذا ايضا نوعان:

أحدهما: انشاء الثناء عليه بها من الذاكر وهذا النوع هو المذكور في الاحاديث نحو سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر وسبحان الله وبحمده ولا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير ونحو ذلك فافضل هذا النوع اجمعه للثناء واعمه نحو سبحان الله عدد خلقه فهذا افضل من مجرد سبحان الله وقولك الحمد لله عدد ما خلق في السماء وعدد ما خلق في الارض وعدد ما بينهما وعدد ما هو خالق افضل من مجرد قولك الحمد لله وهذا في حديث جويرية ان النبي ﷺ قال لها

لقد قلت بعدك اربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن سبحان الله عدد خلقه سبحان الله رضاء نفسه سبحان الله زنة عرشه سبحان الله مداد كلماته رواه مسلم .

وفي الترمذي وسنن ابي داود عن سعد بن ابي وقاص انه دخل مع رسول الله على امراة بين يديها نوى او حصى تسبح بها فقال سبحان الله عدد ما خلق في السماء وسبحان الله عدد ماخلق في الارض وسبحان الله عدد ما بين ذلك وسبحان الله عدد ماهو خالق والله اكبر مثل ذلك والحمد لله مثل ذلك ولا اله الا الله مثل ذلك ولا حول ولا قوة الا بالله مثل ذلك.

الثاني: الخبر عن الرب تعالى باحكام اسمائه وصفاته نحو قولك الله عز وجل يسمع اصوات عباده ويرى حركاتهم ولا تخفي عليه خافية من اعمالهم وهو ارحم بهم من ابائهم وامهاتهم وهو على كل شئ قدير وهو افرح بتوبة عبده من الفاقد راحلته ونحو ذلك وافضل هذا النوع الثناء.

عليه بما اثنى به على نفسه وبما اثنى به رسول الله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تشبيه ولا تمثيل وهذا النوع ايضا ثلاثة انواع حمد وثناء ومجد فالحمدلله الاخبار عنه بصفات كماله سبحانه وتعالى مع محبته والرضاء به فلا يكون المحب الساكت حامدا ولا المثني بلا محبة حامدا حتى تجتمع له المحبة والثناء فان كرر المحامد شيئا بعد الشئ كانت ثناء فان كان المدح بصفات الجلال والعظمة والكبرياء والملك كان مجددا وقد جمع الله تعالى لعبده الانواع الثلاثة في اول الفاتحة فإذا قال العبد) الحمد لله رب العالمين (قال الله حمدني عبدي وإذا قال الرحمن الرحيم قال اثنى علي عبدي واذا قال) مالك يوم الدين (

قال مجدني عبدي .

النوع الثاني من الذكر ذكر امره ونهيه واحكامه وهو ايضا نوعان احدهما ذكره بذلك اخبارا عنه امر بكذا ونهى عنه كذا واحب كذا وسخط كذا ورضى كذا.

والثاني ذكره عند امره فيبادر اليه وعند نهيه فيهرب منه فذكر امره ونهيه شئ وذكره عند امره ونهيه شئ اخر فاذا اجتمعت هذه الأنواع، للذاكر فذكره افضل الذكر واجله وأعظمه فائدة فهذا الذكر من الفقه الاكبر وما دونه أفضل الذكر اذا صحت فيه النية.

ومن ذكره سبحانه وتعالى ذكر الائه وانعامه واحسانه وايادية ومواقع فضله على عبيده وهذا ايضا من أجل أنواع الذكر فهذه خمسة انواع وهي تكون بالقلب واللسان تارة وذلك افضل الذكر وبالقلب وحده تارة وهي الدرجة الثانية وباللسان وحده تارة وهي الدرجة الثالثة فافضل الذكر ما تواطا عليه القلب واللسان وانما كان ذكر القلب وحده افضل من ذكر اللسان وحده لان ذكر القلب يثمر المعرفة ويهيج المحبة ويثير الحياء ويبعث على المخافة ويدعو الى المراقبة ويزع عن التقصير في الطاعات والتهاون في المعاصي والسيئات وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئا منها فثمرة ضعيفة . أهـ

الأذكار التي ينبغي للمسلم المحافظة عليها ما استطاع إلى ذلك سبيلا

١- الأذكار المطلقة المضاعفة:

أخرج مسلم في «صحيحه» (٢٧٢٦): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ جُوَيْرِيَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: »مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟« قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ

ﷺ: »لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ«، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَأَبُو كُرَيْبٍ وَإِسْحَقُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ بِشْرٍ عَنْ مِسْعَرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي رِشْدِينَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ جُوَيْرِيَةَ قَالَتْ: مَرَّ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْغَدَاةِ أَوْ بَعْدَ مَا صَلَّى الْغَدَاةَ فَذَكَرَ نَحْوَهُ غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ خَلْقِهِ سُبْحَانَ اللهِ رِضَا نَفْسِهِ سُبْحَانَ اللهِ زِنَةَ عَرْشِهِ سُبْحَانَ اللهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ.

وأخرج مسلم: عَنْ سَعْدٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: »أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ فِي الْيَوْمِ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟« قَالَ: وَمَنْ يُطِيقُ ذَلِكَ؟ قَالَ: »يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ وَتُمْحَى عَنْهُ أَلْفُ سَيِّئَةٍ«.

وأخرج الشيخان: عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ قَالَ حَجَّاجٌ أَوَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

وفيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم«.

وفي مسلم: عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَآنِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا«.

وفي »الصحيحين«: عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ.

البخاري (٦٤٠٤)، ومسلم ( ).

وعن أبي أيوب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كأنما أعتق أربعة من ولد إسماعيل».

ولأحمد: عَنْ أبي سلمى مَوْلَى رَسُولِ الله ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: »بَخٍ بَخٍ خَمْسٌ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ، أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ الله، وَالْحَمْدُ للهِ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى فَيَحْتَسِبُهُ وَالِدَاهُ«، وَقَالَ: »بَخٍ بَخٍ لِخَمْسٍ مَنْ لَقِيَ اللهَ مُسْتَيْقِنًا بِهِنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ: يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَبِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْحِسَابِ«.

وفي مسلم (٢٦٩٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر: أحب إلي مما طلعت عليه الشمس».

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند الترمذي وغيره وفيه: «اقرأ أمتك السلام وأخبرهم أن الجنة قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» والحديث حسن.

وعند أحمد والترمذي (٣٥٩٠) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قال عبد لا إله إلا قط مخلصًا إلا فتحت له أبواب السماء حتى يفضي إلى العرش».

الحديث في «الصحيح المسند» للإمام الوادعي.

وعن عبادة بن الصامت عند البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨) قال: مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى

الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ عَمَلٍ.

وفي البخاري (٩٩): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ الله مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: »لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ«.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: »من قال: سبحان الله وبحمده في يومه مئة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر«.

وفي مسلم: عَنْ عَائِشَةَ تَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: »إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثِ مِائَةِ مَفْصِلٍ، فَمَنْ كَبَّرَ اللهَ وَحَمِدَ اللهَ وَهَلَّلَ اللهَ وَسَبَّحَ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ اللهَ وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ شَوْكَةً أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلَاثِ مِائَةِ السُّلَامَى، فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنْ النَّارِ، قَالَ أَبُو تَوْبَةَ: وَرُبَّمَا قَالَ: يُمْسِي،

وقال ﷺ: »إِنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ الله التَّسْبِيحَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّحْمِيدَ يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ تُذَكِّرُ بِصَاحِبِهَا أَمَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَوْ لَا يَزَالَ لَهُ مَنْ يُذَكِّرُ بِهِ« الحديث أخرجه أحمد عن النعمان بن بشير وهو في »الصحيح المسند«.

وأخرج أحمد (٣/ ١٥٢)، والبخاري في »الأدب« (٦٣٤): عَنْ أَنَسٌ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَخَذَ غُصْنًا فَنَفَضَهُ فَلَمْ يَنْتَفِضْ، ثُمَّ نَفَضَهُ فَلَمْ يَنْتَفِضْ، ثُمَّ نَفَضَهُ فَانْتَفَضَ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: »إِنَّ سُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ تَنْفُضُ الْخَطَايَا كَمَا تَنْفُضُ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا«.

وأخرج أحمد (١/ ١٦٣)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٣٨)، وهو في «الصحيحة» (٦٥٣): عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَدَّادٍ: أَنَّ نَفَرًا مِنْ بَنِي عُذْرَةَ ثَلَاثَةً أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ فَأَسْلَمُوا، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ يَكْفِنِيهِمْ؟ قَالَ طَلْحَةُ: أَنَا، قَالَ: فَكَانُوا عِنْدَ طَلْحَةَ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْثًا فَخَرَجَ أَحَدُهُمْ فَاسْتُشْهِدَ، قَالَ: ثُمَّ بَعَثَ بَعْثًا فَخَرَجَ فِيهِمْ آخَرُ فَاسْتُشْهِدَ، قَالَ: ثُمَّ مَاتَ الثَّالِثُ عَلَى فِرَاشِهِ، قَالَ طَلْحَةُ: فَرَأَيْتُ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ الَّذِينَ كَانُوا عِنْدِي فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ الْمَيِّتَ عَلَى فِرَاشِهِ أَمَامَهُمْ، وَرَأَيْتُ الَّذِي اسْتُشْهِدَ أَخِيرًا يَلِيهِ، وَرَأَيْتُ الَّذِي اسْتُشْهِدَ أَوَّلَهُمْ آخِرَهُمْ، قَالَ: فَدَخَلَنِي مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »وَمَا أَنْكَرْتَ مِنْ ذَلِكَ لَيْسَ أَحَدٌ أَفْضَلَ عِنْدَ اللهِ مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَمَّرُ فِي الْإِسْلَامِ لِتَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَهْلِيلِهِ«.

إلى غير ذلك من أراد التزود فليراجع كتب الأذكار والدعوات.

التاسعة والأربعون: بعد النظر سبب للظفر

على الداعي إلى الله عز وجل أن يكون عنده بعد نظر، فإن ذلك سبب لظفره، فبعد النظر يبعد عن الطيشان والتسرع ويلازم صاحبه الرفق والتؤدة والنظر في عواقب الأمور، وإليك بعض الأمثلة على هذه الوسيلة الجليلة.

أخرج البخاري (٤٥٢٧)، ومسلم (١٥١): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ؛ إِذْ قَالَ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ، قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي«.

قال النووي رحمه الله في شرح الحديث: اخْتَلَفَ الْعُلَمَاء فِي مَعْنَى نَحْنُ أَحَقّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيم عَلَى أَقْوَال كَثِيرَة أَحْسَنهَا وَأَصَحّهَا مَا قَالَهُ الْإِمَام أَبُو إِبْرَاهِيم الْمُزَنِيُّ صَاحِب الشَّافِعِيّ

وَجَمَاعَات مِنْ الْعُلَمَاء : مَعْنَاهُ أَنَّ الشَّكّ مُسْتَحِيل فِي حَقّ إِبْرَاهِيم فَإِنَّ الشَّكّ فِي إِحْيَاء الْمَوْتَى لَوْ كَانَ مُتَطَرِّقًا إِلَى الْأَنْبِيَاء لَكُنْت أَنَا أَحَقّ بِهِ مِنْ إِبْرَاهِيم وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي لَمْ أَشُكّ فَاعْلَمُوا أَنَّ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام لَمْ يَشُكّ ، وَإِنَّمَا خُصَّ إِبْرَاهِيم ﷺ لِكَوْنِ الْآيَة قَدْ يَسْبِق إِلَى بَعْض الْأَذْهَان الْفَاسِدَة مِنْهَا اِحْتِمَال الشَّكّ وَإِنَّمَا رَجَعَ إِبْرَاهِيم عَلَى نَفْسه ﷺ تَوَاضُعًا وَأَدَبًا أَوْ قَبْلَ أَنْ يَعْلَم ﷺ أَنَّهُ خَيْر وَلَد آدَم . قَالَ صَاحِب التَّحْرِير : قَالَ جَمَاعَة مِنْ الْعُلَمَاء : لَمَّا نَزَلَ قَوْل اللَّه تَعَالَى : { أَوَ لَمْ تُؤْمِن } قَالَتْ طَائِفَة : شَكَّ إِبْرَاهِيم وَلَمْ يَشُكّ نَبِيّنَا . فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ : " نَحْنُ أَحَقّ بِالشَّكِّ مِنْهُ " فَذَكَرَ نَحْو مَا قَدَّمْته ثُمَّ قَالَ : وَيَقَع لِي فِيهِ مَعْنَيَانِ : أَحَدهمَا أَنَّهُ خَرَجَ مَخْرَج الْعَادَة فِي الْخِطَاب فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ الْمُدَافَعَة عَنْ إِنْسَان قَالَ لِلْمُتَكَلِّمِ فِيهِ : مَا كُنْت قَائِلًا لِفُلَانٍ أَوْ فَاعِلًا مَعَهُ مِنْ مَكْرُوه فَقُلْهُ لِي وَافْعَلْهُ مَعِي . وَمَقْصُوده لَا تَقُلْ ذَلِكَ فِيهِ .

وَالثَّانِي أَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ هَذَا الَّذِي تَظُنُّونَهُ شَكًّا أَنَا أَوْلَى بِهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِشَكٍّ وَإِنَّمَا هُوَ طَلَب لِمَزِيدِ الْيَقِين . وَقِيلَ غَيْر هَذَا مِنْ الْأَقْوَال فَنَقْتَصِر عَلَى هَذِهِ لِكَوْنِهَا أَصَحّهَا وَأَوْضَحهَا . وَاَللَّهُ أَعْلَم .

وَأَمَّا سُؤَال إِبْرَاهِيم ﷺ فَذَكَرَ الْعُلَمَاء فِي سَبَبه أَوْجُهًا أَظْهَرهَا أَنَّهُ أَرَادَ الطُّمَأْنِينَة بِعِلْمِ كَيْفِيَّة الْإِحْيَاء مُشَاهَدَة بَعْدَ الْعِلْم بِهَا اِسْتِدْلَالًا فَإِنَّ عِلْم الِاسْتِدْلَال قَدْ تَتَطَرَّق إِلَيْهِ الشُّكُوك فِي الْجُمْلَة بِخِلَافِ عِلْم الْمُعَايَنَة فَإِنَّهُ ضَرُورِيّ وَهَذَا مَذْهَب الْإِمَام أَبِي مَنْصُور الْأَزْهَرِيّ وَغَيْره .

وَالثَّانِي أَرَادَ اِخْتِبَار مَنْزِلَته عِنْد رَبّه فِي إِجَابَة دُعَائِهِ وَعَلَى هَذَا قَالُوا : مَعْنَى قَوْله تَعَالَى { أَوَ لَمْ تُؤْمِن } أَيْ تُصَدِّق بِعِظَمِ مَنْزِلَتك عِنْدِي وَاصْطِفَائِك وَخُلَّتك .

وَالثَّالِث سَأَلَ زِيَادَة يَقِين وَإِنْ لَمْ يَكُنْ الْأَوَّل شَكًّا فَسَأَلَ التَّرَقِّي مِنْ عِلْم الْيَقِين إِلَى عَيْن الْيَقِين ؛ فَإِنَّ بَيْنَ الْعِلْمَيْنِ تَفَاوُتًا قَالَ سَهْل بْن عَبْد اللهَّ التُّسْتُرِيّ ت : سَأَلَ كَشْف غِطَاء الْعِيَان لِيَزْدَادَ بِنُورِ الْيَقِين تَمَكُّنًا .

وَالرَّابِع أَنَّهُ لَمَّا اِحْتَجَّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّ رَبّه سُبْحَانه وَتَعَالَى يُحْيِي وَيُمِيت طَلَبَ ذَلِكَ مِنْهُ سُبْحَانه وَتَعَالَى لِيُظْهِرَ دَلِيله عِيَانًا . وَقِيلَ أَقْوَال أُخَر كَثِيرَة لَيْسَتْ بِظَاهِرَةٍ . قَالَ الْإِمَام أَبُو الْحَسَن الْوَاحِدِيّ رحمه الله : اِخْتَلَفُوا فِي سَبَب سُؤَاله فَالْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّهُ رَأَى جِيفَة بِسَاحِلِ الْبَحْر يَتَنَاوَلهَا السِّبَاع وَالطَّيْر وَدَوَابّ الْبَحْر فَتَفَكَّرَ كَيْف يَجْتَمِع مَا تَفَرَّقَ مِنْ تِلْكَ الْجِيفَة ؟ وَتَطَلَّعَتْ نَفْسه إِلَى مُشَاهَدَة مَيِّت يُحْيِيه رَبّه وَلَمْ يَكُنْ شَاكًّا فِي إِحْيَاء الْمَوْتَى ، وَلَكِنْ أَحَبَّ رُؤْيَة ذَلِكَ ، كَمَا أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُحِبُّونَ أَنْ يَرَوْا النَّبِيّ ﷺ وَالْجَنَّة ، وَيُحِبُّونَ رُؤْيَة اللهَّ تَعَالَى مَعَ الْإِيمَان بِكُلِّ ذَلِكَ وَزَوَال الشُّكُوك عَنْهُ . قَالَ الْعُلَمَاء : وَالْهَمْزَة فِي قَوْله تَعَالَى { أَوَلَمْ تُؤْمِن } هَمْزَة إِثْبَات كَقَوْلِ جَرِير : أَلَسْتُمْ خَيْر مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا . وَاَللهَّ أَعْلَم .

وَأَمَّا قَوْل النَّبِيّ ﷺ : (وَيَرْحَم اللهَّ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْن شَدِيد)

فَالْمُرَاد بِالرُّكْنِ الشَّدِيد هُوَ اللهَّ سُبْحَانه وَتَعَالَى ، فَإِنَّهُ أَشَدّ الْأَرْكَان وَأَقْوَاهَا وَأَمْنَعهَا وَمَعْنَى الْحَدِيث وَاَللهَّ أَعْلَم : أَنَّ لُوطًا ﷺ لَمَّا خَافَ عَلَى أَضْيَافه وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَشِيرَة تَمْنَعهُمْ مِنْ الظَّالِمِينَ ضَاقَ ذَرْعه وَاشْتَدَّ حُزْنه عَلَيْهِمْ ، فَغَلَبَ ذَلِكَ عَلَيْهِ فَقَالَ فِي ذَلِكَ الْحَال : " لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّة " فِي الدَّفْع بِنَفْسِي " أَوْ آوِي " إِلَى عَشِيرَة تَمْنَع لَمَنَعْتُكُم وَقَصْد لُوط ﷺ إِظْهَار الْعُذْر عِنْد أَضْيَافه ، وَأَنَّهُ لَوْ اِسْتَطَاعَ دَفْع الْمَكْرُوه عَنْهُمْ بِطَرِيقٍ مَا لَفَعَلَهُ وَأَنَّهُ بَذَلَ وُسْعه فِي إِكْرَامهمْ وَالْمُدَافَعَة عَنْهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِعْرَاضًا مِنْهُ ﷺ عَنْ الِاعْتِمَاد عَلَى اللهَّ تَعَالَى ، وَإِنَّمَا كَانَ لِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ تَطْيِيب قُلُوب الْأَضْيَاف وَيَجُوز أَنْ يَكُون نَسِيَ الِالْتِجَاء إِلَى اللهَّ تَعَالَى فِي

حِمَايَتهمْ ، وَيَجُوز أَنْ يَكُون اِلْتَجَأَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهَّ تَعَالَى وَأَظْهَرَ لِلْأَضْيَافِ التَّأَلُّم وَضِيق الصَّدْر . وَاَللهَّ أَعْلَم .

وَأَمَّا

قَوْله ﷺ : (وَلَوْ لَبِثْت فِي السِّجْن طُول لُبْث يُوسُف لَأَجَبْت الدَّاعِي)

فَهُوَ ثَنَاء عَلَى يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَام وَبَيَان لِصَبْرِهِ وَتَأَنِّيه وَالْمُرَاد بِالدَّاعِي رَسُول الْمَلِك الَّذِي أَخْبَرَ اللهَّ سُبْحَانه وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ { اِئْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُول قَالَ اِرْجِعْ إِلَى رَبّك فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَة اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ } فَلَمْ يَخْرُج يُوسُف ﷺ مُبَادِرًا إِلَى الرَّاحَة وَمُفَارَقَة السَّجْن الطَّوِيل بَلْ تَثَبَّتَ وَتَوَقَّرَ وَرَاسَلَ الْمَلِك فِي كَشْف أَمْره الَّذِي سُجِنَ بِسَبَبِهِ وَلِتَظْهَرَ بَرَاءَته عِنْدَ الْمَلِك وَغَيْره وَيَلْقَاهُ مَعَ اِعْتِقَاده بَرَاءَته مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ وَلَا خَجَل مِنْ يُوسُف وَلَا غَيْره فَبَيَّنَ نَبِيّنَا ﷺ فَضِيلَة يُوسُف فِي هَذَا وَقُوَّة نَفْسه فِي الْخَيْر وَكَمَال صَبْره وَحُسْن نَظَره وَقَالَ النَّبِيّ ﷺ عَنْ نَفْسه مَا قَالَهُ تَوَاضُعًا وَإِيثَارًا لِلْإِبْلَاغِ فِي بَيَان كَمَال فَضِيلَة يُوسُف ﷺ وَاَللهَّ أَعْلَم .أهـ

وأخرج الإمام البخاري (٢١)، ومسلم (١٥٠): عَنْ سَعْدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَعْطَى رَهْطًا وَسَعْدٌ جَالِسٌ، فَتَرَكَ رَسُولُ الله ﷺ رَجُلًا هُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ فَوَالله إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا، فَقَالَ: أَوْ مُسْلِمًا فَسَكَتُّ قَلِيلًا ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي، فَقُلْتُ: مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ، فَوَالله إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا، فَقَالَ أَوْ مُسْلِمًا ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي، وَعَادَ رَسُولُ الله ﷺ ثُمَّ قَالَ: يَا سَعْدُ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ، وَرَوَاهُ يُونُسُ وَصَالِحٌ وَمَعْمَرٌ وَابْنُ أَخِي الزُّهْرِيِّ عَنْ الزُّهْرِيِّ.

وأخرج البخاري (٣١٢٤)، ومسلم (١٧٤٧): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »غَزَا نَبِيٌّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا، وَلَا أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلَا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ وِلَادَهَا، فَغَزَا فَدَنَا مِنْ الْقَرْيَةِ صَلَاةَ الْعَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ، فَجَمَعَ الْغَنَائِمَ فَجَاءَتْ يَعْنِي النَّارَ لِتَأْكُلَهَا فَلَمْ تَطْعَمْهَا فَقَالَ: إِنَّ فِيكُمْ غُلُولًا فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ فَقَالَ: فِيكُمْ الْغُلُولُ فَلْيُبَايِعْنِي قَبِيلَتُكَ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ بِيَدِهِ فَقَالَ: فِيكُمْ الْغُلُولُ فَجَاءُوا بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنْ الذَّهَبِ، فَوَضَعُوهَا فَجَاءَتْ النَّارُ فَأَكَلَتْهَا، ثُمَّ أَحَلَّ اللهُ لَنَا الْغَنَائِمَ رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا فَأَحَلَّهَا لَنَا.

وأخرج البخاري (٤٦٢)، ومسلم (١٧٦٤) واللفظ لمسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: »أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ« فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنْ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

وأخرج البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢): عَنْ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ، قَالَا: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: »إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ، فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ، فَوَاللهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتَرَةِ الْجَيْشِ، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ:

حَلْ حَلْ فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا: خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: »مَا خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ«، ثُمَّ قَالَ: »وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ«، إِيَّاهَا ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ قَالَ: فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى ثَمَدٍ قَلِيلِ الْمَاءِ يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يُلَبِّثْهُ النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ، وَشُكِيَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْعَطَشُ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، فَوَاللهِ مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرِّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ وَكَانُوا عَيْبَةَ، نُصْحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ، فَقَالَ إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَةِ وَمَعَهُمْ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنْ الْبَيْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمْ الْحَرْبُ وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ«، فَقَالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ، قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا، قَالَ: إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا، فَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ: لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ، وَقَالَ ذَوُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ: هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ: قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَوَلَسْتُ بِالْوَلَدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَهَلْ تَتَّهِمُونِي؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظَ فَلَمَّا بَلَّحُوا عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ هَذَا قَدْ

عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ اقْبَلُوهَا وَدَعُونِي آتِيهِ، قَالُوا: ائْتِهِ فَأَتَاهُ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَيْ مُحَمَّدُ أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنْ الْعَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَإِنِّي وَاللهِ لَأَرَى وُجُوهًا، وَإِنِّي لَأَرَى أَوْشَابًا مِنْ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: امْصُصْ بِبَظْرِ اللَّاتِ أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ، فَقَالَ: مَنْ ذَا؟ قَالُوا: أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لَأَجَبْتُكَ، قَالَ: وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَكُلَّمَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ السَّيْفُ وَعَلَيْهِ الْمِغْفَرُ، فَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ، وَقَالَ لَهُ: أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، فَقَالَ: أَيْ غُدَرُ أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ، وَكَانَ الْمُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: »أَمَّا الْإِسْلَامَ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا الْمَالَ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ«، ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ، قَالَ: فَوَاللهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ وَاللهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا، وَاللهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ

وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي :كِنَانَةَ دَعُونِي آتِيهِ، فَقَالُوا: ائْتِهِ فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: »هَذَا فُلَانٌ وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ فَابْعَثُوهَا لَهُ«، فَبُعِثَتْ لَهُ وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: سُبْحَانَ الله مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنْ الْبَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، قَالَ: رَأَيْتُ الْبُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ، فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنْ الْبَيْتِ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ، فَقَالَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقَالُوا: ائْتِهِ فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: »هَذَا مِكْرَزٌ وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ«، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ مَعْمَرٌ: فَأَخْبَرَنِي أَيُّوبُ عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: »لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ« قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ: فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْكَاتِبَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:»بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ« قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَالله مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَالله لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: »اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللهُمَّ« ثُمَّ قَالَ: »هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله« فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَالله لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ الله مَا صَدَدْنَاكَ عَنْ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ وَلَكِنْ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: »وَالله إِنِّي لَرَسُولُ الله وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله«، قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ الله إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: »عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ« فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَالله لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنْ الْعَامِ الْمُقْبِلِ فَكَتَبَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا

رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا، قَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللهِ كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: »إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ« قَالَ: فَوَاللهِ إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: »فَأَجِزْهُ لِي« قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ، قَالَ: »بَلَى فَافْعَلْ« قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، قَالَ مِكْرَزٌ: بَلْ قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ، قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ: أَيْ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللهِ، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟ قَالَ: »بَلَى«، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: »بَلَى« قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا؟ إِذًا قَالَ: »إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي« قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: »بَلَى فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ، قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ، قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللهِ حَقًّا، قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ، قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا؟ إِذًا قَالَ أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ فَوَاللهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ، قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ، قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ قُلْتُ لَا، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ، قَالَ الزُّهْرِيُّ: قَالَ عُمَرُ: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا قَالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: »قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا«، قَالَ: فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللهِ

أَتُحِبُّ ذَلِكَ اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ، نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا، ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ حَتَّى بَلَغَ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ فَطَلَّقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشِّرْكِ فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ وَالْأُخْرَى صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ مُسْلِمٌ فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا الْعَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا، فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَغَا ذَا الْحُلَيْفَةِ فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيِّدًا فَاسْتَلَّهُ الْآخَرُ، فَقَالَ: أَجَلْ وَاللهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ ثُمَّ جَرَّبْتُ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْهِ فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ، فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ وَفَرَّ الْآخَرُ حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »حِينَ رَآهُ لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا«، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قُتِلَ وَاللهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ قَدْ وَاللهِ أَوْفَى اللهُ ذِمَّتَكَ قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ ثُمَّ أَنْجَانِي اللهُ مِنْهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: »وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ« فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ الْبَحْرِ، قَالَ: وَيَنْفَلِتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ، فَوَاللهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّأْمِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا فَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ بِاللهِ وَالرَّحِمِ لَمَّا أَرْسَلَ فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ

وَأَيْدِيكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ حَتَّى بَلَغَ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ وَلَمْ يُقِرُّوا بِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَيْتِ قَالَ أَبُو عَبْد اللهِ مَعَرَّةٌ الْعُرُّ الْجَرَبُ تَزَيَّلُوا تَمَيَّزُوا وَحَمَيْتُ الْقَوْمَ مَنَعْتُهُمْ حِمَايَةً وَأَحْمَيْتُ الْحِمَى جَعَلْتُهُ حِمًى لَا يُدْخَلُ وَأَحْمَيْتُ الْحَدِيدَ، وَأَحْمَيْتُ الرَّجُلَ إِذَا أَغْضَبْتَهُ إِحْمَاءً وَقَالَ عُقَيْلٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ: قَالَ عُرْوَةُ: فَأَخْبَرَتْنِي عَائِشَةُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَمْتَحِنُهُنَّ وَبَلَغْنَا أَنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَرُدُّوا إِلَى الْمُشْرِكِينَ مَا أَنْفَقُوا عَلَى مَنْ هَاجَرَ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ، وَحَكَمَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ لَا يُمَسِّكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ أَنَّ عُمَرَ طَلَّقَ امْرَأَتَيْنِ قَرِيبَةَ بِنْتَ أَبِي أُمَيَّةَ وَابْنَةَ جَرْوَلٍ الْخُزَاعِيِّ، فَتَزَوَّجَ قَرِيبَةَ مُعَاوِيَةُ وَتَزَوَّجَ الْأُخْرَى أَبُو جَهْمٍ، فَلَمَّا أَبَى الْكُفَّارُ أَنْ يُقِرُّوا بِأَدَاءِ مَا أَنْفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى :وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ وَالْعَقْبُ مَا يُؤَدِّي الْمُسْلِمُونَ إِلَى مَنْ هَاجَرَتْ امْرَأَتُهُ مِنْ الْكُفَّارِ، فَأَمَرَ أَنْ يُعْطَى مَنْ ذَهَبَ لَهُ زَوْجٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ مَا أَنْفَقَ مِنْ صَدَاقِ نِسَاءِ الْكُفَّارِ اللَّائِي هَاجَرْنَ، وَمَا نَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الْمُهَاجِرَاتِ ارْتَدَّتْ بَعْدَ إِيمَانِهَا، وَبَلَغَنَا أَنَّ أَبَا بَصِيرِ بْنَ أَسِيدٍ الثَّقَفِيَّ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مُؤْمِنًا مُهَاجِرًا فِي الْمُدَّةِ فَكَتَبَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُهُ أَبَا بَصِيرٍ. فَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

وأخرج مسلم في صحيحه (١٧٦٣): عَنْ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: «اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ»، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ

رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلَائِكَةِ، قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ: فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ، وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: صَدَقْتَ ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ وَأَسَرُوا سَبْعِينَ، قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَمَّا أَسَرُوا الْأُسَارَى قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأُسَارَى؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ«، قُلْتُ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلَانٍ نَسِيبًا لِعُمَرَ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا، فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ، فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: »أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمْ الْفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ«، وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي

الْأَرْضِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا فَأَحَلَّ اللهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ﴾.

وأخرج البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥): عَنْ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ الله ﷺ: يَا رَسُولَ الله هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رُدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: »بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا«.

وما قتال أبي بكر رضي الله عنه لأهل الردةوإرسال جيش أسامة إلا من هذا الباب.

وقد تقدمت ترجمة أحمدرحمه الله وعدم موافقته للمعتزلة ولو ظاهرًا في مسألة خلق القرآن إلا من هذا الباب.

الخاتمة

اللهم لا خير إلا خير الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[هود:٣].

وقال تعالى مخبرًا عن هود: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾[هود:٥٢].

وقال تعالى مخبرًا عن نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾[نوح: ١٠-١٢].

ففي هذه الآيات بيان من الله ورسله أن الاستغفار سبب للخيرات والبركات والمتاع الحسن في الدنيا والآخرى، واي متاع يوازي الدعوة إلى الله والإستمرار فيها إلى الممات.

والمستقيم أكثر من غيره، يحتاج إلى إحياء هذه الشعيرة في قلبه لما لها من الأجر العظيم في الدنيا والأخرى.

أخرج الترمذي من حديث عبد الله بن بسر: أن النبي ﷺ قال: »طوبى لمن وجد في صحيفته استغفارًا كثيرا«، الحديث في »الصحيح المسند« للإمام الوادعي رحمه الله.

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾[فصلت:٦].

قال ابن رجب في »جامع العلوم والحكم« (شرح الحديث الحادي والعشرين): وفي قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ إشارة إلى أنه لا بد من تقصير في الاستقامة المأمور بها، فيجبر ذلك بالاستغفار المقتضى للتوبة والرجوع إلى الاستقامة. أهـ

وبين الله عز وجل في كتابه الكريم أن الاستغفار سبب للزيادة في الخير، ومن هذا الخير استمرارية الداعي إلى الله عز وجل في دعوته وبره، حيث قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾[البقرة:٥٨].

وفي آيات كثيرات مباركات طيبات بعد وعد الله لنبيه بالنصر والتمكين يأمر بالاستغفار والذكر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ * هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[غافر: ٥٣-٥٥].

والاستغفار سبب لبعد عقوبة الله عز وجل عن العباد، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الأنفال:٣٣].

ذكر ابن كثير رحمه الله في هذا الموضع من تفسيره قول ابن عباس رضي الله عنه ما أن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم، فأمان قبضه الله إليه، وأمان بقي فيكم ثم تلا الآية. أهـ

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦].

في هذه الآية دلالة على من لزم الاستغفار وجازاه الله بالجنة، وإنما استحق ذلك باستمراريته على الخير وعدم الانقطاع.

أخرج مسلم في صحيحه (٢٧٠٢): من حديث الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: »إنه ليغان على قلبي وإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من مائة مرة«.

مع حرصه على الخير فالاستغفار سبب لغفران الذنوب وستر العيوب ومرضاة علام الغيوب، وإذا تحصل العبد على هذه الثلاث كان من المنصورين في الدنيا والآخرة.

وجاء عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان يكثر أن يقول في سجوده وركوعه: »سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن« أخرجه البخاري (٤٩٦٨)، ومسلم (٤٨٤)، وذلك بعد أن أنزل الله عليه سورة النصر وقرب أجله، دلالة أن الاستغفار سبب لاستمرار الخير: أخرج البخاري (٤٩٦٧)، ومسلم (٤٨٤) واللفظ لمسلم: عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ: سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَرَاكَ تُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: »خَبَّرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي، فَإِذَا رَأَيْتُهَا أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلِ سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فَقَدْ رَأَيْتُهَا، ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ فَتْحُ مَكَّةَ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**﴾.

وسبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وإنما كتبت هذه النبذة حتى يقبل المسلم على ما ينفعه ولله الحمد ونسأله السداد.

كان الانتهاء من تسطير هذه الوريقات يوم الجمعة ٦/ ذي القعدة/ ١٤٢٨هـ بمكتبة دار الحديث السلفية بدماج رحم الله مؤسسها وحفظ الله القائمين عليها، والحمد لله رب العالمين.

وقبل الختام أعلم أن أسباب نصرة الدعوة السلفية كثيرة جدًا، لكن ذكرنا الوسائل الجامعة التي يدخل تحت كل بندٍ منها وسائل كثيرة، نسأل الله عز وجل العون.

وأشكر لله أولًا وآخرًا على نعمه العظيمة ومن أجلها نعمة الإسلام والسنة وطلب العلم النافع على يد العالمين الجليلين أبوي عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي، ويحيى

بن علي الحجوري، وأشكر والدي وكل من أحب وساهم في نصرة الإسلام وأهله.

دماج يا شوكة بحلوق أعدانا

دمـــاج يـــا شـــوكة بحلـــوق اعـــدانا ... يـــا جنـــة خيرهـــا قـــد عـــم أرجانـــا
يـــا روضـــة ينعـــت علـــما ومعرفـــة ... يـــا جـــذوة بـــددت ظلـــمات دنيانـــا
مـــن مشـــرق الأرض اقبلنـــا ومغربهـــا ... لمـــا رأينـــا الضـــياء والنـــور يغشـــانا
لنقتـــبس وهجـــا أو نظفـــرن بهـــدى ... وعالمـــا بطريـــق الخـــير لُهفـــان
وكـــم بحـــار قطعناهـــا وكـــم جبـــل ... وعـــر ســـلكنا وكـــم بيـــد ووديـــان
وكـــم عوائـــق جاوزنـــا وكـــم شـــبك ... لهـــا اخترقنـــا زرافـــات ووحـــدانا
حتـــى وصـــلنا إلى دمـــاج بعـــد عنـــاء ... وكـــل حـــزن وصـــعب دونهـــا لان
لمـــا بهـــا مـــن حيـــاة لا همـــوم بهـــا ... ودعـــوة كشـــعاع الشـــمس برهـــان
وســـنة وإتبـــاع كامـــل وإخـــاء ... وألفـــة زانهـــا أمـــن وإيـــمان
ومـــن ســـعادة لا التجـــار يبلغهـــا ... ولا الملـــوك وأعـــلى النـــاس ســـلطان
ومـــا بهـــا مـــن دروس كـــالرحيق نقـــا ... ومعهـــد لامثيـــل لـــه بأنحانـــا
ومـــن تميـــز يبكـــي الحاقـــدين دمـــا ... وقلعـــة شـــادها ضرغـــام همـــدان
ومـــن قناعـــة تلحظهـــا بمـــن ســـئموا ... عـــيش البهـــائم للشـــهوات عبـــدان
مـــن مشـــرق الأرض اقبلنـــا ومغربهـــا ... جزائـــريين – ليبيـــين – ســـودان
هنـــود – روس – أروميـــين – أنـــدنوس ... مـــاليز – كشـــمير – أمريكـــان – أفغـــان
مغـــاربيين – مصـــريين – بلجيـــك ... فرنســـيين – يمانيـــين – أســـبانا
صومال – سنغال – أحباش – بلا عـــدد ... ومـــن فلســـطين أقبلنـــا ومـــن غانـــا
لنطلـــب العلـــم في دار الحـــديث معـــا ... فـــالعلم للعلـــم مطلوبـــا بميناـــا
علـــم الشـــريعة لا علـــم الكـــلام ولا ... علـــم النجـــوم الـــذي قـــد كـــان أغرانـــا

وكـــم أخ ذاب أشـــواقا لرؤيتهـــا ... ويبكـــي مـــا ذكـــرت دمـــاج وجـــدانا
ولـــو تمكـــن أن يـــأتي إليهـــا ولـــو ... حبـــوا إذا لم يجـــد ظهـــرا لوافانـــا
حبـــا وشـــوقا لهـــذا الخـــير يغمرنـــا ... والشـــرع يأمرنـــا فيهـــا وينهانـــا
لكـــن أعـــدائنا قـــاموا عـــلى طـــرق الـــ ... ـــطلاب والغربـــاء بالـــذات جـــدرانا
وللمنافـــذ يغلـــق في وجـــوههم ... ويفرشـــوها لأهـــل العهـــر ريحانـــا
وحامـــل الخمـــر والهـــروين يخترقـــا ... الحـــدود بـــالخمر والهـــروين أطنانـــا
وطالـــب العلـــم لـــو ســـح الـــدموع دمـــا ... مـــا مـــر حتـــى يصـــير القـــار ألبانـــا
مـــن أيـــن جئـــت وأيـــن تريـــد ... يســـتجوبونه في ســـفر وإتيانـــا
ويطردونـــه مـــا دمـــاج وجهتـــه ... أو جـــاء منهـــا رمـــي بـــه خلـــف قضـــبانا
ويعرضـــون عليـــه بـــديلها وإذا ... لم يقبـــل العـــرض ذاق المـــر ألوانـــا
والعرض جامعـة العلـوم -جامعـة الـــ ... ـــأحقاف -جامعـة الإيـمان – ضـحيانا
إمـــا دعـــاه إلى مرعـــي ومركـــزه ... أو بـــاحفيظ وهـــم يـــا قـــوم كهانـــا
وأهـــل دجـــل وتلبـــيس وشـــعوذة ... وشركيـــات بـــلا حصرـــ وأوثانـــا
أو قـــالوا جامعـــة الإيـــمان تـــتحفكم ... بالأكـــل والشـــرب والســـكنات مجانـــا
وهـــي حزبيـــة للـــدجل شـــيدها ... خـــوان أمتنـــا صرحـــا وميـــدانا
وأهلهـــا ماســـوى الـــدنيابها طلبـــوا ... وصـــوروا أنهـــم للحـــق فرســـانا
وبالـــدفوف عـــلى أعـــدائنا هجمـــوا ... وأوســـعوهم بهـــا طعنـــا وأثخانـــا
ومـــا شـــجاعتهم إلا بمسرـــحهم ... ومـــا تجـــارتهم إلا قضـــايانا
وتـــاجروا في المســـاجد بالهـــدى علنـــا ... وبـــالخروج عـــلى الحكـــام باهانـــا
وإن أبـــى هـــذه الأخـــرى بجامعـــة الـــ ... ـــعلوم ألحقـــه أو دار قرآنـــا

وهم بجامعة الإيمان يختطفوا ... لحزبهم وبتلك الدور أعوانا
أو بالشباب يقولوا المجرم التحقوا ... وهم روافض يلعن خير موتانا
وأهل شر وسفك للدماء وقد ... يقدموه لبدر الدين قربانا
أو قالوا للكليات امضوا نوظفكم ... تبنطلوا واخرجوا كالخود أذقانا
والكليات تعاني العقم مذ نشئت ... وما لخريجها قدرا ولا شانا
ولم يسد فراغا أو قضى وطرا ... وعاد منها كأن الشيء ما كانا
لم ينتفع بالذي فيها تعلمه ... ولا استفاد سوى تقليد أعدانا
والبخل والشح ذاك بها تمرسه ... طبيبهم همه استغلال مرضانا
وللمهندس أهل الخبرة اختبروا ... فاثبتوا فشل المذكور مردانا
وطالب الدين عاد مبنطلا وقحا ... وقاطعا للصلاة يفوح دخانا
وطالب العربي لم يستقيم له ... لسانه كالعوام يعود لحانا
وطالب الإنجليزي عاد محتقرا ... للناس يحسبهم للكبر جعلانا
وطالبي الكيماء والفيزيا انتفخا ... بها غرورا وعادا أشد خذلانا
وللطبيعة ردا كل مسألة ... في الكون تجري بدجل الغرب إيمانا
وطالب الاجتماعيات عاد لما ... دهاه من وهم فيثاغرس حيرانا
ويعتقد دوران الأرض معتبرا ... تلك النصوص ترد عليه بهتانا
والفلسفي يعود بشر معتقد ... وحال طلاب علم النفس أشجانا
لأنهم ينكرون المس ذاك حكى الـ ... ـقرآن عنه وينكر مثله الجانا
فكيف نقبل عرض القوم كيف لمن ... رأى الهداية أن يزداد طغيانا
دار الحديث ولا نبغي بها بدلا ... لا جامعات ولا در ومرجانا

حتـــى ولا الحكـــم لا والله نقبلـــه ... والملـــك والـــذهب الإبريـــز تيجانـــا
وكيـــف نقبـــل يـــا هـــذا بعرضـــكم ... وتلكـــم الـــدور منهـــا الله نجانـــا
ورغـــم مـــا مكـــروا بـــدارنا امـــتلأت ... وخيرهـــا عـــم أقصـــانا وأدنانـــا
ولـــولا مادونهـــا مـــن عـــائق لغـــدت ... وأصـــبحت كـــبلاد الصـــين ســـكانا
والفضـــل لله وفقنـــا وجـــاء بنـــا ... مـــن كـــل صـــقع وثبتنـــا وأســـدانا
وغيرنـــا في الطريـــق إليهـــا مـــا يأســـوا ... وكلهـــم يصرـــخوا دمـــاج مرســـانا
لا بـــد منهـــا وإن طـــال الرحيـــل ولـــن ... يردنـــا عنهـــا بـــالإغراء شـــيطانا
ودونكـــم قـــارنوا يـــا كـــل منـــتقص ... وطـــاعن في صـــميم وفحـــوى دعوانـــا
بـــين الشـــباب بـــدماج وبيـــنكم ... في الجامعـــات وغيرهـــا قـــارنوا الأنـــا
لتعرفـــوا الفـــرق بـــين أولـــئكم وأولاء ... ولا مقارنـــــــة والله شـــــــتانا
مـــا طالـــب العلـــم للـــدنيا وطالبـــه ... للعلـــم ذاتـــه عنـــد الله ســـيانا
ولا كـــدار الحـــديث لـــديك جامعـــة ... أو معهـــد في الـــدنا يـــا مـــن تحـــدانا
ثـــمار دمـــاج مشـــهود بجودتهـــا ... وجيلهـــا مـــال بالأجيـــال رجحانـــا
يكفيـــك أنهـــم يـــا كـــل منـــتقص ... يميـــزون الهـــدى والغـــي صـــبيانا
وغـــيرهم مـــن شـــباب الجامعـــات ومـــن ... جيـــل المعاهـــد و الحـــوزات عميانـــا
لا يعرفـــون مـــن التوحيـــد مســـألة ... أو يحفـــظ ســـندا كـــالحمر أذهانـــا
ومـــن ســـألته أيـــن الله رد بـــلا ... علـــم وقـــال بكـــل مكـــان مولانـــا
ومـــن ســـألته مـــا معنـــى الشـــهادة مـــا ... شروطهـــا والنـــواقض قـــام غضـــبانا
لعجـــزه عـــن جـــواب يتحفـــوك بـــه ... أطفـــال دمـــاج أي والله ولـــدانا
حتـــى عبـــادتكم لـــربكم بهـــوى ... بغـــير علـــم وتقليـــد وهـــذيانا

ومـــن إلى علـــماء الســـوء تحملـــه ... مســـــائل رد للتلبـــــيس فتيانـــــا
والفضـــــل لله وفقنـــــا وســـــددنا ... وبالهدايـــــة والتمييـــــز أولانـــــا
لـــولاه لم نهتـــدي ولا اجتمعنـــا هنـــا ... فالحمـــد والشـــكر للقيـــوم عرفانـــا
والحمـــد لله ياأهـــل الحـــديث عـــلى ... هـــذا التميـــز في شـــتى مزايانـــا
عشـــنا عـــلى قـــال ربي قـــال أســـوتنا ... وغيرنـــا في المقـــاهي حـــول روتانـــا
عشـــنا عـــلى ذروة التوحيـــد رغبتنـــا ... وخوفنـــا والرجـــاء لله إذعانـــا
وذبحنـــا والـــدعاء والنـــذر نفـــرده ... بكـــل حـــق لـــه سرا وإعلانـــا
وغيرنا عـاش حـول قبـور مـن هلكـوا ... هـــذا يريـــد مـــن الأمـــوات غفرانـــا
وذاك رزقـــا وذا دفـــع الـــبلاء وذا ... كـــذا وســـاقوا لهـــا الأبقـــار والضّـــانا
وطفـــل دمـــاج يكتـــب مـــن طفولتـــه ... ويقـــرأن ويحفـــظ حفـــظ أذكانـــا
وللمـــدارس مـــن خريجـــي بـــؤرتكم ... والثـــانويين والـــدبلوم شـــكوانا
هـــم لا يـــدرس جـــل العـــام في عطـــل ... وفي تســـــيب منـــــه الله عافانـــــا
وفاقـــد الشيء لا يعطيـــه يـــا بـــن أخـــي ... ومـــا كمـــن ذكـــروا للعلـــم فقـــدان
وللأمانـــــــة في أداء مهمـــــــتهم ... وللجـــــدارة في تعلـــــيم ابنانـــــا
وللجـــان يخـــافوا فـــوق خيفـــتهم ... لـــذي الجـــلال كـــابن أبي أيـــمان
بـــأنهم قـــائمين بكـــل واجـــبهم ... ويجعلـــوا الـــزي للإخـــلاص عنوانـــا
وفي الكتابـــــة برهـــــاني وبينتـــــي ... وفي القـــراءة إن هـــم رد دعوانـــا
ولـــــــلإدارة دورا في تســـــــيبهم ... بـــما تقـــرر مـــن زور وبهتانـــا
بأنـــه لا غيـــاب ولا رســـوب ولا ... غـــش وذلـــك مـــايجري بمرآنـــا
ومـــن محـــاضرة الســـلفي وخطبتـــه ... تعلـــم النـــاس مـــاجهلوه أزمانـــا

مـــن العبـــادات والآداب وانتفعـــوا جـــدا بـــدعوتنا شـــيب وشـــبانا
معلمـــــين وطـــــلاب وأمتنـــــا بـــذا تقـــر رعايابـــل ورعيانـــا
شـــباب دمـــاج لا أفكـــار تخـــدعهم ولا الإشـــاعات تلـــك تمـــس عليانـــا
وكـــم تـــآليف ياهـــذا لهـــم طبعـــت وكـــم وكـــم غيرهـــا في الـــدار كثبانـــا
وكـــم تحـــاقيق قـــد فاقـــت بـــدقتها كـــل التحـــاقيق إلمامـــا وإتقانـــا
تعلمـــوا – عملـــوا بـــالعلم – علمـــه وكالســـحاب هـــم بـــالخير شـــنانا
يبلغـــون عـــن المختـــار ســـنته ويفتحـــون بقـــال الله بلـــدانا
لا وقـــت عنـــدهم للهـــو لا أبـــدا هـــم أينما ذهبـــوا للوقـــت صـــوانا
ووقـتكم ضـاع في الأسـواق يـا أسـفي وفي الحـــدائق والكـــرنيش أحيانـــا
شـــبابنا في ريـــاض العلـــم مـــرتعهم طـــول النهـــار وهـــم بالليـــل رهبانـــا
وأنـــتم في المعـــاصي ترتعـــون مـــدى نهـــاركم وعليهـــا الليـــل ســـهرانا
شـــبابنا ســـيد الثقلـــين أســـوتهم وأنـــتم بالنصـــارى تأســـى فتيانـــا
لا تحســـنون الصـــلاة ولا طهارتهـــا وتجهلـــوا كـــم لـــدين الله أركانـــا
ودار دمـــــاج مصـــــفاة مكـــــررة للعلم هل عنـدكم مصـفى كمصـفانا؟
وأي جامعـــــة في الارض تعـــــدلها وأيـــن عشـــر الـــذي دمـــاج أعطانـــا
حتـــى نوافـــق أو حتـــى نتـــابعكم ونقبـــل العـــرض ذكرانـــا ونســـوانا
لا شيء عنـــدكم إلا المبـــاني والـــ ـــقاعات والعلـم عنهـا اختـار مبنانـا
ولا نظـــام كهـــذا رغـــم مـــالكم مـــن الإدارات أو مجنـــى كمجنانـــا
ورغـم مـا زجـروا عنهـا ومـا مكـروا بهـــا نزلنـــا وعـــين الله ترعانـــا
وحقـــــق الله ماكنـــــا نؤملـــــه فيهـا مـن الخـير بـل مافـاق منيانـا

نـــورا رأينـــا بـــه الـــدنيا وضرتهـــا ... وعـــــالم أثـــــري هـــــب فرحانـــــا
وقـــال أهـــلاً وســـهلاً بـــل وأنزلنـــا ... بـــــداره وبـــــلا تحديـــــد ضـــــيفانا
وباتبـــــاع رســـــول الله جردنـــــا ... مـــن الهـــوى وعـــلى التوحيـــد ربانـــا
وصـــنف النـــاس والـــدعوات قاطبـــة ... والاتجاهـــــات بـــــالوحيين ميزانـــــا
وزلـــزل الفـــرق البلهـــاء ومـــا ابتـــدعت ... في الـــدين مـــن بـــدع بـــالعلم بركانـــا
ولم يـــدع مـــن زوايـــا الليـــل مظلمـــة ... إلا محاهـــــا وداوى كـــــل جرحانـــــا
وقـــاوم المـــرض الفتـــاك والمحـــن الكـــ ... ـــبرى وخـــاض بنـــا الأمـــواج خوضـــانا
واشـــتد داؤه بعـــد بلـــوغ دعوتـــه ... بـــر الأمـــان و بـــالإخلاص وصـــانا
والجـــد والصـــبر في تبليـــغ منهجنـــا ... والصدق والنصح بل والعيش إخوانـــا
وقـــال لا تطلبـــوا الـــدنيا بـــدعوتكم ... وغـــيركم لا أخـــاف عليهـــا إنســـانا
وقـــال إيـــاكم والزيـــغ واحترســـوا ... مـــن فتنـــة المـــال إن المـــال فتانـــا
وكلـــف الشـــيخ يحيـــى بالقيـــام عـــلى ... دار الحـــديث وقـــال ارضـــوه قبطانـــا
فإنـــه الصـــادق الـــبر النصـــوح لكـــم ... وهـــو الأمـــين وودعنـــا فأبكانـــا
وفـــارق الـــدار والآهـــات تتبعـــه ... وأظلمـــت بعـــده دمـــاج أحزانـــا
ومـــات والأرض كـــل الأرض تـــذكره ... بـــالخير فامنحـــه ياربـــاه رضـــوانا
وخيـــب الله ظـــن الشـــامتين بنـــا ... وبالخليفـــة في المخلـــوف عزانـــا
وكـــان أهـــلا لهـــذا التـــاج ألبســـه ... كشـــيخه لـــرؤوس الـــدجل طعانـــا
وازدادت الـــدار بعـــد الشـــيخ توســـعة ... وأقبـــل النـــاس ركبانـــا وركبانـــا
وصعدة كلها من حوله اشتعلت ... من بعد شيخه إي والله نيرانا
ودرســـه مســـتمرا والهـــدوء عـــلى ... جبينـــه مـــاثلا والحقـــل ريانـــا

وللسفينة بعد الشيخ قاد وكم ... بها تجاوز إعصارا وطوفانا
وفتنة شبها خوان دعوتنا ... ممن حسبناهم للشيخ أوفانا
لكثر ما لازموه وما أهاب بهم ... وبعد موته عاداها وعادانا
لا بالوصية لا والله هم عملوا ... ولا بعلمهم بل صاروا جرذانا
وكل همهم إغراق دعوتنا ... والطعن في الشيخ تمزيقا لأشلانا
وكم نعد من المصري وحتى بني ... مرعي لدعوتنا الغراء خوانا
هم بالمئات وبالآلاف من سقطوا ... تعصبا لهم ظلما وعدوانا
ولا اعتبار بمن زاغوا ومن خذلوا ... أهل الحديث فإن القوم بلوانا
حتى وفي زمن المختار قد وجدوا ... والتابعين وكل منهم عانى
في كل عصر ومصر هم بليتنا ... وما أتى زمن إلا وهم دانا
والله عنهم وعن من يغضبون لهم ... بالثابتين من الطلاب أغنانا
ولم يضرون كلا غير أنفسهم ... وشيخنا يحيى للجرذان يقضانا
وكلما مستفز هز حربته ... منهم ليطعنه في الظهر فرحانا
أصابه شيخنا يحيى بصاعقة ... شديدة لها في الآفاق دخانا
ولوحن بأخرى لا تقوم لها ... عصابة فيخر الغر جثمانا
يا طالب العلم يا من شد مئزره ... وشعبه في انتظاره منذ وافانا
أخلص لربك فيما جئت تطلبه ... وخذ بتقواه للفردوس عنوانا
من يتق الله ياهذا يعلمه ... ويجعلن له نورا وفرقانا
واصبر على ماتجد من شدة وأسى ... وضيق عيش وإفلاس وحرمانا
فالعلم مسلكه صعب ومرتفع ... جدا وليس ينال العلم كسلانا

أو مستحي لا ولا مستكبر أبدا ... وأعمل بعلمك ثم أعلنه إعلانا
ودوّن العلم لا يذهب عليك سدى ... فترك تقييده بالحبر نسيانا
وهكذا الفتن احذرها وذرها وخذ ... بالابتهال وتقوى الله معوانا
وارجع إلى العلماء يا صاح ماختلطت ... عليك أطرافها فالخوض خسرانا
وبالعبادة كن والنفس مشتغلا ... عنها وخذ بطريق الحق ما بانا
ولا تجالس مريضا قلبه حسدا ... يغلي وحقدا فكم في الدار ثعبانا
يبث سمه فيمن حوله جلسوا ... بثا وينفخهم للشيخ أضغانا
والانحراف له أسبابه فلها ... حاذر وجانب وكن للزيغ يقضانا
الجهل بالشرع – إهمال المقاصد والـ ... ـإعجاب بالنفس كالرازي وبن سينا
والأخذ أيضا ببعض الحق منتهيا ... به وتطلابنا الدنيا بأخرانا
والبغي والظلم من أسبابه وكذا ... الغلو في الدين والأشخاص سيانا
وهكذا العجمة اعلم أنها سبب ... له وأول شر منها وافانا
ثم الذنوب وقد يا صاح تجلبه ... دسيسة في فؤاد العبد أو رانا
يخفى علينا ورب العرش يعلمه ... وما كخذلانه للعبد خذلانا
والحمد لله تقييدا لنعمته ... لولاه ربي هذا الخير ما كانا

بقلم/ أخي السلفي والإستاذ المربي أبي زيد علي بن يحيى بن زيد الحجوري الزعكري
حفظه الله وسدده وألهمه رشده ووفقه وأصلح أولاده وغفر لوالديه
ألقيت بدار الحديث – دماج
بتأريخ: ٨/ ربيع أول/ ١٤٢٩هـ

فهرس المحتويات

مقدمة المؤلف..... ٦
الأولى: ولينصرنَّ الله من ينصره..... ١٠
والوسيلة الثانية: كل ما لا يراد به وجه الله يضمحل:..... ٢٠
الثالثة: لا يستقيم قول وعمل إلا بموافقة السنة:..... ٢٥
الرابعة..... ٣٥
قيمة الإنسان ما يحسنه**أكثر الإنسان منه أو أقل ٣٥
الخامسة: (هتف العلم بالعلم، إن أجابه وإلا ارتحل)..... ٤٤
السادسة: «والصبر ضياء«..... ٥٣
والصبر أقسام:..... ٥٩
السابعة: «الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه«. ... ٩٢
الثامنة: «حدث الناس بما يعرفون أتريد أن يكذب الله ورسوله«..... ٩٦
التاسعة: «المؤمن للمؤمن كالبنيان للأخرى«. ٩٩
العاشرة: ابدء بما بدأ الله به..... ١١٩
الحادية عشرة: التخول بالموعظة بين الحين والآخر بعدًا عن السآمة والغفلة.
..... ١٢٤
الثانية عشرة:..... ١٢٥
﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾[النور: ٣٦-٣٧] ١٢٥
الرابعة عشرة: «الدين النصيحة«. ١٢٨
الخامسة عشرة: «ما منعك إذ رأيت المنكر أن لا تغيره«..... ١٣٣

الحامل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..... ١٣٧
درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:..... ١٣٨
درجات إنكار المنكر:..... ١٤٢
ابن عباس والخوارج..... ١٤٣
ابن أبي ذئب وقوله بالحق..... ١٤٥
السادسة عشرة: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة. ١٦٩
السابعة عشرة: الكلام في أهل البدع أفضل من الجهاد في سبيل الله..... ١٧٨
الثامنة عشرة: خذوا القرآن من أربعة: من ابن أم عبد ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وسالم مولى أبي حذيفة..... ١٩١
التاسعة عشر: من جالس جانس..... ١٩٨
العشرون: واتفقوا مع ذلك على قهر أهل البدع والتقرب إلى الله بمجانبتهم ومهاجرتهم. ٢٠٩
الحادية والعشرون: كان رسول الله ﷺ أجود الناس وأشجع الناس ٢٢٢
الثانية والعشرون: ٢٢٨
بأبي أنت وأمي العلماء فبلني، إذا لقيتهم وضالتي إذا فقدتهم لا خير في الناس إلا بهم. ٢٢٨
الثالثة والعشرون: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خيرًا لك من حمر النعم«..... ٢٥٤
الرابعة والعشرون..... ٢٦٢
الوقت أنفس ما عنيت بحفظه**وأراه أسهل ما عليك يضيع ٢٦٢
الخامسة والعشرين:«وشاورهم في الأمر«..... ٢٦٩
السادسة والعشرون: «أحب الدين إلى الله الحنيفية المسلمة« ٢٧٩
السابعة والعشرون:..... ٢٨٨

نأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرن** وإذا أفترقن تكسرت آحاد ٢٨٨
الثامنة والعشرون:..... ٢٩٢
أشر على الكتيبة ولا أبالي** أحتفي كان فيها أم سواها..... ٢٩٢
التاسعة والعشرون: صيانة الأعراض وحفظ الحرمات..... ٣١٠
الثلاثون: كانوا يقولون المدارة نصف العقل، وأنا أقول هي العقل كله، قاله الحسن..... ٣١٣
الواحدة والثلاثون: من ثبت نبت. ٣٢٢
أسباب الزيغ ٣٢٤
وسائل الثبات..... ٣٣٨
الثانية والثلاثون: ما وجدنا أبرك على الدعوة من العلم والعمل بالعلم والصدع بالحق..... ٣٣٩
الثالثة والثلاثون: «فر من المجذوم فرارك من الأسد«..... ٣٤٠
الرابعة والثلاثون: «وما تواضع أحد لله إلا رفعه«..... ٣٥١
الخامسة والثلاثون: «جاهدوا المشركين بأنفسكم وأموالكم وألسنتكم« ٣٥٦
فصل ٣٦١
فصل ٣٦٢
فصل ٣٦٢
فصل ٣٦٢
فصل ٣٦٢
السادسة والثلاثون..... ٣٩١
ومن يشكر الله يلقى المزيد**ومن يكفر الله يلقى الخير..... ٣٩١
السابعة والثلاثون: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]..... ٤٠٠

الثامنة والثلاثون:﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[المائدة:١٣] ٤٠٤
التاسعة والثلاثون: «إن جاءكم فاسق بنبإٍ فتثبتوا» ٤١١
الأربعون: التوحيد والعدل هما جماع صفات الكمال ٤١٣
الحادية والأربعون: ٤١٩
فإننا نحمد الله سبحانه وتعالى على ما يسر من انتشار سنة رسول الله ﷺ، والفضل في هذا لله سبحانه وتعالى، فليس ذلك بحولنا ولا بقوتنا ولا بشجاعتنا ولا بفصاحتنا، ولا بكثرة مالنا ولكن أمر أراده الله فكان ٤١٩
الثانية والأربعون: حرب الشائعات ٤٣٠
الثالثة والأربعون: الرجوع إلى الحق ٤٤٠
الرابعة والرابعون: «إن السعيد لمن جنب الفتن» ٤٤٥
الخامسة والأربعون: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» ٤٥٢
السادسة والأربعون: «إياك وعثرات الشباب» ٤٦٨
السابعة والأربعون: «أنزلوا الناس منازلهم» ٤٧٢
الثامنة والأربعون ٤٨١
بذكر الله ترتاح القلوب**ودنيانا بذكراه تطيب ٤٨١
الذكر أفضل من الدعاء ٤٩٢
أنواع الذكر ٤٩٧
الأذكار التي ينبغي للمسلم المحافظة عليها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ٤٩٩
التاسعة والأربعون: بعد النظر سبب للظفر ٥٠٣
الخاتمة ٥١٥
دماج يا شوكة بحلوق أعدائنا ٥٢٠
فهرس المحتويات ٥٢٩